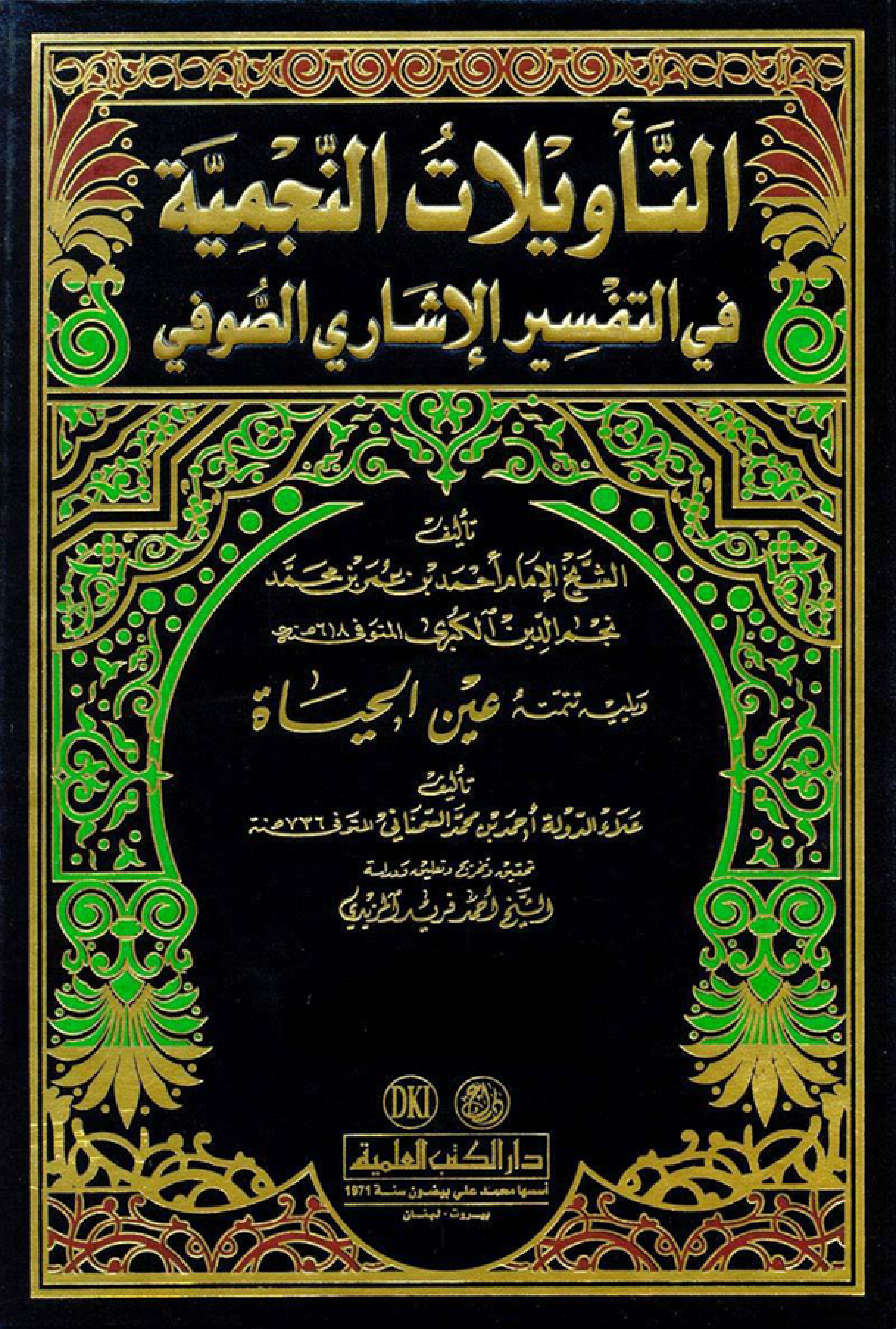

التأويلات النجمية
في التفسير الإشاري الصوفي
تأليف
الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد
نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨هـ
ويليه تتمة عين الحياة
تأليف
علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني المتوفى ٧٣٦هـ
تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

التأويلات النجمية

في التفسير الإشاري الصوفي

تأليف

الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد

نجم الدين الكبرى

المتوفى ٦١٨ هـ

ويليه تتمته

عين الحياة

تأليف

علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني

المتوفى ٧٣٦ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

المحتوى:

من أول سورة آل عمران - إلى آخر سورة الأنعام



أسسها محمد علي بيضون سنة ١٩٧١ بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH
Followed by: 'AYN AL-HAYĀT

Classification: Exegesis of the Qur'an
Author : Najmuddin al-Kubrā
and: 'Alā'uddawlah al-Simnāni
Editor : Ahmad Farīd al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiayh
Pages : 2464 (6 volumes)
Size : 17*24
Year : 2009
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

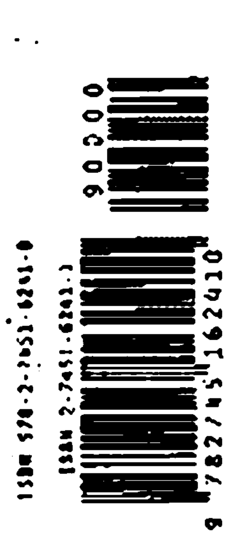
الكتاب : التأويلات النجمية
ويليه تتمته : عين الحياة

التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : نجم الدين الكبرى
وعلاء الدولة السمناني
المحقق : أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات : 2464 (6 أجزاء)
قياس الصفحات: 24*17
سنة الطباعة : 2009
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى



Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Solh Beirut: 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠


ISBN 978-2-7451-6241-0

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 1 - 5].

﴿الم ۞ الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:1 – 2]، والإشارة في الآية: إن الله تعالى بعد أن أظهر إلوهيته المودعة في ﴿الـم﴾ [آل عمران:1]، بقوله: ﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:2]، أظهر ألطاف ربوبيته المكنونة في أستار العزة وأعطاف محبته [المخبئة] تحت قباب الغيرة مع سيد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين محمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، أبد الأبدين ودهر الداهرين، بقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران:3]؛ أي: نزل حقائق القرآن وأنواره على قلبك بالحقيقة؛ لتجليه لترك حقائقه لا صورة ألفاظه مكتوبة على الألواح، أحجار مقروءة كل قارئ سريانية وعبرانية دليله قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران:3]، قوله تعالى: و﴿بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران:3] نزل؛ يعني: بالحقيقة نزل، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1–2]، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:4]، وقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ [الشورى:52]؛ يعني: ما كنت تعلم حقيقة الكتاب ،وإلا كان يعلم ما صورة الكتاب.

ثم أخبر عن حقيقة الكتاب فقال تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52].

ثم اعلم أن تعليم الرحمن القرآن بأن يتجلى بنور صفة الذي؛ هو حقيقة القرآن على قلب من شاء من عباده، ومن علمه الرحمن القرآن بهذا التعليم يكون عليه من الله فضلاً عظيمًا، فمن ذلك الفضل العظيم عليه بعد أن ينزل على قلبه حقيقة القرآن، علمه ما لم يكن يعلم من أسرار الإلوهية المكنونة في ﴿الـم﴾ [آل عمران:1]، بتعليم تجلي أنوار صفاته

على قلبه، فعلم سر وحدته، ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:2]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:19]، وصار ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: 97]؛ يعني: فلا كوشف عند تجلي أنوار الصفات بوحدانية الذات، صار شاهد السر الله في ﴿الـم﴾ [آل عمران:1]، وهو الذي ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ﴾ [الحجرات:1]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:2]، فصار مصدقًا تصديق تحقيق لا تصديق تقليد، فافهم جيدًا، إذ لا تعلم ولا تعلم إنك لا تفهم؛ لأنه منطق الطير وأنت بعد بيضة لا من الطائرين ولا من السائرين.

ثم قال تعالى تأكيدًا لهذه المعاني وتشييدًا لهذه المباني: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران:3]، ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:4]؛ يعني: لا تظن يا محمد إن إنزال الكتب الأخرى على الأنبياء: كتنزيل القرآن بالحقيقة قلبك فتكاشف عند تجلي أنواره بأسراره، وحقائق بيني وبينك لا يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإنما أنزل الكتاب على الأنبياء والأمم، كقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:4]، عممهم فيه وكنت مخصوصًا بالهداية عند تجلي أنوار القرآن في التنزيل على قلبك، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء:113]، خصصك بهداه وعلمه.

ثم قال تعالى مؤكدًا معناه ومؤيدًا لفحواه: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:4]؛ يعني: وأنزل الفرقان عليك فرقانًا، يفرق بين تنزيله على قلبك وبين إنزال الكتب صورة على الأولياء، ويفرق بين تعلمك القرآن وبين تعلمهم الكتب، وإنهم كانوا يتدارسون الكتب وأنت تتخلق بالقرآن وتفرق بين ما أفاد لهم الحكمة، فقد أفاد لك أن أوتيت جوامع الكلم وبه فضلت على الأنبياء، وبالخمسة الأخرى من إفادة القرآن، كقوله ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست»(1)، ويفرق بين تصرف التنزيل على قلبك وبين تصرف الإنزال

(1) أخرجه مسلم (1/ 371، رقم 523)، والترمذي (4/ 123، رقم 1553) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: وأبو عوانة (1/ 330، رقم 1169)، وأبو يعلى (11/ 377، رقم 6491)، وابن حبان (6/ 87، رقم 2313).

عليهم، فإن كانت الكتب المنزلة عليهم تصرف فيهم بأن يكون الكتاب مع أحدهم نورًا من الله يجيء به إلى قومه؛ ليكون هدى لهم، كما قال تعالى: ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام:91]، فإن تصرف تنزيل نور القرآن على قلبك جعلك نورًا من الله تجيء الأمة ومعك القرآن، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ﴾ [المائدة:15]؛ وهو محمد ﷺ، ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]؛ وهو القرآن.

فشتان بين نبي يجيء ويكون وهو بذاته نور ومعه كتاب، وبين نبي يجيء ومعه نور من الكتاب، ويفرق بين ما شرفت به من إكرام الحق وبين ما شرفوا به، فقال تعالى تشريف لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145]، وقال تشريفًا لك: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]، وقال تشريفًا لأمتك: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة:22].

فشتان بين نبي يشرف بكتابة الموعظة في الألواح، وبين نبي تشرف أمته بكتابة الإيمان لهم في قلوبهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:4]؛ أي: يسترون بحجب الفضلات وتتبع الشهوات قلوبهم، فعميت عن مشاهدة هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات، والأنوار اللامعات، والبراهين القاطعات، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران:4]، من هذا العمى والحرمان، وهم في الخسران المبين بالركون إلى النقصان وترك العاجلة بطريق المتابعة ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران:4]، يعز أهل الكرام بنيل المرام، ويذل اللئام أهل الستر بشدة الانتقام، فينتقم منهم بتعززه بحجاب العزة، ويعذبهم بتحجبهم عنه بنقاب العزة.

ثم أخبر عن فضله وكرمه العشام مع سائر الأنام، بأن صوره في الأرحام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:5]، والإشارة فيها: إن الله هو الذي قدر المقادير في الأزل كيف يشاء، ودبر الأحوال على ما يشاء، ثم خلق الأرض والسماء وبث فيهما كل ما يشاء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء لا في الأرض ولا في السماء، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ﴾ [آل عمران:6] في الظلمة الثلاث، ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:6]؛ أي: كيف ما يشاء في الأزل حين قدر الخلق

والرزق والأجل، فإذًا لم يخف عليه شيء مما في الأزل، ولا في تصويركم في الأرحام في الظلمات كيف تخفى عليه ما هو في الخارج، ثم قال تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 6]؛ يعني: ليس له آخر، فيخلق شيئًا يكون مخفيًا عليه، أم بتعقب كلمة وقضاؤه بالنقص أو بعارض بتقديراته وتدبيراته في كل شيء من الأشياء بالإهمال والرفض، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:6]، المقدر والمدبر ﴿الْعَزِيزُ﴾ [آل عمران:6] عن نقض الأحكام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6]، فيما يجري من الأزل إلى الأبد، وجفت به الأقلام.

وفيه إشارة أخرى وهي: إن الله تعالى يصور الجنين بصورة الإنسانية على نطفة سقطت في الرحم بتدبير الأربعينيات، فكذلك إذا سقطت من صلب ولاية الرجل رجاله نطفة إرادة في رحم قلب مريد صادق، والمريد ليستسلم لتصرفات ولاية الشيخ؛ وهي بمثابة ملك الأرحام، فافهم جيدًا.

ويضبط المريد أحواله ظاهره وباطنه على وفق أمر الشيخ، ويختار الخلوة والعزلة لئلا يصدر منه حركة عنيفة أو يجد رائحة غريبة، يلزم منه سقوط النطفة وفسادها ويقعد بأمر الشيخ وتدبيره، فالله تعالى يتصرف ولاية الشيخ المؤيد بتأييد الحق بمرور كل أربعين عليه بشرائطها، يحولها من حال إلى حال، وينقلها من مقام إلى مقام إلى أن يرجع إلى حظائر القدس ورياض الأنس، التي منها صدر إلى عالم الأنس يقدم الأربعينيات الأولى، فلما وصل إلى مقامه الأول أيضًا بقدم الأربعنيات كما جاء، ثم خلق الجنين في رحم القلب؛ وهي طفل خليفة الله في أرضه، فيستحق الآن أن ينفخ فيه الروح المخصوص بأنبيائه وأوليائه؛ وهي روح القدس الذي هو متولي إلقائه، كقوله تعالى:﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:15].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:22]؛ ولهذه الفائدة العظيمة والنعمة الجسيمة؛ أهبط الروح من أعلى عليين القرب إلى أسفل سافلين البعد، كما قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38]، فإذا نفخ في الروح يكون آدم وقته فيسجد له بالخلافة الملائكة كلهم أجمعون، تفهم إنشاء الله تعالى وتنبه.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: 7]

ثم أخبر عن آيات بينات أنها محكمات ومتشابهات بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:7]، إشارة في تحقيق الآية: إن الله تعالى أنزل الكتاب على قسمين:

قسم منه: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:7]؛ أي: ظاهر واضح، تنزيله فيه مشرب الخواص والعوام؛ لبسط الشرع والاهتداء، وقسم: ﴿ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:7]، غامض مشكل تأويله فيه مشرب الخواص وخواص الخواص؛ لاختفاء الأسرار عن الأغيار للابتلاء، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:7]، ألبست قلوبهم غطاء الريب وحرموا أنوار الغيب؛ وهم أهل الهواء والبدع، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:7]؛ ليضلوا بأهوائهم، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:7]؛ ليضلوا الناس بآرائهم، ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾، وأما الذين أيدوا بأنوار الفضل وجردوا عن أطهار الجهل هم: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:7]، فيلقون السمع بحضور نفسه فيما يسنح لفهومهم من لوائح التعريفات بلوامع أنوار الحق، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:7]، في تحقيق التأويل ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:7]، التعريف للتحقيق، والتفهيم للتأويل، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:7]، ففي التذكير إشارة إلى: إن العلوم التي تحصل للراسخين في العلم من تأويل القرآن وغيره؛ إنما هي من تعليم الله لهم في عهده الميثاق، إذا تجلى بصفة الربوبية للذات.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:172] بشواهد الربوبية ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، فشهدوا، وتلك الشهادة ركزت في جبلة الذرات علم التوحيد فيه، ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، فتعلمت النفوس علم التوحيد ونطقت به في ذلك العهد، والعلوم كلها مدرجة في علم التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:

31]، فلما ردت الذرات إلى الأصلاب وأصبحت بصفات البشرية، ثم نقلت إلى الأرواح وحبست فيها تسعة أشهر، ففي كل أربعين تمر عليها تنقل من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام من مقامات البعد عن حضرة الحق، إلى أن كملت عليها سبعة أطوار كمل الطفل، ووضع الحمل فرده النفس العاملة بعلم التوحيد الناطقة بها مع الذرة إلى أسفل سافلين القالب، محجبة بحجب البشرية وأطوار السبعة ناسية تلك العلوم التي تنطق بها، ثم أبواه يذكر أنه تلك العلوم بالرموز والإشارات وينطقانه بها بالتدريج، حتى يتذكر بعض تلك العلوم من وراء حجب البشرية أستار أطوار، وينطق بها باللسان الأبوين، ولا بلسان الذي أجاب الرب وقال: بلى، فإن ذلك اللسان كان لُب هذا اللسان وهذا قشر ذلك، فكذلك جميع وجود ظاهر الإنسان وباطنه قشور لباب ذلك الوجود المسمع المجيب في الميثاق، فسمعه قشر ذلك السمع الذي خاطب الحق وبصره، قشر ذلك البصر الذي أبصر جمال الحق وقلبه، قشر ذلك القلب الذي قصه خطاب الحق وعقله، قشر ذلك العقل الذي عقل بها معنى خطاب الحق ونفسه، قشر تلك النفس التي أدرك خطاب الحق وتمكنت لجوابه وعلومه، قشرتك العلوم التي تعلمت من الحق، فكما أن أبويه كانا يذكران الطفل من تلك العلوم وينطقان بها من وراء الحجب والقشور، فالنبي ﷺ إنما بعث لتذكرة حقيقة تلك العلوم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:21]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم:5]، فالتذكير عام، ولكن التذكير خاص، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:19]، وهم الذين أخرجوا في متابعة النبي ﷺ من ظلمات قشور وجودهم النفساني إلى نور وجودهم الروحاني، وهم الراسخون في قشور العلوم الواصلون إلى حقائق لباب العلوم الدينية، التي تعلم من لدن خبير بلا واسطة، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1-2]، فافهم جيدًا، وما أراك أن تفهم وأنت محبوس في قشر الوجود المجازي، والله اعلم.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ

أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: 8 - 12]

ثم أخبر عن طلب الهداية لآية التأويلات بالدراية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران:8]، إشارة في التحقيق الآيتين: إن الله تعالى بعد أن ذكر الراسخين في العلم وتذكر أولوا الألباب، ذكر وظيفة حالهم شكر المنعم وحفظًا للنعمة، وألهم لمزيد النعمة بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:8]، هذا الحال لمن هدى إلى صراط مستقيم، ﴿رَبَّنَا﴾ [آل عمران:8]؛ أي: خالقنا ومربينا وهدينا، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران:8]، عن صراطك المستقيم باستيلاء أهوائنا، وغلبات شهواتنا، وظلمات طبائعنا، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:8]،إلى حضرة جلالك ونورت قلوبنا بأنوار جمالك، حتى سمعنا بلب التنزيل، وانصرنا بلب أنصارنا لب التأويل، وتذكرنا بلب عقولنا لب علوم علمتنا، كما أزغت قلوبنا بعد إذ هديتنا في الميثاق إلى شهود شواهد جمالك، واستماع مقالك وحسن إجابة سؤالك، وجبت علينا من سجال نوالك وفيض فضلك وأفضالك، بمجيئنا بشهودنا عن شهودك، ووجودك وبوجودنا عن وجودك، وبتفقدنا عن تفقدك، وغيبتنا بنا عنك بأوصافنا عن أوصافك، وبذواتنا عن ذاتك، ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8]، تجذبنا عن لَدُنا إلى لدنك عنا، [وتقربنا] بك بصفاتك عن صفاتنا، وبذاتك عن ذواتنا، وهذا وظيفة الحال لأرباب هذه الأحوال أن لا يسكنوا ولا يقفوا مع حال، وإن يعلموا أن لا نهاية لمواهبه، ولا غاية لمطالب طالبه فيكونوا إلى الأبد طلابًا، كما كان الله تعالى من الأزل إلى الأبد وما باقي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:9]، إشارة إلى: إن بعد هذه الدار دارًا وهي دار القرار، وإن النعم للأبرار، وإن الجحيم للفجار، وإن مكسب البر والفجور هذه الدار، وإن أجر البر والفاجر ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:9]؛ ولهذا يجمعهم ليوفيهم أجورهم التي كسبوا من الخير والشر بالثواب والعقاب، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:25]، فلا تسكنوا عن الطلب،

وتجهدوا بالنصب، وتزودوا للمعاد، وتزودوا في التعب، فإن حصول الأرب بقدر رعاية الأدب في الطب ومقاساة التعب والنصب، وتزودوا للمعاد من زاد التقوى فإنها خير الزاد، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْـمِيعَادَ﴾ [آل عمران:9].

ثم أخبر عن قوم لم يتزودوا، وأزيد الزاد للمعاد ولا يغني عنهم الأموال والأولاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:10]، إشارة في تحقيق الآيتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:10]؛ أي: ستروا أنوار روحانيتهم بظلمات الصفات، نفسانيتهم من جحود الحق وإنكاره وإتباع الهوى إلى الشهوات، ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]، ﴿وَالأَنْعَامِ وَالْـحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران:14]؛ وهي الطاغوت التي قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257]، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [آل عمران:116]؛ يعني: من أنوار الله التي حجبوا عنها وشواهد الربوبية، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15]، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:10]؛ يعني: صفاتهم النفسانية واستيفاء لذاتهم الشهوانية وأفعالهم الجسمانية ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:10]، الفرقة والقطيعة.

واعلم أن النار: نار الله، ونار الجحيم، وأما نار الله: فهي نار القطيعة عن الله، فيها يعذب قلوب المحجوبين عن الله تعالى، كقوله: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:6-7]، وأما نار الجحيم: فهي نار الشهوات والمعاملات على الغفلات من المخالفات؛ فهي تحرق قشور الجلود كما قال الله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء:56]، ولا تخلص هذه النار إلى لب القلوب، فإن عذاب حرقة الجلود بالنسبة إلى عذاب فرقة القلوب؛ كنسيم الحياة وسموم الممات، ففي فؤاد الحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها، ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران:11]؛ يعني: دأب جميع الكفار وواحد من المتقدمين والمتأخرين، فدأب من في عهدك يا محمد ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران:11]، الذين

كانوا في عهد موسى، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران:11]، كانوا في عهد إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

ثم أخبروا بهم وقال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [آل عمران:11]؛ يعني: كل قوم من هؤلاء لما ستروا روحانيتهم بأستار ظلمات نفسانيتهم ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ [المائدة:71]، فما شهدوا شواهد أنوارنا وما كاشفوا بحقائق أسرارنا فحرموا عن شهود آثار آياتنا، وإذا تليت عليهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:11]، وطردهم عن القرب وأبعدهم ﴿واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران:11]؛ أي: شديد عقاب فراقه وبعده، أليم عذاب الحرمان عن جواره وقربه.

ثم أخبر عن حاصل أمرهم يوم حشرهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:12]، إشارة في الآية: إن المبتلي بالكفر مغلوب حكم الأزلي بالشقاوة؛ لقوله: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:106]، ثم الهدى والنفس والشيطان ولذة الدنيا، فغلبات الهوى والنفس ترد إلى أسفل سافلين الطبيعة فيعيش فيها، ثم يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه في قعر ﴿جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:12]، ومعاده وأنه مهده في معاشه.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 13 - 17].

ثم أخبر عن برهان ما ادعى من الأمر فيما غلبوا يوم بدر بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ

آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [آل عمران:13]، إشارة في الآية: إن الله تعالى ﴿فِئَتَيْنِ﴾[آل عمران:13]، في الظاهر من المؤمن والكافر، وفئتين في الباطن من القلب وصفاته الحميدة، ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران:13]؛ وهي النفس الأمارة بالسوء وصفاتها الذميمة، وهم الحرب والالتقاء على الدوام؛ وهو الجهاد الأكبر، فتارة يؤيد الله تعالى فئة القلب بالنصر ويريهم في أعين فئة النفس كثير، ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران:13]، وتارة يؤيد فئة النفس بالنصر فيريهم في أعين فئة القلب كثيرًا، ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران:13]، فيولون وينهزمون، ﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:13]، من القلب وجنوده وهم: الروح والسر والأوصاف الحميدة والملائكة، ومن النفس وأعوانها وهم: الهوى والدنيا والأوصاف الذميمة والشياطين و ﴿آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ [آل عمران:13]، أن لو كان المنصور فيه القلب والمغلوب فيه النفس، ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر:45]،لا ترى النفس في فئتها إلا قليلاً، ينهزم الشيطان والدنيا والهوى فلا يبقى مع النفس من جنودها وأعوانها، إلا بعض أوصافها، فينظرون إلى جنود القلب مجتمعين ثابتين يقاتلون في سبيل الله، ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4]، ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران:13]، ولو كان المنصور فئة النفس والمغلوب فئة القلب، لا يرى القلب من فئة إلا قليلاً من أوصافه، فينظرون إلى أعوان النفس، ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران:13]؛ لأن الهوى والدنيا والشياطين أوصاف النفس، ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران:13]؛ لأن الهوى والدنيا والشياطين أوصاف النفس مجتمعون ثابتون مع النفس في قتال القلب، إن الله تعالى وقضائه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة:253] وفق المشيئة ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:253]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران:13]، من رؤية الحق في الأحكام الأزلية وأجزائها على وفق المشيئة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:13]، المؤيدة بصائرهم بأنوار ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53].

ثم أخبر عن جنود الفئتين وأعوان الفرقتين بقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران:14]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى خلق الخلق على

طبقات ثلاث:

عوام وهم: أرباب النفوس، والغالب عليهم الهوى والشهوات، والخواص وهم: أرباب القلوب، والغالب عليهم الهدى والتقوى، وخواص الخواص وهم: أرباب القلوب عليهم المحبة والشوق، وإن الله تعالى يذكر كل صنف منهم باسم يناسب أحوالهم، فيذكر العوام باسم الناس، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [الحجرات:13]، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:14]، والناس مشتق من النسيان، ويذكر الخواص باسم المؤمن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:100]، وقوله تعالى: والمؤمنون ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ [البقرة:285]، ويذكر خواص الخواص باسم الولي، كقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62].

ثم شرح أحوال العوام المردودين إلى أسفل دركات البعد، المطرودين من أعلى الدرجات القرب بقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ [آل عمران:14]، الآية.

ثم اعلم أن لجهنم سبع دركات محفوفة، كما قال ﷺ: «حفت النار بالشهوات»[1]، والشهوات سبع لكل دركة شهوة، فإذا ابتلي المرء بشهوة منها يكون من أهل دركه منها، والشهوات السبع ما عده الله تعالى في هذه الآية، إشارة بكل واحد منها إلى شهوة بقوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران:14]، وهي شهوة الفرج، ﴿وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14]، وهي شهوة الطبيعة الحيوانية المائلة إلى الولد، ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ [آل عمران:14]، وهي شهوة الحرص على جميع المال، ﴿وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:14]، وهي شهوة الزينة بالحلي والأواني المتخذة منها، ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران:14]، وهي شهوة الجاه والرفعة بالركوب عليها، ﴿وَالأَنْعَامِ﴾ [آل عمران:14]، وهي شهوة الخيلاء بالتمايل بها، ﴿وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:14]، وهي شهوة الحكم والأوامر

(1) حديث أنس: أخرجه أحمد (3/ 254، رقم 13696)، وعبد بن حميد (ص391، رقم 1311)، والدارمي (2/ 437، رقم 2843)، والترمذي (4/ 693، رقم 2559)، وأبو يعلى (6/ 33، رقم 3275). وأخرجه أيضًا: مسلم (4/ 2174، رقم 2822)، وابن حبان (2/ 492، رقم 716).

حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 380، رقم 8931)، ومسلم (4/ 2174، رقم 2823)، وابن حبان (2/ 494، رقم 719) والقضاعي (1/ 332، رقم 567).

والنواهي على الرعايا، فهذه سبع شهوات خفت سبع دركات النار بها، ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران:14]؛ يعني: متمتعان أهل الدنيا الذين يأكلون الدنيا ﴿كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:12].

ثم شرح أحوال الخواص وخواصهم المقبولين بقبول العناية المجذوبين عن شهوات نفوسهم، والطبائع الحيوانية بجذبات الهداية الربانية والولاية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْـمَآبِ﴾ [آل عمران:14]، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران:15]؛ يعني: قل لأرباب النفوس المتمتعين بالحياة الفانية أنبئكم بخير من ذلكم مما أنتم فيه ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [آل عمران:15]، حذروا واحترزوا من الشهوات والشبهات وما يشغلهم من الله تعالى؛ وهم الخواص ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:15]، فكما أن لأرباب النفوس، فعصيان الشهوات النفسانية سوء حظ من دركات الجحيم عاجلاً، ثم يصلونها عاجلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:14]؛ يعني: الآن عاجلاً، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار:16] اليوم، فكذلك لأرباب القلوب بغلبات الأخلاق الروحانية حسن حظ من درجات الجنات ونعيمها عاجلاً، ثم يدخلونها أجلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين:22]؛ يعني: الآن عاجلاً النعيم الذي يتمتعون به أرباب القلوب ثمانية، وقد ذكرها الله تعالى في الآيتين وما بعدها وهي الإيمان بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران:16]، والتقوى؛ لقوله تعالى:﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران:16]، والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ [آل عمران:16]؛ أي: المطيعين، والإنفاق في طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْـمُنفِقِينَ﴾ [آل عمران:16]، والاستغفار بقوله تعالى: ﴿وَالْـمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:16]، والرضاء بالقضاء بقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة:72]، هذه جنات في قلوب الخواص ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [آل عمران:15]، الألطاف واردات ترد على القلوب، فيسقي بها جنات الأخلاق الجنات ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ [آل عمران:15]، من نظرات الحق، ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران:15]، من الحدوث من كل حدث، كما قال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾

[الإنسان: 21]، فمن تلك الأزواج المطهرة تتولد الأخلاق المطهرة.

ثم أشار إلى أحوال خواص الخوَاص، مستورة من نظر الخواص محفوظة من فهم العوام؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 16]؛ يعني: لأرباب الأرواح جذبهم عنهم بجذبات المحبة، فما استحلوا لهم الدنيا ليسكنوا فيها، كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]، قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: 39]، ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15]؛ أي: بعوامّهم ومثواهم، وخواصهم ومآبهم، وخواص خواصهم ومآبهم، ورجعتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: 8]، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن أقوالهم من نتائج أحوال بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 16]، إشارة في الآيتين: إن ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: 16]، ما هم من﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: 136] بل إنما هم من ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا﴾ [فصلت: 30] بأفواههم، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: 30]، بقلوبهم على الإيمان، ﴿الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 17]، على حقوق الإيمان وعن حظوظ الإنسان، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، بصدق اللسان والأركان والجنان، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ [آل عمران: 17]، لله وبالله في كل زمان ومكان، ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، من وجودهم في الله بقدر الإمكان ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17]، عما كان منهم كيفما كان، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 16]،، فاغفر بك عنا ذنوبنا ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 16]، إنابتنا الصابرين بك عنا، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، فيك ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ [آل عمران: 17]، لك بك ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، منا عليك، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17]، عنا عنك.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[آل عمران: 18 - 22]

ثم أخبر عن حقيقة الشهادة أنها له، ولنا العبادة بقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، إشارة في الآية: إن الشهادة الحقيقية؛ هي شهادة الله بكلامه الأزلي، إنه الحق عن علمه [الأزلي] على ذاته الأحدي وكونه الصمدي، ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، وهي شهادة الحق وبالحق أنه الحق، وهو منفرد بهذه الشهادة الأزلية لا يشاركه فيها أحد، وكما أن ذاته لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات؛ فشهادته لا تشابه الشهادات، إنه سبحانه شهد بجلال قدره على كمال عزه، حين لا حين، ولا عقل ولا جهل، ولا كفر ولا شرك، ولا عرش ولا فرش، ولا جنة ولا النار، ولا الإنس ولا الملائكة، ولا أولوا العلم ولا الإنكار ولا الإقرار، فأول من شهد على أنه الله؛ هو الله حين لم يكن إلا الله، فأخبر بالذي كان كما كان؛ وهو ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، ثم أبدع الموجودات واخترع المخترعات كما شاء لما شاء، ففطر العقول مجرة على أنه واحد عزيز، ما جد بإخباره إياها، وخلق الذوات شاهدات على ربوبيته بإشهاده إياها، وكل جزء من جميع ما فطر وخلق على ما شاء من الأعيان والأعراض [أظهر] وأنطق فهو بوجوده مفصح، ولربوبيته موضح، وعلى قدرته شاهد، ولكن منبع ماء التوحيد؛ هو القدم، فجرى في ينبوع العدم في مجاري أنها المحدثات إلى ظهر من عيون والملائكة وأولوا العلم، فإن الملائكة وإن كانوا مظهر ماء التوحيد، كما أن أولوا العلم ولكن اختص أولوا العلم منهم بمشربه، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26].

شيء خصصت به من دونهم وحدي لي سكرتان وللندمان واحدة

فحقيقة معنى الآية ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً

بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، على أمور عباده حتى شهد على شهادته الملائكة وأولوا العلم، ثم فائدة التكرار بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، عائدة إلى أولوا العلم، الذين لهم شركة مع الملائكة في مظهر ماء التوحيد بالشهادة، ولهم اختصاص بالمشربية لماء التوحيد فشاهدوا حقيقة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ [آل عمران: 18]، الذي لا يشاهد عزته إلا عزته، الذي أعزهم بهذه العزة من بين البرية، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، الذي بحكمته اختارهم لهذه العزة من بين الخليقة.

ثم أخبر عن عزة اختلاف أهل العلم بحكمته بقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: 19]، إشارة في تحقيق الآية: إن اختلاف عالم الصورة من النتائج التناكر في عالم الأرواح، كما قال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»(1)، فالأرواح تلاقي بعضها بعضًا عند تشاهد الأشخاص، فما تعارف منها في الميثاق لتقاربهم في الصف أو لتقابلهم في المنزل ائتلف، وما تناكر منها لتباعدهم في الصف أو لتدبرهم في المنزل اختلف، فإذا كان الاختلاف من ذلك التناكر ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63]، وإن كان اختلاف بأسباب حادثة في الظاهر، وذلك التعارف الأصلي ثابت في الباطن، فإذا التقى الشخصان نظر كل واحد منهما إلى سيما الآخر، فتعرف روحه روح الآخر، والقلوب تشاهد فتأتلف، كما كان حال أويس القرني -رضي الله عنه- لما رأى

---

(1) حديث عائشة: أخرجه البخاري (3/ 1213، رقم 3158). وأبو يعلى (7/ 344، رقم 4381)، والقضاعي (1/ 185، رقم 274).

حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 295، رقم 7922). ومسلم (4/ 2031، رقم 2638)، وأبو داود (4/ 260، رقم 4834)، وابن حبان (14/ 42، رقم 6168).

حديث علي: أورده العقيلي (1/ 135، ترجمة 166 أزهر بن عبد الله) وأبو نعيم في الحلية (4/ 110).

حديث ابن مسعود: أخرجه الطبراني (10/ 230، رقم 10557). قال الهيثمي (8/ 87): رجاله رجال الصحيح.

حديث سلمان: أخرجه أبو نعيم في الحلية (1/ 198)، والحاكم (4/ 466، رقم 8296)، وقال: صحيح الإسناد. والطبراني في الكبير (6/ 263، رقم 6169)، وفي الأوسط (2/ 160، رقم 1577).

هرم بن حيان فقال: السلام عليك يا هرم، فقال: كيف عرفتني؟ فقال: عرفت روحي روحك، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:273]، فظهر أن الاختلاف من تناكر الأرواح، فلما كان بين الأرواح المؤمنين تعارف روحاني، ناصرهم العداوة الجسمانية الحادثة؛ كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:19]، إشارة إلى: إن العلم مظنة الحسد.

واعلم أن حسد أهل العلم قسمان: مذموم ومحمود، وقال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في حق، ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[1]، متفق على صحته، رواه ابن مسعود ﷺ، فالمراد من الحسد هاهنا: الغبطة أن يتمنى الرجل أن يكون له مثل ما لأخيه فيعمل به مثل ما يعمل أخوه، فهذا النوع من الحسد محمود، والمذموم: أن يتمنى الرجل ما لأخيه وعلمه لنفسه وزوالها لأخيه، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:19]، بكتاب الله تعالى ومعجزات النبي ﷺ، والبراهين الواضحة والدلائل اللائحة بالحد، وطلب الجاه والرفعة في الدنيا وعلو المرتبة على الإخوان، ﴿فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:19]؛ أي: يحاسبه بالعقاب سريعًا في الدنيا عاجلاً بأن يعاقبه بقسوة القلب وسواده، والبعد عن الحق ونسيانه واستيلاء الشيطان وسلطانه، واستيلاء الدنيا والحرص عليها، ومتابعة النفس وهواها، وآجلاً: بأن يعذبه بعذاب الحجاب وشدة العقاب.

ثم أخبر عن شرط الإسلام إنه التسليم، وليس على النبي ﷺ إلا التبليغ والتعليم بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ﴾ [آل عمران:20]، إشارة في الآية: إن حقيقة الإسلام والدين هو الاستسلام بكلية الوجود إلى الله تعالى، راضيًا بقضائه صابرًا على بلائه، شاكرًا للنعماء به، منقادًا لأوامره، منزجرًا لنواهيه، محكومًا لأحكامه الأزلية، مريدًا لإرادته القديمة، مفوضًا إليه أمر الدنيوية والأخروية، وبهذا أمر النبي ﷺ ولمن

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 8، رقم 4550)، والبخاري (6/ 2737، رقم 7091)، ومسلم (1/ 558، رقم 815)، والترمذي (4/ 330، رقم 1936) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (2/ 1408، رقم 4209)، وابن حبان (1/ 332، رقم 125).

اتبعه، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران:20]، ولا يصلح الاستسلام والمتابعة للعبد إلا بهذا الشرط، بهذا يصح الإقتداء وعلى هذا يكون الاهتداء، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ [آل عمران:20]، بهذا الشرائط ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران:20]، عن هذه الشرائط ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران:20]؛ أي: عليك التبليغ بهذه المعاني والشرائط إلى قلوبهم ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125]، وتصرفات النبوة ظاهرًا وباطنًا ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:20]، من يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيجد له في الضلالة.

ثم أخبر عن غاية جهالة أهل الضلالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:21]، الإشارة في الآيتين: إن لقلب الإنسان في إبطال استعداد قبول فيض الحق مراتب منها: بالحجبة من الفيض، فإذا زال الحجاب رجع إلى صفائه؛ وهو المعاصي يحجب القلب عن الفيض: كالسحاب تحجب الأرض عن فيض الشمس، فإذا أزال السحاب رجع الفيض، كذلك إذا زال الحجاب المعاصي عن القلب بالتوبة، رجع إليه فيض الحق، كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1]، ومنها: ما يزيل صفاء القلب فيخرجه عن قبول الفيض: كالصداء مع المراتب؛ وهو: الكفر والشرك، فيحتاج في إزالة صداع الكفر إلى مصقل كلمة التوحيد، كما قال ﷺ: «إن لكل

---

(1) حديث أبي سعيد: ذكره الحكيم (2/ 349).

حديث ابن مسعود: أخرجه ابن ماجه (2/ 1419، رقم 4250)، والطبراني (10/ 150، رقم 10281)، وقال الهيثمي (10/ 200): رجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. والبيهقي (10/ 154، رقم 20348). وأخرجه أيضًا: القضاعي (1/ 97، رقم 108). قال المنذري (4/ 48): رواه ابن ماجه والطبراني كلاهما من رواية أبي عبيدة ابن مسعود عن أبيه، ولم يسمع منه، ورواة الطبراني رواة الصحيح. وقال المناوي (3/ 276): قال ابن حجر: حسن.

حديث ابن عباس: أخرجه البيهقي (10/ 154، رقم 20350) وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

شيء صقالة، وصقالة القلوب ذكر الله»[1]، وقال ﷺ: «الإسلام يمحو ما قبله»[2]، ومنها: ما يختل بالاستعداد الأصلي في قبول الفيض ويوجب الحرمان: كالمرآت المنقطعة بطل استعدادها في قبول العكس، إلا أن يطبع مرة أخرى ويضع كما كانا، فكذلك القلب إذا أبطل استعداده لا يقبل الفيض إلا أن تداركه العناية الأزلية سابق المشيئة؛ وهو ﴿النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:33]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء:93]، فقتل النفس بغير الحق وإن كان عظيمًا عند الله، والقاتل كما أبطل بنيان شخص المقتول وهدمه فقد أبطل استعداد الكمالية عن نفسه، ولكنه قابل ليتدارك بمشيئة الله تعالى، فإن النبي ﷺ لما قرأ ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء:93]، قال: «إن جازاه»[3]؛ يعني: جزاؤه الخلود إن شاء أن يجازيه فيخرجه، ومنها: ما يبطل الاستعداد الأصلي بالكلية فلا يقبل التدارك بمشيئته كما حكم في الأزل، ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:23]، وهو قتل الأنبياء - عليهم السلام - كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [آل عمران:22]؛ أي: كل عمل روحاني حصل منهم في الباطل على وجه الاستكمال، ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:22]؛ يعني: ليس من سنة الله أن ينصر من أبطل استعداده بالكلية بمثل هذا المعاملات في الدنيا والآخرة، في أصل الأمر إذ الإنسان خلق مستعدًا؛ لقبول فيض أحدى الصفتين، إنما يكون بمعاملات الظاهر والباطن على وفق متابعة الأنبياء في قبول فيض اللطف بأن يغذي نفسه في متابعة الأنبياء؛ ليكون من خير البرية، ونقصان الإنسان في قبول فيض القهر بأن يقتل الأنبياء؛ ليكون شر البرية، ولهذا الاختصاص في قبول كمال القهر، أن لا يقبل توبة في الدنيا والآخرة، ويحتمل أن يرجى لإبليس النجاة ولا يرجى له أبد الآبدين.

(1) رواه البيهقي في الدعوات الكبير (18).

(2) رواه مسلم (1/ 112، رقم 121). وابن خزيمة (4/ 131، رقم 2515). ابن منده في الإيمان (79)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (3/ 67).

(3) رواه البيهقي في الشعب (1/ 329).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران: 23 - 27]

ثم أخبر عن غرور أهل الغفلة والفتور بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران:23]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:24]، إشارة في الآيات: إن من أوتي نصيبًا إذا ادعي إلى حكم من أحكام الله، أو يدعي إلى ترك الدنيا ومخالفة الهوى، وشيء من الورع والتقوى والقربة إلى المولى، كما أنزل في كتاب الله أخذته الأنفة، ودعته العزة أن يقبل الحق وينقاد له، ويثقل عليه الأسماع ويعرض في الاتباع، فهو مغرور في الدنيا بما يفتري الشيطان ويغويه، وتمنيه الأنفس وتستهويه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ [آل عمران:25]، حال المغرور إذا جمعهم الله ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران:25]، في مزرعة الدنيا من الدرجات العلا والدركات السفلى، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:25]، بأن ينزل أهل الدرجات في الدركات، وأهل الدركات في الدرجات؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وإنما خص ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:23] هذا الاختصاص؛ لأن أكثر ما أدنى نصيبًا من العلم الظاهر ولم يؤت نصيبًا من العلم الباطن؛ فإنهم أهل العزة بالله بالظاهر، ويغفلون عن الأحوال الباطنة، فيستولي الشطيان على بواطنهم، ويزين لهم الدنيا وشهواتها وشكرهم بلذاتها ورفعة الدرجات، فتهلكهم في واد من أوديتها.

ثم أخبر عن كمال عنايته مع أهل ولايته بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ

تُؤْتِي الْـمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْـمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى هو الملك في الحقيقة، ولا ملك ولا ملك إلا له؛ لأنه ملك له ملك العدم والوجود بالمالكية فإنه كان مالكًا، ولم يكن معه وجود ولا عدم فأبدع بالملكية، فإنه ملك الوجود في مراتب شتى:

فمنها: وجود قابل الفناء والعدم؛ وهو عالم الكون والفساد، ومنها: وجود قابل البقاء غير فانٍ ولا عادم؛ وهو عالم يقبل الكون ولا يقبل الفساد، فكان مالك ملك الوجود والعدم بالمالكية؛ لإبداعه، فقوله: ﴿تُؤْتِي الْـمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]؛ يعني: تؤتي ملك الوجود الباقي الذي لا يقبل الفناء ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]؛ يعني: الملكية والإنسان، فإن شخص الإنسان قابل للفناء، ولكن روحه لا تقبل الفناء: كالملائكة وعالم الأرواح والملكوت؛ وهو عالم الآخرة، ﴿وَتَنْزِعُ الْـمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]؛ يعني: تنزع ملك الوجود الباقي ممن تشاء من الحيوانات وعالم الكون والفساد.

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]؛ يعني: تعز بعزة الوجود الحقيقي، الذي لا يقبل الكون والفساد من تشاء من الأنبياء والأولياء، دليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:8]، فافهم جيدًا.

﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران:26]؛ يعني: تذل بذل الغضب والسخط من تشاء من الكافرين والمنافقين، بأن تبطل استعدادهم عن قبول فيض الوجود الحقيقي، دليله قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْـمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ...﴾ [البقرة:62]، وفي قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْـخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:26]، تضمير الدعاء؛ يعني: اللهم مالك الملك تؤتي من تشاء أنت الذي بيدك الخير كله، فآتني الملك فيمن تشاء أن تؤتيه، وأعزني فيمن تشاء أن تعزه، إنك على شيء من الإيتاء والمنع والإعزاز والإذلال قدير.

وقوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [آل عمران:27]؛ أي: تولج ظلمانية البشرية النفسانية في نهار أنوار الصفات الروحانية، ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران:27]،

أنوار الروحانية في ظلمات الصفات النفسانية، ﴿وَتُخْرِجُ﴾ [آل عمران:27] القلب ﴿الْـحَيَّ﴾ [آل عمران:27]، بالحياة الحقيقية ﴿مِنَ﴾ [آل عمران:27]، النفس ﴿الْـمَيِّتِ وَتُخْرِجُ﴾ [آل عمران:27]، القلب ﴿الْـمَيِّتَ﴾ [آل عمران:27]، عن الحياة الحقيقية ﴿مِنَ﴾ [آل عمران:27]، النفس ﴿الْـحَيِّ﴾ [آل عمران:27]، بالحياة المجازية الحيوانية ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:27]؛ أي: ترزقه من عالم الجود الحقيقي من النفس الميت، وتخرج الذي هو غير متناهٍ، ولا يدخل تحت العدد والحساب.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)﴾ [آل عمران: 28 - 32].

ثم أخبر عن أهل العناية من حافظي الولاية بقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْـمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:28]، الإشارة في الآيتين: لا يتخذ المؤمنون الكافرين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:28]؛ أي: من إمارة الإيمان أن لا يمكن للمؤمن من سؤالات الكفار ومودتهم؛ لأنهم أوثق عدوى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وإن مودة الكفار وموالاتهم كفر، كما أن الرضاء بالكفر كفر، والضدان لا يجتمعان، فلا يجتمع في قلب المؤمن حب الله ورسوله والمؤمنين وحب الكافرين أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:28]؛ يعني: من يتخذ الكافرين أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:28]؛ أي: من محبة الله في شيء، وفيه إشارة أخرى: إن القلب المؤمن؛ هو الذي لا يتخذ الكافرين من النفس الأمارة والشيطان والهوى والدنيا أولياء من دون المؤمنين، من الروح والسر وصفاتها، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:28]، قلب من القلوب؛ فليس ذلك القلب من الله من أنواره وألطافه ومواهبه ونظر عنايته ورحمته في شيء، ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا

مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران:28]؛ يعني: إلا أن تخافوا من هلاك النفوس؛ هي مركب الروح، فرجوعها إلى الحضرة الربوبية تسير إلى الحق فيواسيها ويداريها؛ لئلا يعجز عن السير في الرجوع ويهلك في الطريق من كثرة معادات القلب ومخالفة هواها وشدة ارتياحها، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28]؛ أي: ذاته، والمراد منه: صفات قهره؛ لأن ذاته تعالى موصوف بصفات اللطف وصفات القهر، والتحذير لا يكون إلا من صفات القهر، والإشارة فيها: إن موالاة النفس معاداة الحق، فمن كان حاله معاداة الحق فلا بد من المصير إليه، ففي يوم يكون ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:28]، لا خفي من الله إلا القهر والعداوات، ولا يحظى منه إلا بعذاب البعد وعقاب الهجران.

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران:29]، من معاداة الحق في ضمن موالاة النفس بدعوى الإيمان والإسلام وسلام محبته، ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ [آل عمران:29]، بمخالفات أوامره ونواهيه، وموافقات دواعي النفس وشهواتها ومتابعة هواها، ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ [آل عمران:29]، بالقليل والكثير، والنفير والقطمير، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [آل عمران:29]، قلوبكم من موالاة النفس ومعاداة الحق ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:29]، نفوسكم من مخالفات الحق وموافقات الهوى، فيجازيكم على قدر الموالاة والمعاداة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران:30] ، إشارة في الآية: إن يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:30]، أثره في ذاتها وصفاتها، وكذلك ما عملت من شر، وذلك الأثر كان معها في الدنيا محضرًا، ولكن نظر النفس كان محجوبًا بحجاب الغفلة، لم تكن تجده محضرًا معها، فإذا كشف عنه الحجاب تجده حاضرًا معها، كما قال تعالى:﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:22]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49]، فمن عمل اليوم خيرًا يؤثر نور ذلك الخير في قلبه فيض وجه قلبه، ومن عمل شرًا يؤثر ظلمة ذلك الشر في قلبه فيسود وجهه؛ ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [ق:22]، فيكون وجوه أهل الخير بلون قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:106]، وجوه أهل الشر تكون بلون قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:106]، فإن حية الكفر لدغتهم وهم في غفلة الناس نيام، فلم يذوقوا عذابها، فلما ماتوا انتبهوا، قيل لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [آل عمران:106]، لعلك تنتبه ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:30]، فمن رأفته مع عباده يحذرهم نفسه؛ أي: يحذرهم أعمالاً وأحوالاً تمنعهم عن الوصول إليه، وينذرهم إكرامًا عن رأفته المخصوصة بعباده الواصلين إليه.

ثم أخبر عن طريق الوصول إنه متابعة الرسول بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31]، والسر فيه: إن المؤمن من يكون أشد حبًا لله عما سواه، والحب على قدر محبته يتبع النبي ﷺ، وعلى قدر إتباع المحبة يحبه الله؛ يعني: فالإتباع ثلاث درجات، ولمحبة الله للمحب التابع على حسب الإتباع ثلاث درجات:

فأما درجات الاتباع الأولى: درجة العوام المؤمنين؛ وهي متابعة أفعاله ﷺ،

والثانية: خواص المؤمنين؛ وهي متابعة أخلاقه ﷺ.

والثالثة: أخص الخواص؛ وهي متابعة أحواله ﷺ.

أما درجات محبة المحب:

فالأولى: محبة العوام؛ وهي مطالعة المنة من رؤية الحسان المحسن، كقوله ﷺ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[1]، وهذا حب يتغير بتغير الإحسان، وهو من باب الأفعال المتابع الأعمال؛ وهم يطمعون أجرًا على ما يحتملون من نتائج الحب، قال أبو الطيب ثم أخبر:

ضعيف الهوى يرجى عليه ثواب   وما أنا بالباغي على الحب رشوة

والثانية: محبة الخواص؛ وهي محبة تنشأ من مطالعة شواهد الكمال عند تجلي صفات

---

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (4/ 121). وأخرجه أيضًا: البيهقي في شعب الإيمان (6/ 481، رقم 8983)، والقضاعي (1/ 350، رقم 599)، والديلمي (2/ 111، رقم 2588).

الجلال والجمال، وهذه محبة المقربين يحبون إعظامًا وإجلالًا له؛ لاطلاعهم على كمال جماله وعظمة صفات كماله وهذا حب التعظيم والإجلال لوجه الله تعالى، فذلك هو الباقي على الأبد لبقاء الصفات على السرمد، ويزيد بازدياد المعرفة، قالت رابعة العدوية:

أحبك حبين حب الهوى   وحباً لأنك أهل لذاكا

وهذه المحبة هي التي تبعث على إيثار الحق تعالى على غيره، لما يتجلى له من معاني صفات في مدارج آياته؛ وهي لنبع أخلاقه ﷺ فيضبط هذا المحب في هذه الدرجة إلى إطراح ذكر غير الله عن قلبه، متقلبًا بين النظر إلى جماله مرة وإلى جلاله أخرى، لهجًا بلسانه بذكره موقوفة أعضاؤه على تعبده إجلالًا وإعظامًا، سأعبد الله لا أرجوا توبة لكن تعبد إعظام وإجلال.

والثالثة: محبة أخص الخواص؛ وهي غاية القصوى للعبد ولا غاية لها، وهي محبة حافظة تقطع العبارة وترفق الإشارة ولا تنتهي بالنعوت، وهذا بخلاف المحبين الأولين إذ ليست هذه منشأة عن رؤية النعم والإحسان التي من باب الأفعال، ولا من رؤية الصفات من الجمال والجلال؛ بل جذبة من جذبات الحق المنشأة من المحبة القديمة في سر «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق؛ لأعرف»[1]، وأهل هذه المحبة هم: المستعدون لكمال المعرفة بسبق العناية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء:101]، وقد سمي الله تعالى محبته لهم في الأزل بلا علة بالحسنى منه في حقهم، وقال مخبرًا عن محبته الأزلية لهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، إشارة منهم إلى: إنهم ما أحبوه حتى أحبهم هو أزلاً، فمحبتهم له لمحبته لهم، وذلك أن محبته لهم في الأزل من غير علة، فلما استخرجهم من ظهر آدم تجلت محبته على قلوبهم، فجذبتها عنهم إليه وأفنتهم عن أنفسهم، فدخلوا الدنيا على ترك الصفة.

قال بعضهم: غُذينا بالمحبة يوم قالت له الدنيا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:11].

وحقيقة المحبة: أن تفني المحب بسطوتها وتبقي المحبة منه بلا هو، كما أن النار تنفي

---

(1) تقدم تخريجه.

الحطب بسطوتها وتبقى النار بلا هو، فإن المحبة نار ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾[المدثر:28]، وأما درجات محبة الله للعبد؛ فاعلم: أن كل صفة من صفات الله تعالى من العلم والقدرة والإرادة وغيرها، وإن اتفقت في أسماء صفات خلقه فلا يشبه حقيقتها أوصاف الخلق البتة، حتى الوجود الذي يعم الخالق والمخلوق جميعًا وذلك؛ لأن الوجود الخلق عن عدم ووجود الخالق واجب لنفسه، ووجود كل ما سواه [مستمد] منه، ومن وفق النظر على أن ليس في الكون إلا الله وأفعاله حسنة وكأنه ليس في الوجود شيء ثابت إلا هو وحده، قرأ القارئ بين يدي الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فقال: بحق يحبهم؛ لأنه لا يحب إلا نفسه؛ على معنى أن ليس في الكون إلا هو وما سواه فهو من صنعه، والصانع إذا مدح صنعه فقد مدح نفسه فإذًا لا تتجاوز المحبة نفسه قائمة بنفسها، وما سواه قائم به فهو لا يحب إلا نفسه، فإذا عرفت هذا فاعلم أن محبة الله تعالى للخلق عائدة إليه حقيقة، إلا أنه كان ممرها على الخلق فيجب تعلقها بالعام والخاص، وأخضر أنبت لكل صنف منهم سعادة يحظى بها عند مرورها عليه، إلا أن تنتهي إلى محلها الذي صدرت منه، فيكون المحبة والمحب والمحبوب، واحدًا فصدرت المحبة عن محل «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فمررت على فخلقت الخلق؛ لأعرف»[1]، فما تعلقت إلا بأهل المعرفة؛ وهم المخصوصون بالأنعام، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ...﴾ [النساء:69]، فتعلقت بالعام من أهل المعرفة بالرحمة ومشربهم الأعمال، فقيل لهم: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:31]، بالأعمال الصالحة ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31]، يخصصكم الله بالرحمة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:31]، التي صدرت منكم على خلاف المتابعة ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ [آل عمران:31]، لمن أطاعه ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:31]، لمن يعصيه، وتعلقت بالخاص من أهل المعرفة بالفضل ومشربهم الأخلاق، فقيل: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31]، بمكارم الأخلاق يحببكم بالفضل، يخفيكم بتجلي صفات الجمال والكمال، ﴿وَيَغْفِرْ

(1) تقدم تخريجه.

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:31]، يستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:31]، ستور بصفاته صفات أهل رحمة، وتعلقت بالأخص من أهل المعرفة بالجذبات الإلهية ومشربهم الأحوال، فقيل لهم: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:31]، ببذل الوجود ويحييكم الله بجذبات المحبة الأزلية، يخصكم بتجلي صفات الجلال، ويجذبكم عنكم به الله،﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:31]، ويستر بجوده ذنوب وجودكم، فينجوكم عنكم ويثبتكم به، كما قال: «فإذا أحببته، كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا، بيّ يسمع وبيّ يبصر، وبيّ يتعلق وبيّ يبطش»(1)، ويكون العبد في هذا المقام مرآة كمال لطفه وقهره، فكما أن الرائي في المرآة يشاهد صفاته بصفاته وذاته بذاته، فيكون الرائي والرؤية والمرئي واحد، فكذلك يكون في هذا المقام المحب والمحبة والمحبوب واحد، والعارف والمعرفة والمعروف واحد، فهو المحب العارف والمحبوب المعروفة؛ أي: الذي أحب أن يعرف فأحب نفسه بمحبته، وعرف نفسه بمعرفته، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:31]، ستور صدًا مرآة المحبين والعارفين برحمته، فمن نظر به جمال صفاته و[من شهد] به جلال ذاته، ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء:225]، وكل بارقة يسيمون تدور رحى الحزن على دموعهم، وتفور نار الشوق بين ضلوعهم، فضلوا عن أنفسهم ببقاء المحبوب، وفقدوا طلبهم بوجدان المطلوب، فهم بين روض المحو وغدير الإثبات أموات غير أحياء، أحياء غير أموات، فطورًا يرونه فيطربون عند الكشف والتجلي، وتارة يخشونه فيهربون عند الحجب والستر، فكيف الطرب ولا مطرب؟ إلى أين الهرب ولا مهرب؟

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران:32]؛ ليكون مهربكم ومقربكم إلى الله في متابعة الرسول، فإن متابعته صورة جذبة الحق وصدق رد محبته لكم، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران:32] عن متابعة المحبوب ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:32]؛ يعني: لا يوجد ذرة محبة في صدق المخالفة، إلا في صدق المتابعة.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ

(1) تقدم تخريجه.

بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 33 - 37].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 38 - 39].

ثم أخبر عن أهل الاصطفاء للمحبة والولاء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران:33]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى خلق العالم على سبعة أنواع مختلفة: من الجمادات، والمعادن، والنبات، والحيوان، والنفوس، والعقول، والأرواح، مظهر لآياته وصفاته ثم اصطفى آدم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:33]، وجمع فيه الأنواع المختلفة السبعة لما خصه باختصاص تأمن وهو تشريف إضافة، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]؛ ليكون مظهر لجميع وجودي صفاته تبارك وتعالى إلى هذا أشار بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، وقد صرح النبي ﷺ بقوله: «إن الله خلق آدم على صورته»[1] أي: خلقه مرآة تظهر ذاته وصفاته فيه؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]، وقال ﷺ: «إن خلق آدم لتجلى فيه»[2]، ويشير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:33]، إلى خواص أولاد آدم عليه السلام الذين ثمرات شجرة الإنسانية، كما سئل عنه النبي ﷺ، من آلك فقال: «آلي كل مؤمن تقي ونقي»[3].

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:34]؛ يعني: ورثة النبوة والعلم

---

(1) تقدم تخريجه. (2) ذكره حقي في التفسير (4/ 111).

(3) ذكره العجلوني في كشف الخفا (1/ 19).

والدين يأخذ بعضها من بعض بالوراثة الدينية، كقوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:6]، وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينار أولادهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر، والله أعلم»(1).

واعلم: أن العالم بما فيه كشجرة وثمرتها أهل المعرفة، فهم درة صدفة العالمين وخلاصة الكونين، وزبد اليقين، ولب قشر الوجود قلب شخص الموجود وستر: «فخلقت الخلق؛ لأعرف» ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [آل عمران:34] لدعائهم واستدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:34]، بأحوالهم وخصالهم بهم يمطرون وبهم يرزقون.

ثم أخبر عن تحرير بنت عمران لرضاء الرحمن بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران:35]، إشارة في الآية: إن تعلم أن لله تعالى في كل ذرة من ذرات الموجودات حركة، ولحركتها أسرارًا لا يعلمها إلا الله، فبعضها يظهر بعضها لتغير فيه وتقيس الباقي عليه، مثل ما رأت حنة طائرًا يطعم فرخًا فتحركت لذلك نفسها للولد وهي عجوز، فدعت الله تعالى أن يهب لها ولدًا كما مر ذكره، فانظر ماذا خرج الله من الأسرار عن إطعام ذلك الطائر فرخه، وظهر من الآيات والمعجزات من تلك الساعة إلى يوم القيامة بواسطة مريم وعيسى - عليهما السلام - كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون:50]، فأول الآية منها أن حنة حملت بمريم مع كبر سنها، ثم ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران:35]، فإن تحريها إياها ما كان إلا بإلهام رباني، قالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران:35]، وما قالت فأقبل مني؛ لأن معنى القبول راجع إلى التحرير؛ أي: فاقبل مني تحريرًا إياها وأعطني عليه الثواب؛ ومعنى التقبل راجع إلى المحرى؛ أي: تقبلها مني بأن تكفلها وتربيها تربية المحررين، بيانه قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ [آل عمران:37]؛ أي: تقبل الله مريم أن يربيها، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ [آل عمران:35]، الذي يسمع دعاء المضطرين،

(1) أخرجه أحمد (5/ 196، رقم 21763)، وأبو داود (3/ 317، رقم 3641)، والترمذي (5/ 48، رقم 2682)، وابن ماجه (1/ 81، رقم 223)، وابن حبان (1/ 289، رقم 88)، والبيهقي في شعب الإيمان (2/ 262، رقم 1696).

وتحبيبهم العلم الذي يعلم ضمير الداعي قبل أن يدعوا به، ويعلم ما المحرر في بطنها ولا تعلم الحامل ما هو، ويعلم ما في بطن المحرر ما أودع من كلمة وروح منه، وهي لا تعلم.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾ [آل عمران:36]؛ أي: أردت أن يكون المولود ذكرًا يصلح للتحرير، فكان أنثى على خلاف رؤيتي ﴿أُنْثَى﴾ [آل عمران:36]، فعاملها الله، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:36]، فعاملها الله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ [آل عمران:37]، يعني مريم ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران:37]؛ يعني: بقبول ذكر، وفيه معنى آخر؛ أي: تقبل الله مريم بدعاء حنة بقولها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران:35]، ورباها تربية التقبل والتكفل، ثم قبلها بقبول حسن؛ يعني: أخرج منها مثل عيسى عليه السلام، ويحتمل أيضًا أن يقال: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:37]؛ أي: أنبت لها نباتًا حسنًا؛ يعني: عيسى عليه السلام، دليله قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:17]؛ أي: أنبت لكم.

ثم أخبر عن آية أخرى من آياته الكبرى بقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:37]، إشارة في الآية: إن الله تعالى لما أراد أن يخرج عيسى عليه السلام من مريم بلا أب، فمن كمال حكمته جعل تكفل مريم إلى زكريا عليه السلام؛ لئلا يدخل عليها غيره، فيكون أبعد من التهمة عند الخلق، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:37]؛ إظهارًا لكرامتها لديه لتكون بريئة عن التهمة عند زكريا، فيقول لها: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران:37]؛ أي: بأي سبب وطاقة وجدت هذه الكرامة؟ قالت: ليس هذا بسبب من عندي؛ بل هو فضل من عند الله، ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:37]، بغير سبب من الأسباب، وفيه معنى آخر، وجد عندها رزقًا من فتوحات الغيب الذي يطعم الله به خواص عباده، الذين يبيتون عنده لا عند أنفسهم ولا عند الخلق، كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1]، قال

(1) رواه أبو داود (2376)، والترمذي (783).

لي: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ [آل عمران:37]، فإن من يبيت عند الله يكون رزقه من عند الله؛ يعني: مما عند الله من فيض ألطافه، وحسن إعطائه ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:37]، مريم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:37]، بما لم يكن في حسابها من ولد عيسى ﷺ بلا أب، وفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء بلا شجرة، والعلوم اللدنية بلا واسطة، والمعجزات بلا نبوة، نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2-3].

ثم أخبر عن آياته بعد أخرى من آياته الكبرى بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران:38]، الإشارة في الآيتين: إن الله تعالى جعل بعض الأشياء سبب البعض، فكما أنه جعل إطعام الطائر فرخة، سبب تحريك قلب زكريا لطلب الولد، هنالك دعا زكريا ربه ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]، والإشارة في قوله: ﴿مِن لَّدُنْكَ﴾ [آل عمران:38]، إلى أن الأرواح التي هي جنود مجندة بعضها في الصف الأول؛ وهي أرواح الأنبياء - عليهم السلام - وخواص الأولياء ليس بينا وبين الله حجاب ،وبعضها في الصف الثاني؛ وهي أرواح الأولياء وخواص المؤمنين، وبينها وبين الله حجاب الصف الأول، وبعضها في الصف الثالث؛ وهي أرواح المؤمنين وخواص المسلمين، وبينها وبين الله حجاب الصف الأول والصف الثاني، وبعضها في الصف الرابع؛ وهي أرواح المنافقين من مدعي الإسلام والكفار والمشركين، فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ﴾ [آل عمران:38]؛ أي: من الصف الأول الذي لا واسطة بينه وبينك، ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:38]؛ أي: ولدًا يكون روحه من أهل الصف الأول مطهرًا من آل يعقوب ﷺ؛ يعني: النبوة كما وهبت لحنة مريم ولمريم رزق الجنة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:38]؛ أي: مجيب الدعاء، كما أجبت دعاء حنة.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾ [آل عمران:39]، سائرة سره في الملكوت، فسمع نداء الملائكة وهو محارب نفسه وهواه ﴿فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران:39]؛ أي: بغلام اسمه يحيى، وإنما سمي يحيى؛ لأنه منذ خلق ما ابتلي بالمعصية؛ لئلا يموت القلب بالمعاصي كما مر ذكره، الحديث أنه ما هم بمعصية قط ولا بموت

الصورة؛ لأنه استشهد والشهداء لا يموتون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]، فهو حي يحيى في حال الدنيوي والاستقبال الأخروي ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ [آل عمران:39]؛ وهي قوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:12]، ﴿وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران:39]؛ أي: حرًا من رق الكونين، بل سيدًا لرفعتي الكونين ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران:39]، نفسه عن تعلق بالكونين، ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:39]؛ لقبول فيض الإلوهية بلا واسطة؛ لأنه كان من أهل الأول.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: 40 - 46].

ثم أخبر عن ظهور الآيات أنها موجبة لمزيد الطاعات بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران:40]، الإشارة في الآيتين: إن استبعاد زكريا عليه السلام الولد وتعجبه في قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران:40]، ما كان من قبل قدرة الله تعالى، ولكن من قبل استحقاقه لنيل هذه الكرامة؛ يعني: بأي استحقاق يكون لي غلام ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:40]؛ أي: هكذا يعطي الله من يشاء لمن يشاء فضلاً منه ورحمة، لا استحقاقًا في شيء من الأشياء، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد:21].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً﴾ [آل عمران:41]، استدل بها على أن لك معي هذا الفضل تخصني بنيل هذه الكرامة من العالمين، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:41]، وإنما جعل آيته في احتباسه عن الكلام لغلبات الصفات الروحانية

عليه، واستيلاء سلطان الحقيقة على قلبه، فإن النفس الناطقة تكون مغلوبة في تلك الحالة بشواهد الحق في الغيب، فلا تفرغ إلى جلاء عادتها في الشهادة في الكلام إلا رمزًا، وبهذا يتقوى الروح الطبعي والروح الحيواني وتستمد منه القوى البشرية، فيحيي الله به الشهوة الميتة التي أحياها الله تعالى فيحيا، والاستبقاء بهذه الحالة واستمرارها أمر في هذه الأيام الثلاثة بأن يستمد من كثره ذكر ربه، وإقامة المراقبة بالليل والنهار، وإقامة الصلاة ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:41].

ثم أخبر عن الاصطفاء من النساء بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ [آل عمران:42]، الإشارة في الآيات: إن المصطفى من الخليقة من اصطفاه تعالى فضلاً منه ورحمة لا استحقاقًا واستعدادًا، كما ظن إبليس أنه مستحق للخيرية ومستعد بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12]، واعلم أن الاصطفاء على أنواع مختلفة منها:

اصطفاء على غير الجنس: كاصطفاء آدم ﷺ على غير جنسه من المخلوقات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾ [آل عمران:33]، ولم يكن له جنس حين خلقه، واصطفاه وأسجد له ملائكته.

ومنها: اصطفاء على غير الجنس وعلى الجنس: كاصطفاء محمد ﷺ على جميع المكونات بقوله: «لولاك ما خلقت الأفلاك»[1].

وقال ﷺ: « أنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحت آدم ومن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع يشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يقرع باب الجنة فيفتح لي، فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر»[2].

ومنها اصطفاء الجنس: كاصطفاء مريم على نساء زمانها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:42]،

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (2/ 164).

(2) رواه الترمذي (3976)، والدارمي (48).

﴿اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران:42] لاصطفائك بك إياه ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران:42] عن الالتفات لغيره، واصطفاك على نساء العالمين؛ لنيل درجة الكمال، فإنه ليس من شأن النساء، كما قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء: كفضل الثريد على سائر الطعام»(1).

(1) حديث أنس: أخرجه أحمد (3/ 156، رقم 12619)، والبخارى (3/ 1375، رقم 3559)، ومسلم (4/ 1895، رقم 2446)، والترمذى (5/ 706، رقم 3887) وقال: حسن. والنسائى (7/ 68، رقم 3948)، وابن ماجه (2/ 1092، رقم 3281)، والدارمى (2/ 144، رقم 2069)، وابن حبان (16/ 50، رقم 7113). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (6/ 390، رقم 32281)، والطبرانى في الأوسط (2/ 369، رقم 2256).

حديث أبى موسى: أخرجه النسائى (7/ 68، رقم 3947).

حديث عائشة: أخرجه أحمد (6/ 159، رقم 25299)، والنسائى (7/ 68، رقم 3948). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (2/ 486، رقم 1068)، وابن حبان (16/ 52، رقم 7115).

حديث سعد: أخرجه أبو نعيم في الحلية (9/ 25). وأخرجه أيضًا: الطبرانى في الأوسط (2/ 278، رقم 1978). قال الهيثمى (9/ 243): رجاله رجال الصحيح.

حديث معاوية بن قرة عن أبيه: أخرجه الحاكم (3/ 677، رقم 6483)، والطبرانى (19/ 28، رقم 60). قال الهيثمى في مجمع الزوائد (9/ 243): إسناده حسن.

حديث عبد الرحمن بن عوف: أخرجه الطبرانى (23/ 42، رقم 108). قال الهيثمى (9/ 243): رجاله رجال الصحيح إلا أن أبا سلمة بن عبد الرحمن لم يسمع من أبيه.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ [آل عمران:43]، واقتربي ﴿وَارْكَعِي﴾ [آل عمران:43]، وانكسري من أنانيتك لتجدي أنانيتي، فإني أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:43]، البالغين من الرجال درجة الكمال ﴿ذَٰلِكَ﴾ [آل عمران:44]، أحوال ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ [آل عمران:44]، من الأحوال الغيبية على نواظر أهل الشهادة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران:44]، يا محمد بوحي البيان وكشف العيان ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:44]، وإن لم تكن عندهم إذ يسعون بإلقاء الأقدم؛ ليستعدون بكمال مريم، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:44]، على إدراك هذه السعادة.

ثم أخبر عن ميامن الاصطفاء ببشارتها بنبي من الأنبياء بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران:45]، والإشارة في الآيتين: إن الله تعالى جعل المخلوقات كلمة مركبة من حروف تفيد معرفة ذاته وصفاته، فإن كل صفة من صفاتها مظهر آية من آياتها، وصفة من صفاته أو صفتين فصاعدًا، كقوله تعالى: «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق؛ لأعرف»[1]، وكل صنف من أصناف العالم؛ فهو حرف من حروف كلمة المعرفة، ولكنه خلق نسخة العالم بما فيه وركب من أصناف العالم؛ فهو أيضًا كلمتة المعرفة: كالعالم بما فيه، وليس للعالم ولا لصنف من أصنافه هذا الاستعداد، وكما أثبت الله تعالى للإنسان بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وهذا مقام مخصوص بالإنسان الكامل المزكي بتزكية الشريعة، المربي بتربية أرباب الطريقة، وإنما خص ﷺ بهذا الاسم؛ أعني: الكلمة من بين سائر الأنبياء والأولياء لمعنيين:

أحدهما: أنه خلق مستعدًا لهذا الكمال في بدء أمره وحال طفوليته من غير احتياج إلى التربية، كقوله تعالى في المهد ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم:30]، فقد فهم من كلمة نفسه معرفة ربه، كما قال ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه»[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

والثاني: إنه لما كان الله تعالى متولي إلقاء روح عيسى عليه السلام إلى مريم، كما قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:12]، ومتولي أمر تخليق طينة جده بإبداع كن من غير نطفة أب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59]، سماه كلمة وشرفه بإضافة إلى نفسه، وقال تعالى: ﴿كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء:171]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: 45]، ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:45]، فكان من اختصاصه بالكلمة أنه غلب الكلام، كما أخبر عنه ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:46]، ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:45]، حتى روى مجاهد قال: قالت مريم بنت عمران - صلوات الله عليها-: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثه وحدثني، فإذا شغلني عنه إنسان سبح في بطني وأنا أسمع، وسمي المسيح؛ لأنه مسح الله تعالى ظهر آدم عليه السلام، فاستخرج منه ذرات ذرياته وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، جاء في الخبر إذن للذرات بالرجوع إلى ظهر آدم عليه السلام، وحفظ ذرة عيسى عليه السلام وروحه عنده حتى ألقاها إلى مريم، فكان قد بقي عليه اسم المسيح إلى الممسوح، وقوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:46]؛ أي: حالة النبوة؛ لأن بلاغة الأنبياء - عليهم السلام - كان عند كهوليتهم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15]، ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:46]؛ أي: صلاحية قبول الفيض بلا واسطة، كما هو حال جميع الأنبياء عليهم السلام.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (51)﴾ [آل عمران: 47 - 51].

ثم أخبر عن تعجب مريم من أمر من بشرها بما بشرها ولم يمسها البشر بقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ [آل عمران:47]، الإشارة: إن الله تعالى خلق إظهارًا للقدرة آدم من تراب بلا أب، وخلق حواء بلا أب ولا أم، وخلق عيسى ابن مريم بلا أب، حتى قالت: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ [آل عمران:47]؛ يعني: في الأزل ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47]، في الحال، وقوله تعالى كلام أزلي يتعلق بالإرادة الأزلية على وفق الحكمة القديمة بالشيء عند التكوين، فيكون الشيء كما شاء متى شاء، كما تعلق بعيسى ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:48]، ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:49]، من غير واسطة، كما ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31].

واعلم أن الروح الإنساني؛ الذي هو خليفة الله في الأرض معلم من ربه واستخلفه العلم والحكمة والكتابة أو القراءة، بل هو قابل أنوار جميع الصفات خلافة عنه، حتى القدرة على الخلق والأحياء، والإبراء والإنباء، وغير ذلك من الآيات التي هي من نتائج القدرة، ثم إذا تعلق بالقالب المنشأ من العناصر الأربع، وحجب الظلمات المنشأ من شهوات الأبوين، احتجب عن القلوب أنوار الصفات إلى أن يخرجه مدد العناية بطريق الهداية، وإن كان الروح روح النبي ﷺ من حجب الظلمات إلى أنوار الصفات، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:275]، فيصير في الخلافة قابل أنوار تلك الصفات بقوة الاستعداد الروحاني والجسماني، فيظهر على النبي ﷺ آيات المعجزات وعلى الولي آيات الكرامات، فلما كان روح عيسى ﷺ وذرة طينة السعي استخرجت من ظهر آدم ﷺ محبته عند الله تعالى ولم ترد إلى ظهره حتى ألقاها إلى مريم بتوليه من غير

شوب بظلمات شهوات الأبوين؛ ولهذا سمي - روح الله- لأنه كان قابل أنوار الصفات في بدء أمره وحالة طفوليته، ويكلم الناس في المهد وكهلاً، ويكتب ويقرأ التوراة والإنجيل من غير تعلم، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ويبرئ الأكمة والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكذلك جميع الآيات الظاهرة منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:49]، بأن الله هو مقدر هذه الأسباب ومدبرها ومسببها، وكان عيسى عليه السلام بهذا الاستعداد ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:50]، ومحلاً لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم وجاءهم الآيات الدالة على رسالته، وقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران:50]؛ أي: اتقوا معاصيه، وأطيعوا أمري، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي﴾ [آل عمران: 51]، خلقني مستعدًا؛ لإظهار هذه الآيات ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ [آل عمران:51]، خلقكم عاجزون عنها ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران:51]، بالوحدانية من غير الشرك به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:51]، توصلكم الله إليه.

﴿ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [آل عمران: 52 - 56].

ثم أخبر عن إحساس عيسى عليه السلام لما كفر الناس بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:52]، إشارة في الآية: إن عيسى الروح أحسن من النفس وصفاتها الكفر، ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:52]، أعواني في الله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ [آل عمران:52]؛ يعني: القلب وصفاته ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران:52]؛ أي: أعوان الله في نصرة الحق ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:52]؛ أي:

بوحدانيته والتبري عن غيره ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:52]؛ أي: مستسلمون لأحكامه، راغبون بقضائه، صابرون على بلائه ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ [آل عمران:53]، من الحكم والأسرار واللطائف والحقائق ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران:53]، الوارد من نفحات ألطافك ومنحات إعطائك ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ [آل عمران:53]، فاجعلنا ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:53]، الذين يشهدون شواهد جلالك ويشاهدون أنوار جمالك ﴿وَمَكَرُوا﴾ [آل عمران:54]؛ يعني: النفس وصفاتها والشياطين وعنانها في هلاك الروح ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:54]، بتجلي صفات قهره في فناء النفس وصفاتها ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54]، في قهر النفس وصفاتها بالسوء وإفناء صفاتها، وقمع هواها وقلع شهواتها.

ثم أخبر عن رفعه عيسى عليه السلام حيًا وهو المتوفى بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[1] [آل عمران:55]، والإشارة في الآيات: إن الله قال لعيسى: أني متوفيك عن الصفات النفسانية والأوصاف الحيوانية، ورافعك إليَّ بجذبات العناية، وهذا كما أسرى بعبده ﷺ إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9]، ومن خواص جذبة الربوبية: تطهير الصفات البشرية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(1) قال سيدي سهل بن عبد الله التستري (1/ 455): فإنه إذا مات فينزع عنه لطيف نفس الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف الذي به يعقل الأشياء ويرى الرؤيا في الملكوت، وإذا نام نزع عنه لطيف نفس الطبع الكثيف لا لطيف نفس الروح النوري، فيستفيق النائم نفساً لطيفاً، وهو من لطيف نفس الروح الذي إذا زايله لم تكن له حركة، وكان ميتاً. ولنفس طبع الكثيف لطيفة، ولنفس الروح لطيفة، فحياة لطيف نفس الطبع بنور لطيف نفس الروح، وحياة روح لطيف نفس الروح بالذكر، كما قال: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169] أي يرزقون الذكر بما نالوا من لطيف نفس النوري، وحياة الطبع الكثيف بالأكل والشرب والتمتع، فمن لم يحسن الإصلاح بين هذين الضدين، أعني نفس الطبع ونفس الروح حتى يكون عيشهما جيماً بالذكر والسعي بالذكر، فليس بعارف في الحقيقة. وقال عمر بن واصل: وكان المبرد النحوي يقول: الروح والنفس شيئان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر. قال: فذكرت ذلك لسهل، فقال: أخطأ، إن الروح يقوم بلطفه في ذاته بغير نفس الطبع الكثيف، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل من الذر بنفس روح وفهم عقل وفطنة قلب وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف.

[آل عمران:55]؛ أي: ومطهرك من أخلاق الذين كفروا وأوصافهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ [آل عمران:55]، بالأعمال الظاهرة وهي الشريعة، والأحوال الباطنة وهي الطريقة، ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:55]، في التحقيق بالعهد، والغلبة والعزة والبرهان والحجة وهم أهل الإسلام؛ لأنهم الذين اتبعوا دينه وسنته، وما اتبعه حقيقة من دعاه ربًا وابن الله، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [آل عمران:55]، باللطف والقهر والاختيار على قدم السلوك، أو بالاضطرار عند نزع الروح، ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:55] بالقبول والرد، والثواب والعقاب، ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: 55]، من الحق والباطل، واتباع الهدى والهوى.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:56]، ستروا الحق بالباطل واتبعوا الهوى، فضلوا عن طريق الهدى ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ [آل عمران:56]، بحجاب الغفلة والاشتغال بغير الله تعالى، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:56]، بالقطيعة والبعد عن الله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران:56]، في الدنيا والآخرة على خلاصهم من العذاب.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 57 - 61].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:57]، واختاروا الحق على الباطل ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [آل عمران:57]، اتبعوا عن طريق الهدى، ونهوا ﴿النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:40]، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران:57] عن جنة المأوى، وتقربهم إلينا زلفى، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:57]، الذين يظلمون أنفسهم بانقضاء العمر في طلب غير الله.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران:58]؛ أي: هذا نقص عليك من نبأ عيسى عليه السلام وقومه ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:58]، من عيسى عليه السلام، وأن مثله

كمثله آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59].

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60]، بغير ازدواج أب وأم واسطة نطفة وامشاج من ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:6-7]، كما جرت سنة الله تعالى وخلقه الإنسان، وإنما كونه بتكوين أمر كن فكان، وهذه سنة جرت في تكوين الأرواح والملكوت لا في الأجساد والملك، فالله تعالى أجرى هذه السنة في آدم وحواء وعيسى؛ إظهارًا لقدرته، وكذلك في ثعبان موسى، وناقة صالح، وكونهما بأمر كن خرقًا للعادة؛ ليكون آية نبوتهما، ودلالة من ربك يا محمد ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60]، في أمر عيسى أنه عبد الله، وشأن الحق أنه فاعل مختار فعال لما يريد، ليس هذا نهيًا عن شك كان في النبي ﷺ ولكنه نهي الكينونة، قال: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60]، قاله في الأزل: أنه أزلي فما كان من الممترين، ولا يكون إلى الأبد.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ [آل عمران:61]، جاد لك في أم عيسى أنه ليس بعبد مخلوق، ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:61]، بحقيقة حاله ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:61]، وحياً وكشفاً فادعهم إلى المباهلة، فإنها حجة قاضية بالحق مميزة بين الصادقين والكاذبين، فكانت دعواه إياهم إلى المباهلة، وامتناعهم عنها مظهر حقيقة دعواه وبطلان دعواهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 62 - 64].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران:62]، وما دونه الباطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [آل عمران:62]، خالق ﴿إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران:62]، يخلق ما يشاء كما يشاء أجزاء على

السنة، أو على إظهار القدرة، ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:62]، الذي ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:102]، ولا خالق له ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ [آل عمران:62]، ليس له ضد ولا ند ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:62]، فيما يخلق ويحكم، ولا عبث في خلقه وحكمه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران:63]، عن حكم من أحكامه واعرضوا عنه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:63]، الذين شهد عليهم الملائكة بالفساد في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، فأجابهم بقوله تعالى: إني أعلم المصلح منهم والمفسد، ولا تعلمون منهم إلا المفسد، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: 220]، فيجعل المفسد فداء المصلح، كما قال النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة لم يبق أحد منكم، إلا أعطى يهوديًا، فقيل: هذا فداؤك من النار»(1)، صحيح أخرجه مسلم.

ثم أخبر عن جواب أهل الإعراض بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:64]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى أشار بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:64]، إلى أن أصول الأديان كلها، إخلاص العبودية في التوحيد، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5]، وقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران:64]، لا نطلب منه غيره ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:64]، في طلب الرزق ورؤية الأمور من الوسائط، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران:64]؛ يعني: من أعرض عن هذا الأصل ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا﴾ [آل عمران:64]، أنتم لنا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]، مستسلمون لما دعانا الله إليه من التوحيد والإخلاص في العبودية، ونفي الشرك والسر في الإشهاد على الإسلام؛ ليشهد الكفار لهم يوم القيامة على الإسلام والتوحيد كما شهد لهم المسلمون كما قال ﷺ لأبي سعيد الخدري ﷺ: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن وإنس ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة»، وفي رواية أخرى «لا يسمع

---

(1) رواه مسلم (7522)، بنحوه.

صوتك شجر ولا حجر، ولا جن ولا إنس، إلا شهد لك»(1)، وفي رواية أبي هريرة ﷺ «فإن المؤذن يغفر له مدى صوته، وشهد له كل رطب ويابس»(2)، وليكون شهادة الكفار لهم بالتوحيد يوم القيامة، حجة على أنفسهم، والله أعلم.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾ [آل عمران: 65 - 70].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:65]، وتزعمون أنه على دينكم، وليس لكم به علم ولا حجة فيما أنزل عليكم من التوراة والإنجيل في نعته وصفته، ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ﴾ [آل عمران:66]، بالباطل ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران:66]، حقيقة نبوة محمد ﷺ فلا تعملون بما تعلمون، وتحاجون فيما لا تعلمون ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ [آل عمران:66]، ما تعملون ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66]، ما تعملون جهلاً منكم.

ثم أخبر عن إبراهيم ﷺ، وما هو عليه من الدين القويم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران:67]، إشارة في الآية: إن الله تعالى نزه إبراهيم

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (1/ 484، رقم 1863)، وأحمد (2/ 411، رقم 9317)، وأبو داود (1/ 142، رقم 515)، والنسائى (2/ 12، رقم 645)، وابن ماجه (1/ 240، رقم 724)، وابن حبان (4/ 551، رقم 1666)، والبيهقى في شعب الإيمان (3/ 118، رقم 3056). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (ص 331، رقم 2542)، وابن خزيمة (1/ 204، رقم 390)، والبيهقي (1/ 397، رقم 1728).

(2) أخرجه مالك (1/ 69، رقم 151)، والشافعى (1/ 33)، وأحمد (3/ 43، رقم 11411)، وعبد بن حيد (ص 306 رقم 993)، والبخارى (1/ 221، رقم 584)، والنسائى (2/ 12، رقم 644)، وابن ماجه (1/ 239، رقم 723)، وابن حبان (4/ 546، رقم 1661).

عليه السلام عن اليهودية والنصرانية براءة له عن الشرك؛ لأن أهل الملتين كانوا مشركين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67]، ﴿حَنِيفًا﴾ [آل عمران:68]؛ يعني: مائلاً عن غير الله مسلمًا وجهه لله، يدل عليه قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20]، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله﴾ [النساء:125]؛ يعني: لا يلتفت إلى غير الله في الطلب، ولا يشرك به شيئًا.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران:68]؛ يعني: في الإيثار له ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران:68]؛ اقتداءً به في الصورة والمعنى، ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 68]؛ يعني: الذين اتبعوه؛ لأنه ﷺ والذين آمنوا معه متبعون ملته صورة ومعنى؛ لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:78]، وملته الحقيقية هي الخلة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:125]، وكان النبي ﷺ أولى الناس به، حين قال: «لو كنت متخذًا خليلاً، لاتخذت إبراهيم خليلاً، ولكن أبي بكر أخي وصاحبي، ولقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً»[1]، ثم المؤمنين كانوا أولى الناس به؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:68]؛ والولي: هو الخليل.

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران:69]، عن ملة إبراهيم عليه السلام وهي: الخلة والإسلام، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران:69]، بهذه المودة مودة الإضلال، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران:69]، أن مودة إضلال أهل الله كفر، فإن الرضاء بالكفر كفر.

ثم أخبر عن كفر أهل الكتاب في أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران:70]، والإشارة في الآيتين: إن الله ﷻ يظهر أن الهداية منه تبارك وتعالى لا من قراءة الكتب، وتفهم ألفاظها شهادة اللسان وإقراره وإنها هي بشهود القلب عند ظهور شواهد الحق، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

---

(1) رواه أبو نعيم في المعرفة (5248) بتحقيقنا.

[آل عمران:70]؛ يعني: الذين يظنون أنكم اهتديتم إلى الحق بالكتاب وأنتم تشهدون على أنفسكم بالهداية، فإن كنا كما تزعمون لما تكفرون بآيات الله ببراهينه وحججه الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)﴾ [آل عمران: 71 - 74].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران:71]، وهو ما يدعوكم إليه محمد ﷺ بالباطل وأهوائكم وآرائكم الفاسدة، وهذا تنبيه من الله تعالى لعباده ﴿هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة:120]، من يهدي فلا مضل له و ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف:186]، ثم قال تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:71]؛ يعني: لا يمكن أن تكتموا الحق وأنتم تعلمون حقيقة؛ لأن ظهور الحق يقتضي زهوق الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: 81].

ثم أخبر عن فساد اعتقادهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:72]، الإشارة في الآيات: إن الحسد وإن كان مركوزًا في جبلة الإنسان ولكن له اختصاص بعالم يتعلم العلم؛ ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء، ويجعله وسيلة لجمع المال ولحصول الجاه والقبول عند أرباب الدنيا، فيحسد على كل عالم آتاه الله تعالى حكمة فهو ينشرها ويفيد الخلق، كما قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله تعالى مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالى حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»(1) أي: لا حسد كحسد الحاسد على هذين الرجلين، وكان حسد

(1) تقدم تخريجه.

أحبار اليهود على النبي ﷺ من هذا القبيل، حتى قالت طائفة من أهل الكتاب وهي أخبارهم لأتباعهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:72]، ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ [آل عمران:72]، مكرًا وخداعًا ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: 72]؛ يعني: المؤمنين على النبي ﷺ وعن دينه حسدًا على ما أتاه الله من فضله، وقالوا هذا المعنيين:

أحدهما: تشكيك المؤمنين في أمر النبي ﷺ ودينهم.

والثاني: تثبيت اليهود على دينهم ومتابعة أحبارهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:72]؛ أرادوا به: أنفسهم ولا يصدقوا غيرهم ولا تتبعوا لهم حسدًا من عند أنفسهم، فقال تعالى زعمًا لا فهماً وردًا على قولهم: قل يا محمد لمعاشر المؤمنين: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:72]، إن الهدى الحقيقي بالذي لا ضلال بعده هو الهدى من الله فضلاً ورحمة، كما هداكم به، وما ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ [آل عمران:72]، من أهل الملل والأديان ﴿مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران:72]، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110]، ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:72]، وإن يحاجوكم فيما آتاكم الله من عنده ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران:72]، يا محمد ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ [آل عمران:72]، عطاءه ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:72]، بمستحق عطائه، وأهل رحمته ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾(1) [آل عمران: 74]، مشيئة أزلية ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران:74]، معك يا محمد ومع أمتك بتعينك، كما قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113].

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ

(1) يقال: خصه بالشيء واختصه به إذا أفرده به دون غيره ومفعول من يشاء محذوف، والرحمة النبوة والوحي والحكمة والنصرة. والمعنى يفرد برحمته من يشاء أفراده بها ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي الفائض عليه بحسب إرادته عز وجل لا تتعداه إلى غيره لا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق وما وقع في عبارة مشايخنا في حق بعض الأشياء انه واجب في الحكمة يعنون به انه ثابت متحقق لا محالة في الوجود لا يتصور ألا يكون لا أنه يجب ذلك بإيجاب موجب.

إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: 75 - 80].

ثم أخبر عن بعض أهل الكتاب بالأمانة، وبعضهم بالخيانة بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران:75]، إشارة في الآيتين: إن من أهل القصة من تأمنه امتحانًا بكثير من الدنيا يؤده إليك بالخروج عن عهدته، وعدم الالتفات به إليه وقطع النظر عنه، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: 75]؛ [لتمكن] الحرص، وغلبة الهوى، وخسة النفس، وركاكة العقل، ودناءة الهمة، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران:75]، بمطالبة الحقوق منه إخبارًا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ [آل عمران:75]، بسوء النفس وإلقاء الشيطان ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:75]، من مباشرة الدنيا ومعاشرة الخلق، خرج ولا يحجبنا عن الله تعالى هذا التصرف والالتفات ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [آل عمران:75]، بهذه المقالة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:75]، عن أنفسهم هذه المحالة، ويجترون على الله ويفترون.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ [آل عمران:76]، من الله الذي دهاهم في الميثاق بأن لا يعبدوا إلا الله، ولا يطلبوا منه إلا هو، ﴿وَاتَّقَى﴾ [آل عمران:76]، عن غير الله بالله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:76] به عن غيره.

واعلم أن أهل الكتاب الحقيقي في الحقيقة هم أهل هذه القصة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32]، ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ

الأخيار﴾ [ص:47]، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن اشتراء أهل الاجتراء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:77]، إشارة في الآيتين: إن الذين يشترون بعهد الله الذي عاهدهم الله يوم الميثاق في التوحيد وطلب الوحدة، وإيمانهم التي يخلقون بها هاهنا ثمنًا قليلاً من متاع الدنيا وزخارفها، مما يلائم الحواس الخمس والصفات النفسانية ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:77]، الروحانية من نسيم روائح الأخلاق الربانية ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:77]، تقريبًا وتكريمًا وتفهيمًا ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:77]، بنظر العناية والرحمة فيرحمهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: 77]، عن الصفات التي يستحقون بها دركات جهنم، ولا يزكيهم عن الصفات الذميمة التي هي وقود النار إلى الأبد، فلا يتخلصون منها أبدًا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77]، فيما لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ [آل عمران:78]، من مدعي أهل المعرفة ﴿لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران:78]، بكلمات أهل المعرفة ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 78]؛ أي: من أهل المعرفة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:78]، الذي كتب الله في قلوب العارفين، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [آل عمران:78]، بإظهار الدعوى عند فقدان المعاني ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:78] ولا يعلمون، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:226].

ثم أخبر عن صدق صديقهم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران:79]، إشارة في الآيتين: إن ليس من شأن بشر أن يؤتيه الله الكتاب حقيقيًا من أهل القصة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32]، والحكم؛ يعني: الحكمة التي هي من نتائج إيتاء الكتاب، والنبوة؛ أي: أداء النبوة ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [آل عمران:79]، أن هذه المقالة من صفات البشر ورعونة النفس وشرها، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]، فالخير الكثير مزيل صفات البشر ورعونة النفس وشرها، وصدك

لها بالصفات الروحانية والأخلاق الربانية، ﴿وَلَكِن﴾ [آل عمران:79]، يقول لهم ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران:79]؛ يعني: من دأب القوم وهجراهم تربية الإتباع والمريدين؛ ليكونوا ربانيين متخلقين بأخلاق الروحانية عالمين ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:79]، من العلوم، ولا يطلبون عن دراستها، ولا يفترون بمقالات أخذوها من أفواه القوم، وفيه إشارة أخرى وهي: أن بعض مدعي هذا الشأن الذين غلبت عليهم أهواءهم وصفات بشريتهم، يدعون الشيخوخة من رعونة النفس قبل أوانها، ويخدعون الخلق بأنواع الحيل، ويستتبعون بعض الجهلة، ويعبدونهم بكلمات أخذوها من الأفواه، ويمكرون بعض أهل الصدق من الطلبة ويقيدونهم بالإرادة، ويقطعون عليهم طريق الحق بأن منعوا من صحبة أهل ومشايخ الطريق، ويأمرونهم بالتسليم والرضا فيما يعاملونهم، ولا يعرفون غيرهم فيعبدون من دون الله كما هو دأب أكثر أهالي مشايخ زماننا هذا، فإنه ليس من دأب من يؤت الحكمة والكتاب والنبوة.

ثم قال: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ [آل عمران:80]؛ يعني: من يؤت الكتاب والحكمة والنبوة ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:80]، فضلاً عن أنفسهم ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ﴾ [آل عمران:80]؛ وهو التشبث بما يصدكم عن السبيل ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:80] لرب العالمين في الطلب.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: 81 - 84].

ثم أخبر عن أخذ الميثاق لنصرة أهل الوفاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران:81]، إشارة

في الآيات: إن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم عليه السلام من صلبه كما أخذ الميثاق عليهم بالوحدانية لنفسه، فكذلك أخذ الميثاق عليهم بالرسالة لمحمد ﷺ فاستوى فيه الأنبياء والأمم، وإن قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران:81]، فإن الخطاب مع الأنبياء وأممهم يدل عليه قوله: ﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:82]، بعض الأمم ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:82]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:81]، فالخطاب مع أمة النبي بالإيمان به والنصر له، وإن ناصر كل نبي أمته بالإيمان والنصر له بأن يؤمنوا به وإن لم يدركوا زمانه ويواصوا أولادهم بأن يؤمنوا به، إن أدركوه فإن لم يدركوه فينصرونه نية في الغيبة والحضور، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة:132]، فلما أخذ الله تعالى على جميعهم الميثاق لمحمد ﷺ ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا﴾ [آل عمران:81]؛ يعني: الأنبياء والأمم ﴿أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران:81]؛ يعني للأنبياء على أنفسكم وعلى بعضكم بعضًا وعلى الأمم كلها ولهذه الأمة خاصة وعلى الناس كافة، وللنبي ﷺ أنتم شهداء لله في أرضه ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:81]؛ يعني: مع كل طائفة منكم في كل زمان من الحاضرين معكم، أسمع وأرى ما تقولون فيه وتفطنون معه، ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:82]؛ يعني: عن الإيمان، والنصر له منكم معاشر الأمم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:82]، الخارجون عن عهدي والناكثون ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران:83]؛ يعني: الذين يتولون عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن دينه الإسلام، فإن دينه هو دين الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19]، فمن تمسك بغير متابعة محمد ﷺ فقد ضل عن طريق الحق وابتغى غير دين الله، فإن الدين هو الإيمان برسالة محمد ﷺ مع الإسلام لله تعالى بالوحدانية ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:83] يوم الميثاق، فمن شاهد الجمال أسلم له طوعًا، ومن شاهد الجلال أسلم له كرهًا، فليس الاعتبار بذلك الإسلام الفطري، بل الاعتبار بهذا الإسلام الكسبي في متابعة النبي ﷺ طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ

يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:65]، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:83]؛ يعني: الكافر والمؤمن يرجع إلى الله تعالى طوعًا وكرهًا، فإن الذي يرجع إليه طوعًا؛ فهو الذي يتمسك بمتابعة محمد ﷺ.

ثم أخبر عن سريرته ﷺ؛ ليتمسك بسيرته بقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران:84]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى قال للنبي ﷺ: قل يا محمد مالك وإن لم يعتبر الحال بالقال؛ ليقتدوا بك وليعرفوا دينك آمنّا بالله ليلة المعراج إيمانًا عيانيًا لأبياتنا، وما أنزل علينا حين ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران:84]، وأتاني ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران:84]، إيتاءً حقيقيًا حتى فضلت على الأنبياء بما أوتيت جوامع الكلام وما أوتي أحد قبلي ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: 84]؛ أي: لا نفرق بين أحدٍ أنا وأمتي ﴿مِّنْهُمْ﴾ [آل عمران:84]، من الأنبياء بالإيمان لهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:84]؛ أي: مستسلمون لجميع أوامره ونواهيه وأحكامه وقضائه في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [آل عمران: 85 - 89].

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا﴾ [آل عمران:85]؛ أي: غير الاستسلام الذي هو سير النبي ﷺ ودينه في المنشط والمكره، وغير تفويضه وتسليمه إلى الله تعالى في حلو قضائه وأمره، ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85]، الذين خسروا دولة متابعته؛ لينالوا بها مقام المحبوبية ويهتدوا إلى الله به ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران:86]، قد احتجبوا بالصفات الإنسانية والطبائع الحيوانية، عن الأخلاق الربانية بعد أن آمنوا بالله ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ

الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:86]، إيمانهم الدلالات الواضحات، وشاهدوا الآيات المعجزات، وكفروا بهذه المنعم، وما عرفوا قدرها وما قاموا بحق شكرها ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:86]، الذين أعرضوا عنه وأقبلوا على أهوائهم ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:87]، الطرد والبعد ﴿وَالْـمَلَائِكَةِ﴾، الطعن فيهم، كما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، [آل عمران:87]، ولعنة ﴿النَّاسِ﴾ [آل عمران:87]، نفرتهم وتباعدهم وتقريعهم ولومهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران:87]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [آل عمران:88]؛ أي: عذاب الطرد والبعد واللعن ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [آل عمران:88]، لحظة من لمحة من العذاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:89]، راجعوا إلى الله وأقبلوا بكليتهم إليه وأعرضوا عما سواه ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:89]، الظلم على أنفسهم، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ [آل عمران:89]، أعمالهم وأحوالهم مع الله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:89]، يغفر لهم ذنوبهم ويمحوا عنهم خطاياهم ويستر به عنهم برحمته وكرمه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران: 90 - 92].

ثم أخبر عن الإمعان في الكفر بعد الإيمان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران:90]، إشارة في الآيتين: إن الذين ستروا أنوار الأرواح بأستار الصفات البشرية، وحجب الأوصاف الحيوانية بعد إيمانهم بإقرار التوحيد عند الميثاق، إذا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [آل عمران:90]، بمتابعة الهوى ومخالفة الشرع والحق، وتربية الصفات السبعية والشيطانية، ﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران:90]، الصادرة منهم باللسان دون إنابة القلب وسلامته من أوصاف الكفر؛ وهي من أحب الدنيا وإتباع الهوى والإقبال على شهوات النفس والإعراض عن الحق، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ

الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران:90]، في نية البهيمية والأخلاق السبعية حالة التوبة، ولا يهيمون أن يخرجوا منها بقدم الأنانية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:91]، وضلوا في هذا النية ﴿وَمَاتُوا﴾ [آل عمران: 91]؛ أي: ماتت قلوبهم ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾[1] [آل عمران:91]؛ أي: بملء الأرض ذهبًا من عذاب موت القلب ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:91]، بموت القلب وفقد المعرفة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران:91]، على إحياء القلب بنور المعرفة، كما أحيى الله تعالى قلب المؤمن بنور المعرفة كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ [الأنعام:122].

ثم أخبر عن نيل البر وإنه من إنفاق ما أحب إلى البر بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:92]، إشارة في الآية: إنكم ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ [آل عمران:92]، والبار هو صفته، ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92]؛ أي: من أنفسكم؛ وهي أحب الأشياء إلى الخلق، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:92]؛ يعني: أنفسكم في الله ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:92]، فبقدر ما تكونون له يكون لكم، كما قال: «من كان لله كان الله له»[2]، إن الفراش ما نال من بر الشمع وهو شعلة حتى أنفق مما أحبه؛ وهو نفسه، فافهم جيدًا.

﴿ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ

---

(1) أي: بملء الأرض ذهبا، فإن قيل نفي قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدى به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميرًا فضلا عن أن يملك ملء الأرض ذهبا، قلنا الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية عن أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغًا إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى المقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب. تفسير حقي (2/ 234).

(2) ذكره الشيخ حقي (1/ 106).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾ [آل عمران: 98 - 99].

ثم أخبر عما كان حلالاً من بني إسرائيل وميزه من الحرام بقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:93]، إشارة في الآية: إن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة أصناف:

صنف منها: الملك الروحاني العلوي اللطيف النوراني، وجعل غذاؤهم من جنسهم الذكر وخلقهم للعبادة.

وصنف منها: الحيواني الجسماني السفلي الكثيف الظلماني، وجعل غذاؤهم من جنسهم الطعام وخلقهم للعبرة والخدمة.

وصنف منها: الإنسان المركب من الملك الروحاني والحيواني الجسماني، وجعل غذاءهم من جنسهم لروحانيتهم الذكر، ولجسمانيتهم الطعام، وخلقهم للعبادة والمعرفة والخلافة، وهم على ثلاثة أصناف:

فمنهم ظالم لنفسه: وهو الذي غلبت حيوانيته على روحانيته، فبالغ في غذاء جسمانيته وقصر في غذاء روحانيته حتى مات روحه واستولت نفسه، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179]، ومنهم مقتصد: وهو الذي تساوت روحانيته وحيوانيته، ومنهم سابق بالخيرات: وهو الذي غلبت روحانيته على حيوانيته فبالغ في غذاء روحانيته؛ وهو الذكر، وقصر في غذاء حيوانيته وهو الطعام حتى ماتت نفسه وأسر في قوة روحه، ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:7]، فكان كل الطعام حلاً كما كان حلالاً للحيوان، إلا ما حرم الإنسان السابق على نفسه؛ لموت النفس وحياة القلب واستيلاء الروح من قبل أن ينزل عليه الوحي والإلهام، كما قيل: المجاهدات تورث المشاهدات،

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69].

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:94]، بأن يهتدي إلى الحق من غير جهاد النفس ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران:94]، الذين يضعون الشيء في غير موضعه، وقد قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:78]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ [آل عمران:95]، فيما قال: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92]، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:95]، وكان ملته إنفاق المال على الضيفان، وبذل الروح عند الامتحان وتسليم القربان، وهذه ملة الخلة، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:95]، من الذين يتخذون مع الله إلهًا أخرًا ويجعلون الشركة في الخلة.

ثم أخبر عن أول بيت وضع للناس مأمنًا لأهل الإفلاس بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[1] [آل عمران:96]، لا لله؛ فإنه لغني عن البيوت وعن العالمين، وإن كل ما خلق الله في العالم خلق نموذجًا منه في الإنسان، وإن نموذج بيت الله فيه القلب الذي هو أول بيت وضع بمكة صدر الإنسان مباركًا عليه وهدى يهدي به جميع أجزاء وجوده إلى الله بجوده، فإن النور الإلهي إذا وقع في القلب انفسح له واتسع حتى به يسمع وبه يبصر، وبه يعقل وبه ينطق، وبه يبطش وبه يمشي، وبه يتحرك وبه يسكن، ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران:97]، دلالات واضحات يستدل بها الطالب إلى مطلوبه، والقاصد إلى مقصوده، منها: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 97]؛ وهي: الخلقة، وهي التي توصل الخليل إلى خليله ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[2] [آل

---

(1) يقال: إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوني دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات؟!

ويقال: لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أفرِدْ سِرَّكَ لأول حبيبٍ آثرك، ويقال: شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له، ويقال: ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم، فالأغنياء يزورون البيت، ويطوفون بِقَدَمِهم، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم. انظر: تفسير القشيري (1/ 357).

(2) فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهاج ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة: الحكم باق، وإن من وجب عليه حد أو

-

عمران:97]؛ يعني: من دخل مقام إبراهيم؛ وهي: الخلة، الهاء في قوله دخله: كناية عن المقام، ودخولها ببذل النفس والمال والولد في رحمتي خليله كان أمنًا من نار القطيعة، كما كان حال إبراهيم عليه السلام مع النار، وكان عليه ﴿بَرْداً وَسَلاماً﴾ [الأنبياء:69].

ومنها: شهود الحق، وخلوه بالخروج عن نفسه كان أمنًا من عذاب الحجاب.

ثم أخبر عن وجوب زيارة البيت الخليل إن استطاع إليه سبيلاً بقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران:97]، إشارة في الآية: إن الله تعالى جعل البيت والحج إليه، وأركان الحج والمناسك كلها إشارات إلى السلوك وشرائط السير إلى الله وآدابه، فمن أركانه:

الإحرام: وهو إشارة إلى الخروج من الرسوم، وترك المألوف والتجرد عن الدنيا وما فيها التطهير عن الأخلاق، وعقد إحرام العبودية بصحة التوجه.

ومنها: الوقوف بعرفة: وهو إشارة إلى الوقوف بعرفان المعرفة، والعكوف على عتبة جبل الرحمة بصدق الالتجاء وحسن العهد والوفاء.

ومنها الطواف: وهو إشارة إلى الخروج عن الأطوار البشرية السبعية بالطواف السبعة حول كعبة الربوبية.

ومنها السعي: وهو إشارة إلى السير بين صفات ومروة الذات.

ومنها الحلق: وهو إشارة إلى محو آثار العبودية بمرسى الأنوار الإلوهية وعلى هذا فقس المناسك كلها، هذا البيت هادها إلى الله وفضله وطلبه بخلاف سائر أركان الإسلام، فإن قيل كل ركن منه يشير إلى طرف استعداد الطلب والقصد إلى الله، فالله خاطب العباد بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران:97]، وما قال في شيء أخر من الأركان والواجبات ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ [آل عمران:97]، وفائدته إن المقصود المشار إليه من الحج هو الله تعالى، وفي سائر العبادات المقصود هو النجاة

-
قصاص فدخل الحرم لا يهاج، ولكن يُضيَّق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج. انظر: البحر المديد (1/ 310).

والدرجات والقربات والمقامات والكرامات والاستطاعة في قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:97] هي جذبة الحق التي توازي عمل الثقلين ولا يمكن السير إلى الله والوصول إليه إلا بها، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ [آل عمران:97]؛ أي: لا يؤمن بوجدان الحق، ولا يتعرض لنفحات ألطافه، ولا يترقب لجذبات الإلوهية كما يشير إليها أركان الحج، ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97]، بأن يستكمل بهم، وإنما الاستكمال للعالمين به والأغنى بهم عنه، ثم إليه عن كفر أهل الكتاب بعد هذا الخطاب بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:98]، إشارة في الآيات أن ظاهر الخطاب مع أهل الكتاب، وباطنه من علماء السوء الذين يتبعون الدين بالدنيا وما يعملون.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:98]؛ يعني: من طريق المعاملة ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:98]؛ أي: بما جاء به القرآن من الزهد في الدنيا والورع والتقوى، ونهي النفس عن الهوى، وإيثار ما يبقى على ما يفنى، والإعراض عن الخلق والتوجه إلى الحق وبذل الوجود لنيل المقصود، ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:98]، حاضر معكم ناظر إلى نياتكم في أعمال الخير ويجازيكم بها، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:99]؛ أي: علماء السوء ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ﴾ [آل عمران:99]؛ أي: لم تصرفون بحرصكم عن الدنيا وإتباعكم الهوى المؤمنين الذين يتبعونكم بحسن الظن، ويحسبون أن أعمالكم وأحوالكم على قاعدة الشريعة ومنهاج الطريقة عن سبيل الله وطريق الدين، أمر الأنبياء بدعوة الخلق إليه كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125]؛ والحكمة هي: الدعوة بطريق المعاملة وسلوك سبيل الله ليتخلق التابع بإتباع المتبوع، ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران:99]؛ أي: وتطلبون اعوجاج طريق الحق بالسير في طريق الباطل ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [آل عمران:99]، تعلمون فساد أحوالكم ما لكم فيما تعملون ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:99] بعلمه كما تعلمون وهو الذي قضى عليكم به في البداية ويجازيكم عليه في النهاية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: 100 - 104].

ثم وصى الله المؤمنين وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:100]؛ يعني: علماء السوء متابعي الهوى ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ [آل عمران:100]، عن طريق الهداية ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران:100]؛ أي: من بعد إيمانكم وطلبتم منهم طريق الحق فأضلوكم بسيرتكم واتباعكم الهوى عن سبيل الله كما ﴿ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77] ثم في صيغة التعجب ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:101]، بالله وكنتم أمواتًا ولا تؤمنون ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ﴾ [آل عمران:101]، إن من خواص تلاوة آيات الله أن تزيد في إيمانكم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2]، ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران:101]، ومن خاصيته أنه نور يهدي به الله كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ﴾ [المائدة:15]؛ يعني: الرسول ﷺ، ﴿وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]؛ يعني: القرآن ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة:16]؛ يعني: يهدي الله بالرسول المؤمنين سبيلاً وهو السلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ﴾ [آل عمران:101]؛ يعني: ومن كان اعتصامه وتمسكه بالله في كل الأحوال ولا يطلب إلا هو ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:101]، إلى الله.

ثم أخبر عن الاعتصام بالله وهو تقوى الله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[1] [آل عمران:102]، إشارة في الآية ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:102]؛

(1) قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ تلف النفس من مراجعه.

أي: اتقوا عن وجودكم بالله وبوجوده، فإن وجودكم مجازي ووجوده حقيقي، وإن الدين الحقيقي الذي عند الله الإسلام؛ وهو أن يسلم العبد وجوده المجازي في ابتغاء الوجود الحقيقي نفيًا للشركة وإثباتًا للوحدة، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102]؛ أي: لا ينتفي وجودكم المجازي إلا بتسليمكم للوجود الحقيقي فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن طريق التسليم الذي هو الدين القويم ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:103]، إشارة في الآية: إن أهل الاعتصام طائفتان:

أحدهما: أهل الصورة وهم المتعلقون بالأسباب؛ لأن مشربهم الأعمال.

والثانية: أهل المعنى وهم المنقطعون عن الأسباب، لأن مشربهم الأحوال، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحج: 78]؛ أي: متصوركم ومقصودكم، وفيه معنى آخر؛ أي: ناصركم ومعينكم على الاعتصام وقال للمتعلقين بالأسباب الذين مشربهم الأعمال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:103]؛ وهو كل سبب يتوصل به إلى الله، فالمعتصم بحبل الله: هو المتقرب إلى الله بأعمال البر ووسائط القربة، والمعتصم بالله: هو الفاني عن نفسه الباقي بربه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]؛ لأن ترك الاعتصام بأعمال البر ووسائط القرب موجب للتفرق في الظاهر

وقال القاسم: بذل المجهود، واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف.

وقال الواسطي: هو إتلاف النفس من واجبه.

وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه.

وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما زعمنا فيه من استعمال واجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى.

وأيضًا قال ابن عطاء: حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص.

وقيل: وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحدًا بعِلَّة ولا يَرُدُّ أحدًا بعلة. انظر: تفسير القشيري (1/ 364)، وعرائس البيان (1/ 219) بتحقيقنا.

والباطن.

فأما في الظاهر: فيلزم منه مفارقة الجماعة وقد قال ﷺ: «من فارق الجماعة، فاقتلوه كائنًا من كان»(1).

وأما في الباطن: فيظهر منه الأهواء والآراء المختلفة التي توجب تفرق الأمة، كما قال ﷺ: «ستفترق أمتي اثنتين وسبعين فرقة، الناجي منهم واحد، قالوا: يا رسول الله ومن الفرقة الناجية، قال: ما أنا عليه وأصحابي»(2)، ثم قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:103]، وبأداء شكرها مع الله وهي نعمة تأليف القلوب ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:103]، بنعمة تأليفه بين قلوبكم وبين نعمة الإيمان الذي كتب في قلوبكم فأصبحتم إخوانًا في الدين ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [آل عمران:103]؛ وهي عداوة بعضكم لبعض، وعداوتكم لله ولأنفسكم، ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران:103] بالهداية وتأليف القلوب، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران:103]، مثل ما بين الأوس والخزرج حتى صاروا إخوانًا، ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ﴾ [آل عمران:103] أيها الطلاب ﴿آيَاتِهِ﴾ [آل عمران:103] التي يهدي بها إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:103] بتلك الآيات إليه؛ وهي الجذبات الإلهية وتجلي الصفات الربانية فيكونون المعتصمين بالله فافهم.

ثم أخبر عن مقام أهل الاعتصام بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ﴾ [آل عمران:104]، إشارة في الآيات: إن الأمة التي تدعوا إلى الخير بالأفعال دون الأقوال هم الذين يستحقون أن يأمروا ﴿بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104] من وعيد من يأمر بالمعروف ولا يأتيه، والذي يدل عليه ما روى أسامة ؓ عن رسول الله ﷺ قال: سمعته يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتنزلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه

(1) أخرجه الخطيب (7/ 131).

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط (5/ 137، رقم 4886)، وأخرجه أيضًا: في الصغير (2/ 29، رقم 724)، والضياء (7/ 277، رقم 2733).

فيقولون: ما شأنك ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1]، متفق على صحته.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [آل عمران: 105 - 109].

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:44]، وقال تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:2]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:105]، بعد ما اجتمعوا ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: 105]، بعدما اتفقوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:105]، الموجبة للجمعية والوفاق، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:105]، من التفرق والاختلاف بعد الجمعية والوفاق، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:106]، الذين اسودت قلوبهم بالكفر، والتفرق والاختلاف من الله تعالى وذلك؛ لأن الوجوه تحشر بلون القلوب كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:9]؛ أي: يجعل ما في الضمائر على الظواهر، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران:106]، فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران:106]؛ وهم أرباب الطلب السائرون إلى الله، الذين انقطعوا في بادية النفس، واتبعوا الهوى وارتدوا على أدبارهم القهقري ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:106]، تسترون الحق بالباطل، وتعرضون عن الحق في طلب الباطل، وكنتم معذبين بنار الهجران والقطيعة في الدنيا؛ ولكن ما كنتم تذوقون عذابها والناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا لا يذوقوا ألم جراحة الانقطاع والإعراض عن الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ

---

(1) أخرجه أحمد (5/ 205، رقم 21832)، والبخارى (3/ 1191، رقم 3094)، ومسلم (4/ 2290، رقم 2989).

وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ [آل عمران:107]، فكانوا في رحمة الجمعية والوفاق مع الله في الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:107]، في الآخرة؛ لأنه يموت الإنسان على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه، ﴿تِلْكَ﴾ [آل عمران:108]، الأحوال ﴿آيَاتُ اللهِ﴾ [آل عمران:108] مع خواصه، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران:108]، نظرها على قلبك بالحق، ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:108]، لا يظلم على أهل الدنيا والآخرة بأن يضع سواد الوجه وذوق العذاب في غير موضعه، ولا بياض الوجه وخلود الرحمة في غير موضعه، ﴿وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران:109]، مِلكًا ومُلكًا، وخلقًا وقدرة، وحكمًا وتصرفًا، وإيجادًا أو إعدامًا، وقضاء وقدرًا، ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران:109]؛ يعني: كل أمر يصدر في السماوات والأرض والدنيا والآخرة فالله تعالى مصدره يرجع إليه عاقبته، وليس لأحد فيه حكم وتصرف حقيقي غيره سبحانه.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: 110 - 112].

ثم أخبر عن خيرية الأمة على البرية بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110]، إشارة في الآيات: إنكم كنتم خير أمة أخرجت من العدم إلى الوجود، مستعدة لقبول كمالية الإنسان، ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران:110]؛ أي: تأمرون بطلب المعروف وهو الله فإنه معروف العارفين، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]؛ وهو طلب المعروف ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران:110]، إيمان القلب أي: تطلبون الله تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:110]، إشارة إلى علماء السوء؛ يعني: لو طلبوا الله فيما يتعلمون العلم ويعلمون الناس، ولا يطلبون الرياسة والتقدم

والنعم، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران:110]؛ يعني: لكان الخيرية في الأمم لهم ثم قال تعالى: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:110]؛ يعني منهم المحققون والمستحقون للكمال، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:110]، الخارجون على طلب الحق وطلب الكمال لدناءة همتهم وقصر نظرهم، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ [آل عمران:111]، أيها المحققون المستحقون للكمال ﴿إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران:111]، من طريق الإنكار والإعراض والحسد ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ [آل عمران:111]، يخاصموكم وينازعوكم ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران:111]، من صدق نياتكم ينهزموا عنكم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:111] عليكم؛ لأنكم أهل الحق و ﴿حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:56].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ [آل عمران:112] ذلة الطمع ومسكنة الحرص، ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ﴾ [آل عمران:112]، إلا أن يعتصموا لمحبة الله وطلبه ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:112]؛ يعني: متابعة النبي ﷺ وسيرته، ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ [آل عمران:112]؛ يعني: وإن لم يعتصموا باءوا بغضب من الله وهو البعد عنه والطرد، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:112] كفران النعمة، ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:112]، التي أظهرها الله على أوليائه وأكرمهم بها على سائر الخلق لتبيين الحق، ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:112]؛ أي: يميتون سنن الأنبياء وسيرهم بإظهار أباطيلهم في طلب الدنيا والحرص عليها، وكتمان الحق بترك طلبه، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ [آل عمران:112]؛ أي: لسبب أنهم عصوا الله في أوامره وطلبه وترك غيره، كما قال تعالى ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم﴾ [الأنعام:91] وعصوا الرسول في دعوته إياهم إلى الله وكان ﴿دَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب:46]، ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:112]، يتجاوزون عن سنن الاستقامة ويتناكبون عن الصراط المستقيم الذي هو ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:6].

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [آل عمران: 113 - 117].

ثم أخبر عن الفرق بين الفريقين والتفاوت بين الطريقين بقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:113]، والإشارة في الآيات: إن الله تعالى فرق بين العلماء الربانيين وعلماء السوء المداهنين، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[آل عمران: 113]؛ يعني: من العلماء منهم ﴿أُمَّةٌ﴾ [آل عمران:113]؛ أي: فرقة ﴿قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران:113] بالله، ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:113]، يتبعون آياته ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [آل عمران:113]؛ ليريهم الله آياته ﴿فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:113]، ينقادون لأحكامه الأزلية وتقديراته الإلهية ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [آل عمران:114]، إيمان الطلب، وتصديق قضائه في الأزل، ووفور قدره إلى الأبد، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: 114]؛ أي: يطلبون الحق، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:114]؛ أي: طلب ما سوى الله، ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران:114]؛ أي: فيما يوصلهم إلى الله، ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:114]، الذين يصلحون لقبول الفيض الإلهي ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [آل عمران:115]، تتقربون به إلى الله تعالى ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران:115] بل تشكروه، فإن تقربتم إليه شبرًا تقرب إليكم ذراعًا، وإن تقربتم إليه ذراعًا تقرب إليكم باعًا، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:115]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:116]، الذين يتقون به عما سواه، وعليم بالفاسقين الذين كفروا بنعمته، واستغنوا بالأموال والأولاد شيئًا ما تنفعهم في إصابة اللطف إليهم ودفع القهر عنهم ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [آل عمران:116]؛ يعني: نار القطيعة، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:116]؛ يعني: لا يفارقونها؛ لأنهم صحبوها بالقلوب والأرواح لاستيفاء شهوات النفس والأشباح.

ثم أخبر عن نفقات أهل الشهوات بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران:117]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى ضرب مثل ما ينفقون في هذه الدنيا؛ أي: استيفاء اللذات النفسانية، وتمتعات الشهوات الحيوانية، وانتفاع الحظوظ الدنيوية: كمثل ريح فيها صر بالاتفاق في تحصيل المرادات النفسانية، ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران:117]؛ أي: الريح التي فيها صر الشهوات النفسانية أهلكت حروث الروحاني وآثاره، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:117] في الخلقة، إذا أعطاهم حسن الاستعداد الروحاني وآثاره،﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ﴾ [آل عمران:117]، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران:117]، بإبطال استعداد الروحاني وإهلاك ريع حرثه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: 118 - 123].

ثم أخبر عن اتخاذ الغير بطانة فإنه يورث الخيانة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران:118]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى نهى عن مباطنة أهل السوء من الحديث وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:118]؛ أي: لا يقصرون في إنكاركم، والاعتراض عليكم والظن فيكم، ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران:118]؛ أي: أحبوا من نعيم الدنيا وزخارفها، ومشتهيات النفس، ومستحسنات الهوى ما نعمتموه وتركتموه، ويشهد عليكم إنكارهم؛ لدناءة همتهم وعلو همتكم، وفرحوا بما قاسيتم من المجاهدات ومخالفات النفس، وترك الشهوات

واللذات، والتزام الفقر وتحمل الأذى، والصبر على المكروهات، وابغضوهم لتناكر الأرواح واختلاف أحوال الأشباح، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: 118] باعتراضاتهم الفاسدة، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ [آل عمران:118] قلوبهم الحاسدة من الغل والحسد والحقد، ﴿أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران:118]؛ أي: أظهرنا عليكم آثار ألطافنا وإمارات أحقادهم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:118] تدركونها.

ومن آثار ألطافنا معكم ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ [آل عمران:119] محبة الرحمة والشفقة، وتدعونهم إلى ما أنتم عليه من الشوق والمحبة وصدق الطلب، والتجرد والتفرد للتوحيد، ومن إمارات أحقادهم أنهم ينكرون عليكم ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:119] ويدعونكم إلى ما هم عليه من الحرص والحسد والغفلة، وطلب الدنيا واستيفاء اللذات والشهوات، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران:119]؛ أي: بجميع ما في القرآن من ترك الدنيا، وجهاد النفس ونهيها عن الهوى وبذلها في إعلاء كلمة الله العليا، والخُلق مع الخَلق والصدق في طلب الحق ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾ [آل عمران:119]، أهل التملق ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ [آل عمران:119]؛ يعني: يظهرون معكم الإيمان بما أنتم به، وعلمتم وهم لا يعلمون، ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران:119] الذي في قلوبهم منكم حسدًا عليكم، ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران:119] دعاء عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:119]؛ يعني: يعلم ما في القلوب التي في الصدور إن موتها في الغيظ والحسد.

فمن حسدهم عليكم ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ [آل عمران:120]، كرامة من الله تعالى وفضل منه، وقبول من الحق، وظهورات ألطاف الحق على معاملاتكم وأخلاقكم التي من نتائج كمالاتكم، ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [آل عمران:120]، مساءة من الخلق والإنكار والرد والطعن والاعتراض، ﴿يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ [آل عمران: 120] على ما أصابكم من الأذى والمصائب ﴿وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران:120]، عنهم بالله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران:120] بل يضرهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:120]؛ أي: مهلكهم بكيدهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

[فاطر:43].

ثم أخبر عن النصر بعد الصبر لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: 121]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى يشير إلى جواهر السالك الصادق السائر العاشق ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾[آل عمران:121] في طلب الحق والرجوع إلى مقام القرب، ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران:121]؛ أي: من صفات نفسك الحيوانية والبهيمية، ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:121]؛ أي: صفاتك الروحانية، ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: 121]؛أي: لقتال النفس والشيطان والدنيا، ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ [آل عمران:121] لدعائكم بالإخلاص عن الرياء، وبترك الهلاك في نية الهوى، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:121] بصدق نياتكم في طلب الحق، ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ [آل عمران:122]؛ يعني: القلب وأوصافه، والروح وأخلاقها، ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران:122] أخرجهما من ظلمات البشرية والخلقية إلى أنوار الربوبية والخالقية، ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:122] في إخراجهم من الظلمات لا على أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران:123] الدنيا ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123] من غلبات شهوات النفس، وكثرة الوساوس، واستعنتم بربكم فأمدكم بنصرة القربة، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ [آل عمران:123]؛ أي: اتقوا عما سواه؛ لينصركم على كل شيء يحول بين الله وبينكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:123]؛ أي: لكي ينعم بنعمة الهداية إليه فتكونوا مشاكرين لنعمة وجود المنعم به.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)﴾ [آل عمران: 124 - 127].

ثم أخبر عن إمداده لنصرة عباده بقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ [آل عمران:124]، إشارة في تحقيق الآيات: إن نور نبوة النبي ﷺ يلهم أرواح المؤمنين على الدوام عند مقابلة الشيطان، ومجاهدة النفس، ومكايدة الشيطان والهوى، والركون إلى

زخارف الدنيا والميل إليها، ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران:124]؛ يعني: الجنود الروحانية الملكوتية التي لا تدركها الحواس لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:26]، فتقوى بها قلوبكم لدفع خوف البشرية ورفع عجز الحيوانية، ويحييها بروح رباني كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:22].

﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا﴾ [آل عمران:125] على مخالفة النفس ونهيها عن هواها ﴿وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران:125]، بالله عما سواه ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [آل عمران:125]؛ أي: يزدكم في الإمداد بالجنود الروحانية وهم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:125]، بسوم الربانية.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ﴾ [آل عمران:126]؛ أي: ما ذكر الله الملائكة وعددهم ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ [آل عمران:126]؛ أي: لاستبشاركم بالمدد الإلهي، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ [آل عمران:126]، بذكر الملائكة وكثرة عددهم؛ لأنكم أرباب الوسائط المحتجبون عن الله برؤية الوسائط، وأما القلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد: 28] فالله تعالى رفع الوسائط بينه وبينهم وقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:36]، ولهذا التحقيق قال الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران:126]؛ يعني: ليس النصر من الملائكة وغيرهم إلا من عند الله؛ لأنه هو ﴿الْعَزِيزِ﴾ [آل عمران:126] الذي يعز من يشاء بالنصر، ويذل من يشاء بالقهر، ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر:10] ﴿الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:126] الذي بحكمته يعز من يشاء على من يشاء كيف يشاء متى شاء على ما يشاء.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:127]؛ يعني: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران:126] ليقهر بعض الصفات النفسانية وهي منشأ الكفر بنصر الروح وصفاته، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ [آل عمران:127]؛ أي: يغلبهم ويظفر بهم كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:21]، ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ [آل عمران:127]؛ يعني: النفس وصفاتها، ﴿خَائِبِينَ﴾ [آل عمران:127]، فما كانا يرجون أن يظفروا بالروح وصفاته

ويغلبوهم.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: 128 - 132].

ثم أخبر عن اختصاصه بالأمر في القهر والنصر بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:128]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى أظهر كمال رأفته ورحمته على عباده، بحيث أن الكفار كانوا يشجون رأس نبيه وحبيبه ﷺ، ويدمون وجهه، ويكسرون رباعيته، وهو أراد أن يدعوا عليهم، خاطبه الله تعالى تعطفًا وترحمًا عليهم بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:128]؛أي: ليس لك من أمر العباد شيء لتغلبهم وتدعوا عليهم، إنما أمرهم إلى الله نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ [الأنعام:159]؛ أي: بل أمرهم إلى الله، إن يشاء يغفر ذنوبهم ويمح كفرهم بالتوبة، بأن يتوب عليهم فإنهم عباده وإنه حكم بإسلامهم في الأزل، وإن يشأ يعذبهم على كفرهم وظلمهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:128]، وقد حكم بكفرهم من الأزل؛ لأنه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران:129]، من الملك والملك، والأمر والخلق، والمنع والعطاء، واللطف والقهر، ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:129] بلطفه وفضله، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:129]؛ أي: بقهره وعدله، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:129]؛ أي: ولكن الله غفور يغفر الذنوب جميعًا، رحيم وسعت رحمته كل شيء؛ لأنه سبقت رحمته غضبه، ولهذا ما وكل أمر العباد إلى أحد ولا حسابهم يوم القيامة وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية:25-26].

ثم أخبر عن طريق أهل الصلاح للفلاح بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران:130]، إشارة في الآيات :إن الله حرم الربا، وقال:

﴿لَا تَأْكُلُوا﴾ [آل عمران:130]؛ لأنه يؤدي إلى الحرص على طلب الدنيا، ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران:130] إلى ما لا يتناهى، كما قال ﷺ :«لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا ولا يملئ جوف ابن آدم إلا التراب»(1) والحرص درك من دركات النيران، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:131]، قدم عليها ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:130]، وهذا خطاب للخواص؛ أي: اتقوا بالله عن غير الله في طلب الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:130] عن حجب ما سواه، وتفوزوا بالوصول إلى الله تعالى.

ثم خاطب العموم الذي هم أرباب الوسائط بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران:131]؛ أي: نار الحرص التي يورث منها نار القطيعة وهي النار ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:131]، دون المؤمنين؛ لأن المؤمن إن يرد نار الحرص المركوز في جبلة بداية أمره كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم:71]، ولكن ينجيه الله تعالى منه بالقناعة والتقوى لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم:72]، ولقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:132] من عذاب نار الحرص، ولا تعذبون بنار القطيعة، كما أن الكافر مخصوص بهذا العذاب المعد له، وحاصل معناها أن الحرص على الدنيا والسعي في جمعها مذموم منهي عنه، والبذل والإيثار وترك الدنيا والقناعة فيها محمود مأمور به، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:276].

---

(1) حديث أنس: أخرجه الطيالسي (ص 266، رقم 1983)، وأحمد (3/ 247، رقم 13611)، والدارمي (2/ 410، رقم 2778)، والبخاري (5/ 2365، رقم 6075)، ومسلم (2/ 725، رقم 1048)، والترمذي (4/ 569، رقم 2337)، وابن حبان (8/ 29، رقم 236).

حديث ابن عباس: أخرجه أحمد (5/ 117، رقم 21148)، والبخاري (5/ 2364، رقم 6072)، ومسلم (2/ 725، رقم 1049).

حديث الزبير بن العوام: أخرجه البخاري (5/ 2364، رقم 6073).

حديث سعد بن أبي وقاص: أخرجه الضياء (3/ 228، رقم 1033). وأخرجه أيضًا: الطبراني في الأوسط (4/ 8، رقم 3473)، وفي الصغير (1/ 239، رقم 390).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: 129 - 136].

ثم أخبر عن المسارعة إلى الجنان بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:133]، إشارة أن الله تعالى خلق الإنسان لدخول الجنة ودرجاتها، والنار ودركاتها، والوصول على حظائر القدس والقربة ومقاماتها، ثم أرسل المرسلين مبشرين بالجنة ومنذرين عن النار، وخص من بينهم نبينا محمد ﷺ بالدعوة إليه فقال تعالى: ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللهِ﴾ [الأحزاب:46]، فحثهم بالاتقاء والحذر من النار كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:131]؛ يعني: هم مخصوصون بها؛ لأنهم ما اتقوا عن الشرك ومتابعة الهوى، فإن ترك الهوى ينجي به من النار وهو التوحيد والائتمار بأوامر الله تعالى، والانتهاء عن نواهيه.

وحرضهم عن المسارعة إلى الجنة بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:133]؛ أي: سارعوا بقدم التقوى إلى مقام من المقامات قرب ربكم، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران:133]، والإشارة فيها: إن الوصول إليها بعد العبور عن ملك السماوات والأرض وهي المحسوسات التي تدركها الحواس الخمس، والعبور عنها إنما يكون بقدم التقوى الذي هو تزكية النفس عن الأخلاق الذميمة الحيوانية والسبعية والشيطانية، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133]، فإن التقوى التي تولج به في عالم الملكوت هي التزكية لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [طه:76]، وذلك جزاء من تزكى، ويدل عليه ما قال النبي ﷺ عن عيسى عليه السلام: «لن يلج ملكوت السماوات والأرض من لم يولد مرتين»[1]، فالولادة الثانية هي الخروج عن الصفات الحيوانية بتزكية النفس عنها، وولوج الملكوت هو التحلية بالصفات الروحانية، فافهم جيدًا.

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133]؛ أي: هم مخصوصون ومراتبهم في الدرجات العلا بقدر تقوى النفوس وتزكيتها.

ثم شرح أقسام التقوى والتزكية بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:134]؛ أي: ينفقون أموالهم وأرواحهم في الضراء، بل ينفقون المكونات في طلب المكون، ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران:134]؛ أي: عند القدرة على إنفاذه لطلب رضاء الله تعالى، ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران:134]؛ يعني: يصدر منهم برؤية مصدر الأفعال إنه هو الله تعالى، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134]؛ يعني: الذين لهم هذه الأخلاق، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [آل عمران:135]، وهي رؤية غير الله، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران:135]، وذلك تعلقاتها بما سوى الله، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران:135]، بالنظر إليه ورؤيته، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:135]، التجئوا إليه في قطع التعلقات عما سواه، ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:135]؛ أي: ومن يستر بكنف عواطفه ذنوب وجود الأغيار إلا الله، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران:135]، ولم يثبتوا على رؤية الوسائط والتعلق بتا، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] [آل عمران:135]، «ألا إن كل شيء ما خلا الله

---

(1) ذكره الألوسي في التفسير (1/ 362).

(2) قيل: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسوم والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، =

باطل»(1). ﴿أُولَئِكَ﴾ [آل عمران:136]؛ يعني: الذي فيهم هذه الأقسام، ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:136]؛ أي: هم مستحقون لمقامات القربة، ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران:136]؛ يعني: من مياه العناية خالدين فيها مشفعين إلى الأبد فيما يسارعون إليه، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران:136]، الذي سارعوا مما نالوا من الدرجات العلا وقربات المولى، والإشارة فيه: إن نيل المقصود في بذل المجهود، كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:39].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝١٤٠﴾ [آل عمران: 137 - 140].

ثم أخبر عن سنن أهل السنن بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:137]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى خص السائرين إلى الله تعالى بالمهاجرة عن الأوطان والمسافرة إلى البلدان؛ لمفارقة الخلان والأخدان ومصاحبة الإخوان غير الخوان، فيصبروا عن سنن أهل السنن فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137]؛ أي: أمم لهم سنن، ﴿فَسِيرُوا﴾ [آل عمران:137] على سنن أهل السنة، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران:137]، نفوسكم الحيوانية بالعبور من أوصافها الدنية وأخلاقها الردية لتبلغوا سماء قلوبكم الروحانية، وتتخلقوا بالأخلاق الربانية ﴿فَانْظُرُوا﴾ [آل عمران:137]؛ أي: ثم انظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137]؛ أي: صار حاصل أمر النفوس المكذبة بهذه المقامات الروحانية والمكاشفات الربانية عند

وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. انظر: البحر المديد (1/ 337).

(1) هو نص من حديث تقدم تخريجه.

الوصول إليها.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138]، أي: لأهل الغفلة والغيبة الناسين عهد الميثاق ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138]؛ لأهل الهداية والشهود الذاكرين للعهود الذين انقطعوا بالتجارب واتقوا عما سوى الله ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران:139]، يا سائرين إلى الله في السير إليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران:139]، على ما فاتكم من تنعمات الدنيا والكرامات الأخروية ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:139]؛ يعني: وأنتم الأعلون من أهل الدنيا والآخرة في المقام عند ربكم إن كنتم مصدقين بهذه الأخبار تصديق الائتمار ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [آل عمران:140]، في أثناء السير من المجاهدات وأنواع البلاء والابتلاء ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ [آل عمران:140] من الأنبياء والأولياء، ﴿قَرْحٌ﴾ [آل عمران:140] من المحن، ﴿مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:140]؛ أي: من المحن والبلاء والابتلاء والامتحان ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ [آل عمران:140] بين السائرين إلى يومًا نعمة ويومًا نقمة ويومًا منحة ويومًا محنة، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:140]، أي: لتحيزهم بالابتلاء والامتحان، ويجعلهم مستعدين لمقام الشهادة، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران:140] يا مبتلون بالنعمة والنقمة في آثار السير ﴿شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران:140] أرباب الشهود والمشاهدة، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:140]؛ يعني: الذين يصرفون استعدادهم في طلب غير الحق والسير إليه.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)﴾ [آل عمران: 141 - 144]

ثم أخبر عن فوائد الابتلاء والأعداء بقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:141]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [آل عمران:

142]، إشارة في الآيات: إن قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:141] دال على أن كل هم وغم وبلاء وعناء ومحنة ومصيبة تصيب المؤمنين في الله يكون تكفيرًا لذنوبهم، وتطهير لقلوبهم، وتخليصًا لأرواحهم، وتمحيصًا لأسرارهم، وما يصيب الكافرين من نعمة ودولة وحبور وسرور وغنى ومنى في الدنيا يكون سببًا لكفرانهم، ومزيدًا لطغيانهم، وغرورًا لخذلانهم، وعمى لقلوبهم، وتمردًا لنفوسهم، ومحقًا لأرواحهم ولقلوبهم، وسحقًا لأسرارهم، وفيه إشارة أخرى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:141]؛ يعني: البلاء لأهل الولاء بتمحيص القلوب عن ظلمات العيوب، وتنويرها بأنوار الغيوب، ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:141] بالبلاء؛ يعني: يمحق صفات نفوسهم الكافرة، ويمحو سمات أخلاقهم الفاجرة؛ ليتخلصوا عن تدنس حبس قفص الأشباح، ويفوزوا بتقديس رياض حظائر الأرواح كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [آل عمران:142]، إن تلجوا عالم الملكوت ورياح الأرواح، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:142]، ولم ير الله منكم مجاهدات تورث المشاهدات، ولم ير الصبر منكم عند تزكية النفوس على وفق الشريعة، وتصفية القلوب على قانون الطريقة، وتحلية الأرواح بأنوار الحقيقة.

﴿ولَقَدْ كُنْتُمْ﴾ [آل عمران:143] يا أرباب الصدق وأصحاب الطلب ﴿تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ [آل عمران:143]؛ يعني: موت النفوس عن صفاتها تزكية لها، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران:143]؛ يعني: قبل أن تلقوا مجاهدات ورياضات في خلاف النفس وقهرها عند لقاء العدو في الجهاد الأصغر ظاهرًا، وفي الجهاد الأكبر باطنًا، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران:143]؛ يعني: إذا رأيتم هذه الأسباب التي كنتم تمنون عيانًا ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران:143] ولا تغذون أرواحكم، ولا تجاهدون في الله بأموالكم وأشباحكم في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:144]، إشارة إلى: إن الإيمان التقليدي لا اعتبار له فيبطل المقلد عن إيمانه عن انعدام المقلد به، فمن كان إيمانه بتقليد الوالدين والأستاذ وأهل البلد ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ﴾ [الحجرات:14] في قلبه ولم تشرح صدره بنور

الإسلام، فعند انقطاعه بالموت عن هذه الأسباب المقلد بها يعجز عن جواب سؤال الملكين في قولها: «من ربك فيقول: هاه لا أدري، وإذ يقولان: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هاه لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقولان له: لا دريت ولا تليت»[1]، كما ورد في الحديث، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران:144]؛ أي: ومن يرتد عن إيمانه التقليدي ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:144]؛ يعني: لا يضر الله ارتداده، ولكن يضر المرتد المقلد، ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:144]؛ يعني: الذين شكروا نعمة الإيمان التقليدي بأداء حقوق الائتمار بأوامر الشرع، والانتهاء عن نواهيه، سيجزيهم الله بالإيمان مزيدًا، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)﴾ [آل عمران: 145 - 148].

ثم أخبر عن المؤمن المقلد أنه هو الذي يريد العقبى بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [آل عمران:145]، إشارة في الآية: إنه لا يكون للنفس أن تموت عن أوصافها الدنية وأخلاقها الردية ويتخلص منها بطبعها إلا بإذن الله تعالى وأمره ونظر عنايته وجذبة فضله ورحمته، كما أن ظلمة الليل لا تنتهي إلا بإشراق طلوع الشمس، فكذلك ظلمة ليل النفس لا يغيب إلا بإشراق أنوار الربوبية، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:69] ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾، أي: كتابة من الله مؤجلة بوقت تعينه ومشيئته، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة:22]؛ أي: بقلم العناية من نور الهداية.

ثم اثبت للعبد كسبًا في طلب الهداية واستجلاب العناية بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ

(1) رواه بنحوه الإمام أبي داود (4755)، والإمام أحمد في المسند (19038)، وابن أبي شيبة في مصنفه (12059).

ﵟثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَاﵞ [آل عمران:145]، والإشارة فيه: إن ثواب الدنيا هو أنواع الكرامات التي خص الله تعالى بعض خواصه في الدنيا من العلوم اللدنية الربانية، والكشوف والشهود الروحانية النورانية، وغيرها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أولئك الذين نفذ الله لهم الوعد، كما قال الصوفي ابن رقته في معناه:

أنشدوا خليلي هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشي إلى عبد

أتى زائرًا من غير وعد وقال لي أصونك عن تعذيب قلبك بالوعد

يعني: من كانت همته في الطلب التبتل إلى الله تعالى بالكلية والتوحيد إليه بخلوص النية وصفاء الطوية، ويقطع بقدم الصدق مفاوز البشرية، تستقبله ألطاف الربوبية وتنزله مقام العندية قبل خروجه بالصورة عن الدار الدنيوية؛ ﵟوَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِﵞ [آل عمران:145]؛ يعني: من كان مشربه من الأعمال لا من الأحوال، ولا يزعجه الشوق المبرح عن مألوفات الطبع، فيسير بقدم الشرع ومقصده نعيم الجنان لا بمقصود يوجه به، يدل على هذا التصريح قوله تعالى: ﵟرَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةًﵞ [البقرة: 201]، والحسنة ما أشرنا إليها في معنى الثواب، وحمل الثواب على هذا المعنى أولى من حمله على معنى إرادة الدنيا؛ لأن الثواب يستعمل بضد العقاب وإرادته هي عين العقاب؛ ولأنه ما ذكر الله تعالى عقيب قوله: ﵟوَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَاﵞ[آل عمران:145]، قوله: ﵟوَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍﵞ [الشورى:20]، كما قال تعالى في قوله: ﵟوَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍﵞ [الشورى:20] وله نظائر كثيرة، وقال في عقبه: ﵟوَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَﵞ [آل عمران:145]، وهذا وعد لا وعيد، والوعد يذكر عند فعل مقبول محمود، والوعيد يذكر عند فعل مردود ومذموم؛ والمعنى: سوف نجزي كلا الفريقين على قدر شكرهما، وهو رؤية النعمة، وجزاء الشكر ازدياد النعمة، فمن عمل شوقًا على الجنة فقد رأى نعمة الجنة فثوابه في الآخرة، ومن عمل شوقًا إلى الحق تعالى، فقد رأى نعمة وجود المنعم فثوابه في الدنيا؛ لأنه حاضر لا غيبة له، قريب لا بعيد، ﵟوَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْﵞ [الحديد:4]، وقال: «ألا من طلبني وجدني، ومن تقرَّب إليَّ

شبرًا، تقرّبت إليه ذراعًا»[1].

ثم أخبر عن إقامة الشكر في إدامة الصبر بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ [آل عمران:146]، إشارة في الآيات: إنه وكم من نبي قاتل العدو، وأعدى العدو هي النفس التي بين جنبي الإنسان، ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:146]، قاتلوا العدو والربّيون، هي المتخلقون بأخلاق الرب ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران:146]، من تعب مجاهدات النفس وتضرر رياضتها، ومما ابتلاهم الله به ﴿مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:155]، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:146]؛ أي: في سلوك طريق الوصول إلى الله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ [آل عمران:146]؛ يعني: في طلب الحق، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران:146]؛ يعني: وما رجعوا عن الطريق بالعجز، وما أذلوا نفوسهم بالتفات إلى غير الحق والصد عن سبيل الله، بل ثبتوا على قدم الطلب واستقاموا كما أمروا وصبروا على ما نهوا عنه، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]، عند أحكام مجاري القدر المستسلمين لقضائه والمتحملين أعباء بلائه.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ [آل عمران:147]، عند إصابة الآلام والأسقام ونزول الأقضية والأحكام، ﴿إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:147]؛ أي استر ذنوب وجودنا بإسبال مغفرتك ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران:147]؛ أي: أمح عنا سرف أمورنا، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [آل عمران:147] على جادة الطلب ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:147]، متمردين صفات النفس الكافرة ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:148] بصنيعهم وقولهم ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران:148]؛ أي: فتوحات الغيب والموهب في الدنيا، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:148]؛ أي: أحسن المراتب وأعلى المقامات في الآخرة، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:148]، الذين يعبدون الله على بصيرة كأنهم يرونه، وفيها إشارة أخرى وهي: إن الله تعالى لما أراد بخواص عباده كرامة التخلق بأخلاقه، ابتلاهم بقتال العدو وثبتهم عند المقامات،

---

(1) رواه الإمام البخاري (7405)، والإمام مسلم (6981)، من غير لفظ: (ألا من طلبني وجدني).

فاستخرج من معادن ذواتهم جواهر الصفات المكنونة فيها المكرم بها بنو آدم الصبر والإحسان، فهما صفات من صفات الله تعالى، ويتخلقوا بها هذا من ثواب الذي أتاهم الله تعالى، والله يحب صفاته ويحب من تخلق بصفاته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: 149 - 151].

ثم أخبر عن طاعة الكافرين أنها خذلان الخاسرين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: 149]، إشارة في الآيتين: إن الخطاب مع القلوب المؤمنة المستخلصة من صفات النفس الأمارة بالسوء، إن تطيعوا النفوس الكافرة وتتبعوا هواها، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 149] إلى أسفل السافلين ببشريتكم ويمسكم كما كنتم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: 5]، ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 149].

﴿بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ﴾ [آل عمران: 150]، كقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 150]، لا يحتمل عليه غير الله من الناصرين.

وقال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ﴾ [آل عمران: 151] أي: سبب إشراكهم بالله نظيره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]؛ أي: بسبب زيغهم، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: 24]؛ أي: بسبب صبرهم وأمثاله في القرآن كثيرة، ثم قال تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]؛ أي: مرجع الذين أشركوا نار القطيعة وبئس مثواهم لظلم عظيم؛ ولهذا ﴿لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (152) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ﴾ [آل عمران: 152 - 153].

ثم أخبر عن الهزيمة أنها من طلب الغنيمة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران:152]، والإشارة في الآيتين: إن الله تعالى صدقكم أيها الطلاب وعده، وهو قوله: «ألا من طلبني وجدني»[1]، ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ [آل عمران:152]؛ أي: تقتلون وتميتون الصفات البشرية ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران:152]، على وفق أمره على وفق الطبع، ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ [آل عمران:152]؛ أي: حسبتم وتركتم قتال النفس وصفاتها، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:152]؛ أي: خالفتم أمر الطلب ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:152]؛ أي: عصيتم أمر الدليل المؤدي من بعد ما أريكم الدليل بالتربية ما تحبون من دلائل الطريق التوبة من التسليك، وإرشاد الخروج من محاب الدنيا والآخرة، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:152]؛ يعني: إنما عصيتم أمر الدليل إذ دلكم على الله؛ لأن منكم من كان همته في طلب الدنيا وزخارفها، ومنكم من كان همته في طلب الجنة ونعيمها، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:152]؛ أي: مجاهدة النفس وقصد صفاتها باستيلائها عليكم، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران:152]؛ أي: ليمتحنكم بالسر بعد ما تجلى لكم أنوار المشاهدات، وبالصحو بعد ما أسكركم بأقداح الواردات، أو بالفطام بعد ما أرضعكم بلبان الملاطفات، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران:152]، بعد ابتلائكم عفا عن التفاتكم في الدنيا والآخرة، فإنه علم ضعف الإنسان وعجز بشريته في طلب الحق وأدركتكم العناية الأزلية التي بها قدر لكم الإيمان

(1) تقدم تخريجه.

وجعلكم مؤمنين، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:152] من الأزل.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ [آل عمران:153]؛ يعني: بفضل الله وعنايته تصعدون، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ [آل عمران:153] طريق الحق طالبين بعد ما كنتم هاربين، ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ [آل عمران:153]؛ أي: لا تلتفتون إلى أحد من الأمرين طلب الدنيا والآخرة، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ [آل عمران:153]؛ يعني: رسول الوارد من الحق يدعوكم إلى عبادتي إليَّ، ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ [آل عمران:153]، فجازاكم بفضله ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران:153]؛ أي بدل غم الدنيا والآخرة بغم طلب الحق والوصول إليه، ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران:153] من الدنيا وزخارفها، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران:153] من نعيم الجنة الباقية، فإن لذة غم طلب الحق يزيد على لذة نعيم الدنيا والآخرة، فضلاً من لذة الوجدان وسرور الوصول ونعيم الشهود، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:153]، من ترك نعيم الدنيا والآخرة في طلب وجدانه، ويجيب رجاكم ويوفي جزاءكم.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155)﴾ [آل عمران: 154 - 155].

ثم أخبر عن إنزال النعيم بعد الغم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:154]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى ينزل حقائق أصناف ألطافه على عباده في صور مختلفة، كما أنزل حقيقة الآمنة والصبر والتثبت والشجاعة على الصحابة يوم أحد في صورة النعاس، ﴿يَغْشَى

طَائِفَةً مِنكُمْ﴾ [آل عمران:154]؛ يعني: المؤمنين فجعل النعاس معدن جواهر ألطافه من الأمن وغيره مما ذكر الصحابة، وجعله معدن جواهر الوقائع السنية لأرباب القلوب من المكاشفات والمشاهدات، والواردات وأنواع المواهب، فإن أكثرها تقع في النعاس بين النوم واليقظة، ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ [آل عمران:154]؛ يعني: المنافقين، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:154]، هي إشارة إلى أرباب النفوس الذين لا يهتم بهم إلا هم ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:154]، من استيفاء حظوظها وتتبع شهواتها، ولذاتها الجسمانية وتمتعاتها الحيوانية بخسة طبعها وركاكة نظرها الحسي، ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [آل عمران: 154]؛ يعني الظن الباطل ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:154]؛ أي: كظن أهل الجاهلية؛ وهو ظن الأمور إلى الخلق لا إلى الله بقضائه وقدره، ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران:154]؛ أي: مالنا مدعي الإسلام من أمر النصرة والظفر من شيء، فما وعدنا الله ورسوله أن ﴿النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ [آل عمران:126] وإليه أمره، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ﴾ في الدارين ﴿كُلَّهُ للهِ﴾ [آل عمران:154]، منه وإليه وبه ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران:154]، بل تبدون بعضهم لبعض، وهو قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:154]، من أمر النصرة والحقيقة في الدين، ﴿شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران:154]، بالباطل على أيدي حزب الشيطان والمبطلين ﴿قُل لَوْ كُنتُمْ﴾ [آل عمران:154]، أيها الغافلون عن الأحكام الأزلية وسر القدر، ﴿فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ [آل عمران:154]؛ أي قضى وقدر عليهم القتل بالحكم من الأزلية ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:154]، ﴿لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: 42]، ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران:154]، أيها المنافقون مما تخفون في أنفسكم من النفاق والإنكار والاعتراض على الله ورسوله، والكفر بآيات الله والأخلاق الردية والأوصاف الدنية، ويخرجها عنكم قولاً وفعلاً، أيها المؤمنون مما تضمرون في قلوبكم من الإيمان والإيقان والتصديق بالقرآن، والتسليم لله ورسوله وتفويض الأمور إلى الله، والرضا بقضاء الله وقدره، والأخلاق الحميدة والأوصاف الكريمة، ويستخرجها منكم خلقًا وعملاً بتخصيص هذا التمحيص.

وفيه معنى آخر وهو: أن معنى التمحيص بمعنى التطهير، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:154]، من دنس الإنساني وغيره من الصفات الذميمة عند التولي، فيستغفرون منها فيغفر فيطهركم منها، كما قال تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 155]، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:154]؛ يعني: قبل استخراج ما فيها، ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:154] بما فيها، فيستخرجها بهذا؛ لإظهار ما فيها على العالمين حجة عليهم ولهم، والنكتة في ذكر أصحاب النفوس، وهم المنافقون بابتلاء ما في الصدور وفي ذكر أولى الألباب، وهم المؤمنون بتمحيص ما في القلوب أن الصدور معدن النفاق والغل ووسوسة الشيطان وتسوله كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، وإن القلوب محل التقوى والإيمان، قال تعالى: ﴿امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات:3]، وكذلك قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة:22]، وقال: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، ولذلك أظهر الله تعالى تمحيص ما في قلوب المؤمنين ثلث الصفات من صفاته العلا وأسمائه الحسنى، وهو العفو الغفور والرحيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران:155] من التولي؛ ليجعله مرآة ظهور صفاته العفو والمغفرة، وهذا سر قوله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم فيذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم»(1)، ليعلم أن الله تعالى قادر على كل شيء من الخير والشر أسرارًا لا يبلغ كنهها إلا هو، ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

(1) أخرجه أحمد (2/ 309، رقم 8068)، ومسلم (4/ 2106، رقم 2749). وأخرجه أيضًا: عبد الرزاق عن معمر في الجامع (11/ 181، رقم 20271)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/ 410، رقم 7102).

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 156 - 159].

ثم أخبر عن كفر من فزع الغزاة في الحياة والمهات بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ [آل عمران:156] في الطلب والسير إلى الله، ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران:156]؛ أي: سافروا في البلاد وجحدوا وأنكروا وأرجعوا عن طريق الحق باستهواء الشيطان وغلبة الهوى، وكفروا إشارة في الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾ [آل عمران:156]، خطاب ﴿آمَنُوا﴾ [آل عمران:156] مع السائرين إلى اللهو لا تكونوا كالذين يستفيدون من المراد وسلكوا في أرض نفوسهم سبيل الرشاد ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ [آل عمران:156]، مجاهدين مع كفاء النفس والهوى والشيطان، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ [آل عمران:156]؛ أي: موافقين معنا في الرفق ﴿مَا مَاتُوا﴾ [آل عمران:156] من مقاساة الشدائد، ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:156] رياضة وجهدًا، ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:156] القول ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:156]؛ أي: قلوب الصديقين، ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:156]، أيها المنكرون في تغيير الصديقين، وأيها الصديقون في الثبات على قدم الصدق في طلب الحق ﴿بَصِيرٌ﴾ [آل عمران:156]، فيما يجازي الفريقين على قدر الاستحقاق.

﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [آل عمران:157]، سبيل الرشاد، بسيف الصدق ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ [آل عمران:157]، عن صفات النفس ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ﴾ يجبكم الله بتا، ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران:157]، أرباب النفوس وأهل الأهواء من أوزان جمع الدنيا والحرص عليها والبخل بها، ومن وبال التنعم والتلذذ بشهواتها، ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ﴾ [آل عمران:158] أيها المجاهدون في جهاد النفس، ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران:158] أيها الصديقون في سبيل الطلب، ﴿لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:158]؛ يعني: حشر المقتول بسيف الصدق والذي ماتت نفسه عن صفاتها، يكون إلى الله لا إلى غيره من الجنة والنار، وإن كان عبورها عليها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54- 55].

ثم أخبر عن لين القلوب أنه برحمته علام الغيوب بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ

لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:159]، إشارة في الآية: إن كل لين يظهر في قلوب المؤمنين بعضهم على بعض، فهو برحمته الله ونتيجة لطفه مع عباده إلا من خصوصية أنفسهم، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53]، وإن كانت نفس الأنبياء - عليهم السلام - حتى قال الله تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:159]؛ يعني: لين قلبك للمؤمنين كان من رحمة الله التي أرسلنا على قلبك إليهم لا من رحمتك، فالله تعالى يمن على النبي ﷺ بهذا ويقول له: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران: 159]؛ يعني: ولو كنت باقيًا على فظاظة خلقك، وقساوة قلبك قبل أن تشرح صدرك وتغسل قلبك وتنظر إليه بنظر المحبة، ونرسل إليه الرحمة لتلين جماهم ﴿لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159]، وتفرقوا عن صحبتك من خشونة قلبك وغلظة فعلك، وقلة صبرك وتحملك على أذاهم، وكما أنك لنت لهم برحمتنا ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 159] بعفونا، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران:159] بمغفرتنا، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:159]، فإن القلوب للعفو عنها المغفور منورة بصفات عفونا ومغفرتنا، فهو مؤمنة في الإشارة منها فإنها تنظر بنور ربها، وكل قلب ينظر بنور الحق لا يرى إلا الحق فيكون صادقًا فيما يرى، كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11]، فمعناه؛ أي: فشاور أرباب القلوب المنورة الملهمة من الله؛ ليكون رأى قلبك النور بنور الوحي مؤكد بالآراء التي منشأها القلوب المنور بنور الإلهام، فإنه تلو الوحي، نظيره قوله تعالى: ﴿فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [يونس:94].

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ [آل عمران:159]؛ يعني: بعد المشاورة لاستصواب الآراء المنورة بنور الوحي والإلهام، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [آل عمران:159]، لا على تلك الآراء فيما يظهر من الأمور مما تكرهه وتحبه، فإنه أعلم بالصواب منه لك منك، كقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216]، وفيه معنى آخر، فإذا عرفت الخروج من قشر الوجود، فتوكل على الله إلى تفويض أمر قشر الوجود إليه لا تقدر أن تخرج عن نفسك، بل

هو الذي يخرجكم عن ظلمة وجودكم المخلوقة إلى نور القدم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35]، والتوكل تفويض الأمور الإلهية التي لا يمكن لغير الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159]، الذين جذبتهم العناية برسن المحبة إلى عزيمة الخروج من حجاب الوجود للوصول إلى المحبوب، ففوضوا أمر إخراج عن الوجود إلى الله تعالى لا سبيل لغيره إليه؛ لأنه هو الذي أخرجهم من العدم إلى الوجود، فهو يخرجهم منه بفضله وكرمه ويهديهم إليه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: 160 - 163].

ثم أخبر عن النصرة والخذلان أنهما إليه لا إلى الأعوان، بقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾[1] [آل عمران:160]، إشارة في الآية: إن الله تعالى إن ينصركم بجذبات العناية

(1) قال الشيخ البقلي الشيرازي: نصر الله سكينته وقعت من نور تجلي الحق سبحانه في قلوب العارفين؛ حيث توجهت من الحدثان إلى جلاله بنعت التضرع في عظمته وكبريائه، فلما تلبَّست أنوار الغيب مع نور البسط والرجاء، فقويت بها الأشباح فأيدت لهم بحلول الأزل وقوته، فحينئذ انحسرت جنود القهر بسطوة الهيبة عن معارك عساكر اللطف.

وذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»، وحقائقه مشروحة في ترقي مقامات دنو النبي ﷺ وذلك إشارته في سجوده بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك».

نصر الله في المريدين توفيقهم في قمع الشهوات، ونصره في المحبين نور اليقين من تبسم فلق صبح الأزل بنعت المداناة، ونصره في العارفين انفتاح كنوز أسرار العلوم المجهولة بمفاتيح كشف المشاهدات.

قال بعضهم: إنَّما يدرك نصر الله مَنْ تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه في جميع أسبابه؛ لأن مَنْ اعتمد على حوله وقوته ورأى الأشياء منه، فإنه مردود إلى حول الله وقوته وعلمه.

قال الأستاذ: نصرته بالتوفيق بلا أشباح، ثم بالتحقيق للأرواح. ويقال: ينصركم بتأييد الظاهر، وتسديد السرائر. ويقال: النصرة إنما يكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، النصر
-

ويخرجكم من حجب الوجود، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160]، من أوصافكم وأحوالكم وأقوالكم، ومن نعمة الدنيوية والأخروية التي هي منشأ الوجود، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ [آل عمران:160] بترك الجذبات لإخراجكم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ [آل عمران:160] يخرجكم من جمع الأنبياء والمشايخ، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران:160] من بعد فضل الله وكرمه، ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:160]؛ أي: فليفوض إلى الله تعالى أمر الإخراج من الوجود، المؤمنون الذين يعتقدون أن الله هو القادر على الإخراج عن الوجود، كما أنه القادر على الإدخال في الوجود، ويوقنون إن الخلائق عاجزون عن هذا الإدخال والإخراج إلا بإذنه، ولا يصح التوكل على الله إلا لمؤمن موقن بأنه ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى:53] كلها في معنى الخلق والرزق والأجل وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ [النساء:78].

ثم أخبر عن نفي غلول الأنبياء في شيء من الأشياء بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران:161]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى ينفي الغلول عن الأنبياء في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ [آل عمران:161] من ثلاثة أوجه:

على تهزم دواعي فتنتها بعواصم رحمته حتى تنقص جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات، فتبقى الولاية خالصة عن شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية، وشهوات النفوس وأمانيها التي هي آثار الحجبة وموانع القربة.

(1) للآية تفسيران: الأول أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا بتصفية الطباع وإسقاط الوسواس ومنعه من أن يرد على القلوب، فإن الشيطان مشغول بالعذاب، فلا يتفرغ لإلقاء الوسواس فلم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف. عن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. الثاني: أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقص ، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة الناقصة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة فيكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبريء بعض أهل النار من بعض ولعن بعضهم بعضاً وليس هذا ببديع ولا بعيد من حال أهل الجنة ، فإن أولياء الله تعالى في دار الدنيا أيضًا بهذه المثابة بحسن توفيق الله تعالى ونور عنايته، وهدايته كل منهم قد قنع بما حصل له من نعيم الدنيا وطيباتها لا يميل طبعه إلى زوجة غيره أحسن من زوجته ولا إلى مشتهى ألذ مما رزقه الله ، وكل هذا نتيجة ملكه الرضا بالقضاء والتسليم لأمر رب الأرض والسماء، فيموتون كذلك ويحشرون على ذلك وفقنا الله لنيل هذا المقام ببركة أولئك الكرام.

إحداها: ينفي الغلول من أفعالهم وأقوالهم؛ لأن فاعل الغلول أمر به وأمر به وهو منكر، والأنبياء أمروا بالمعروف، فالآمر بالمنكر لا يصلح أن يكون نبيًا.

وثانيها: ينفي الغلول من خصالهم؛ لأن الغال خائن، والأنبياء أمناء الله على وحيه، والخائن لا يصلح أن يكون نبيًا.

والثالث: ينفي الغلول من أحوالهم؛ لأن حال الغال أن يكون الغالب على أمره النفس وهواها، ومن حال النبي أن يكون غالبًا على أمره.

كما أخبر عن حال يوسف عليه السلام بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف:21]، فمغلوب النفس والهوى لا يصلح للنبوة؛ لأن النبي ﷺ من يكون شفيعًا لأمته يوم القيامة، والشفيع هو الذي ينجوا بنفسه ثم ينجي غيره، ومن حال الغال ما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:161]؛ أي: يأتي به حاملاً على ظهره ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [آل عمران:161]؛ أي: يجازي كل غالبة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران:161]، من الغلول، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:161] في مجازاة عقوبة الغلول، دليله قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:118]، فالمعاقب بمجازاة الغلول كيف ينجي غيره من العقوبة؟ ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ﴾ [آل عمران:162]؛ أي: وحي ﴿اللَّهِ﴾ [آل عمران:162]، دليله من ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:106]، ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:162]؛ أي: الغلول، معناه أن النبي ﷺ من اتبع ما أوحي إليه طلب رضوان الله، لا الغال الذي يتبع بغلوله سخط الله، ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 162]، من هذا حاله فلا يساوي حال الغال أحوال الأنبياء، ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:163]؛ يعني: هم الدرجات في مقام عندية الحق وهو مقعد الصدق، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:163]، أهل الدرجات من الأنبياء وأتباعهم، وأهل الدركات من المنافقين

-

[تفسير النيسابوري (3/ 422)].

القالين، فيجازيهم على قدر أعمالهم ونياتهم، «فإنما الأعمال بالنيات»(1).

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: 164 - 168].

ثم أخبر عن خاصية النبوة والمنّ بها على الأمة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:164]، إشارة في الآية: إن الله تعالى مَنَّ على المؤمنين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:164]؛ أي: من جنسهم من بني آدم ولا ملكًا من

---

(1) حديث عمر : أخرجه مالك في رواية محمد بن الحسن (ص 338 ، رقم 983 طبعة دار ابن خلدون)، وأحمد (1/ 25 ، رقم 168) ، والبخاري (1/ 3 ، رقم 1) ، ومسلم (3/ 1515 ، رقم 1907) ، والترمذي (4/ 179 ، رقم 1647) ، وأبو داود (2/ 262 ، رقم 2201) ، والنسائي (6/ 158 ، رقم 3437) ، وابن ماجه (2/ 1413 ، رقم 4227) . وأخرجه أيضًا : ابن المبارك (1/ 62 ، رقم 188) ، والحميدي (1/ 16 ، رقم 28) ، والبيهقي (1/ 41 ، رقم 181) ، والطحاوي (3/ 96) ، والطبراني في الأوسط (1/ 17 ، رقم 40) ، والخطيب (4/ 244) ، وابن عساكر (32/ 166) ، وابن منده في الإيمان (1/ 363 ، رقم 201) ، وتمام في الفوائد (1/ 205 ، رقم 483) ، والصيداوي في معجم الشيوخ (1/ 117) ، وابن خزيمة (1/ 73، رقم 142) ، والدارقطني (1/ 50) ، وأبو عوانة (4/ 487، رقم 7438) ، والبزار (1/ 380، رقم 257) ، وهناد (2/ 440، رقم 871) ، والبيهقي في الزهد (2/ 131، رقم 241) ، والحسن بن سفيان في الأربعين (1/ 56، رقم 13) ، وابن منده في مسند إبراهيم بن أدهم (ص 24 ، رقم 13) ، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص 35، رقم 20) ، والحسن بن علي العامري في الأمالي والقراءة (ص 34 ، رقم 26) ، والسلفي في مشيخة ابن الحطاب (ص 102 رقم 15)، والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (1/ 39، رقم 1) ، والديلمي (1/ 118، رقم 401) ، والقضاعي (1/ 35، رقم 1) ، وابن حبان (2/ 113، رقم 388).

الملائكة، فإنهم لا يدركونه بالحواس الخمس ولا ينفعهم به؛ لأنه من غير جنسهم، ويكن الانتفاع إلا من الجنس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:9]؛ يعني: من الكسوة البشرية؛ لكي ينتفعوا به حين ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران:164]؛ لأن جبريل ﷺ كان ينزل على النبي ﷺ ويتلوا عليه آيات الله وبعض الصحابة كانوا حاضرين، ولكن لا يسمعون تلاوته ولا ينتفعون بها، إلا أن النبي ﷺ كان يتلوا عليهم بلسان الظاهر فيسمعونها وينتفعون بها، فلما أراد الله تعالى أن يعلمهم معالم دينهم بواسطة جبريل ﷺ، ألبسه لباس الصورة حتى جاء على صورة إعرابي قد أسند ركبته إلى ركبة النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ ما الإحسان؟ ولم يعرفه أحد من الصحابة، فلما خرج من المسجد قال رسول الله ﷺ: «هذا أتاكم بعلم معالم الدين»[1]؛ فلهذا مَنَّ الله تعالى عليهم ببعث النبي ﷺ من جنسهم يتلوا عليهم كل يوم وليلة آياته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران:164] عن أخلاقهم الذميمة النفسانية، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:164]؛ أي: القرآن، ويبين لهم معانيه وأسراره، كما قال تعالى ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:44]، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:164]؛ يعني: الشرائع والسنن كما ذكره في سورة البقرة، ﴿وَإِن كَانُوا﴾ [آل عمران:164] في الجاهلية، ﴿مِن قَبْلُ﴾ [آل عمران:164] بعثه، ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم﴾ [الزخرف:22].

ثم أخبر عن إصابة المصيبة أنها من شؤم النفس الخبيثة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران:165]، إشارة في الآية: إن المؤمن إذا أصابته مصيبة يصيب مثلها من كفارة الذنوب ورفعة الدرجات، وإن أصابته تلك المصيبة من شؤم ما اكتسبت أيديكم، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:165] أن يجعل المصيبة كفارة للذنوب ورفعة للدرجات، وأن يغفر الذنوب ويرفع الدرجات من غير مصيبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة:15]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي

(1) أخرجه ابن عساكر (36/ 304).

الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر:15]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْـجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ [آل عمران:166]؛ أي: ببلائه وابتلائه لكم، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:166]، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران:167]؛ أي: ليبتلي المؤمنين منه ببلاء حسن في بذل الروح والصبر والثبات على قدم الجهاد في سبيل الله، ويميزهم عن المنافقين، وليظهر نفاق الذين نافقوا بقعودهم عن القتال وحب الحياة واختيار الدنيا على الآخرة، وإظهار نفاقهم وكذبهم عند قولهم: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:167]، يدعون بألسنتهم أتباع المجاهدين في سبيل الله، وليس في قلوبهم شوق إلى الله ومحبته، ولا يتعرضون لنذر الروح شوقًا إلى لقائه وطلبًا لرضائه ولأنوار الإيمان، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:167]؛ أي: أعلم منهم بما يكتمون في أنفسهم من صفات الكفر والنفاق، وبما جبلت عليه أنفسهم في أصل الخلقة وتخمير طينتهم التي من نتائج صفاتهم الذميمة وفساد اعتقادهم، ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:168] وافقونا بالنفاق وسوء الاعتقاد والقعود عن طريقة الحق، ﴿مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْـمَوْتَ﴾ [آل عمران:168] موت القلوب الذين من خصائصه: النفاق، وسوء الأخلاق، وفساد الاعتقاد، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:168] في دعواكم أنكم مصيبون في نفاقكم، وإخوانكم مخطئون على بذل الروح في سبيل الله.

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[آل عمران: 170 - 173].

ثم أخبر عن حال من رزق الاستشهاد ومن قتل في الجهاد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ

﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾ [(1)] [آل عمران:169]، إشارة في الآية: إن أرباب القلوب الذين قتلوا أنفسهم بسيف الصدق في سبيل السير إلى الله تعالى، فلا تحسبن أهل الغفلة والبطالة إنهم أموات وما ماتت نفوسهم، ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران:169] قلوبهم، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:169] بنور جماله، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ﴾ [الأنعام:122]، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169]، من كؤوس تجلي الصفات ساقيهم شراب الشهود، ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران:170]؛ أي: بما جذبتهم العناية الإلهية إلى عالم الوصول، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران:170]، من إخوان الصدق ومريديهم ، ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران:170]،وهو بعد في سلوك الطريق إلى الله تعالى، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:170] من الانقطاع في الطريق؛ لأنهم شاهدوا وعاينوا إن متابعيهم

---

(1) ومن لطائف ما ذكره البقلي في «العرائس» قوله عند تفسيره هذه الآية: نبَّه الخلق أن مَنْ قُتِلَ في سبيل العشق بسيوف العشق انسلخ من الحدث إلى القدم، والتبس بنور الأزل من الأزل، فلما بلغ نعت الأولية واتصف بصفة الأزلية، يصير منعوتًا بنعت الأخروية موصوفًا بوصف الأبدية؛ لأن صفات الحق جلَّ سلطانه واحدة في الوحدانية خارجة عن الجمع والتفرقة، لبضها في الأفعال متفرقة مع الأسماء، ونورها في العينية جمع لأهل الوحدة، ومحل أن وصل نور الصفة فيكون خارجًا عن الصفة الأولية صفة، والأخروية صفة، والآخر أول في النعت، فمَنْ كان نعته أولية فيكون نعته أخروية، وإذا خرج من الحدثان إلى جمال الرحمن لم يجر عليه صفات الحدث بعده عن صفة الموت والفناء، بل يصير حيًا باتصافه بحياة الحق، وحياة الحق أبدي، لم يجر عليه علل حياة الإنساني وموت الإنساني، وهذا من فيض نور مشاهدته وعنديته؛ لأن مقتول السيف التجلي يحيا بقبض القربة والعندية، ومَنْ يكون في العندية كيف يفنى ويموت وهو مشاهد في شهود الحق إياه ورزقه فيض مزيد مشاهدة الحق، وزيادة اتصاله ببقاء الحق، وفرحه بنيل بقائه من بقاء الحق.

ومَنْ قُتِلَ بسيف الإرادة فهو باقٍ بنور القربة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المحبة فهو باقٍ في سنا المشاهدة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المعرفة فهو باقٍ في أنس الوصلة، ومَنْ قُتِلَ بسيف التوحيد فهو باقٍ بالوحدة في الوحدة، وحياة هؤلاء من تجلي الأزلية وشهادة هؤلاء بغيرة العزة، غار عليهم فأفناهم، وأحبهم فأبقاهم.

قال ابن عطاء: المقتول على المشاهدة باقٍ برؤية شاهده، والميت مَنْ عاش على رؤية نفسه ومتابعة هواه.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: لا تظنن الهالكين في طريق الإرادة طلبًا لوصله مردودين إلى مقاماتهم، بل قد بلغ بهم غاية ما قصدوا من القرب والوصلة إحياءً بقرب الحق عند ربهم في مجلس المشاهدة، يرزقون زيادة الفوائد من أنوار الاطلاع فرحين بالغين أقصى رضاه.

مجذوبون بجذبات الحق، وإنه لا انقطاع بها فيصلون إليهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:170]، على فوات الحياة النفسانية؛ لفوزهم بالحياة الربانية.

ثم أخبر عن الاستبشار بفضل الملك الغفار بقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:171]، والإشارة في الآيات: إن الشهداء الذين استشهدوا في طلب الحق بسيف الصدق، يستبشرون عند فناء البشرية بنعمة من الله وهي البقاء ببقاء الإلوهية؛ لأنه قال تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ [آل عمران: 171] لا من الجنة وغيرها، ﴿وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:171]؛ أي: إعطائهم هذه النعمة إنما كان بفضل منه لا بمجازاة أعمالهم على الحقيقة؛ لأن المجازاة إنما تكون بالأمثال والأضعاف، كقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:160]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، فاعلم جدًّا ﴿أَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:171]؛ يعني: إذا أعطاهم نعمة البقاء بفضل منه لا بمجازاة أعمالهم فلا يضيع أجر أعمالهم، فيجازيهم بالجنة ونعيمها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:17]، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26]؛ الحسنى: عفي الجنة، والزيادة هي: النعمة التي من فضل الله وفضل الله منه.

ثم وصفهم وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله﴾ [آل عمران:172] عند الميثاق الأول، إذ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] فأجابوه: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172]، أقررنا بالربوبية والوحدانية، ﴿وَالرَّسُولِ﴾ [آل عمران:172]، فأجابوه بقبول دعوة أتباعه في أخذ ما أتاهم وانتهاء ما نهاهم عنه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران:172]؛ أي: جراحة المفارقة من حظائر القدس وجوار رب العالمين، فإن الخلائق استجابوا لله عامتهم إذ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، قيل: أصابهم قرح المفارقة من تلك الحضرة، وما استجاب للرسول من بعد ما أصابهم قرح المفارقة، إلا خواصهم وهم الذين اتقوا الشرك الجلي والخفي منهم، وأحسنوا في العبودية، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:172]، وهو نعمة البقاء بالله التي هي الفضل من الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء:113].

ثم وصفهم بصفة أخرى هي تتمة كلامه، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران:173]؛ يعني: بالنفس الأمارة بالسوء الناسية تلك المخاطبة عند الميثاق، ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:173]، واهربوا منهم، وفي الحقيقة؛ أي: القلب ودواعي الحق [لو صدقوكم] أيتها النفس اللوامة؛ لغنوكم عنكم بسطوة ذكر الله وتجلي صفاته، فاخشوهم بترك الذكر والمراقبة ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران:173]، أما لأهل الظاهر بالتفكر في عواقب الأمور، فعلموا أن الدنيا فانية وأن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:26]، وتحققوا أن المقتولين في سبيل الله ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:169]، فزادهم نور الإيمان، وشاهدوا بذلك النور الزائد مقامات أهل الزيادة عند ربهم فزهدوا في الدنيا وما فيها؛ طلبًا مقام العندية في مقعد الصدق، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173]، وأما لأهل الحقيقة فبشواهد الغيب كوشفوا أن الحجاب الأصلي والمانع الحقيقي لهم عن المقصد والمقصود وهي النفس وصفاتها فاشتاقوا إلى فنائها وارتحلوا عن فنائها، ونادى رب العزة: «أنا يا أهل العزة، [الراجين ذلك] المقام، دع نفسك وتعال»، فزادهم صار الإيمان عيانًا، فودعوا الملوثات وخلفوا المكونات، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173]، كما قال الخليل عليه السلام مع جبريل عليه السلام، والذي أشار إليه النبي ﷺ قوله: «كان آخر ما تكلم به إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»[1]؛ يعني: آخر مقام الخلة أن يكبر عن نفسه وما سواه، كما قال بعضهم: حب الواحد انفراد الواحد.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [آل عمران: 174 - 177].

(1) البخاري (4/ 1662 رقم 4288).

ثم أخبر عن حالهم في مالهم بقوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:174]؛ أي: من فضيلة وكمالية لم يكونوا متصفين عند خروجهم من مكان من الغيب إلى عالم الشهادة بالتجارة لهذا الربح، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: 54]، لمن اتبع رضوانه، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة:16]، والسلام هو الله تبارك وتعالى.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمران:175]؛ يعني: على طريق الحق إليه، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:175]؛ يعني: من لم يكن ولي الشيطان لا يخوفه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:42]، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران:175]؛ لأنه ليس لأحد من الأمر شيء، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175]، بأني أنا الضار النافع، وأنا المعطي وأنا المانع بهذه الأفعال، فإنها وفق الإرادة والمشيئة الأزلية، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:253]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران:176]، إشارة إلى كمال التسليم والرضاء بالقضاء، وما يجري في العالم من الكفار وغيرهم مما يسارع به في الكفر من القتل والنهب والأسر وأمثاله، بحيث لا تحزن على شيء منها ﴿إِنَّهُمْ﴾ [آل عمران:176]؛ أي: لأنهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:176]، القدرية فإنما تجري عليهم هذه الأفعال الموبقة؛ لأنه ﴿يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:176] من الجنة ونعيمها، ويريد أن يكون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:176]، من نار القطيعة وجحيمها ألزم الحجة على القدرية، وإن الخير والشر من الله تعالى بهذه الآية، ثم ألزم الحجة على الجبرية بآية أخرى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 177]، أثبت لهم الكسب والاختيار والاشتراء، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:177]، من فقدان الإيمان ووجدان الكفر بما اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا

فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: 178 - 180].

ثم أخبر عن إملائهم لابتلائهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:178]، الإشارة في الآيات: إن ازدياد إثم الكفر وتماديه في الكفر من نتائج قهر الله وخذلانه في صورة امتنانه في العصيان والكفران، إنما علا لهم ﴿لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:178]، في الدنيا بالقتل والنهب والأسر والنبي وفي الآخرة بالسلاسل والأغلال ﴿يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: 48].

ثم ذكر من نتائج فضل الله وكرمه مع المؤمنين وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ الله لِيَذَرَ الْـمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران:179]، الخطاب مع أهل الخذلان؛ يعني: لا يذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الخذلان والكفر، بل يجذبهم بجذبات العناية من حضيض الضلالة إلى ذروة الهداية ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْـخَبِيثَ﴾ [آل عمران:179]، المخذول المقهور ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:179]، المجذوب المشكور، ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾(1) [آل عمران:179]؛ لتميز المقبول من المردود، والسعيد من الشقي ﴿وَلَكِنَّ الله

---

(1) إنَّ لله غيوبًا، غيب الظاهر، وغيب الباطن، وغيب الغيب، وسر الغيب، وغيب السر.

أمَّا غيب الظاهر: فما أخبر الله تعالى عن أمر الآخرة ولا يطَّلع عليها إلا مَنْ بلغ مقام اليقين، وصاحبه خارج عن شواغل النفوس، وخطرات الشياطين، لكن لم يكن على حد الاستقامة، فرؤية الآخرة له تارة؛ لأن اليقين خطرات، وهذا الخطاب بهذا المعنى خطاب الأضداد.

وأما غيب الباطن فغيب للمقدورات المكتومة عن قلوب الأغيار، وذلك الخطاب خطاب أهل الإيمان.

وأما غيب الغيب فهو سر الصفات في الأفعال، وفي هذا المعنى خطاب المريدين.

وأما سر الغيب فهو نور الذات في الصفة، وهذا الخطاب للمحبين.

وأما غيب السر، فهو عينية القدم التي لا يطَّلع عليها أسرار الخليقة أبدًا.

وإذا كان هذا الغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ ﴾ [آل عمران: 179]؛ فخطابه مع جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والأصفياء الصدِّيقين العارفين الموحدين؛ لأن الأزلية منزَّهة عن إدراك الخلائق أجمعين، وخاصية نبينا ﷺ في هذا المعنى رؤية هذه

-

﴿يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:179]، فتطلعون بهم على الغيب أن المجتبي هو المقبول السعيد، ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ [آل عمران:179]؛ لتكونوا من أهل الاجتباء، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران:179]، بمجرد صورة الإيمان والإقرار لا تكونون من أهل الاجتباء، بل بحقيقة تقوى الظاهرة والباطن تنالون كرامة الاجتباء، كما قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13]، ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:179]، على قدر عظيم التقوى، فإن السير إلى المقصد الأعلى والوصول إلى منازل الزلفى لا يكون إلا بقدمي الإيمان والنفي.

ثم أخبر عن البخيل وحاله إذا بخل بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران:180]، إشارة في الآية: إن البخل إكسير الشقاوة، كما أن السيء إكسير السعادة، فبإكسير البخل يصير الفضل قهرًا والسعادة شقاوة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ [آل عمران:180]، بإكسير البخل يجعلون حيرته ما آتاهم الله من فضله شرًا لهم، ولو أنهم طرحوا على ما هو من فضله من المال إكسير السخاء لجعلوه خيرًا لهم، فيصيروه سعادة ولصاروا بها أهل الجنة إذ لا يلج الجنة الشحيح.

ثم عبَّر عن آفة حب الدنيا والمال بالطواف ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:180]، وإنما شبهها بالطوق؛ لأنها تحيط بالقالب، ومنها ينشأ معظم الصفات الذميمة مثل: البخل والحرص، والحسد والحقد، والعداوة والكبر، والتعصب وغير ذلك،

المعاني بنعت الكشف له، وابتسام إصباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة وإدراك الكلية، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران:197] مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم وآدم صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك مشروح في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26،27]. قيل: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وأنتم تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، وإنما يطلع على الغيب مَنْ كان أمين السر والعلانية موثوق الظاهر والباطن، ثم يفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثاقته، ألا تراه يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26،27] هو الفاني من أوصافه، المتصف بأوصاف الحق.

ولهذا قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1]، فبالمنع يصير الروح الشريف العلوي النوراني محفوظًا بهذه الصفات الخسيسة السفلية الظلمانية مطوقًا بآفاتها وحجبها وعذابها يوم القيامة، وبعد المفارقة فإن مات قد قامت قيامته ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:180]؛ يعني: إن الله تعالى خلق الإنسان وارث الدنيا والآخرة استعدادًا، أو قال لكامليهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:10]، الوارث إذا مات من غير وارث فميراثه لبيت المال، فالإشارة فيه: إن من غلبت عليه هذه الصفات ومات قلبه فقد بطل استعداد وارثيه ميراث السماوات والأرض، فإن السيد يرث من العبد ميراثه، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:180]، من الأعمال التي نميت القلوب ﴿خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180]، لا يخفى عليه شيء.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: 181 - 184].

ثم أخبر عن أمثال هذه الأعمال من الأفعال والأقوال بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾، إشارة في الآيتين: إن العبد إذا غلبت عليه الصفات الذميمة واستولى عليه الهوى والشيطان ومات قلبه، تكاملت الصفة الأمارة بالسوء لنفسه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:3-4] إليه الشيطان لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام:121]، والنفس إذا تكلمت بالهوى تدعي بالربوبية ادعاء فرعون، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، فيكون كلامها

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا رقم (9)، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا، وأبو نعيم (6388)، وابن الأعرابي في الزهد(32)، وابن عساكر (7/ 98/ 1)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (1099).

من صفات الربوبية، وإن من صفات الربوبية قوله تعالى: ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد:38]، فإذا تم فساد حال النفس الأمارة بالسوء تثبت صفات الربوبية لنفسها، وصفات العبودية لربها، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:181]، أثبتوا لأنفسهم صفات الربوبية وهي الغناء، وأثبتوا لله صفة العبودية وهي الفقر، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران:181]، وسنميت قلوبهم بأقوالهم هذه كما أمتناها بأفعالهم، وهي ﴿قَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:181]، يشير إلى: إن جزاء هذه الأحوال في حق الله سبحانه مثل جزاء هذه الأفعال في حق الأنبياء - عليهم السلام - ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ﴾ [آل عمران:181]، القلب الميت ﴿الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:181]، بنار القهر والقطيعة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران:182]؛ أي: بشؤم معاملاتكم القولية والفعلية على وفق الهوى والطبيعة، وخلاف الرضاء والشريعة، ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:182]، بأن يضع الشيء في موضعه لهم؛ يعني: لا يجعل المصلح منهم مظهر صفة قهره، ولا المفسد منهم مظهر صفة لطفه، كما قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:124].

ثم أخبر عمن لهم مثل حالهم وشبه مقالهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران:183]، الإشارة في الآيتين، فاعلم أولاً أن الإنسان هو العالم الأصغر فيوجد فيه النموذج من كل ما في العالم الأكبر، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران:183]، إشارة إلى: إن في اليهود صفات البهيمة والسبعية والشيطنة، ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ [آل عمران:183]؛ أي: لا تستسلم ولا تنقاد ﴿لِرَسُولٍ﴾ [آل عمران:183]؛ أي: خاطر روحاني وإلهام رباني، أو وارد حق ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ﴾ [آل عمران:183]، وهو الدنيا وما فيها نجعلها نسيكة لله ﷻ ﴿تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران:183]، ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:6-7]، التي تقدح من زناد نخبهم، فإن كثيرًا من الطالبين الصادقين يجعلون الدنيا وما فيها قربانًا لله تعالى فلا تأكله نار الله، ﴿قُلْ﴾ [آل عمران:183]، يا دار الحق ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي﴾ [آل عمران:183]؛ أي: واردات من الحق ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [آل عمران:183]، والبراهين الظاهرة والحجج الباهرة،

﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ [آل عمران:183]؛ أي: بإتيان الدنيا قربانًا، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران:183]، غلبتموهم وتحرقونهم حتى لم يبق أثر من تلك الواردات، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:183]، إنكم تنقادون بالواردات الحق.

فاعلم: أن الله تعالى كما قدر أن بعض الأمم يغلبون بعض أنبيائهم ويقتلونهم قبل الإيمان أو بعد الإيمان بهم، كذلك قدر أن بعض الصفات النفسانية، فغلب على بعض الإلهامات الربانية والواردات الرحمانية فتمحوها، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:39] قبل انقيادها لها، وبعد ما انقادت لها، ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال:42]، ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ [آل عمران:184]، أيها الوارد الرحماني يهود الصفات النفسانية، ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [آل عمران:184] في الصورة والمعنى، ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:184]؛ أي: بالمعجزات الظاهرة والباطنة وغرائب العلوم، وكشف الأسرار واستخراج الحقائق، واستنباط المعاني التي تعجز عن إتيانها فحول وجمهور الحكماء، ولا يعلمها إلا العلماء بالله.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: 185 - 187].

ثم أخبر عن فوت كل نفس بالموت بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:185]، والإشارة في تحقيق الآيتين: إن كل نفس منفوسة ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:185]؛ يعني: قابلة للفناء، ثم اعلم أن النفوس على ثلاثة أقسام:

قسم منها: يموت ولا حشر له للبقاء كسائر الحيوانات، وقسم: يموت في الدنيا ويحشرون في الدنيا والآخرة؛ وهي نفوس خواص الإنسان، كما قال ﷺ: «المؤمن حيٌّ في

الدَّارين»[1]، على أن لها موتًا معنويًا، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «موتوا قبل أن تموتوا»[2]، وهو الفناء في الله بالله لله ولها حياة معنوي في الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]؛ وهو البقاء بنور الله تعالى، ففي قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْـمَوْتِ﴾ [آل عمران:185]، إشارة إلى: إن كل نفس مستعدة للفناء في الله ولا بد لها من موت، فمن كان موته بالأسباب تكون حياته بالأسباب، ومن كان فناؤه بالله يكون بقاؤه بالله، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:185] على قدر تقواكم وفجوركم، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ [آل عمران:185]، القطيعة وأخرج من جحيم الطبيعة على قدمي الشريعة والطريقة، ﴿وَأُدْخِلَ الْـجَنَّةَ﴾ [آل عمران: 185]، الحقيقة ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:185]، ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ [النساء:73]، ﴿وَمَا الْـحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران:185] ونعيمها، ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:185]؛ أي: متاع يغتر بها المغرور والممكور.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[3] [آل عمران:186] بالجهاد الأصغر، هل

(1) ذكره حقي (2/ 364).

(2) تقدم تخريجه.

(3) النفس صنم زينها الحق بكسوة الربوبية، وملأها من القهر واللطف، وكسي زينة ملكه أموال الدنيا امتحانًا للعاشقين، فمَنْ نظر إلى نفسه بغير زينة الحق صار فرعونًا نطق لسان القهر منه بـ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:24]، وذلك مكر القدم واستدراجه.

ومَنْ نظر إلى الربوبية وفنيت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج - قدّس الله روحه العزيز- بقوله: أنا الحق، ومثاله في ذلك مثال شجرة موسى ﷺ؛ حيث نطق الحق سبحانه منها بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص:30]، نطق بصفته عن فعله.

ومَنْ نظر إلى زينة الأموال التي هي زينة الملك صار حاله حال سليمان- صلوات الله عليه - لأنه كان ينظر إلى شرف جلاله بإعطاء الملك إياه، ومَنْ نظر إلى خضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب، وأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون؛ لأنه محل الالتباس، فمَنْ كان محتجبًا بهذين الوسيلتين عن رؤية الفردانية، بقي في تهمة العشق خارجًا عن نعوت الفردانية والوحدانية.

قال ابن زانيار: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أموالكم بجمعها منعها، والتقصير في حقوق الله فيها، ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ باتباع شهواتها وترك رياضتها، وملازمة أسباب الدنيا، وخلوها عن النظر في أمور المعاد. وقيل:

تجاهدون بها وتنفقونها في سبيل الله أم لا؟ وبالجهاد الأكبر، أما الأموال فهل تؤثرون على أنفسكم ولو كان بكم خصاصة؟ وأما الأنفس فهل تجاهدون في الله حق جهاده أم لا؟ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [آل عمران:186]؛ يعني: أهل العلم الظاهر، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [آل عمران:186] أهل الرياء من القراء والزهاد، ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:186]، بالغيبة والملامة والإنكار والاعتراض، ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ [آل عمران:186]، على جهاد النفس وبذل المال وأذية الخلق، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: 186] بالله عما سواه، ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ [آل عمران:186] الصبر والتقوى، ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:186]، الذي هو من أمور أولي العزم، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35].

ثم أخبر عن سياق أهل الميثاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:187]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى أخذ ميثاق ذرات من رش عليهم من نوره يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، وأعطاه على قدر ذلك الرشاش علمًا بأركان الإسلام ومعاملات الدين، وهدى الإيمان وطريق السلوك إليه، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:187]؛ أي: للناسي منهم ذلك الميثاق، ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187]، عن طالبيه ومستحقيه وذلك؛ لأنه تعالى بنى أمر هذا الدين على النصيحة، كما قال ﷺ: «إنما الدين النصيحة»⁽¹⁾، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:187]، أكثر الخلق

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالاشتغال بها أخذًا وإعطاءً.

(1) حديث تميم الداري: أخرجه أحمد (4/ 102، رقم 16982)، ومسلم (1/ 74، رقم 55)، وأبو داود (4/ 286، رقم 4944)، والنسائي (7/ 156، رقم 4197)، وأبو عوانة (1/ 44، رقم 101)، وابن خزيمة في السياسة كما في إتحاف المهرة للحافظ (3/ 8، رقم 2456)، وابن حبان (10/ 435، رقم 4574)، والبغوي في الجعديات (1/ 392، رقم 2681)، وابن قانع (1/ 109)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/ 323، رقم 5265)، وأبو نعيم في المعرفة (1/ 449، رقم 1291)، والطبراني (2/ 54، رقم 1267)، وابن عساكر (11/ 54).

حديث أبي هريرة: أخرجه الترمذي (4/ 324، رقم 1926)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (7/ 157، رقم 4199)، والدارقطني في الأفراد كما أطرافه لابن طاهر (5/ 346، رقم 5699).

العمل بالميثاق، ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:187]، من متاع الدنيا وزخارفها فإنه قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:77] فانيًا بعذاب كثير باقٍ.

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[آل عمران: 188 - 191].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾ [آل عمران:188] بمتاع الدنيا، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران:188]، من أعمال ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران:188]؛ لأن هذا من صفات أرباب النفوس الأمارة، المغرورين بالحياة الدنيا وتمويهات الشيطان، المحجوبين عن السعادات الأخروية والقربات الحضرية، وإنما يريدون ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ [الشورى:20]، فما لهم ﴿فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: 20]، وإن من صفات القلوب المنورة بنور الإيمان المزينة بزينة العرفان، ما أخبر الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران:153] ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:23]؛ يعني: من سعادة الدارين ونعيم المنزلين، فإنهما يحجبانكم عن الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:188]؛ أي: لمن حجب عن الله بغيره وبها سواه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:189]؛ يعني: من حجب بالملك فإنه مالك الملك، ومن حجب بالمالك فلا يفوته الملك، كما جاءني بعض الكتب المنزلة من طلب ما لنا لم تكن له، ومن طلبنا كنا له وكان له مالنا، أو كلام هذا معناه، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

-

وأخرجه أيضًا : أحمد (2/ 297 ، رقم 7941) ، والطبراني في الأوسط (4/ 122 ، رقم 3769).

حديث ابن عباس : أخرجه أحمد (1/ 351 ، رقم 3281) ، والطبراني (11/ 108 ، رقم 11198)، وأبو يعلى (4/ 259 ، رقم 2372) ، والبزار كما في كشف الأستار (1/ 49 ، رقم 61).

﴿شَيْءٍ﴾ [آل عمران:189]، من الدنيا والآخرة ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:189]، أن ينعم به على طالبيه.

ثم أخبر عن خلق السماوات الأرض وإظهار القدرة والآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:190]، إشارة في الآيتين ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:190]؛ أي: في خلق سماوات القلوب وأطوارها، وخلق أرض النفوس وقرارها، ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ﴾ [آل عمران:190] البشرية وصفاتها، ﴿وَالنَّهَارِ﴾ [آل عمران:190]، الروحانية وأنورها ﴿لَآيَاتٍ﴾ [آل عمران:190]، لإمارات بيِّنات ودلالات واضحات، ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:190]، الذين عبروا بقدم الذكر والفكر من قشر الوجود الجسماني الظلماني الفاني، ووصلوا إلى لُب الوجود الروحاني الباقي، فشاهدوا بعيون البصائر ونواظر الضمير أن لهم وللعالم إلهًا قادرًا حيًا عليمًا، سميعًا بصيرًا، متكلمًا باقيًا، وإنما نالوا هذه المراتب؛ لأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[1] [آل عمران:191]؛ وهي عبارة عن جميع حالات الإنسان؛ أي: يذكرون الله

---

(1) قال الشيخ البقلي: إنَّ الله سبحانه لمَّا خلق أرواح أهل المعارف أوجدها على كشف جماله، فوقعت كينونة الأرواح على سواطع نور المشاهدة، فباشرت أنوارها صميم الأرواح، فعشقت بالله جماله وجلاله، فلمَّا اشترت بالأشباح بقي الذكر والعشق والمحبة معها عوض المشاهدة، ففي كل نفس لا يخلو عن ذكر معاهد الأول ومشاهدة القديم بنعت الشوق والمحبة والعشق، وذلك بغير اختيارها ذاكرة للمذكور، متفكرة للغيبة والحضور، شائقة عاشقة بنعت الهيجان والهيمان على جميع الأحوال، مجذوبة بسلسلة الوصلة إلى جمال القدم، مستغرقة في بحار المواجيد وأنوار الكواشف، لأجل ذلك وصفها الله بدوام الذكر والفكر على نعت السرمد، وأخبر على قدر عقول الخلق عن أحوالهم بلفظ الذكر والفكر، وذلك نعت قلوبهم وعقولهم وأبدانهم، وأخفى شهود أرواحهم مشاهد القدس والأنس لطفًا وإبقاءً وغيرةً، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:191] فقيامهم مقرون بذكر العظمة والكبرياء، وقعودهم مقرون بذكر الجمال وحسن الأفضال، واضطجاعهم مقرون بذكر البسط والانبساط، والرفاهية في الشوق والمحبة، فذكرهم على قدر كشوف الصفات، فكشف العظمة هيجهم إلى ذكر الفناء إلى التوحيد، وكشف الكبرياء هيجهم إلى ذكر الاضمحلال في التواضع والتفريد، وكشف البهاء هيجهم إلى ذكر الخمود في الشهود، وكشف القدرة هيجهم إلى ذكر العجز في العبودية عن إدراك الربوبية، وكشف الجمال هيجهم إلى الغيبة في ذكر الآباد، وعلى ذلك كل صفة لها تجلي، ولذلك التجلي مباشرة في قلوب الذاكرين، ولكل ذكر له عمل في المقامات، وله حقيقة وجد في
-

على كل حال بالظاهر والباطن، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾(1) [آل عمران:191]؛ وهي الأفلاك الدائرة، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:191]؛ وهي الكرة الأرضية مستوية الأضلاع ساكنة الحركات معلقة في وسطها، وأنه كيف خلق فيها الكواكب المنيرات السائرات، فخلق بتأثيرها وخواصها في الأرض المعادن والنباتات والحيوانات تدبيرات متناسبات معقولات، ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران:191]؛ أي: خلقته بالحق إظهارًا للحق على الخلق، ووسيلة للخلق إلى الحق، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:191]، تنزيهًا لك في حقيقتك عن المشبه بخلقيتك والاحتياج ببريتك،

الحالات.

ذكر الرضا من رضا الحق والتوكل من حب الله، وذكر القهر من جبروت الله، وذكر الأفضال من ملكوت الله، وذكر الآلاء من ملك الله، وعلى قدر ظهور الصفات لهم تسرمد الذكر الذي وافق الكشف من الأسماء والصفات والنعوت والذات.

سبحان مَنْ خصَّ الأولياء بكشوف صفاته، سبق ذكره لهم بهذه الفضائل والقربات قبل ذكرهم إياه إلى الآزال، فذكره جعلهم ذاكرين، ورحمته جعلتهم متفكرين في جلاله وعظمته، ومَنْ عاش منهم عن حقيقة القدم، صار متصفًا بعد الذكر بصفة المذكور، وخرج من مقام الذكر لغيبته عن الذكر في رؤية الأزل والأبد، فعند ذلك الذاكر والذكر والمذكور في باب الاتحاد واحد في شرط الفردانية، والموحد الذاكر يفنى ويبقى الموحد لا غير، كما لم يزل في الأزل.

وقال الواسطي: كل ذاكر على قدر مطالعة قلبه بذكره، فمَنْ طالع ملك الجلال ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك رحمته ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك معرفته ذكره على ذلك، ومَنْ طالع ملك سخطه وغضبه كان ذكره أهيب، ومَنْ طالع المذكور أغلق عليه باب الذكر.

(1) التفكر في خلق السماوات والأرض على معنيين:

الأول: طلب غيبة القلوب في الغيوب التي هي كنوز أنوار الصفات التي تبرز منها مقادير الخلق، يتفكرون في محض الربوبية، وإرادتهم إدراك أنوار القدرة التي تبلغ الشاهد إلى المشهود بحقيقة رؤية الوصف.

والثاني: جولان القلوب بنعت التفكر في إبداع المُلك في المُلك، طلب مشاهدة المالك في المُلك، الأول منزل التوحيد، والآخر منزل الجمع.

قال بعضهم: هو رؤية الله قبل التفكر في الأشياء، وواسطة التفكر أن ترى الأشياء قائمة بالله، وفساد التفكر أن ترى الأشياء فيستدل بها على الله، وقبل ذلك بالتفكر في صفات الحق لا في المحدثات، ولو كان ذلك على المحدثات لقال: ويتفكرون في السماوات. [عرائس البيان].

﴿فَقِنَا﴾ [آل عمران:191] يا مستغني عنا، ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:191]؛ أي: عذاب نار قهرك وعظمتك وكبريائك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝﴾ [آل عمران: 192 - 195].

ثم أخبر عن خبر أهل النار في تلك الدار بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:192]، إشارة في: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارِ﴾ [آل عمران: 192]؛ أي: من تدخله نار قهرك فقد أخزيته وأهلكته بالقهر وأضللته عن صراطك المستقيم، فيقع في نية الضلالة والغواية ويظلم نفسه بالشرك والطغيان، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:192] على أنفسهم بالخذلان، ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران:192]، ينصرونهم ويخرجون من نار القهر، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران:192].

ثم أخبر عن شرائط العبودية في استجلاب فضل الربوبية بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ [آل عمران:193]، إشارة في الآيات: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ [آل عمران:193]؛ أي: من هاتف الحق في الغيب بالسمع الحقيقي، ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: 193]، أي: ينادينا لأجل الإيمان، ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ [آل عمران:193]، وهذا أمر حتم موافق للإرادة القديمة، ﴿فَآمَنَّا﴾ [آل عمران:193]؛ يعني: بالإرادة القديمة وبإسماع الحق إيانا نداء منادي الحق آمنًا، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال:23]، ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:193]؛ يعني: يا ربنا كما أسمعتنا منادي الإيمان بفضلك ورحمتك، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران:193] بإيماننا وطاعتنا

في حال الحياة، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:193]؛ يعني: مع التوفيق بمعاملة الأبرار ومن جملتهم وطريقتهم الهداية؛ أي: ما أعددت لعبادك الصالحين«مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1]، ومما قلت: «من تقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبه كنت له سمعًا وبصرًا»[2].

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:194] بإظهار سوء أعمالنا، وعدم توفيق التوبة والاجتهاد في طلبك، ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:194] الذي وعدتهم للعباد والمؤمنين، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران:195]؛ يعني: من كان هذا دأبه مع الله عاكفًا على بابه بصدق العبودية والإخلاص، وطلب ألطاف الربوبية، يستجيب لهم ربهم ما سئلوا، وذلك ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران:195]، بالظاهر والباطن في السر والعلانية ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:195]؛ يعني: على قدر همتكم وجدكم ورجوليتكم، وضعفكم في الأعمال والنيات أجازيكم، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [آل عمران:195]، عن الأوطان والأوطار والأعمال السيئة والأخلاق الذميمة، وجاهدوا بالأشباح والأرواح، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾[3] [آل عمران:195]؛ يعني: هاجروا من معاملات الطبيعة تقربًا إلى الله تعالى، فأخرجوا من ديار الطبيعة إلى عالم الحقيقة، بسطوات تجلي صفات الربوبية تقربًا إلى العبد كقوله تعالى: «تقربت إليه ذراعًا»[4]، ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران:195]؛ أي: في طلبي أوذي بالابتلاء وأنواع البلاء، ﴿وَقَاتَلُوا﴾ [آل عمران:195] مع النفس، ﴿وَقُتِلُوا﴾

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 313، رقم 8128)، والبخاري (3/ 1185، رقم 3072)، ومسلم (4/ 2174، رقم 2824)، والترمذي (5/ 346، رقم 3197) وقال: حسن صحيح.

(2) تقدم تخريجه.

(3) قال الأستاذ: المظلومُ منصورٌ، ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:52]، وقد يجري من النَّفسِ وهواجسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ، وأهل القصةِ - ظُلْمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ، وتستولي غَاغَةُ النَّفس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق، وشوارق الأحوال [تفسير القشيري (5/ 200)].

(4) تقدم تخريجه.

[آل عمران:195] بسيف الصدق، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران:195] وجودهم، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [آل عمران:195] الوصول، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران:195] أنهار العناية، ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران:195]؛ أي: كرامات من مقامات العندية الخاصية، ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:195]؛ أي: عنده حسن ثواب لا يكون عند الجنة وغيرها.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 196 - 200].

ثم أخبر عن ذلة أهل الدنيا وعزة أهل التقى في العقبى بقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران:196]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى خاطب النبي ﷺ بخطاب ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ [آل عمران:196] لمعنيين:

أحدهما: خطاب التكوين، إذ قال له: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ [آل عمران:196]، فكان كما قال: لا تغره أبدًا، تنعم الذين كفروا وتمتعاتهم بنعيم الدنيا، يدل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل:40].

والثاني: خاطبهم بهذا الخطاب؛ ليعلم أمته أنه ﷺ مع كمال مرتبته وقوته خوطب بهذا؛ لاحتمال وقوعه في ورطة الغرور بالدنيا وتمتعاتها، فلا يأمن أحد على نفسه وتوقانها عن ورطة الغرور بها، ولا يغتر بغرور الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر:5]، فإنها ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:197]؛ وهي مشرب النفوس الأمارة بالسوء، وصواحبها ذلك أيام قلائل، ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران:197]، البعد عن الحضرة ودركاتها، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:197].

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [آل عمران:198]، احترزوا عن الدنيا وما فيها تقربًا إلى

﴿وَرَبِّهِمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ [آل عمران:198]، القربة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: 198]، والكرامات والسعادات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران:198]، مخلدين فيها، لا انقطاع لتلك القربات والكرامات، ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران:198]؛ أي: سبيل النزول من عند الله، هذه كلها ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ﴾ [آل عمران:198] من كمالات القرب ومشاهدات الجمال والجلال، ﴿خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [1] [آل عمران:198] من نعيم الجنان والوقوف مع ما هو نزل لعباد الرحمن، وإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم أخبر بفصل الخطاب عن مؤمني أهل الكتاب بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:199]، إشارة في الآية: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:199]؛ هم العلماء المتقون، ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ [آل عمران:199]؛ يعني: يكون إيمانه من نتيجة نور الله الذي دخل قلبه، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:199] من الواردات والإلهامات والكشوف بأرباب القلوب، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:199]، من الخواطر الرحمانية، ﴿خَاشِعِينَ لِلهِ﴾ [آل عمران:199]؛ أي: خاضعين له، تجلى الله لأسرارهم بصفات الجمال فعاشوا متواضعين له، كما قال ﷺ: «إذا تجلى الله بشيء خضع له» [2]، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [آل عمران:199]؛ أي: بما أوتوا من العلم والحكمة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:199]، عرضًا من العروض الدنيوية، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [آل عمران:

(1) قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ بيَّن الله تعالى رفعة منازل المتقين في الجنان، ثم أبهم لطائف العندية لهم، بقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أي: ما عنده من نعم المشاهدة ولطائف القربة وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من النَّعيم في الجنة، وأيضًا صرح في بيان مراتب الولاية أنه ذكر المتَّقين، والتقوى تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفات، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبيَّن أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. وأيضًا: أعجبوا الأبرار بما وجدوا من أنوار نيران المكاشفات، ولطائف المناجاة، وحقائق المشاهدات بنعت الوجد والحالات، فأخبرهم أن ما هم فيه بالإضافة إلى ما عنده لهم في الآخرة كلا شيء في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ وأيضًا لا يتعجبوا صورة أحكام أهل الدنيا في طراوتهم، وحسن هيئاتهم، أيها المريدون؛ فإن شدائد مجاهداتك تورث سليم العيش في رؤيتي وقربتي ومشاهدتي. قيل: ما عنده لهم خير ما يطلبونه بأفعالهم.

(2) رواه عبد الرزاق في المصنف (3/ 105)، (4943).

199]؛ أي: ثوابهم وجزاؤهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:199]؛ يعني مقام العندية ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:199]؛ أي: يعجل في جزاء أعمالهم بحبيب نياتهم؛ ليبلغهم إلى مقاماتهم في القرب قبل وفاتهم، ولا تؤجل إلى بعد وفاتهم، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 72]، وقال ﷺ: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تحشرون»(1).

ثم أخبر عن أسباب النجاة وأرباب الفلاح بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ [آل عمران:200]، إشارة في الآية: إن الفلاح الحقيقي لأهل الإيمان موقوف على هذه الخصال الأربعة، وهي قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا﴾ على مجاهدة النفوس بنهيها عن حولها وأمرها بطاعة سيدها ومولاها، ﴿وَصَابِرُوا﴾(2) [آل عمران:200]، على مراقبة القلوب مع التسليم والرضاء بالأحكام الأزلية عند البلاء والابتلاء، ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران:200] مرابطة الأرواح إلى الوصول بالله وبالانقطاع عما سواه، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [آل عمران:200] بمحافظة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار والفناء في الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:200]، عن حجب الوجود بالفناء في الله، وتفوزون بالبقاء بالله بتوفيق الله تعالى وجذبات عنايته، فإن العناية الأزلية كفاية الأبدية.

(1) ذكره حقي في تفسيره (3/ 125).

(2) المصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصًا لشدته، وصعوبته وكونه أكمل، وأفضل من الصبر على ما سواه، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله، وأوله التصبر، وهو التكلف لذلك ثم المصابرة، وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار، والاعتبار، والالتزام، ثم الصبر، وهو كماله، وحصوله من غير كلفة [تفسير حقي (2/ 393)].

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1) وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (3) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (4) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (5)﴾ [النساء: 1 - 5].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾(1) [النساء: 1]، إشارة في الآية: أن الله تعالى يذكر الناس

---

(1) قال العارف البقلي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: 1] أي: أيها الناسي عهد الأزل وميثاق القدم بشرط وفاء العبودية بعد خطابي ومعرفتي وتعريفي نفسي لكم، حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، فأجبتم بقولكم: ﴿قَالُوا بَلَى﴾. وأيضًا: أيها الناسي جمال مشاهدتي؛ حيث أخرجت أرواحكم من العدم بتجلي أنوار القدم، فبصرها بمشاهدتي، وأسمعتها خطاب أزليتي باشتغالكم على حظوظ البشرية ومأمول الطبيعة. وأيضًا: أيها المستأنس بالمستحسنات من الأكوان والحدثان طلبًا لمشاهدتي اعلم أنها أعظم الحجاب؛ لأنها وسيلةٌ حدثيةٌ وإيصالٌ إلى أحدٍ إلا بي، ورؤية الأشياء في رؤيتي مكرٌ. وأيضًا: أيها المستأنس في المستوحش من غيري فلا تغرنَّ بي؛ فإنك لي لا لك. وأيضًا: أي: أيها الناسي أنفسكم التي هي مخلوقةٌ من الجهل بي، فلا تخافون حيث ادَّعيتم معرفتي، ومعرفتي للقدم لا للحدث. وأيضًا: هذا خطابٌ لبني آدم، أي: أيها الذين انتسبتم إلى ابن الماء والطين الذي اشتغل عني بأكل حبة حنطة حتى بكى عليها مائتي سنة إيش تفعلون بعده في مواقف القربة، وتنزل المشاهدة بعد المعرفة، فإن عذاب الفراق أليمٌ، لو تعرفون أنفسكم لا تشتغلون بالحدثان، فإني اصطفيتكم بمشاهدتي وخطابي من بين البريات، أما سمعتم قولي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وهذا الخطاب خطاب العتاب للمفارقين أوطان المآب؛ ألا ترى إذا غضب عظيم على خادمه لم يسم باسمه، ويقول: يا إنسان. ولا يقول: يا حسن، يا أحمد، أي أنت على محل الجهل بمرادي منك. والإشارة فيه: إن الله سبحانه عرف أمر المعرفة عباده حيث اشتغلوا بسواه، كأنه نبههم عن رمدة الغفلات بزواجر هذا الخطاب، ويقول: أيها الناقضون عهد المعرفة والعشق، أما تستحيون مني باشتغالكم بغيري، اتقوا من فراقي وعتابي. وقال ابن عطاء: أي كونوا من الناس الذين هم الناس، وهم الذين أنسوا به، واستوحشوا مما سواه. وقال

=

بيده خلقتهم بالأشباح والأرواح بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:1]، فإنهم كما خلقوا بالأشباح عن نفس واحدة وهي شبح آدم عليه السلام، كذلك خلقوا بالأرواح عن نفس واحدة وهي روح محمد ﷺ، لقوله: «أول ما خلق الله روحي»[1]، فكما أن آدم عليه السلام بالشبح كان أبا البشر، كان محمد ﷺ بالروح أبا الروح، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:1]؛ وهي النفس، خلقها من أدنى شعاع من أشعة أنوار روح محمد ﷺ، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ [النساء:1]؛ وهم أرواح الرجال البالغين الكاملين في الدين، كقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: 37]، ﴿وَنِسَاءً﴾ [النساء:1]؛ أي: أرواح ناقصات غير بالغات في الدين، كما أخرج من آدم عليه السلام المقبول والمردود، أخرج من روح محمد ﷺ روح الكامل والناقص[2].

جعفر: أي: كونوا من الناس الذين هم الناس، ولا تغفلوا عن الله ممَّنْ عرفه، إنه من الإنسان الذي خصَّ خلقته بما خصَّ به، كبرت همته عن طلب المنازل، وسمت به الرفعة حتى يكون الحق نهايته، ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:42]، وسمو همته مما خصَّ به من الاختصاص من التعريف والإلهام.

(1) ذكره الشيخ حقي في تفسيره (4/ 293)، وضمن كتب الشمائل.

(2) أولية سيدنا ومولانا - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - ثابتة بدلائل من الكتاب والسنة المطهرة، وقد أُفردَت فيها جملة من المصنفات - فضلاً عما هو مبسوط في كتب الشمائل والسير- منها: «أولية النور المحمدي»، «رسالة في أبوته ﷺ للمؤمنين [ط. العلمية بيروت]» (كلاهما للعارف المحمدي الشهيد سيدي أبو الفيض محمد بن سيدي عبد الكبير الكتاني رضي الله عنه)، وكتاب «نور البدايات وختم النهايات» (ط.) للعلامة الفقيه سيدي عيسى بن مانع الحميري، وكتاب «جلاء الصدور بأولية النور» (ط.) للشيخ علي السلموني المصري، وغيرها كثير مما قام به الدليل كتابًا وسنة على صحة ما تداولته الأمة من خلق العالم من نور سيدنا ومولانا - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - بحيث لا يماري في ذلك إلا جاهل، ولنشرب كأسًا من تلك التسنيمات المحمدية؛ فنقول: العمدة في هذا الباب - شهرة - هو حديث سيدنا جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - الذي رواه عبد الرزاق بسنده عن بلفظ: «قال قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء ... الحديث»، والحديث في المصنف في الجزء المفقود منه، وقد طبع والحمد لله حديثًا، ولما لم يكن الحديث موجودًا في النسخ المشهور من المصنف كان هذا سببًا للطعن فيه والقول ببطلانه، حتى حكم بذلك بعض الحفاظ - مع إثباتهم الأولية

المحمدية بغيره - وليس هذا الحال خاصًا بالمصنف بل هذا حال جملة من الأمهات الحديثة، وطالما وجد الحديث بسند صحيح فلا داعي من إتباع قول فلان وفلان، فليس بعد قول من لا ينطق عن الهوى - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - قول، وقد أورد على الحديث أربع إشكالات أجاب عنها العلامة الأزهري الشيخ إسماعيل الحلواني ﷺ في كتابه - الذي يعد من أكبر ما صُنِّفَ في المولد الشريف - «مواكب ربيع في مولد الشفيع ﷺ» [ط. دار الكتب العلمية بيروت].

وعن سيدنا ميسرة الفجر ﷺ قال: «قلت يا رسول الله؛ متى كنت نبيًا؟ قال: وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» هذا لفظ الإمام أحمد (59/ 4)، وهو الأصح رواية، ورواه البخاري في التاريخ الكبير (374/ 7)، وأبو نعيم في الحلية (53/ 9)،ورواه البغوي وابن السكن، كلهم من هذا الوجه، وصححه الحاكم (665/ 2)، قال الحافظ في الإصابة (239/ 6): وسنده قوي، وعن سيدنا أبي هريرة ﷺ «أنهم قَالُوا يَا رَسُولَ الله مَتَى وَجَبَتْ - أي: حصلت وثبتت - لَكَ النُّبُوَّةُ قَالَ وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» أي: وجبت في هذه الحَالة، فعامل الحال وصاحبها محذوفان، رواه الترمذي (3542) وقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، قال في لسان العرب (مادة: نبأ): «قال الفَرَّاءُ: النبيُّ هو من أَنبأَ عن الله؛ فتُرِكَ هَمزه» اهـ. قلت: وبهذا المعنى يثبت ما قصدناه من أن الحقيقة المحمدية هي التي كانت تمد جميع أجناس العالم قبل الظهور في العالم الشهادي بالجسم المكرم، وإليه يشير حديث الصحيح (4294)، والإمام مسلم (3179): «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» حيث كان المعلم الأوحد والمبيِّن والمنبأ عن الله تعالى مكنون العبادة التي خلق من أجلها الخلق، فكانت الدولة دولته، كما كان في الأزل، هذا على الاشتقاق الأول للنبوة.

وعلى الاشتقاق الثاني وهو قوله: «وإن أُخِذَ من النَّبْوةِ والنَّباوةِ وهي الارتفاع عن الأرض، أي إنه أَشْرَف على سائر الخَلْق فأَصله غير الهمز» قيل: وهل تكون الرفعة وحيازة الشرف إلا بالعلم بالله تعالى وحيازة أسهم العبودية، فكل علم بالله تعالى ظهر في العالم قبل ظهور الجسم المحمدي فمن جلالته - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - مستمَد وعلى أياديه الكريمة خرج. فأثبتت الأحاديث ما قصدناه.

تنبيـــه: ولا يصح قول من قال - لرد مثل تلك الأحاديث حسدًا لمولانا ﷺ على ما أعطاه الله من فضله- أن المقصود كنت نبيًا في علم الله؛ فليت علمي فما فائدة التخصيص بالذكر؛ فكل الأنبياء كانوا أنبياء في علم الله تعالى، بل كل الأشياء كانت في علم الله على ما هي عليه في الوجود، فضلاً على أن هذا التأويل يلزم منه المحظور، وهو كون الحق تتجدد له علم بنبوة الفاتح الخاتم- صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - في الزمان المذكور في الحديث، وهو زمان كون آدم بين الروح والجسد، وهذا اعتقاد فاسد ينافي ما عليه أهل كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

قال في طالعة المواهب اللدنية: واختلف هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي أم لا؟ فقال الحافظ أبويعلى الهمداني: الأصح أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح عن ابن عمر قال قال ﷺ: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» .

﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء:1]؛ أي: اتقوا أن تسألوا به غيره، فلا تسألوا به عنه، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء:1]، ولا تقطعوا صلة رحم رحمتي بصلة غيري، دل عليه قوله ﷺ: قال الله تعالى: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها أسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته»[1]، إن الله تعالى خلق الخلق برحمته، ولولا سبقت رحمته غضبه ما خلق أحدًا من العالمين، فالواجب على الخلق أن يصلوا رحم رحمته بطلبه والانقطاع عن غيره؛ ليصلهم برحمته وكرامته، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:1] أيها المتقون، ﴿رَقِيبًا﴾ [النساء:1]؛ لئلا يلتفتوا إلى غيره بالاعتراض عنه، بل ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1]؛ لتتقوا به عن غيره، وتصلوا به بالانقطاع عن غيره.

ثم أخبر عن التقوى بإحراز أموال اليتامى بقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:2]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى نفى بهاتين الأخلاق الذميمة والأفعال القبيحة، وبها زكى أنفسهم عن آفاتها؛ وهي الحسد والدناءة، والخسة والطمع، الخيانة

-

فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، فحديث عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعا: «أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب، فقال رب وما أكتب، قال أكتب مقادير كل شيء» رواه أحمد والترمذي وصححه، وروى أحمد والترمذي وصححه أيضا من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعا: «إن الماء خلق قبل العرش»، وروى السدي بأسانيد متعددة: «إن الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء»؛ فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوي والماء والعرش. انتهى، وقيل الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه؛ أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري وكذا باقيها، وفي أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «كنت نورا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»، وانظر تفصيل المسألة في ما أشرنا إليه من المصنفات، وكذا كتب الشمائل، وخاصة «العلم المحمدي» أو «جلاء القلوب» [ط. العلمية ببيروت] للإمام محمد بن جعفر الكتاني ﷺ وكذا المواهب وشروحها.

(1) حديث عبد الرحمن بن عوف: أخرجه أحمد (1/ 194، رقم 1680)، والبخاري في الأدب المفرد (1/ 33، رقم 53)، وأبو داود (2/ 133، رقم 1694)، والترمذي (4/ 315، رقم 1907). وابن حبان (2/ 186، رقم 443)، والحاكم (4/ 174، رقم 7268)، والبيهقي (7/ 26، رقم 12994)، وفي شعب الإيمان (6/ 216، رقم 7941)، وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (11/ 171، رقم 20234)، والضياء (3/ 92، رقم 895) . حديث أبي هريرة: أخرجه الحاكم (4/ 173، رقم 7265)، والخطيب (5/ 426).

والمكر والخديعة، والجور والظلم، والشهوة والغضب، وسوء الخلق والبخل، والكبر والأنفة، وحلاها بأضدادها تكميلاً للتخلق بأخلاق الحق، فقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:2] تزكية عن آفة الحرص والحسد، والدناءة والخسة والطمع، وتحليته بالقناعة والمروءة وعلو الهمة والعافية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء:2] تزكية عن آفة الخيانة والمكر والخديعة، وتحليته بالأمانة والديانة وسلامة الصدور، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:2] تزكية عن الجور والحين والظلم وتحليته بالعدل والإنصاف، فإن اجتماع هذه الرذائل في نفس الأمر ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:2]، حجابًا عظيمًا.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:3] تزكية عن الزنا والفواحش التي تتعلق بالشهوة، وتحليته بالعفة والإحصان، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:3].

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ﴾ [النساء:4] تزكية عن الحدة والغضب وسوء الخلق، وتحليته بالوفاق والسخاء والفتوة، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء:4] تزكية عن الكبر والأنفة، وتحليته بالتواضع والخشوع، والرحمة والشفقة واللين، في الحقيقة هذه كلها إشارة إلى تربية ينافي القلوب والنفوس بإيتاء حقوق تزكيتهم عن هذه الأوصاف، وتحليتهم بهذه الأخلاق؛ لتحقق الامتثال بأمر تخلقوا بأخلاق الله، والله أعلم.

ثم أخبر عن صيانة هذه الأخلاق من التفريط والإفراط بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء:5]، إشارة في هذه الآيتين: إن الله تعالى جعل المال قيامًا لمصالح دين العباد ودنياهم، فإن العاقل منهم من يجعله قيامًا لمصالح دينه ولمصالح دنياه بقدر حاجته للضرورة إليه، والسفيه من جعله قيامًا لمصالح دنياه ما أمكنه فهو المنهي عنه، وإن تؤتوا إليه أموالكم كائنًا من كان، وإنما قال: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:5]، وما قال أموالهم؛ لأن الخطاب مع العقلاء الصلحاء

الأتقياء، وقد أضاف المال إليهم؛ لأنه تعالى خلق الدنيا وما فيها لهم قيامًا لمصلح دينهم، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:29]، وقال تعالى: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105]، وأسفه السفهاء من جعلها في مفاسد دينه ودنياه؛ وهي النفس الأمارة بالسوء، وإنها هي أعدى عدوك؛ لأنها أسفه السفهاء، وكل ما أنفق الرجل نفسه بهواها ففيه مفاسد دينه ودنياه، إلا المستثني منه، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾ [النساء:5]، ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:5]؛ أي: جعل الله لكم قيامًا ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء:5]؛ يعني: ما يسد به جوع النفس، ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: 5]؛ يعني: ما يستر عورتها، فإن ما زاد على هذا يكون إسرافًا في حق النفس، والإسراف منهي عنه، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء:5]، قول المعروف مع النفس أن يقول لها: أكلت رزقها ونعمت، فأدى شكر نعمته بامتثال أوامره ونواهيه وأذيبي طعامك بذكر الله، كما قال ﷺ: «أذيبوا طعامكم بذكر الله»[1].

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: 6 - 9].

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء:6]؛ أي: قلوب السائرين إلى الله تعالى، حتى إذا بلغوا مبلغ الرجال الكاملين البالغين، وابتلاهم بأدنى توسع في المعيشة بعد ما كانوا محجوبين عن التصرف مدة مديدة، ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ

(1) رواه البيهقي في «الشعب» (13/ 379)، والطبراني في «الوسط» (11/ 183)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (1/ 352).

رُشْدًا﴾ [النساء:6]، بأن استمدوا بذلك على دينهم وزادوا في اجتهادهم وجدهم في الطلب، وكان كما قال الجنيد: أشبع الزِّنجي وكدَّه، ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:6]، وهاهنا أضاف المال إليهم لما بلغوا حد الرجال الذين يكون المال لهم، فلا يكونون في المال كالسفهاء، فالعبد في هذا المقام يكون جائز التصرف في ممالك سيده كالعبد المأذون، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء:6]، الإشارة في الخطاب إلى تربيتهم من المشايخ فإنهم أولياء أطفال الطريقة وأوصياؤهم؛ يعني: فإن آنستم من المريدين البالغين رشد التصرف في أصحاب الإرادة وأرباب الطلب، فأوقعوا إليهم عنان التصرف بإجازة الشيخوخة ولا تمنعوهم مقام الشيخوخة إسرافًا وبدارًا، غيرة وغبطة على المريدين، ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء:6] بالشيخوخة فتكسد أسواقهم، ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا﴾ [النساء:6] بالله من قوة الولاية ستظهر بالعناية ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء:6] عن أمثال هذه الغيرة والغبطة، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا﴾ [النساء:6]، يفتقر بولاية المريد والانتفاع به في الصحبة ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:6]؛ أي: ينتفع به بأن يجيز له بالشيخوخة لا يغار عليه ويمده بالظاهر والباطن، وبإيمانه يتوسل إلى الله تعالى ،فإن الله يكون في عون العبد ما دام في عون أخيه، وقال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:35]، ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:6] مقام الشيخوخة، ﴿فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:6] الله ورسوله وأرواح المشايخ، وأوصوهم بشرائط الشيخوخة ورعاية حقوقها مع الله والخلق وأنفسهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6]، مكافيًا ومجازيًا لكم بحسن صنائعكم، ومحاسبًا لهم فيما يراقبون الله تعالى في حفظ حدوده، ويراعون الخلق بأداء حقوقهم وترك حظوظ أنفسهم.

ثم أخبر عن نصيب كل نسيب بقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:7]، إشارة في الآيتين: إن للرجال وهم أقوياء الطلبة والسلاك نصيب بقدر صدقهم في الطلب، ورجوليتهم في الاجتهاد، ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:7]؛ وهم المشايخ والإخوان في الله والأعوان على الطلب، وتركهم سيرتهم في الدين وأنوار همتهم العلية، ومواهب ولايتهم السنية، ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:7]؛ يعني ضعفاء القوم، ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء:7]؛ أي: قدرًا معلومًا على قدر وفق صدق التجائهم وجدهم في الطلب، وحسن استعدادهم لقبول فيض الولاية، وهذا حال المجتهدين الذين هم ورثة المشايخ، كما أنهم ورثة الأنبياء، فأما المنتهون إلى ولايتهم بالإرادة وحسن الظن، والمقتبسون من أنوارهم والمقتفون على آثارهم، والمتشبهون بربهم والمتبركون بهم على تفاوت درجاتهم فهو بمثابة ﴿أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ [النساء:8] إذا حضروا القسمة عند محافل صحبتهم ومجامع سماعهم ومجالس ذكرهم، فإنها مقاسم خيراتهم وبركاتهم، ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء:8]؛ أي: من مواهب ولايتهم، وآثار هدايتهم، وأعطاف رعايتهم، ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء:8] في التشويق وإرشاد الطريق والحث على الطلب والتوجه إلى الحق، والإعراض عن الدنيا وتقرير هوانها على الله وخسارة أهلها، وعزة أهل الله في الدارين وكمال سعادتهم في المنزلتين.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ [النساء:9] من مبتدئ المريدين ومتوسطهم، ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:9] آفات المفارقة، إما سرف وإما توان ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:9]؛ أي: يوصونهم بالتقوى فإن التقوى جماع كل خير، ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ [النساء:9]؛ أي: يأمرونهم؛ ليقولوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:9]؛ وهو كلمة لا إله إلا الله؛ والمعنى: أنهم يأمرون بملازمة التقوى ومداومة الذكر، فإنهما الخطوتان اللتان توصلان العبد إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10) يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)﴾ [النساء: 10 - 11]

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء:10]، إشارة إلى

الذين يضيعون أطفال الطريقة ولا يراعون حقوقهم بالنصيحة والوصية والإرشاد إلى سبيل الرشاد، ويحرمونهم عن مشارب ولايتهم تقصيرًا أو تهاونًا ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:10]؛ لحسرة تحسرًا وتغابنًا، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:10] آفة التقصير، إذ في أداء حقوقهم غرامة ولا ينفعهم الندامة.

ثم أخبر عن وصاية أهل الولاية بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11]، إشارة في الآيات: إن المشايخ للمريدين بمثابة الآباء للأولاد، فإن الشيخ في قومه كالنبي في أمته على ما قاله ﷺ، وقد قال ﷺ: «أنا لكم كالوالد لولده»[1]، ففي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾، الآيات كلها إشارات إلى وصايا المشايخ والمريدين ووارثتهم في قرابة الدين، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون:10]، فكما أن الوراثة الدنيوية بوجهين: بالسبب والنسب، فلذلك الوراثة الدينية بوجهين: إما السبب فهو الإرادة ولبس خرقتهم، والتبرك بزيهم للتشبه بهم، وأما النسب فهو الصحبة معهم بالتسليم للتصرفات ولايتهم ظاهرًا وباطنًا بصدق النية وصفاء الطوية، مستسلمًا لأحكام التسليك والتربية، يتولد السالك بالغشاوة الثانية، فإن الولادة تنقسم على:

النشأة الأولى: وهي ولادة جسمانية، بأن يتولد المؤمن من رحم الأم إلى عالم الشهادة وهو الملك، والنشأة الثانية: وهي ولادة روحانية، بأن يتولد السالك من رحم القلب إلى عالم الغيب وهو الملكوت.

كما حكي النبي ﷺ عن عيسى عليه السلام أنه قال: «لم يلج ملكوت السماوات والأرض ما لم يولد مرتين»[2]، فالشيخ هو الأب الروحاني، والمريدون المتولدون من صلب ولايتهم الأولاد الروحانيون، وهم فيما بينهم ﴿أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75]، لقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجر:10]، وقال ﷺ: «الأنبياء أخوة من علات،

(1) رواه النسائي (1/ 38، رقم 40)، وابن ماجه (1/ 114، رقم 313)، والشافعي (1/ 13)، وأحمد (2/ 247، رقم 7362)، والحميدي (2/ 434، رقم 988)، وأبو عوانة (1/ 171، رقم 511).

(2) ذكره الألوسي في تفسيره (1/ 473).

وأمهاتهم شتى ودينهم واحد»[1]، ولهذا قال ﷺ: «كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي»[2]؛ لأن نسبه كان بالدين، كما سئل النبي ﷺ من آلك؟ قال: «إلى كل مؤمن تقي»[3]، وإنما يتوارثون أهل الدين على قدر تعلقاتهم السببية والنسبية، والذكورة والأنوثة في الجد والاجتهاد وحسن الاستعداد، وإنما موازينهم العلوم الدينية واللدنية، كما قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»[4]، وقال موسى للخضر - عليهما السلام -: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66].

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النساء: 13 - 16].

وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾[5] إشارة إلى: إن تلك الوراثة والأنصباء حدود

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 437، رقم 9630) . وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (1/ 124، رقم 43)، وابن حبان (15/ 233، رقم 6821) .

(2) ذكره ابن الجوزي مستشهدًا به في كتابه: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (1/ 84)، والشيخ حقي في تفسيره (2/ 417).

(3) ذكره بنحوه العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 19)، وحقي في تفسيره (2/ 417).

(4) رواه الترمذي (10/ 204)، وأبو داود (11/ 34)، وابن ماجه (1/ 268)، وابن حبان في «صحيحه» (1/ 171)، والبيهقي في «الآداب» (2/ 30).

(5) حسم الله سبحانه أبواب حكمته في أمر فرائضه في كميتها وكيفيتها على الخليقة، لوضع رقابهم على باب الربوبية عجزًا وتواضعًا في عظمته وكبريائه، واستأثر نفسه بعلم ذلك، لئلا تجاوز حدوده أحدًا من خلقه، ولكل صادر وارد معارفه وكواشفه حدٌّ يمنعه من مطالعة صمديته وأحديته، وحدود الله برزخ بين بحر الحدث وبحر القدم، لا يختلطان؛ لأنَّ القدم منزَّهٌ عن مباشرة الحدثان.

حدها الله لورثة الدين على قدر تعارف أرواحهم في عالم الأرواح، وعلى نسبته مناسبًا في القرابة النسبية والسببية، كما قال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»(١).

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء:13] فقد حق نسبته في الدين، ﴿يُدْخِلْهُ﴾ [النساء:13] نسبه، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء:13] على قدر استحقاقه في الوراثة المحققة بالطاعة؛ لأنه من الوارثين ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:11]، ﴿وَذَلِكَ﴾ [النساء:13] الوراثة والميراث، ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء:14] فقد حق إبطال نسبته في الدين، ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ [النساء:14] في الوراثة بقرابة الدين عصيانه ويعذبه ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ [النساء: 14]؛ أي: نار القطيعة والحرمان على قدر استحقاقه في المعصية والتعدي، ﴿خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء:14] من هذا الخلود في نار الحسرة والحرمان، وفوات نعيم الجنان ولقاء الرحمن.

ثم أخبر عن مهاد أهل الفواحش بقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ [النساء:15]، إشارة في الآيتين: إن اللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم هي النفوس الأمارة بالسوء، والفاحشة: ما حرمته الشريعة من أعمال الظاهر وهي المعاصي، وحرمته الطريقة من أحوال الباطن وهي الركون إلى غير الله تعالى، يدل عليه قوله تعالى:

قال محمد بن الفضل: حدود الله أوامره ونواهيه، فمن تخطاها فقد ضلَّ في سبيل الرشد.

قيل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها، فإنَّ التعدي فيها يهلكهم. وقال أبو عثمان: ما هلك امرؤٌ لزم حده، ولم يتعد طوره.

وقال بعض البغداديين: العبد ينقلب في جميع الأوقات على الحدود، دخل في هتك الحرمات، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:187]؛ لأنَّ المرتع إلى جانب الحمى ربما يخالط الحمى. [العرائس].

(١) تقدم تخريجه.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:33]، فما ظهر منها فهو الأعمال، وما بطن منها فهو الأحوال، وقال ﷺ: «السعد غيور وأنا أغير منه والله أغير منا»(1)؛ ولهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [النساء:15]؛ أي: على النفوس بإتيان الفاحشة، ﴿أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء:15]؛ أي: من خواص العناصر الأربعة التي أنتم منها مركبون وهي:

التراب: ومن خواصه الخسة والركاكة، والذلة والطمع، والمهانة واللوم، والماء: ومن خواصه اللين والعجز والكسل، والأنوثة والخبوثة، والشره في المأكل والمشرب، والهواء: ومن خواصه الحرص والحسد والبخل، والحقد والعداوة، والشهوة والزينة، والنار: ومن خواصها التبختر والتكبر، والفجر والصلف، والغضب والحدة وسوء الخلق وغير ذلك مما يتعلق بالأخلاق الذميمة، ورأسها حب الدنيا والرياسة واستيفاء لذاتها وشهواتها، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ [النساء:15]؛ أي: يظهر بعض هذه الصفات من النفوس، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء:15]، فاحبسوهن في سجن المنع عن التمتعات الدنيوية، فإن الدنيا سجن المؤمن، وأغلقوا عليهن أبواب الحواس الخمس ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء:15]؛ أي: تموت النفس إذا انقطع عنها حظوظها دون حقوقها، إلى هذا أشار بقوله ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»(2)، ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:15]، بانفتاح روزنة القلوب إلى عالم الغيب، فتهب منها ألطاف الحق وجذبات الإلوهية التي جذبة منها توازي عمل الثقلين.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾ [النساء:16]؛ أي: النفس والغالب اللذان يأتيان الفواحش في ظاهر الأفعال والأعمال، وباطن الأحوال والأخلاق ﴿فَآذُوهُمَا﴾ [النساء:16]، ظاهرًا بالحدود، وباطنًا بترك الحظوظ وكثرة الرياضات والمجاهدات، ﴿فَإِنْ تَابَا﴾

---

(1) أخرجه أحمد (4/ 248، رقم 18193)، والبخاري (6/ 2698، رقم 6980)، ومسلم (2/ 1136، رقم 1499) . وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (5/ 450، رقم 27884)، وعبد بن حميد (ص 152، رقم 392)، وأبو عوانة (3/ 215، رقم 4721).

(2) تقدم تخريجه.

[النساء:16] ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَأَصْلَحَا﴾ [النساء:16] كذلك ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء:16] باللطف بعد العنف، وبالرفق بعد الخرق، وباليسر بعد العسر، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:5]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النساء:16]، لمن تاب، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:16] لمن أصلح.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 17 - 19].

ثم أخبر عن التوبة والثواب، والتأيب الأيب إلى الباب بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء:17]، إشارة في الآيتين: إنها التوبة على الله التي أوجب الله تعالى بفضله على ذمة كرمه قبولها، إنها هي توبة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء:17] فحسب، فإن للنفس الأمارة صفتين: الظلومية والجهولية، والجهولية داخلة في الظلومية؛ لأن الظلومية تقتضي المعصية والإصرار عليها، والإصرار على المعصية يؤدي إلى الشرك، والشرك يميت القلب، ولهذا وصف الله تعالى الشرك بالظلم العظيم وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، والجهولية تقتضي المعصية فحسب، فالعمل إذا كان مصدره الجهولية فحسب يكون على عقبة التوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: 17]، وللقريب هاهنا معنيان:

أحدهما: أن تكون التوبة عقيب المعصية فيقبلها الله فيمحوها بها، كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:114] والحسنات: هي التوبة عقيبها في قوله

ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تمحها الحسنة»[1]؛ هي التوبة، والمعنى الثاني: من قريب؛ أي: قبل أن يموت القلب بالإصرار، فإن الله لا يقبل التوبة من قلب ميت؛ لأنها تكون باللسان اضطرارية، وبالقلب اختيارية، ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:17]؛ يعني: هذا الذي أوجب الله تعالى بفضله على ذمة كرمه قبل خلقهم أن يوفقهم للتوبة، ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:17] في ذلك التقدير، ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:17] بمن يتوب عقيب المعصية، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:17]، فيما قدر ودبر من الأمور.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ [النساء:18]؛ يعني: المقبولة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء:18] المصرين عليها من الظلومية، ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: 18]؛ يعني: موت القلب بالإصرار، ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء:18]، باللسان اضطرارًا، أو يتوب بترك عمل السوء تكلفًا، ولا يرجع قلبه إلى الله تعالى، فإن أصل التوبة الرجوع بالكلية إلى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: 18]؛ يعني: ولا يقبل توبة من يموت وقلبه ميت بالكفر، ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ [النساء: 18]؛ أي: قدر قبل خلقهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:18]؛ أي: عذاب الكفر في الدنيا وهو مؤلم في الآخرة.

ثم أخبر عن أهل الإيمان، ونهاهم عن عقل النسوان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء:19]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى أرشد بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء:19]، إلى أن هذه المعاملات من عضل النسوان، ومنعهن من الزواج طمعًا في ميراثهن، أو إضرارهن ليفتدين منكم، ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء:19]؛ لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن من المهور، أو تأخذون ما أعطيتموهن من المهر ولو كان قنطارًا، ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:19].

ثم أرشدهم إلى سبيل المؤمنين وأخلاق الموحدين بقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ

---

(1) أخرجه أحمد (5/ 228، رقم 22039).

بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ [النساء:19]، وتصبروا عليه لله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:19] في الدنيا والآخرة، فإن الخير الكثير ما يكون باقيًا ولا يكون الفاني إلا قليلاً.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: 20 - 21].

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء:20]، ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:21] في رعاية حقوقهن، هذه كلها وأمثالها ليست من إمارة الإيمان ونتائجه وثمراته؛ لأن المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يشتمه، قال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[1].

وقال ﷺ: «الدين النصيحة»[2]، وقد صرح بنفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه بقوله ﷺ: «من غشنا فليس منا»[3].

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنَ

(1) حديث أبي بردة عن أبي موسى: أخرجه البخاري (2/ 863، رقم 2314)، ومسلم (4/ 1999، رقم 2585)، والترمذي (4/ 325، رقم 1928) وقال: حسن صحيح. والنسائي (5/ 79، رقم 2560)، وابن حبان (1/ 467، رقم 231). وابن المبارك (1/ 118، رقم 350)، والطيالسي (ص 68، رقم 503)، والحميدي (2/ 340، رقم 772)، وابن أبي شيبة (6/ 163، رقم 30348)، والبزار (8/ 160، رقم 3182)، وأبو يعلى (13/ 279، رقم 7295)، وعبد بن حميد (ص 196، رقم 556)، والروياني (1/ 301، رقم 445)، والقضاعي (1/ 112، رقم 134).

(2) أخرجه ابن عساكر (9/ 307).

(3) أخرجه الطبراني (11/ 221، رقم 11553) قال الهيثمي (4/ 79): رجاله رجال الصحيح.

نِسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: 22 - 23].

ثم أرشدهم إلى سبيل المؤمنين وأخلاق الموحدين بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:22]، إشارة في الآيتين: أن الله تعالى أراد أن يطهر نفس المؤمن بأن ينفي عنها موجبات المقت وسوء السبيل؛ وهي الفواحش استطابة للجوهر الأني، واستنارة للنور الرباني؛ لأنه خلق لحمل أعباء أمانة المعرفة بحبل المحبة، ولا سبيل إلى المعرفة إلا بالوصول إلى المعروف، ولا يمكن التحلية بالوصول إلى بعد التزكية عن مانع الوصول وهي لوث أوصاف الوجود، «فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»[1]، ولذلك نهاهم عن نكاح المحارم، ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:22].

وفيه إشارة أخرى وهي: أن العلويات وهي الآباء، والسفليات وهي الأمهات، وبازدواجها خلق الله تعالى المتولدات منها فيا بينهها، ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:22]، إشارة إلى نهي التعلق والتصرف في السفليات التي هي الأمهات المتصرفة فيها آباءكم العلوية، ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:22] من التدبير الإلهي، وازدواج الأرواح والأشباح بالحاجات الضروريات الإنساني منشئته منه، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:22]؛ يعني: التصرف في السفليات والتعلق بها والركون إليها، مما يلوث الجوهر النوراني بلوث الصفات الحيوانية ويجعله سفلي الطبع بعيدًا عن الحضرة، محبًا للدنيا ناسيًا للموت ممقوتًا للحق، ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:22] إلى الهداية بالضلالة.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:23]، الآية فيها كلها إشارات إلى نهي التعلق ومنع التصرف في الأمهات السفليات، والمتولدات من أوصاف الإنسان وصفات الحيوان

(1) رواه مسلم (6/ 336)، وأحمد (18/ 101)، والدارمي (8/ 416)، والترمذي (11/ 226).

وأخلاق السوء، وترك الشهوات الدنيوية واللذات الحيوانية والتمتعات الجسمانية، والاجتناب عن المكائد الشيطانية، والإيذاءات السبعية، فإن تزكية النفس بالاحتراز عن هذه الآفات والمتعلقات، وتصفية القلب منها موجبة للتحلية بالأخلاق الروحانية والأوصاف الربانية، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ [النساء:23] يستر بأنوار غفرانه ظلمات الصفات الإنسانية، التي تتولد من تعرفات الحواس في المحسوسات عند الضرورات بالأمر لا بالطبع، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:23] فيما اضطرهم من التصرفات بقدر الحاجة الضرورية.

﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾ [النساء: 24].

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:24]، إشارة في الآية: إن الله تعالى حرم المحصنات من النساء وهن: ذوات الأزواج على الرجال؛ عفة للحصانة وصحة النسب ونزاهة لعرض الرجال عن خسة الاشتراك في الفراش علو الهمة، فإن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:24]؛ يعني: ما ملكتم بالقوة والغلبة على أزواجهن من الكفار، واقتطاعهن من حيز الاشتراك وإفساد نسب الأولاد وتخليطه، ولهذا أوجب الشرع فيها الاستبراء بحيضة ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:24]؛ أي: كتب الله في الأزل الاجتماع بهن بعد قضاء أوطار أزواجهن منهن، كقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ [الإسراء:58]، أو كما كان حال النبي ﷺ مع زينب - رضي الله عنها - قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:38]، وفيه إشارة أخرى وهي: إن قد قدرنا أن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:22]، إشارة إلى نهي التعلق والتصرف في السفليات التي هي الأمهات المتصرفة فيها آباؤكم العلوية، فهي في الحقيقة الدنيا وما يتعلق بها، ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:24]؛ وهي الدنيا بهذه المناسبة معطوفة عليها، لا

تتعلقوا وتتصرفوا في شيء من الدنيا وهي محصنة بملكية الغير، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:24] منها بطريق صالح، ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:24]؛ أي: لما كتب الله عليكم التصرف فيها، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:31]؛ أي: كلوا واشربوا بقدر الحاجة لقوام القالب إقامة لأداء الواجب عليكم، ولا تسرفوا بالإكثار وتتبع الشهوات الحيوانية، فتأكلوا كما تأكل الأنعام والنار مثوى لكم، بل تصرفوا فيها بقدر تحصيل النفقة الواجبة عليكم للعيال.

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ [النساء:24]؛ أي: ما وراه الذي أحصن بملكية الغير يتعلق حقه ونظره وهمته فإنه يقطعكم عن الحق، ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: 24]؛ أي: لتبتغوا بمالكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ [النساء:24]؛ يعني: حرائر من الدنيا وما فيها، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء:24] في الطلب؛ معناه: لا تبذلوا أنفسكم عند الخلق بطلب الشهوات، ولا تسفحون مياه وجوهكم عند الله تعالى؛ لنيل المرادات الإنسانية واستيفاء اللذات الحيوانية، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء:24]؛ أي: من ضرورات الخلق من الدنيا مأكولاً ومشروبًا وملبوسًا ومنكوحًا على هذا الوجه، ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:24]؛ أي: فاطعموا حقوق تلك الحظوظ بالطاعة والشكر والذكر، كما قال ﷺ: «أذيبوا طعامكم بذكر الله»(1)، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ [النساء:24]؛ أي: فيما تفتدون أنفسكم من المجاهدات والرياضة، واحتمال الأذى في الله تقربًا إلى الله تعالى من بعد أداء ما فرض الله عليكم، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ [النساء:24] بنياتكم وقصوركم، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:24] فيما يهديكم إلى مطلوبكم ومقصودكم.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ

(1) تقدم تخريجه.

ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النساء: 25].

ثم أخبر عمن لم يستطع بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ﴾ [النساء:25]، إشارة في الآية: إن الله تعالى كما أحب نزاهة فراش المؤمن عن دنس السفاح، قد أحب نزاهته عن خسة النفس عند القدرة على نكاح الحرائر، ثم رخص برحمته في نكاح الإماء عند عدم الاستطاعة، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:25]، وشرط فيه الإيمان، ولم يجز أن يكون فراش المؤمن ملوثًا بتلوث الشرك، والأمة جميعًا ورخص عند الضرورة بانفرادهما توسعًا ورحمة، فيجوز نكاح الكتابية المشركة، ويجوز نكاح الأمة المؤمنة، وفيه إشارة أخرى وهي: إن الله تعالى أحب نزاهة قلب المؤمن عن دنس حب الدنيا، كما أحب نزاهة فراشه فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: 25]؛ أي: قدرة أن ينكح المحصنات المؤمنات، أن يسخر عجوز الدنيا الصالحة بأسرها ويجعلها منكوحة له، ويحصنها بتصرف شرائع الإسلام والإيمان، بحيث لا يكون لها تصرف في قلبه بوجه ما، ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:25]؛ أي: فيتصرف في القدر الذي ملكت يمين قلبه من الدنيا، فلا يملك قلبه، ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: 25]؛ أي: إذا كانت الدنيا له أمة مأمورة بخدمته وهي مؤمنة له بالخدمة، كما قال ﷺ حكاية عن الله: «يا دنيا: أخدمي من خدمني، واستخدمي من خدمك»(1).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ [النساء:25]، بمراتب إيمانكم وضعفكم في الإيمان ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [النساء:25] في الضعف، فإنه خلق الإنسان ضعيفًا ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء:25]؛ أي: فليتصرف في الدنيا وزهراتها بإذن سيدها، ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:25]؛ أي: أدوا حقوقها إلى الله تعالى بالشكر وصرفها في رضا الله تعالى، وإلى الخلق بالشفقة في الإنفاق عليهم، وصلة رحم الأخوة في الله من غير منته ورياءه، ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ [النساء:25] بإحصان الصدق والإخلاص، ﴿غَيْرَ

---

(1) رواه القضاعي في مسنده (5/ 173)، وأبو نعيم في الحلية (3/ 194).

مُسَافِحَاتٍ﴾ [النساء:25] بالتبذير والإسراف، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:25]؛ يعني: إن يتخذوا الدنيا خدن النفس والهوى، ويحسبوها حب الأخدان، ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ [النساء:25]؛ يعني: إذا أحصنت دنياكم بإحصان الصدق، ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ [النساء: 25]، وأتت الدنيا وزهراتها بفاحشة وهي غلبات شهواتها على القلب، ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء:25]؛ يعني: ببذل نصف ما ملكت يمينه من الدنيا في الله جناية وعزامة لما أظهر في الفاحشة، فإنه نصف ما على المحصنات في أول الآية، عبر عنها بمنكوحة ذي الطول المستطيع وهي الحسرة، وقلنا هي عجوز الدنيا، وكما أن حد الحرة المحصنة في إتيان الفاحشة إهلاكها بالرجم، وحد الأمة المحصنة نصف ما على المحصنات، فكذلك حد عجوز الدنيا إذا أحصنها ذو الطول من الرجال فإن أتت بفاحشة أهلكها بالكلية في الله كما كان حال أبي بكر ﷺ، وحد الأمة المحصنة من الدنيا هلاك نصفها كما كان حال عمر ﷺ، والذي يؤكد هذا التأويل حال سليمان ﷺ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص:31]، فلما شغلته عن الصلاة وأتت بفاحشة حب الخيل، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: 32]، رأى أن جدها بإهلاك كلها، فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:33]، ﴿ذَلِكَ﴾ [النساء:25]؛ يعني: التصرف في قدر من الدنيا، ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء:25]؛ أي: لمن يخاف عن ضعف النفس وقلة صبرها على المجاهدة وترك الدنيا بالكلية، فتأبى نفسه عن قبول الأوامر والنواهي، وتظهر إمارتها بالسوء فتهلك، ﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ [النساء:25]؛ يعني: عن التصرف في الدنيا بتركها، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:25]، كما قال ﷺ: «يا طلاب الدنيا لتبروا بها»(1)، تركها أبر وأبر، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء:25]؛ يعني: لمن يتصرف في الدنيا بشرائطها التي مر ذكرها، يغفر ذلاته ويرحم عليه بالحفظ من آفتها.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ

(1) لم أقف عليه.

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: 26 - 28].

ثم أخبر عن مراده لعباده بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:26]، إشارة في الآيات: إن الله تعالى أنعم على هذه الأمة بإرادة أشياء بهم:

أولها: التبيين بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:26]؛ وهو أن يبين لهم الصراط المستقيم إلى الله.

وثانيها: الهداية بقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(1) [النساء:26]؛ يعني: من الأنبياء والأولياء، وهو أن يهديهم إلى صراط المستقيم بالعيان بعد البيان، وثالثها: التوبة عليهم بقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:26]، ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 27]، ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]؛ وهي أن يرجع بهم إلى حضرته على صراط الله تعالى، ورابعها: التخفيف عنهم بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء:28]؛ وهي أن يوصلكم إلى حضرته بالمعونة ويخفف عنكم المؤنة، وهذا مما اختص به نبينا ﷺ وأمته لوجهين:

أحدهما: إن الله تعالى أخبر عن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى حضرته باجتهاده، وهو المؤنة، وقال تعالى:﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:143]، وأخبر تعالى عن آل نبينا ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء:1]

(1) إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من الحبس، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: 26] سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى مَنْ قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن ينعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. [البحر المديد (1/ 416)].

الذي هو المعونة فخفف عنهم المؤنة.

وأخبر عن حال هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]، وهذا أيضًا بالمعونة وهي جذبات العناية، فقال ﷺ: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»(1)، وقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:27-28]، هو أيضًا جذبة العناية، فافهم جيدًا.

والوجه الثاني: إن النبي ﷺ وأمته مخصوصون بالوصول والوصال مخففون عنهم كلفة الفراق والانقطاع، فأما النبي ﷺ فقد حصن بالوصال إلى مقام ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:13]، وبقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11]، وانقطع سائر الأنبياء - عليهم السلام - في السماوات السبع.

كما أخبر النبي ﷺ عن ليلة الإسراء قال: «رأيت آدم في سماء الدنيا، إلى أن قال: رأيت إبراهيم في السماء السابعة»(2)، فعبر عنهم جميعًا إلى كمال القرب والوصول، وأما الأمة فقال تعالى في حقهم: «من تقرب إليَّ شبرًا، تقربت إليه ذراعًا»(3)، وقال تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته، كنت له سمعًا وبصرًا»(4)، وهذا هو حقيقة الوصول والوصال، ولكن الفرق بين النبي والولي في ذلك: إن النبي مستقل بنفسه في السير إلى الله، ويكون خطه من كمل مقام بحسب استعداده الكامل، والولي لا يمكنه السير إلى الله إلا في متابعة النبي ﷺ تسليكه في سبيل ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108]، ويكون خطه من المقامات بحسب استعداده، فافهم جيدًا.

ثم في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:28]، على عقيب هذه البشارات والإشارات، إشارات أنه لو لم يكن جذبات العناية الأزلية في حق الإنسان لما وصل سير خشيته إلى سرادقات جلال صمديته، ولو قدر لواحد قوة سير الثقلين إلى

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 332).

(2) ذكره حقي في تفسيره (3/ 484).

(3) تقدم تخريجه.

(4) أخرجه البخاري (5/ 2384، رقم 6137) . وأخرجه أيضًا: ابن حبان (2/ 58، رقم 347)، والبيهقي (10/ 219، رقم 20769)، وأبو نعيم في الحلية (1/ 4).

الأبد، وهذا أحد معاني قوله ﷺ: «جذبة من جذبات الرحمن توازي عمل الثقلين»[1]، وإن المجذوب يصل بقوة جذبة من جذبات الحق إلى مقام لا يصل إليه الثقلان بسعيهم؛ لأن الإنسان خلق ضعيفًا وغيره أضعف منه، فإن ضعف الإنسان إنما هو بالنسبة إلى قوة جلال الله وكماله، وإنه أقوى من السماوات والأرض والجبال وأهاليها في حمل الأمانة المعروضة عليهن كلهن، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72]، فافهم جيدًا.

ثانيها: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ [المعارج:19] ضعيفًا لا يصبر على الله لحظة فيما يكون على الفطرة الإنسانية،﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30]، فإنه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وقال شاعرهم:

إذا لعب الرجال بكل شيء رأيت الحب يلعب بالرجال

والصبر في سائر الأشياء محمود، وقال لبعضهم:

الصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد

وكان يستحي سلطان وقته محب الدين شرف بن يزيد البغدادي - قدس الله روحه - يقول يومًا في أثناء مجلسه: إن أبا الحسن الخرقاني - رحمه الله - كان يقول: لو لم ألق نفسًا لم أبق، ثم قال: لا يعظم عليكم هذا المقام، فإني رجعت لله بكثير من أصحابي عن هذا المقام.

ثم اعلم أن الإنسان ممدوح بهذا الضعف؛ يعني: أن لا يصبر لضعفه عن الله تعالى فإنه مخصوص عن العالمين بشرف هذا الضعف، فإن من عداه يصبرون عن الله تعالى؛ لعدم اضطرارهم في المحبة، والإنسان مخصوص بالمحبة بدليل ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

وثالثها: إن الإنسان مع اختصاصه بقوة حمل الأمانة وانجذابه العناية خلق ضعيفًا عند سطوات تجلي الصفات ومن صفات الله تعالى، ألم تر كيف كان حال موسى ﷺ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾ [الأعراف:143].

---

(1) تقدم تخريجه.

ورابعها: إن الصبر عن الله وإن كان شديدًا، فالصبر مع الله أشد وأشد؛ لأن الإنسان خلق ضعيفًا، ونقصان هذا الضعف فيه بكمال قوة سطوة تجلي ربه، ولهذا كان النبي ﷺ يغان على قلبه؛ لضعف خلقته ،فكان عند استغراق الشهود وغلبات الأحوال يقول: «كلميني يا حميراء»(1)، أو كان النبي يقول: «لا معك قرار ولا منك فرار المستعان منك بك إليك»(2).

واعلم أن الضعف مخصوص بالإنسان وهو سبب كماله وسعادته، وسبب نقصانه وشقاوته، يتغير من ضعفه من حال إلى حال ومن صفة إلى أخرى، فيكون ساعة بصفة بهيمية يأكل ويشرب ويجامع، ويكون ساعة أخرى بصفة ملك يسبح بحمد ربه ويقدس له، ويفعل ما يؤمر ولا يعصي فيما نهاه عنه، وهذه التغيرات من نتائج ضعفه، وليس هذا الاستعداد لغيره، حتى الملك لا يقدر أن يتصف بصفات البهيمية، والبهيمية لا تقدر أن تتصف بصفات الملك؛ لعدم ضعف الإنسانية، وإنما خص الإنسان بهذا الضعف لاستكماله بالتخلق بأخلاق الله واتصافه بصفات الله تعالى، كما جاء في الحديث الرباني: «أنا ملك حي لا يموت أبدًا، عبدي أطعني أجعلك حيًا ملكًا لا تموت أبدًا»(3)، فعند هذا الكمال يكون خير البرية، وعند اتصافه بصفات البهيمية يصير شر البرية، فافهم جيدًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)﴾ [النساء: 29 - 30].

ثم أخبر عن ما يفسد حاله ونهاه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:29]، إشارة في الآية: من خصائص الإيمان ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:29]؛ أي: في غير طلب الحق بالهوى وتتبع الشهوات واستيفاء

(1) ذكره حقي (6/ 280).

(2) ذكره الألوسي (5/ 35)، من قول الشبلي.

(3) لم أقف عليه.

اللذات، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:29]؛ يعني: إلا أن يكون تصرفكم في أموالكم تجارة تنجيكم من عذاب الآخرة، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:29]؛ أي: بصرف أموالكم في هواها وشهواتها، فإنها سمها القاتل المهلك ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:29]، إذ بين لكم هذه الآفات قبل أن تقعوا فيها، ودلكم على هذه التجارات لتربحوا بها السعادات.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ [النساء:30]؛ أي: بصرف المال بالهوى، ﴿عُدْوَانًا﴾ [النساء: 30]؛ أي: يعدوا أمر الله تعالى، ﴿وَظُلْمًا﴾ [النساء:30]؛ أي: يظلم على نفسه بمتابعة الهوى، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء:30] القطيعة، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ [النساء:30]؛ أي: حرمانه وقطيعته عن الله تعالى، ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:30] لا يبالي به.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: 31 - 32].

ثم أخبر أن الاجتناب عن الكبائر المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] [النساء:31]، يوجب تكفير الصغائر، لقوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:31]، وعند انتفاء الصغائر والكبائر يمكن الدخول في المدخل الكريم وهو حضرة أكرم الأكرمين، لقوله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: 26]، وقال ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»[2]، وتفاصيل الكلام مر ذكرها وإن

(1) الكبائر -على لسان العلم- هاهنا: الشِّرْكُ بالله، وعلى بيان الإشارة أيضا الشِّركُ الخَفِيّ، ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستجلاء قبولهم، والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم، ويقال: إذا سلم العهد لها حصل من مجاوزة الحد؛ فهو بعيد عن التكفير، ويقال: أكبر الكبائر إثباتك نَفْسَك، فإذا شاهدت نَفْيَها تخلّصْتَ من أسر المحن [تفسير القشيري (21/ 472)].

(2) تقدم تخريجه.

جملتها مندرجة في ثلاثة أشياء:

إحداها: إتباع الهوى، فقد يقع الإنسان به في جملة من الكبائر، مثل: البدعة والضلالة، والارتداد والشبهة، وطلب الشهوات واللذات، والتمتعات وحظوظ الأنفس بترك الصلاة والطاعات كلها، وعقوق الوالدين، وقطع الرحم، وقذف المحصنات وأمثالها، ولهذا قال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:26]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، وأضله الله على علم.

وقال ﷺ: «ما عُبد إلهٌ في الأرض أبغض على الله من الهوى»[1].

وثانيها: حب الدنيا، فإنها مظنة كثيرة من الكبائر مثل: القتل والظلم والغصب، والنهب والسرقة، والربا وأكل مال اليتيم، ومنع الزكاة، وشهادة الزور وكتمانها، واليمين الغموس، والحيف في الوصية وغيرها، واستحلال الحرام ونقض العهد وأمثاله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13].

وقال ﷺ: «إن أكبر الكبائر الإشراك بالله»[2].

وقال ﷺ: «اليسير من الرياء شرك»[3].

وقال المشايخ: وجودك ذنب، فمن تخلص عن ذنب وجوده فلا يرى غير الله، فلا ينشأ منه الشرك ولا حب الدنيا، ومن تخلص من الهوى فيتحقق له الوصول واللقاء، كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف:110]، لعمري أن هذا هو المدخل الكريم، والفوز العظيم، والنعيم المقيم.

ثم أخبر أن نيل هذه المقامات والكرامات ليس بالتمني، بل بالجد والسعي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ [النساء:32]، إشارة في الآيتين: أن ما فضل الله به بعض الإنسان

---

(1) ذكره الشيخ حقي (4/ 284).

(2) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (1/ 71، رقم107) . .

(3) أخرجه الطبراني (20/ 153، رقم 321)، والحاكم (4/ 364، رقم 7933). وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (2/ 1320، رقم 3989)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/ 328، رقم 6812).

على بعض من كمالات الدين ومراتب أهل اليقين لا تحصل بمجرد التمني، كما قال ﷺ: «ليس الدين بالتمني»[1]، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء:32]، فإنه لا يحصل بالتمني، ولكن ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ [النساء: 32]؛ أي: الذين ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور:37] والقائمين بأمر الله المجتهدين في طلب الله المعرضين عن غير الله، ﴿نَصِيبٌ﴾ [النساء:32] مما جدوا في طلبه واجتهدوا حق الجهاد بالسعي الجميل والصبر الجزيل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم:39-40]، ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾ [النساء:32]؛ أي: من فيه نوع الأنوثة من التواني في الطلب، ودناءة الهمة في المطلوب والمقصود، وهو الذي يطلب من الله غير الله، فلهن نصيب ﴿مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:32]، على قدر الهمة في الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:20].

ثم علم عباده حسن السؤال بعلو الهمة بقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:32]، وفيه معنيان:

أحدهما: اسألوه من فضله الخاص الذي ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الحديد: 21]؛ ليؤتك ويفضلك به على أهل زمانك، وحقيقة الفضل؛ هي المعرفة والعلم اللدني يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: 113].

والثاني: ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ﴾ [النساء:32]؛ أي: اسألوه منه ولا تسألوا منه غيره، فإنه يعطيكم من فضله وكرمه، وإن اجتهدتم في الاكتساب وجاهدتم ﴿فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:78]، ولا يجهدكم كسبكم، فإنه بالجهد يهدي إلى سبله، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69]، بالفضل يهدي إليه، كما قال تعالى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:13]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 71).

كَانَ﴾ [النساء:32] في الأزل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النساء:32]؛ أي: من أحوال عباده ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:32] يعلم بالعلم القديم الأزلي، فأعطى كل واحد منهم في بدء الخلقة استعدادًا لقبول الفيض الإلهي كما يشاء بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124]، وكان ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:32] بمن يسأل من الله غيره ممن لا يسأل منه إلا هو، فأشار إليهم وخاطبهم على قدر استعدادهم ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ﴾ [النساء:32].

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: 33 - 34].

ثم قال ﴿وَلِكُلٍّ﴾ [النساء:33] طالب صادق، ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء:33]؛ أي: جعلناه في الأزل مستعدًا للوراثة ومستحقها، ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: 33]؛ يعني: مما ترك والده وأقربوه طلبه لعدم الاستعداد والمشيئة، ثم أورثناه فضلاً منا ورحمة من عندنا، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء:33]؛ يعني: الذي جرى بينكم وبينهم عند الأخوة في الله، وأخذتكم بإيمانكم إيمانهم بالإرادة وصدق الالتجاء، وتابوا على أيديكم فأتوهم بالنصح وحسن التربية والاهتمام بهم، والقيام بمصالحهم على شرائط الشيخوخية والتسليك، ثم ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء:33]؛ الذي أودع الله تعالى لهم عندكم بعلمه وحكمته، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النساء: 33] من الودائع أينما أودعه لمن أودعه، ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء:33] يشهد عليكم يوم القيامة أن تخونوا في إعطاء ودائعهم بالخيانة، ويسألكم عنها ويشهد لكم بالأمانة، ويجازيكم عليها خير الجزاء.

ثم أخبر عن أحوال الرجال بالفضل والنوال بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء:34]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى جعل الرجال قوامون على النساء؛

لأن وجودهن تبع لوجودهم وهم الأصول وهن الفروع، فكما أن الشجرة فرع الثمرة فإنها خلقت منها، فكذلك النساء فروع الرجال فإنهن خلقن من ضلع، فلما كان قيام حواء قبل خلقها وهي ضلع بآدم ﷺ وهو قوام عليها، فكذلك الرجال قوامون على النساء بمصالح أمور دينهن ودنياهن، كقوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ [التحريم:6].

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء:34]؛ أي: بما فضل الله الرجال على النساء وهو استعداد الكمالية للخلافة والنبوة، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، وما صلحت النساء للخلافة والنبوة، واختص الرجال بهما، فكان وجودهم الأصل ووجودهن تبعًا لوجودهم للتوالد والتناسل، قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، وما كمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وفضل عائشة - رضي الله عنها - على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]، ومع هذا ما بلغ كمالهن إلى حد يصلحن للخلافة والنبوة، وإنما كان كمالهن بالنسبة إلى النسوة لا إلى الرجال؛ لأنهن بالنسبة إلى الرجال ناقصات عقل ودين، حتى قال ﷺ في حق عائشة - رضي الله عنها - مع فضلها على سائر النساء: «خذوا ثلثي دينكم من هذه الحميراء»[2]، فهذا بالشبه إلى الرجال نقصان، حيث قال ﷺ: «خذوا ثلثي دينكم»، ما قال كمال دينكم، ولكن بالنسبة إلى النساء كمال؛ لأنه على قاعدة قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:11] يكون حظ النساء من الدين الثلث، فكملتها كان لها الثلثان بمثابة الذكور مثل حظ الأنثيين.

﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:34]؛ يعني: بتجريدهم عن الدنيا وتفريدهم للمولى فضلوا على النساء، ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ [النساء:34]؛ يعني: الذي يصلحن للكمال

---

(1) حديث أنس: أخرجه أحمد (3/ 156، رقم 12619)، والبخاري (3/ 1375، رقم 3559)، ومسلم (4/ 1895، رقم 2446)، والترمذي (5/ 706، رقم 3887) وقال: حسن. والنسائي (7/ 68، رقم 3948)، وابن ماجه (2/ 1092، رقم 3281)، والدارمي (2/ 144، رقم 2069)، وابن حبان (16/ 50، رقم 7113). وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (6/ 390، رقم 32281)، والطبراني في الأوسط (2/ 369، رقم 2256).

(2) ذكره الألوسي في تفسيره (3/ 31).

بعد الرجال هن ﴿قَانِتَاتٌ﴾ [النساء:34]؛ أي: مطيعات لله تعالى مستسلمات لأحكامه تعالى، ﴿حَافِظَاتٌ﴾ [النساء:34]، الواردات ﴿لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[1] [النساء:34] عليهن حقائق الغيب وأنواره وأسراره، ﴿وَاللَّاتِي﴾ [النساء:34]؛ يعني: منهن ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء:34]؛ يعني: إذا دارت عليهن كؤوس واردات الغيب، وسقين بأقداح الأرواح شراب طهور التجلي من ساقي، ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان:21]، فكوشفن بلغة الجمال، وأسكرن بشهود الجلال، كما قال بعضهم:

فأســـكرَ القـــومَ دَورُ كـــأسٍ وكـــان ســـكري مـــن المُديـــرِ

فعند غلبات السكر يخفن النشوز والنفور؛ لضعف الحال وقوة سطوة النوال ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:34]، فالخطاب بالعظة والهجران لأهل الكمال من الرجال القوامين على النسوان؛ وهن الضعفة من الطلاب، يشير إلى التخويف بالهجران لتأدب الشكر إن كان، كما كان حال الخضر مع موسى عليه السلام فلما دارت بينهما كؤوس المصاحبة وبلغ السيل زبى المراقبة، تساكر موسى عليه السلام وقال بلسان المعاتبة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ [الكهف:71]، فخوفه

---

(1) قال في عرائس البيان: أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطلع عليهن أحدًا؛ حياءً من الله، وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حدة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:33].

ولما رقّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير».

ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:10].

وأيضًا: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ [النساء: 34] أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحدٍ. وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله؛ فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار. قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

الخضر بضرب من تعريض الهجران فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف: 72]، إلى أن عارضه مرة أخرى ووقع الحافر الكدي ضربه بعد الامتحان بعصا الهجران و﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78]، هذا قانون أرباب الكمال المسلكين بالأصحاب إلى حضرة الحال، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ [النساء:34]، فإن رأوا عنهم في أثناء السلوك نشوزًا من الملال أو عربة من غلبات الأحوال، يعظوهم بالمقال، فإن لم يتعظوا فبالفعال، فإن لم ينتفعوا فبالانتقال، فلمن تتعظوا بأن يطعن لكم ويتأذين، ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:34] بانتقام ما جرى فيهن، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34]، لا يؤاخذ ضعف الطلبة عند العجز والغفلة.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: 35 - 36].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء:35]، يشير إلى خلاف يقع بين الشيخ الواصل في المريد المتكامل، ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:35]، متوسطين؛ أحدهما: من المشايخ المعتبرين، والثاني: من معتبري السالكين؛ لينظر إلى مقالها ويتحققا أحوالها، ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ [النساء:35]، بما رأى فيه صلاحهما ﴿يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء:35]، بالإرادة وحسن التربية، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء:35] في الأزل ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:35]، بأحوالهما، ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:35] بجمالهما، فقدر لكل واحد منهما بما عليهما وبما لهما.

ثم أخبر عما لهما وعليهما بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ﴾ [النساء:36]، إشارة في الآيات: إن العبد مأمور بعبادة الله تعالى وعبوديته بالإخلاص دون الشرك فيهما، بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء:36]، فالعبادة أن تعبدوا الله وحده بطريق أوامره ونواهيه، ولا تعبد معه شيئًا من الدنيا والعقبى، فإنك لو عبدت الله خوفًا

من شيء أو طمعًا في شيء فقد عبدت ذلك الشيء(1)، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج:11]، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: 16]، والعبودية طلب المولى للمولي بترك الدنيا والعقبى، والتسليم عند جريان القضاء شاكرًا صابرًا في النعماء والبلوى، كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52]، فإذا حصل المقصود وصل العابد إلى المعبود، فحينئذ يصح عنه، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:36]؛ لأن الإحسان من صفات الله تعالى، كقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:7]،

---

(1) قال الأستاذ: العبادة موافقة الأمر، وهي استفراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم، ويقال: اعبدوه بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعريج في منازل الكسل والاستهانة.

وقال العارف البقلي: أمر بشيئين: العبودية والإخلاص في العبودية، ولا تكون العبادة مع الشرك، ولا يكون الإخلاص والتوحيد بغير العبادة، فطلب التوحيد بنعت إفراد القدم عن الحدوث، ونفي الأنداد والأضداد، وطلب العبادة المقرونة بهذا التوحيد؛ لتكون العبادة موافقةً للتوحيد، ويكون التوحيد موافقًا لتنزيه القدم.

خلق النفس مع حظها، وأمر العباد بتقديس حظ اليقين عن اليقين، وكيف يكون تبديل الخلق وطبع النفس أن يكون مائلاً إلى غير الله- تعالى- أي: اطلبوا مني تقديس الأسرار في كشوف الأنوار؛ فإني قادرٌ على أن أزمّها بأزمّة الوحدانية، وأسيرها خاضعةً لفردانيتي.

وأيضًا: اعبدوا الله لله، لا على رؤية العوض والعبادة؛ فإنها شرك العارفين، واعبدوه على رؤية التقصير؛ فإنها عبادة الموحدين، وأيضًا: شغلهم منه به، ولو أحبهم بالحب البالغ أسكرهم بشراب القرب والمشاهدة، وأوقعهم في بحار القدم بعد خروجهم من العدم، وهذا آخر الأمر في المحبة والمعرفة؛ ألا ترى كيف وقع بالامتحان من أهل الجنة، وأخبر عنهم بما وجدوا من راحة القرب والمشاهدة بغير نصب الامتحان ﴿الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:35]. قال أبو يزيد: إن الله سبحانه نظر في العالم فلم ير أهلاً لمعرفته، فشغلهم بعبادته. قال أبو عثمان: حقيقة العبودية قطع العلائق والشركاء عن الشرك.

وقال الواسطي: الشرك رؤية التقصير والعزة من نفسه والملامة عليها، يقال له: ألزمت الملامة من تولى إقامتها ومن قضى عليها الشره. وقال بعضهم: العبودية فناؤك عن مشاهدتك في مشاهدة من تعبده. [تفسير القشيري (1/ 28)]، [عرائس البيان 1/ 284] بتحقيقنا.

والإساءة من صفات الإنسان فإن النفس الأمارة بالسوء، فالعبد لا يصدر منه الإحسان إلا أن يكون متخلقًا بأخلاق الله تعالى فانيًا عن أخلاق نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:79]، وفيه إشارة أخرى؛ وهي: إن لشرط العبودية الإقبال إلى الله تعالى بالكلية والإعراض عما سواه، حتى يخرج عن عهدة العبودية بالوصول إلى حضرة الربوبية، فتفنى عنك به وتتقرب به للوالدين، وغيرهما محسنًا بإحسانه لا بشرك ورياء، فإن الشرك والرياء هاء النفس، فإذا فنيت النفس فنيت أوصافها، ولهذا قال تعالى عقيب الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:36]؛ لأن الاختيال والفخر من أوصاف النفس، والله تعالى لا يحب النفس ولا أوصافها؛ لأن النفس لا تحتسب الدنيا ولا المحبة من أوصافها، فإن النفس تحب الدنيا وتبخل بها وتأمر بالبخل.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَـٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء: 37 - 38].

فقال تعالى في صفة الفخور: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:37]، إلى أن قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [النساء:38]؛ لأن النفس محجوبة عن الله تعالى بهواها، فإنها اتخذت إلهها هواها، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:38]، فإن الهوى يضلها عن سبيل الله تعالى: كالشيطان فما دام هو يكون قرينًا لها فهو شيطانها، ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:38].

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: 39 - 41].

ثم أخبر عن إنفاق أهل النفاق بقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:39]، إشارة في الآيتين: إن الله تعالى يخبر عن دناءة همة الأشقياء، وقصور نظرهم أنهم يتقنعون بقليل من الدنيا، ويحرمون عن كثير من المقامات الأخروية السنية، ولا ينفقون في طلب الحق، فقال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:39]؛ يعني: من المشقة والنقل ظاهر، ﴿لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:39]، ظاهرًا وباطنًا ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ [النساء:39]؛ أي: بعض ما رزقهم الله لينالوا السعادة الكبرى والدرجات العلا.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:40]، وفيه إشارة أخرى، ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:39]؛ أي: ليس عليهم ضرر من إنفاق ما رزقهم من المال والجاه، والنفس في طلب الحق، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:38]؛ أي: لو كان لهم إيمان بوجدان الله وسعادة الآخرة، وبه طلبوه وتركوا الدنيا وتحقق لهم؛ معنى: ﴿وَكَانَ اللهُ بِهِمْ﴾ [النساء:39]، وإنفاقهم وقصدهم ومقصودهم وصدقهم في الطلب ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء: 39]، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:40]، على عباده وطالبيه، ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ [النساء:40] منهم بالسعي في الطلب، ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء:40]، كما قال تعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1]، ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40]؛ أي: يؤتيه من جذبات العناية بجذبة عنه إليه وهو الأجر العظيم، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن أحوال المنافقين والموافقين بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ [النساء: 41]، إشارة في الآيتين: إن مرآة القلوب إذا تخلصت عن شين رين الخلق الحيواني، وصقلت عن طمع الطبع الروحاني، وتنورت بالنور الرباني، ينعكس فيها نقوش ما تجري في العالمين، وشاهدت بنور الله معاملات الثقلين، ولهذا قال من قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، فقال تعالى لحبيبه محمد ﷺ إظهارًا لفضله على الأنبياء - عليهم السلام -: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء:41]؛ أي: نبيهم ليشهد عليهم

---

(1) تقدم تخريجه.

لإشرافه عليهم لإشرافه بمرآة القلب ونور الرب على أحوالهم، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ [النساء: 41] يا محمد ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:41]؛ لتشهد يوم يجمع الله الرسل، ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة:109]؛ لإشرافك على أحوالهم ولا إشراف لهم على أحوالك، فكما أن لك فضيلة بهذا الإشراف على الأنبياء، فكذلك لأمتك فضيلة على الأمم بالإشراف على أحوالهم، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:143]؛ يعني: على الأمم، ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: 143]؛ يعني: تشهدون أنتم على الأمم ولا يشهد عليكم إلا رسولكم، وهو ﴿بِالْـمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [النساء:42]؛ يعني: يوم شهادة هذه الأمة على من كفر من الأمم في الدنيا، وجحد الكفر في الآخرة بعد كفرهم وجحودهم، وإقامة البينة بشهادة هذه الأمة عليهم.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء: 42 - 43].

﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ [النساء:42]؛ أي: كل فرقة رسولهم، ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء:42]، خجالة عن الله والإشهاد وخوفًا من العذاب والنار، وحسرة ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ﴾ [الزمر:56] بإبطال استعداد الفطرة ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:30]، وتقصيرًا استعمال وصرفه في الاستكمال الذي صرفه إليه غيرهم، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثًا﴾ [النساء:42]؛ يعني: إذا جحدوا مع الله وكتموا كفرهم بقولهم: ﴿وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:23].

ثم أخبر عن خسران السكران بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء:43]، إشارة في الآية: إن الصلاة هي معراج المؤمن وميقات مناجاته، والمصلي هو الذي يناجي ربه، فقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾

[النساء:43]، يا أهل الإيمان، ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:43] في مناجاتكم مع ربكم، فيه دلالة على أن من يصلي ولا يعلم ما يقول ومع من يقول فحكمه حكم السكران الساهي عما يقول، فيكون حاصله من الصلاة الويل، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون:4-5]، وفيه إشارة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:43]، يا مدعي الإيمان لا تجدون القربة في الصلاة وأنتم سكارى من الغفلات وتتبع الشهوات، حتى تعلموا ما تقولون في مناجاتكم مع ربكم، ولماذا تقولون كما تقولون الله أكبر لتكبيرة الإحرام عند رفع اليدين، ومعناه الله أعظم وأجل من كل شيء، وإن كنت تعلم عند التقول به فينبغي أن لا تكون في تلك الحالة في قلبك عظمة شيء آخر، وإمارة ذلك ألا تجد ذكر شيء في قلبك مع ذكره ولا محبة لشيء مع محبته ولا طلب شيء مع طلبه، فإنه تبارك وتعالى واحد لا يقبل الشركة في جميع صفاته، وإلا كنت كاذبًا في قولك: الله أكبر، بالنسبة إلى حالك، وكذلك عند قولك: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79]، فإن كان في قلبك توجه إلى شيء من الدنيا والآخرة ولك مطلوب غير الله فأنت كاذب في ذلك، فقس الباقي على هذا، فإن جميع حركاتك في أثناء الصلاة وكلماتك تشير إلى سر من أسرار الرجوع والعروج من مقام البشرية إلى حضرة الربوبية، فإن كنت غافلاً عن هذه الأسرار والإشارات فتكون كالسكران لا تجد القربة من صلاتك؛ لأن القربة مشروطة بشرط السجود كما خوطبت: ﴿وَاسْجُدْ﴾ [العلق:19]؛ أي: تنزل مركب أوصاف وجودك لتحمل على رفرف وجوده إلى قاب قوسين أوصاف وجوده لشهود جماله وجلاله، وهذا هو سر التشهد بعد السجود.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء:43]؛ يعني: كما أنكم لا تجدون القربة وأنتم سكارى من الغفلات، أيضًا لا تجدونها مع جناية استحقاق العبد؛ وهي ملامسة الدنيا الدنية، إلا على طريق العبور بقدم ظاهر الشرع سبيل الأوامر والنواهي، ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:43]، بماء التوبة والإنابة، وصدق الطلب وحسن الإرادة، وخلوص النية جناية ملامسته الدنيا وشهواتها، ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ [النساء:43]،

بانحراف مزاج القلب في طلب الحق، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [النساء:43]، كتردد بين طلب الدنيا وطلب العقبى والمولى، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء:43]، من غائط تتبع الهوى، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء:43]؛ أي: لامستم الأشغال الدنيوية، فأجبتم وتباعدتم عن الله تعالى بعد ما كنتم مجاوري حظائر القدس، وزلفتم في رياض الأنس ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [النساء:43]، صدق الإنابة والرجوع إلى الحق بالإعراض والانقطاع عن الخلق، ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء:43]؛ أي: فاقصدوا، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:43]، وهو شراب أقدام الرجال الطيبين من سوء الأخلاق والأعمال، ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء:43] تراب أقدامهم ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء:43]، وتمسحوا بأيديكم أذيال كرامهم مستسلمين بصدق الإرادة لأحكامهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ [النساء:43] عنكم التقصير والانقطاع إليه بالكلية، ولعل يعفو عنكم التلون بالدنيا الدنية بهذه الخصلة المرضية، ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:43] لكم آثار الشقوة من غبار الشهود، فإنه يسعد بهم أنيسهم؛ لأنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: 44 - 46].

ثم أخبر عن جهالة أهل الضلالة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ [النساء:44]، إشارة في الآيتين: إن ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء:44]، يشير إلى: إن من رزق شيئًا من علم الكتاب ظاهرًا، ولم يرزق أسراره وحقائقه وهم علماء السوء المداهنون في دين الله حرصًا على الدنيا، وطمعًا في المال والجاه، وحبًا للرياسة والقبول، ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ [النساء:44]، وهي المداهنة واتباع الهوى، فيبيعون الدين بالدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء:44]، يا معشر العلماء الأتقياء ورثة أنبيائه وطلاب الحق من بين الخلق عن ﴿السَّبِيلَ﴾ [النساء:44]، الحق بما يجدونكم وينكرون عليكم،

ويكرمونكم ويودونكم بطريق النصح وإظهار المحبة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ [النساء: 45]؛ أي: بعدوانهم إياكم هو أعلم منكم ومنهم بحالكم وحالهم، فلا تقبلون نصيحتهم فيما يقطعون عليكم طريق الحق ويردونكم عنه، ويصدونكم عن الحق بالتحريض على طلب غير الله ورعاية حق غير الله، وأطيعوا أمر الله تعالى فيما أمركم به قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 92].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ [النساء: 45]، فلا يضركم إن لم يكن غيره وليًا لكم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: 45]؛ يعني: حسبكم الله بالنصرة والولاية، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء: 46]؛ يعني: دأب علماء السوء قريب من دأب الذين هادوا، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46] بالفعال لا بالمقال، ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ [النساء: 46]، بالمقال فيما أمر الله من ترك الدنيا وزينتها وإتباع الأوامر، ومن إيثار الآخرة على الأولى والانقطاع عن الخلق، ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: 46]، وأهل الدين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النساء: 46]، في القرآن قولاً وفعلاً، ﴿وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا﴾ [النساء: 46]؛ أي: أجب دعاءنا ولا تخيب رجاءنا، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: 46]، في قوم أخلاقهم واستقامة أحوالهم، ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 46]، يبعدهم الله عن الحضرة، وطردهم عن القربة بشؤم إنكارهم وكفران نعمة إيتاء العلم، ﴿فَعَمُوا﴾ [المائدة: 71] ببصر البصيرة عن رؤية الحق، ﴿وَصَمُّوا﴾ [المائدة: 71] بالآذان الواعية عن استماع كلام الحق، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: 46]، بالقلوب السليمة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46] منهم، بأن يكفروا بهوى نفوسهم ويؤمنوا بالإيمان الحقيقي الذي من نتائج الإرادة والصدق في طلب الحق، والإخلاص في العمل لله، وترك الدنيا وزخارفها، بل بذل الوجود في طلب المعبود.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: 47 - 49].

ثم أخبر عن الإيمان الحقيقي والاحتراز عن الشرك الجلي بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا﴾ [النساء:47]، إشارة في الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء:47]، ظاهرًا ولم يؤتوا علم باطن الكتاب، فإن للقرآن ظهرًا وبطنًا، ﴿آمِنُوا﴾ [النساء:47]، وصدقوا ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [النساء:47] على الأولياء من علم باطن القرآن وفهمه، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:47] من العلم الظاهر، فإن آتيناهم ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65]، ولا تستبعدوا أن يؤتي الأولياء علمًا، علماء الدنيا يحتاجون إليهم في إرشادهم إلى ذلك العلم إياكم، فإن موسى عليه السلام مع رسالته، فإنه كان كليم الله احتاج إلى تعلم الخضر - عليهما السلام - حتى قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:66]، ومع هذا قال له الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:66]؛ لأن أهل العلم الظاهر كما معهم من الكتاب وعلمهم يكون مصدقًا لما معهم، ولكن أهل العلم الظاهر يصعب عليهم تصديق علوم الأولياء، وقليل منهم يستطيعون الصبر مع أقوالهم وأفعالهم؛ لأنها قلما تناسب عقولهم، فالواجب على أهل علم ظاهر القرآن تصديق أهل علوم باطنه والاستفادة منهم، والصبر على تصرفاتهم فيهم والتسليم لأحكامهم في البرية، وتزكية نفوسهم وصدق الإرادة في حمل أعباء الصحبة؛ لئلا يكون علومهم الظاهرة الغريبة من فوائد العلوم الباطنة وبال عليهم، كما قال ﷺ: «كل علم بلا عمل وبال، وكل عمل بلا علم ضلال»[1].

فمن فوائد العلوم الباطنة معرفة العلم بالأعمال المنجيات والأعمال المهلكات، ومعونة العمل بالعلوم المنجيات والعلوم المهلكات، وقوة حمل النفس على العمل بالمنجيات، وقوة منعها عن العمل بالمهلكات بالصدق والإخلاص، فالعمل والعلم إذا

(1) لم أقف عليه.

كانا عاريين عن هذه المعارف والقوة والإخلاص - بجلبان حب الدنيا ورياستها وشهواتها ولذاتها إلى القلب فتعميه وتصمه، كما قال ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»[1]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء:47]؛ أي: وجوه القلب، وطمسها عماه وصمها يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:23]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46]، ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء:47]؛ أي: فيرد وجوههم الناظرة إلى الله عما كانوا عليه في الميثاق على أدبارها؛ وهي الدنيا والهوى، ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ [النساء:47]؛ أي: نبعدهم عن الحضرة ونطردهم، ونمسخ صفاتهم الإنسانية بالسبعية والشيطانية، ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء:47]؛ أي: مسخناهم بالصورة ونمسخ هؤلاء بالمعنى، ومسخ المعنى أشد وأصعب من مسخ الصورة، فإن أعمى الصورة يمكن أن يكون في الآخرة بصيرًا، ولكن من كان في هذا أعمى بالقلب ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72]، وفضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ [النساء:47]؛ أي: حكمه وقضاؤه في الأزل ﴿مَفْعُولًا﴾ [النساء:47]، لا محيص عنه لوقوع الفعل في الأبد نظيره، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ [الأحزاب:38]، ولما لم يكن حجاب أعظم من الأنانية فإنها الشرك الخفي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، واعلم أن للشرك مراتب وللمغفرة مراتب، فمراتب الشرك ثلاث:

الجلي والخفي والأخفى، وكذلك مراتب المغفرة، فالشرك الجلي: بالأعيان وهو للعوام، وذلك تعبد شيء من دون الله: كالأصنام والكواكب وغيرها، فلا يغفر إلا بالتوحيد وهو إظهار العبودية في إثبات الربوبية مصدقًا بالسر والعلانية، والشرك الخفي: بالأوصاف وهو الخواص، وذلك ثبوت العبودية بالالتفات إلى غير الربوبية، وإلى العبادة:

(1) حديث أبي الدرداء: أخرجه أحمد (5/ 194، رقم 21740)، والبخاري في التاريخ الكبير (3/ 171)، وأبو داود (4/ 334، رقم 5130)، والحكيم (4/ 216)، والبيهقي في شعب الإيمان (1/ 368، رقم 411) . وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص 99، رقم 205)، والطبراني في الأوسط (4/ 334، رقم 4359). حديث عبد الله بن أنيس: أخرجه ابن عساكر (13/ 316).

كالدنيا والهوى، وما سوى المولى فلا يغفر إلا بالوحدانية، وهي أفراد التوحيد ليتصل بالواحد، والشرك الأخفى: وهو للأخص، وذلك رؤية الأغيار والأنانية، فلا يغفر إلا بالواحدانية وهي فناء الناسوتية في بقاء اللاهوتية ليبقى بالهوية دون الأنانية، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ﴾ [النساء:48]، بمراتب المغفرة ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:48]، بمراتب الشرك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ [النساء:48]، بمراتب الشرك ﴿فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:48]؛ أي: جعل بينه وبين الله حجابًا من إثبات وجود الأشياء والأنانية وهي أعظم الحجب، كما قيل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: 49 - 52].

ثم أخبر عمن زكى نفسه ونسي أمه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:49]، إشارة في الآيتين: إن الذين يزكون أنفسهم من أهل العلوم الظاهرة بالعلم، ويباهون به العلماء ويمارون به السفهاء لا تتزكى أنفسهم بمجرد تعلم العلم؛ بل يحصل لهم ذلك صفات أخرى من المذمومات مثل: المباهاة والمماراة، والمجادلة والمفاخرة، والعجب والكبر، والحسد والرياء، وحب الجاه والرياسة، وطلب الاستيلاء والغلبة على الأقران وإيذائهم وأمثال ذلك، فينقم هذه المذمات مع سائر الصفات النفسانية، وتزيد في أمارية النفس بالسوء، وتمردها عن الحق، ﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:49]، لا بتزكية، وتهيأ لها بتسليم النفس إلى أرباب التزكية وهم العلماء الراسخون والمشايخ المحققون، كما يسلم الجلد إلى الدباغ ليجعله أديمًا، فمن سلم نفسه للتزكية ويصبر على تصرفاته ويسعى إلى إشاراته ولا يتعرض على معاملاته ويقاسي شدائد أعمال التزكية فقد أفلح بما تزكى، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:49]؛ يعني: ولا يضيعون ما عملوا في التزكية بمقدار الفتيل، بل يرون آثره في تزكية نفوسهم، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7-8].

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [النساء:50]، في ادعاء تزكية أنفسهم بمجرد تحصيل العلم، وما سلكوا طريق الله في تزكية النفس بتسليمها إلى مزكيها وهي النبي ﷺ في أيام حياته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة:2]، وبعده هم العلماء الذين أخذوا التزكية ممن أخذوا منه قرنًا بعد قرن من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان إلى يومنا، ولعمري أنهم في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر، ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ [النساء:50]، بإدعاء التزكية لنفسه أو تعليم التزكية لغيره ﴿إِثْمًا﴾ [النساء:50]، للمدعين باطلاً في هذا المعنى ﴿مُبِينًا﴾ [النساء:50]، ظاهر الكذب دعواهم على أعمالهم وأحوالهم.

ثم أخبر عن إمارات كذبهم في دعويهم وعلاماته بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:51]، إشارات في الآيات: إن من أوتي نصيبًا من العلوم الظاهرة ولم يؤت نصيبًا من العلوم الباطنة، لا بد وأن يؤمن بجبت النفس الأمارة بالسوء طاغوت الهوى، فيصدقها فيما يأمرانه وينهيانه بالإعراض عن الحق وطلبه والإقبال على الدنيا وزخارفها، وبهذا يخرجانه من نور الهداية إلى ظلمات الضلالة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43] وأضله الله على علم، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:26]، وهذا كما كان إبليس، فإنه أول نوعًا من العلوم الظاهرة حتى استكبر بها وقال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:76]، فلما لم يكن أدنى شيئًا من العلوم الباطنة بالنسبة إليه ليفرس في آدم عليه السلام بشرف علم الأسماء واختصاصه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، وليفهم من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، كمالية مرتبة الخلافة كان حاصله من مجرد علمه الظاهر الإباء والاستكبار والكفر واللعن والطرد، والإغراء والإضلال، ومن أضلاء المحرومين من دولة علم الباطن المغرورين بعلم الظاهر قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:51]، من أهل الأهواء والمبتدعة والمتفلسفة ومن يعبد الهوى والدنيا، المناسبة فيما بينهم من عبادة

الهوى والدنيا ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:51]، صدقوا الرسل فيما أمروهم بالإقبال على الله والإعراض عن الدنيا وأهلها، ﴿سَبِيلًا﴾ [النساء:51]، طريق الحق؛ لأنهم لا يعرفون الباطل من الحق واتخذوا الحق باطلاً والباطل حقًا.

ثم أخبر عن سبب خذلان من يظهر على أعماله هذه الإمارات ويوجد من أحواله هذه العلامات بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ [النساء:52]؛ يعني: هم الذين لم يؤمنوا بما نزلنا على الأولياء من العلوم اللدنية الذين أودعناهم الطمس واللعن بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ [النساء:47]، فلما أصروا على الجحود والإنكار والإباء والاستكبار أدركتهم اللعنة والطمس وشوهت صورتهم، كما أدركت إبليس وشوهت صورته، فظهرت منهم هذه الأفعال والأحوال ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء:52]؛ يعني: من أصابته لعنة الله أبطلت استعداده وقبول الحق فيبقى في إنكاره وجحوده، فلم تجد له نصيرًا من الأنبياء والأولياء ليعادله ويخرجه من هذه الظلمات.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ [النساء: 53 - 56].

ثم أخبر عن إمارة أخرى بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْـمُلْكِ﴾ [النساء:53]؛ يعني: إمارة المغرورين بعلم الظاهر الممكورين بمكر النفس والشيطان، بل بمكر الحق إن لو كان لأحدهم من المال والملك نصيب وافسر، ﴿فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 53]، من أهل الحق والعلم الحقير، نقيرًا من الحسد والبغض والحقد لأرباب الحقيقة والمنافاة فيما بينهم.

ثم أخبر عن إمارة أخرى فيهم وهي الحسد بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:54]، وهم أرباب الحقيقة ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:54]؛ أي: من

علوم لدنية من غير تعليم، هو أعطاهم وعلمهم فضلاً منه ورحمة، فلا يضرهم حسد الحاسدين، ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:54]، والإشارة في: آل إبراهيم إلى أهل الخلة والمحبة فإنهم آل إبراهيم في الخلة، كما سئل النبي ﷺ من آلك يا رسول الله؟ فقال: «كل مؤمن»(1)، ويشير بالكتاب والحكمة إلى العلم الظاهر الذي يتعلق بالكتابة والدراسة، والعلم الباطن الذي يتعلق بأحكام الإيقان من شواهد الغيب؛ يعني: فإن أرباب الحقيقة الذين يقتدى بهم في هذا الشأن من أعطاهم العلم الظاهر من علم الكتاب والسنة، والعلم الباطن الذي هو الحكمة، ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:54]؛ يعني: معرفة الله تعالى، فإن الملك الحقيقي هو المعرفة العظيمة على الإطلاق.

ثم أخبر عن علماء الظاهر المقبول المقبل منهم والمردود والمدبر منهم، بقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ [النساء:55]، يشير إلى من صدق العلماء المحققين بما أعطاهم الله واستفاد منهم بالصدق والإرادة، وما حسد عليهم، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء:55]، واعترض عليه وأنكره وحسده وآذاه بالقول والفعل مهما قدر عليه، ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ﴾ [النساء:55]، نفسه المنكرة الملعونة الحاسدة، ﴿سَعِيرًا﴾ [النساء:55]، تسعر على حسناتهم نار الحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، فيحشر يوم القيامة بلا حسنات ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة:81]، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:36]، بل يكون هو سعيرًا به تسعر جهنم على أهلها، كقوله تعالى: ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:6]، فافهم جيدًا، وانتبه واعتبر.

ثم أخبر عن حال من كفر بهذه الآيات وتوجد فيه هذه الإمارات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ [النساء:56]، إشارة في الآية: إن الذين كفروا؛ أي: جحدوا من مدعي العلم بآياتنا؛ يعني: بأوليائنا، وإن الأولياء هم مظهر آيات الحق ومظهرها، وهم بذواتهم مظهر آيات العالمين وحجج من الحق على الخلق، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون:50]، ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ [النساء:56]؛ يعني:

---

(1) تقدم تخريجه.

في الدنيا نار الحسد والإنكار، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ [النساء:56]؛ أي: صفاتهم بنار الحسد، ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:56] من الصفات، وذلك أن للإنسان جلودًا بعضها نوراني وهو الصفات الحميدة الروحانية، وبعضها ظلماني وهي الصفات الذميمة النفسانية، ولكن للنوراني جلود وجميعها بالنسبة إلى نور التوحيد والمعرفة وهو نور الله جلود، ولهذا ذكر الله تعالى النور بلفظ الوجدان والظلمات بلفظ الجمع في مواضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:1]، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، وجمع الصفات النورانية الروحانية والظلمات النفسانية حجاب بين العبد والرب، كما قال تعالى: «إن لله تعالى سبعين ألف حجابًا من نور وظلمة»(1)، فإذا عمل العبد عملاً على وفق الشرع وخلاف النفس والهوى، يجعل الله تعالى بإكسير الشرع بعض نحاس الصفات الظلمانية النفسانية على قدر العمل فضة الصفات النورانية الروحانية، وبعض صفة الروحانية نير الولاية النورانية الربانية، وهذا سر قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]؛ يعني: ظلمات الخلقية إلى نور صفات الخالقية، فإن صفات الخلقية بالنسبة إلى نور صفات الخالقية كلها ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:40]، وهي جلودات نور الإلهية، فافهم جيدًا.

فالعبد يتقرب إلى الله بأداء الفرائض والسنن والنوافل، ويجعل صفات نفسه وفضة صفات روحه مستعدًا لقبول تصرفات إكسير الشرع، والله تعالى يتقرب إليه بطرح إكسير الفيض الرباني على نحاس صفات نفسه وفضة صفات روحه، فيصير جلود صفات لب صفات الروح وجلود صفات نور الولاية إلى أن تصير الجلود، وقوله: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا»(2)، تفهم إن شاء الله.

وكذلك إذا عمل العبد على وفق الطبع ومتابعة الهوى ومخالفة الشرع، يصير بإكسير الشقاوة بعض فضية الصفات النورانية الروحانية نحاس الصفات الظلمانية النفسانية على قدر العمل، فيصير اللب جلدًا وقشرًا إلى أن تصير الألباب النورانية كلها جلودًا ظلمانية،

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

وهذا سر قوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: 258]، فالإشارة في قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ [النساء:56]، إن جلود الصفات الروحانية كلما نضجت بنار الحسد والبخل، والحقد والكبر، والإنكار والجحود وغيره من الأخلاق الذميمة ومخالفات الشريعة، ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:56]، من الصفات النفسانية الظلمانية، ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:56]، البعد والمحجوبية عن الله تعالى وعذاب المبدلية من الصفات النورانية الروحانية إلى الصفات الظلمانية النفسانية، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ [النساء:56]، فلعزته لا يهتدي إليه كل جبار متكبر سفيه النفس، دني الهمة قصير النظر ركيك العقل عابد الهوى أسير الشهوة، قليل النخوة كثير الحسد والحرص، طالب الدنيا المعجب برأيه الخبيث في ذاته المفسد في صفاته، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء: 56]، هدى بحكمته أولياء، وإلى حضرته كل هين سهل قريب متواضع، قانع صابر شاكر، سليم مستسلم، كريم النفس رقيق القلب خفيف الروح على الهمة، دقيق النظر لطيف الطبع دائم السرور، الشريف في ذاته الكريم في أخلاقه وصفاته، فمن جعل لبابة الروحانية هاهنا في الجلود من الصفات النفسانية، فيحشر يوم القيامة وكل وجوده جلود لا لب له، فيصلى النار ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:56]، وهذا النضج والتبديل كان حاصلاً له في الدنيا ولكن لم يذق ألمه حتى ينتبه، «فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1]، فافهم جيدًا، وتنبه يا مسكين لعلك تفلح.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝﴾ [النساء: 57 - 59].

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (7/ 52).

ثم أخبر عن الذين انتبهوا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء:57]، إشارة في الآيتين: إن قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:57]، معطوف على ما قبله من ذكر علماء السوء المنكرين؛ يعني: والذين صدقوا منهم أولياء الله عليهم من المواهب الربانية والعلوم اللدنية، وأصغوا إلى كلامهم وأقبلوا على صحبتهم وتابعوهم في السير إلى الله تعالى، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء:57]؛ يعني: بإشاراتهم أعمالاً صالحة لسلوك سبيل الله والوصول، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ [النساء:57]؛ يعني: سنجزيهم بجذبات العناية إلى ﴿جَنَّاتٍ﴾ [النساء:57] القربة والوصلة، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النساء: 57]، من ماء الحكمة، ولبن الفطرة، وخمر الشهود، وعسل الكشوف، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء:57]، مخلدين في الوصلة مؤيدين ﴿أَبَدًا﴾ [النساء:57] من غير الفرقة، ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ [النساء:57]، من تجلي صفات الجلال والجمال، ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: 57] من الوهم والخيال، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ﴾ [النساء:57] بالجذبة من ظل الوجود المجازي، ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء:57] من الوجود الحقيقي الذي لا مجاز بعده، يدل عليه قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»[1].

والإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[2] [النساء: 58]، عقيب قوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء:57] أن الوجود المجازي كان عندكم أمانة من الله تعالى، كما أن وجود الظل مجازي بالنسبة إلى الشمس، وهذا أمانة من الشمس عند الظل، فإذا انجلت الشمس للظل تقول بلسان الجلال للظلال: إن الشمس تأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، فتلاشت الظلال واضمحلت وانمحت الآثار، وبقي الواحد القهار، وهذا أحد أسرار قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

(1) رواه البخاري (3/ 116)، ومسلم (6/ 381).

(2) ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم، ويقال لله سبحانه وتعالى أماناتٌ وَضَعَها عِندَكَ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله سبحانه سالمةً مِنْ خيانتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها، والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب، والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مخامرةُ حقدٍ على انتقام لنفسي [تفسير القشيري (1/ 491)].

طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد:15].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:58]، يعني: يأمركم بعد فناء الوجود المجازي وبقاء الوجود الحقيقي أن تحكموا بالعدل بين الروح والقلب والبدن؛ كيلا يظلم بعضهم على بعض، ويواظب البدن على وظائف الشريعة، وتتأدب النفس بآداب الطريقة، ويراقب القلب بشواهد اللقاء، ويلازم الروح عتبة الفناء بواردات سلطان البقاء، ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ [النساء:58]؛ أي: نعمّا يعظكم بطلبه، فيه تعظيم قدر المطلوب وتعظيم قدر طريق الطلب، ورعاية المطلوب بعد وجدانه، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء:58] في الأزل، ﴿سَمِيعًا﴾ [النساء:58] بمقالات أصحاب الحوائج عند استدعاء الحاجات من ربهم قبل وجودهم، فأعطاهم إياهم قبل السؤال، ﴿بَصِيرًا﴾ [النساء:58] بمعاملاتهم فيما أعطاهم وصرفه في الحق والباطل فيجازيهم بها إلى الأبد.

ثم أخبر عن طريق صرف ما لا يحق في الحق بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:59].

والإشارة فيها: إن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:59] مع القلب والروح والسر، فإنهم آمنوا على الحقيقة لوهم استعداد قبولهم للإيمان ونوره وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ [النساء:59]، فطاعة القلب: لله في أن يحب الله وحده لا يحب معه أحدًا له، وطاعة الروح: ألاّ يلتفت إلى غير الله في الطلب ولا يطلب منه إلا هو، وطاعة السر: في ألاّ يرى غير الله في الوجود، كما قال بعضهم: ما في الوجود سوى الله ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:59]؛ يعني: كونوا بحكم وارد الوقت، فكما أن طاعة الرسول الظاهر هي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:7]، وكذلك طاعة الرسول، وأراد الحق في الباطن هو أن يأخذوا ما أتاهم، وأراد الحق بحكم الوقت مرًا كان أو حلوًا أن لا يعترضوا عليه ولا يعرضوا عنه، ويصبروا عليه صبر الرجال، وينتهوا عما نهاهم بالشواهد والإشارات، وأما بالأحوال أو وقوع الواقعات يدل على هذا التأويل قوله ﷺ لوابصة بن معبد: «استفت قلبك يا وابصة، ولو أفتاك

المفتون»[2] ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] [النساء:59]؛ يعني: مشايخكم ومن بيده أمر تربيتكم، فإن أولي الأمر المريد شيخه في التربية، فينبغي للمريد أن يكل وارد حق يدق باب قلبه، وإشارة وإلهام، وواقعة تنبئ وتخبر عن أعمال وأحوال في حقه تضرب على محك نظر شيخه فيما يرى فيه الشيخ، فأولي الأمر الكتاب والسنة، فينبغي له أن ما سنح له من الغيب بوارد الحق من الكشوف والشواهد والأسرار والحقائق أن يضرب على محك الكتاب والسنة فيما صدقاه، ويحكمان عليه فقبله يكون بحكمه، ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:59]، يحتمل معنيين:

أحدهما: منازعة النفس مع القلب والروح والسر فيما يرد عليهم من الحق، أو فيما يحكم به الشيخ ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:59]؛ يعني: إلى الكتاب والسنة.

والثاني: منازعة القلب فيما يحكم به الكتاب والسنة، نزاعًا من قصور الفهم والدراية وإدراك دقائقها والكشف عن حقائقها، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ﴾ [النساء:59] بمراقبة القلوب بشواهد الغيوب، وإلى رسول وارد الحق بصدق النيَة وصفاء الطوية عن كدورات البشرية، ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [النساء:59]؛ أي: بنور آمنتم الذي شرح الله صدروكم للإسلام، وبرسول وارد الحق إلى قلوبكم للإيمان ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:59] شاهدتم بنور الله اليوم الذي بعد يوم الدنيا وآمنتم به، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [النساء:59]؛ يعني: ذلك الإيمان الإيقاني بشهود نور الرباني خير من تعلم الكتاب والسنة بالتقليد دون التحقيق، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:59]، عاقبة وجزاء في الحال والمآل.

---

(1) وفي الآية إشارةٌ: أي: إذا بلغتم مقام خطاب الخاص من العلوم المجهولة المشكلة اسلكوا مسلكها بغير الواسطة، كالخضر كان متابعًا للعلم اللدني في الخارج عن أمر الظاهر، مثل قتل الغلام، وكسر الألواح، وهذا خاصٌ لمن وقع له سهم الغيب، ومن بلغ مقام التوحيد ومرتبة الاستقامة لسلك مسلك الأنبياء في مباشرة التوسع والرخص كالأنبياء، مثل سليمان وداود ﷺ ويوسف ﷺ ومحمد ﷺ، وهذا منزل الاقتداء، ولا يصلح هذا للمتكلفين، ومن فتح له باب بيان علم الحقائق يتكلم بإصلاح علماء الله، فإن سلوك مسالكهم لمن له فهم الغيب طاعةٌ معروفةٌ وأسوةٌ حقيقيةٌ.

(2) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (1/ 144) مختصراً. قال المناوي (1/ 496): قال النووي في رياض الصالحين: إسناده حسن، حديث واثلة: أخرجه أبو نعيم في الحلية (9/ 44).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: 60 - 62].

ثم أخبر عن حال القال من غبر الأحوال بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:60]، إلى قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ [النساء:61] والإشارة فيه: إن أهل الطبيعة ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء:60]؛ يعني: بأركان الشرائع [قبلك وبالقرآن] بِقَالِهِم، ثم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:60] طاغوت الهوى، فلو كان حالهم مناسبًا لقالهم، لكان تحاكمه إلى الله والرسول في جميع الأحوال لا إلى الهوى ولا إلى العقول المشوبة بشوائب الخيال والوهم والهوى، ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء:60]، وهذا أحوال المتفلسفة في أهل هذا الزمان أنهم يزعمون أنهم آمنوا بالله ورسوله وبما أنزل إليه من القرآن، ثم يتحاكمون في الأمور الأخروية والمعارف الإلهية إلى العقول الملتبسة بآفات الوهم والخيال المشوبة بالهوى، ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ [النساء:60] في ذلك ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ [النساء:60] من طريق الحق، ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:60]، من الرجوع إلى الحق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [النساء:61]؛ أي: لأهل الأهواء والبدع ولأهل الطبيعة، ﴿تَعَالَوْا﴾ [النساء:61] نتحاكم في الأمور ﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء:61]؛ أي: الكتاب والسنة، ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النساء:61] يظهرون غيرها، ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ﴾ [النساء:61]؛ أي: متابعتك وسنتك وسيرتك، ﴿صُدُودًا﴾ [النساء:61]، إعراضًا تمامًا، وهذا النفاق دأبهم في جميع الأحوال، صلى الله على سيدنا محمد وآله.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [النساء:62]، ملامة من الحق وسياسة من السلطان ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِالله إِنْ أَرَدْنَا﴾ [النساء:62]، يتحاكمنا إلى العقل وبراهين العقلية دون الشريعة، ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ [النساء:62]، إيقانًا في

الأدلة ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:62] بطريق الصواب وسبيل الحق.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: 63 - 65].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء:63] من الشبهات واعتقاد السوء والصدود عن الحق وكتمان نفاقهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء:63] في الظاهر ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:125]، لهم في الرجوع إليَّ، وترك التمادي في الباطل، ﴿وَقُلْ لَهُمْ﴾ [النساء:63]، بصلابة الدين ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء:63] في قتلهم وهلاكهم؛ أي: خوفتهم بالقتل إن لم يرجعوا إلى الحق، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:63] في الموعظة والتخويف، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:64]، ولا يطاع العقل بإذن الهوى، فافهم جيدًا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء:64]، بمتابعة الهوى وتحاكمهم إلى العقول دون الكتاب والسنة، ﴿جَاءُوكَ﴾ [النساء:64]، تاركين أهواءهم، تابعين لك ولما جئت به، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ﴾ [النساء:64]؛ أي: تابوا إلى الله وطلبوا منه طريق الحق والوصول إلى الحقيقة في متابعتك، ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:64]؛ أي: يشفع لهم في الحضرة، ويهديهم بقوة النبوة والرسالة إلى صراط مستقيم في الطلب، ﴿لَوَجَدُوا اللهَ﴾ [النساء:64] ووصلوا إليه؛ لأنه كان ﴿تَوَّابًا﴾ [النساء:64] بهم إذا تابوا، واجدًا لهم إذا طلبوا، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:64] بهم إذا وصلوا[1].

---

(1) يتحفنا الشيخ البيطار بوارده القدسي في هذه الآية المباركة بقوله: اعلم ـ أيدك الله ـ أن ذات الله تعالى هي الكنز المخفي الذي يحرم التفكير فيه؛ لأنه الغيب الذي لا يُعلم من حيث البطون الغيبي، فلا تصل إليه العبارة ولا تتوجه إليه الإشارة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:20] أي: من وراء الظهورات، فالكنز المخفي غيب لا يصح ظهوره من حيث هو، وإلا لبطل سر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
-

يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:3] فكل ما بدا من ذلك الغيب خرج عن اسم الغيب وصار الغيب من ورائه. وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ [المجادلة:7]، فأخبر تعالى عن انفراده بذاته، فلا يُقال: إنه ثالث ثلاثة أو خامس خمسة من جهة الغيب المطلق الذي نؤمن به، ولذلك ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة:73]؛ لأنه فاتهم مرتبة البطون الذاتي المشار إليها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج:20] وهي مرتبة الانفراد عن الثلاثة، كما قال: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة:7] وهي الغيب الذي لم يظهر، فلا يزال المؤمن متعلقًا بمرتبة الغيب، ولذا قال الإمام الربَّاني ﷺ: الناس فرحون بالرؤية الموعودة في الآخرة وكل همي وابتلائي ألَّا يخرج الأمر من العلم إلى العين، ومن الغيب إلى الشهادة.

يرى ﷺ أن الغيب إذا ظهر إنما هو غيب نفسك، فلا ترى إلا نفسك، فهو طائرك الملزم في عنقك لا الغيب المطلق الله هو الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:91] وقال ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ولولا أن الأمر كذلك ما سُمي محمدًا ﷺ عبدًا، ولكان ربًّا مطلقًا من كل وجه، وبهذا المعنى مُنع موسى ﷺ رؤية الله وقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:143]؛ لأن الغيب ولو ظهر بعض مظاهره فمظاهره لا تتناهى، فهي غير محصورة فلا تمكن رؤية الله من جميع الوجوه، فهذا معنى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وقال ﷺ لما سُئل: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» وقالت عائشة رضوان الله عليها: «من يزعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم الفرية» فلا يزال الله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج:20]، وإلا فقد رآه موسى في النار، أي: رأى غيبًا من غيوب الحقيقة الموسوية، فخاطبه فيه وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه:12]، فأشار بقوله: ﴿طُوٗى﴾ أنه ما رأى إلا ما انطوى عليه باطنه، فالرؤية الموعودة في الآخرة رؤية ربك المناسب لباطن ذاتك، وهو الذي كان يربيك في الدنيا ويُدبِّرك يظهر فيك بالشؤون التي كنت عليها، فبحسب ما كنت عليه من العقيدة فيه تراه، فالرؤية في الآخرة واحدة، ولكن لا يقبل الرائي منها إلا ما يشاكله بما كان يعتقده في ربه، فالمرئي واحد، ولكن تختلف صوره عند الرائين.

وقد ورد في الحديث: «إنه يتجلى للقوم فيتعوذون منه وينكرونه، فإذا تجلَّى لهم بما يعرفون قالوا: نعم أنت ربنا» وهو هو؛ لأنه عين كل أول وآخر وظاهر وباطن، ومن وراء ذلك محيط، فلا يعرف الله على الحقيقة إلا الله، حتى هو تعالى، وإن كان يعلم نفسه لكنه لا يحيط بها؛ لأن ذاته لا تدخل تحت إحاطة علمه، فلذلك انفرد عن جنس ما ظهر من الغيب بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ [المجادلة:7]، ومن العجب أنه عين الثلاثة وعين الرابع المنفرد وعين الخمسة وعين السادس المنفرد، والحاصل أن النهايات رجوع إلى البدايات، وهو مقام الأنبياء والرسل وكل الأولياء. وذلك معنى قولهم على مذهب المحققين: خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله وهو عندنا إثبات كمال الأنبياء لا الأولياء، فالبحر مرتبة العيان، والساحل مرتبة الإيمان.

أقول: إن هذا الساحل بحر لا يُخاض لا لأنبياء ولا لأولياء، ولكن هو الذي استأثر الله به في علم

الغيب عنده، فإذا ظهر من هذا الغيب تجلي كان بحرًا يخوضه الأولياء؛ لعجزهم عن الجمع بينه وبين الساحل، وإلا فلا حاجة إلى الخوض؛ لأن بحر الأولياء بالنسبة إلى الأنبياء ساحل؛ لأن جميع علومهم مجموعة في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53] والبحر عند الأنبياء هو الغيب الذاتي الذي استأثر الله به، فسير الأنبياء إيماني مع وجود العيان.

وهذا المعنى هو الذي نبه عليه الإمام الرباني ﷺ، فالحق مشهود لا مشهود، معلوم لا معلوم، منظور لا منظور، فأين الفرح بالرؤية الموعودة في الآخرة أو غيرها، وأي حاجة لرؤية الآخرة بعد قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:115] فآخرة المؤمن موجودة حاصلة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولذا قال الله في مثل هؤلاء ممن ليس له ذوق شراب النبوة وهم الذين يطلبون ربهم من حيث المغايرة لهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:64] بأن لم يعرفوا قدر أنفسهم من أنها وجه الله تعالى الظاهر،﴿جَآءُوكَ﴾ أي: جاءوك يا محمد، فشاهدوا الله تعالى فيك، وردهم إيمانهم إليك؛ لأني أنزلت عليك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10] ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 64] عن علم ومعرفة بالله، وحضور ومعاينة مطابقة لظاهر الإيمان بلا تأويل، فحينئذ يستغفرون الله من جهلهم بالله، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء:64] من وجودهم مع الرسول فينقلبون إليه انقلاب الفرع إلى أصله، فيجدون الله فيهم كما وجدوه في الرسول بشهودهم أنهم عين الرسول الذي هو عين الله، فيكون للفرع ما كان للأصل، فلذا قال تعالى: ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64] أي: لعلموا أنهم في أنفسهم عين التواب الرحيم، حيث إنه هو التواب لا هم، فتاب من نفسه التي كانت محجوبة عنها إلى نفسه العالمة بنفسها، فهو التواب من نفسه لنفسه على نفسه فيهم، فتوبة الله عين توبة من رُفع عنه الحجاب فتاب من رؤيته، إنه تائب بشهود التواب، كما قيل: قد تاب قوم كثير، وما تاب من التوبة إلا أنا.

ومن هنا قال ابن عطاء الله ـ قدس الله سره ـ في كتابه «التنوير»: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] اقتسم السامعون إلى قسمين:

قسم فرحوا واستبشروا وابيضَّت وجوههم فرحًا بهذا البيع؛ لأنهم سلموا الثمن الذي كانوا يملكونه وهو أنفسهم وأموالهم المضافة إليهم، وأخذوا الجنة من الحق عوض ذلك الثمن، فلهؤلاء قصور من فضة تشاكل بياض وجوههم.

وقسم حزنوا وخجلوا واصفرَّت وجوههم خجلاً من الله، حيث عامل العباد بحسب جهلهم، فأضاف الأنفس والأموال إليهم وهي له تعالى، فهؤلاء لما اصفرت وجوههم خجلاً من الله، حيث لما علم دعواهم في ملك الأنفس والأموال أضافها إليهم، واشترى منهم ما هو مملوك له لا لهم، فجازاهم الحق تعالى بها يشاكل اصفرار وجوههم، فلهم قصور من ذهب.

ثم أخبر عن خواص الإيمان لخواص الإنسان بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65]، إلى قوله ﴿صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ [النساء: 68]، والإشارة فيه: إن الله تعالى أكد الكلام بالقسم، والقسم بذاته تبارك وتعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: 65]؛ يعني: الذين يزعمون أنهم يؤمنون، ليعلم أن الإيمان الحقيقي الذي ينفع العبد وينجيه ليس بمجرد التصديق والإقرار، بل له محك يضرب عليه نقود

-

أقول: العارفون المحققون لا باعوا ولا اشتروا، وإنما الأمر ظهورات وتجليات، بل الأسماء الإلهية تظهر بالمعاني كلها، والمسمى واحد، وإلى ذلك أشار سلطان العاشقين منبهًا على هذا المعنى بقوله ﷺ:

قـد حكَّمَـه الغَـرامُ والـوَجْدُ عَـلَيّ ... أهْـوَى رَشَـا رُشَـيِّقَ القَـدِّ حُـلَيّ
الـرّوحُ لـنا فهـاتِ مـن عـندِكَ شَيْ ... إن قُلْـتُ خُـذِ الـرّوحَ يَقُـلْ لِي عَجَـبًا

وهذا المقال أعدل شاهد لابن الفارض رضوان الله عليه أنه فاني في حقيقة الرسول ﷺ؛ لأن قوله: الروح لنا إشارة لقوله: «أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر» فجميع الأرواح من تلك الروح بل جميع الأشباح أيضًا، فلذا قال: فهات من عندك شيء، أي: أنت مني، فما الذي لك؟

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6] وفي الاعتبار: الإيمان ساري في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44]، ولا يسبّح بحمده إلا من يؤمن به، فالنبي حقيقة كل مؤمن، أي: حقيقة كل شيء، وتلك الحقيقة مشهودة في مظاهر الوجود يراها أهل المعرفة والشهود، ...ولكن علامة المتحقق بهذا المشهد ما قاله بعضهم في الصوفي من أن ملكه مباح ودمه هدر، وهذا هو المسمى عن الحقيقة، فمن كان لا يطالب أحدًا بملكه ولا بدمه؛ لأن الآخذ والقاتل هو، فليفعل ما شاء، فإنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو وارث النبي ﷺ في آية الفتح المبين.

ألا ترى أنه ﷺ لما أعطاه الله دعوة خاصة لنفسه كما أعطى الأنبياء قبله أباحها لأمته، وأخذ العهد من ربه ألا تُرد شفاعته في واحد منهم، فقبل الحق منه ذلك.

وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» والسر في ذلك أنهم ما ملكوا حتى يورثوا، وأما قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: 16].

فالقصد الأعظم وراثة العلم والنبوة وغير ذلك من المال بالتبع، فلا يلتفت إليه، فسليمان عليه السلام ما ملك المال وإنما هو خازن له لأربابه يعطيه لهم عن كشف وبصيرة، فيعطي الشيء لصاحبه ويمنع الشيء عمن ليس بصاحبه، ولذلك لا حساب عليه في العطاء والمنع؛ لأن عطاءه عطاء الله ومنعه كذلك.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39]، لأن المالك هو الله والله لا حساب عليه؛ فافهم ما أشرنا إليه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

الإيمان فيظهر الخالص من المغشوش، والجيد من الرديء، والبر من البهرج، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:65]، حتى يحكموا الشرع لا الطبع، والنبوة والمولى لا الهوى، ووارد الحق لا موارد الخلق فيما التبس عليهم، واختلف أرادهم فيه وتحيّرت عقولهم عنه، ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:62]، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:65]؛ يعني: وإن كان القضاء على خلاف الطبع وهو النفس لا يجددوا في مرآة أنفسهم صورة كراهة ولا خيال نزاهة من قضاء الحق، بل من القضايا الأزلية والأحكام الإلهية، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65] للحق وأحكامه الأزلية باستسلام النفوس ورضا القلوب.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 66 - 69].

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:66]، بسيف الصدق والمجاهدة ومعاندتها، ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء:66] بالفناء في عالم البقاء المعني، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65]، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 66]، ثم الكلام هاهنا في محك نقد الإيمان وعبارة ثم قال تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ [النساء: 66]؛ أي: وما فعلوه إلا قليلاً من مدعي الإيمان؛ يعني: ما صح على هذا المحك إلا نقد ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ [النساء:66] من قتل النفس بسيف الصدق عن شهواتها وإتباع هواها، ﴿لَكَانَ﴾ [النساء:66] مقام الجهاد وشهادة النفس ونيل درجة الصديقين، ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [النساء:66] من شهوات النفس واستفاء اللذات الجسمانية الحيوانية ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:66] في مقامات الروحانية وقربات الربانية، ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:67]؛ وهي العلوم اللدنية، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:68] للوصول إلى حضرة الربوبية بجذبات الإلهية.

ثم أخبر عن فضله مع الطاعات كل على قدر الاستطاعة بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [النساء:69]، إلى قوله: ﴿وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾ [النساء:70].

والإشارة فيها: إن من يطع الله في أحكامه الأزلية وأفعاله الأبدية، والرسول في مطاوعته فيما جاء به، ومتابعته في سلوك المقامات والوصول إلى القربات ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:69] في المقامات والقرب والوصول، ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء:69] قد أنعم الله عليهم بالنبوة، ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:69]؛ وهم أرباب الوصول والوصال وقد انعم الله عليهم بالولاية ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: 2]، ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء:69]؛ وهم أصحاب الجهاد والقتال وقد أنعم الله عليهم بالشهادة، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:69]؛ وهم المستعدون للولاية وقد انعم الله عليهم بالصلاح والسداد، فأولئك هم المطيعون رزقوا معية هؤلاء، والسعادة على قدر الطاعة لله تعالى وعلى قدر المحبة لهؤلاء ومتابعتهم لسلوك المقامات والوصول إلى القربات، لقوله ﷺ: «من أحبَّ قومًا فهو معهم»[1]، وقال ﷺ: «المرء مع من أحب»[2]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:31]، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ﴾ [النساء:69]، المطيعون مثل هؤلاء الرفقاء في سلوك طريق الحق ﴿رَفِيقًا﴾[3] [النساء:69]، فإن هذا

---

(1) رواه الحاكم بنحوه (10/ 76)، والطبراني في الكبير (3/ 34).

(2) رواه البخاري (20/ 352)، ومسلم (17/ 141).

(3) قال روزبهان: معناه حسن مرافقتهم مع المطيع لله، وحسن مرافقة الله مطيع الله لهم؛ لقرب منازلهم ودنو مقاماتهم بعضهم بعضًا؛ لأن المرافقة لا تحسن إلا بموافقة المقامات، والأنبياء هم الذين سمعوا أنباء الله بسمع الخاص، والصدِّيقون هم الذين مع الله بحسن الرضا، ومشاهدة نور البقاء، والشهداء المقتولون بسيوف محبته في معارك سطوات عظمته، والصالحون هم الذين خرجوا من محن الامتحان، وظفروا بنعمة الجنان، والروح والريحان، ويتراءون هلال جمال الرحمن، ولم يذكر المرسلين؛ لأنهم في الغيب غائبون وعن غيب الغيب غائبون، آواهم الله في ستره، لا يطَّلع عليهم أحدٌ من خلقه إلا عند بروزهم من الحضرة.

قال فارس: أدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين، والصالحون في ميدان الشهداء، والشهداء في ميدان الصديقين، والصديقون في ميدان الأنبياء، والأنبياء في ميدان المرسلين.

الطريق غير مسلوك بغير رفيق من هذا الفريق.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [النساء: 70 - 73].

﴿ذَلِكَ﴾ [النساء:70]، الرفق والرفاقة إنما هي ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللهِ﴾ [النساء:70] لا من أحد غيره، ﴿وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:70]، بمن استعداده لهذه الرفاقة فيوفقه لتحصيل هذه السعادة، فيطيع الرسول ﷺ ويحب جميع الصحابة، وتدل هذه الآية على خلافة أبي بكر ﷺ، وذلك أن الله تعالى ذكر مراتب أوليائه وأنبيائه على الترتيب فقدم الأنبياء على الأولياء، فليس لأحد أن يؤخر الأنبياء على الأولياء، وجعل مراتب الأولياء ثلثًا: الأخص وهم الصديقون، والخواص وهم الشهداء، والعوام وهم الصالحون، فكما لا يجوز أن يقدم الأولياء على الأنبياء، فكذلك لا يجوز أن يقدم الشهداء على الصديقين، فلا يجوز أن يقدم الشهداء وهم: عمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - على أبي بكر ﷺ؛ لأنه أول من صدق النبي ﷺ فيما جاء به، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:33]؛ يعني: محمد ﷺ، وصدق به أبي بكر ﷺ، فلما صح أنه الصديق وأنه ثاني رسول الله ﷺ وجب أن يكون خليفة رسول الله ﷺ، ولا يجوز أن يتقدم عليه أحد بعده، كما يجوز في عهده واجمعوا على خلافته بعد رسول الله ﷺ وبعده صارت الخلافة إلى الشهداء كما رتبهم الله تعالى بالذكر، فلا يكون من علامة السعادة تغيير هذه المراتب وتقديم بعضهم على بعض في هذا الزمان، وهذا مما لا يمكن؛ لأن الله تعالى أجرى كما قدره في الأزل فلا راد لحكمه، لاسيما بعد وقوع الأمر،﴿لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: 42]، وقال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:70]، فلم يبق لمجوز تغيير تلك المراتب، إلا الاعتراض على الله تعالى فيما جعله مخصوصًا بهذا الفضل، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً﴾ [النساء:70]؛ أي: من يعطيه فضله والاعتراض على النبي ﷺ

حيث اختص أبا بكر رضي الله عنه بهذا الفضل، وقال: «أفضلكم أبو بكر»[1]، والاعتراض على جميع الصحابة فإنهم أجمعوا على فضيلة أبي بكر وخلافته، فافهم جيدًا وتفكر في هذا التقرير بلا تعصب ولا تكن من أهل التغير.

ثم أخبر عن أهل الفضل وأهل العدل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:71]، الإشارة فيها: إن الله تعالى بفضله وكرمه يعلم الذين آمنوا أن يأخذوا عدتهم وأسلحتهم في جهاد كافر النفس والشيطان لفلاح الروحاني عن أسير الهوى النفساني بقوله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:71]، هو ذكر الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45]، قال تعالى: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ [النساء:71]؛ أي: جاهدوا أنفسكم بالرياضة وقمع الهوى متفرقين؛ أي: وإن كنتم بوصف التفرقة ولا جمعية لكم، فإن بالرياضة يحصل الجمعية، ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:71]؛ يعني: جاهدوا على الجمعية والحضور، فإن الجهاد ماض مع النفس مدة العمر في كل قتلة لها حياة أخرى أطيب وأعز من الأولى بقوله تعالى: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ [النساء:71] إلى الخروج من عالم الحيوانية إلى عالم الروحانية ومن التفرقة إلى الجمعية، ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:71] إلى الخروج من عالم الروحانية إلى عالم الوحدانية الربانية، ومن الجمعية إلى الوحدة.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ﴾ [النساء:72] أيها الصديقون ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء:72]، من المدعين المتكاسلين في السير، القانعين بالاسم النازلين على الرسم، ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [النساء:72] شدة وبلاء وجهد وعناء، قال: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:72] من المحنة والشقاوة والشدة والعناء، ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾ [النساء:73]، فتوحات ومواهب غيبية وعلوم لدنية، ومرتبة رفيعة عند الخواص ومحبة وقبول عند العوام، ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ [النساء:73]، هذا المرائي قول حاسد كاسد، ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ [النساء:73]؛ أي: كمن لم يكن بينكم وبينه صحبة ونسبة في

---

(1) أخرجه الديلمي (1/ 438، رقم 1783)، بنحوه.

هذا الشأن، ولم يكن له انتباه إلى هذا الفرق إذا انقطع في الطريق، ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء:73] في جهاد النفس وتزكيتها، وتربية القلب وتصفية وتنقية الروح، وتحليته وتحلية السر وتقويته، ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:73]؛ أي: فالفوز العظيم؛ وهو الله جل ثناؤه.

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء: 74 - 76].

﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ [النساء:74]، هذا الحاسد النادم ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:74]؛ أي: في طلب الله، فليجاهد نفسه هو وأمثاله ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: 74]، يشترون حظوظ النفس بحقوق الرب، ويختارون الفاني على الباقي، ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:74] يجاهد نفسه في طلب الحق، ﴿فَيُقْتَلْ﴾ [النساء:74] نفسه بسيف الصدق والحق، ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء:74] بالظفر فسلم على بدنه، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ [النساء:74] بجذبات العناية ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:74]، وهو الفوز العظيم.

ثم أخبر عن المستضعفين وحث على تخليصهم من المشركين بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:75]، إلى قوله: ﴿كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء:76]، والإشارة فيها: إن ما لكم أيها المدعون الإسلام والدين، ألاّ تقاتلون في سبيل الله؟ لا تجاهدون أنفسكم في سلوك السبيل إلى الله، وهو تحريض على طلب الحق والسير إلى الله؛ لكيلا تقنعوا بمجرد الاسم والرسم، وتستمروا على ساق الجد والاجتهاد في طلب المقصود والمراد، فإن المجاهدة تورث المشاهدة في قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ [النساء:75]، إشارة إلى تقوية الأرواح الضعيفة التي استضعفتها النفوس باستيلائها عليها، ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ [النساء:75]؛ أي: القلوب، فإن القلب للروح كالزوجة؛ لتصرف

الروح في القلب كتصرف الزوج في الزوجة، ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء:75]؛ وهي الصفات الحميدة التي تتولد من ازدواج الروح والقلب، يستعينون إلى ربهم ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [النساء:75]؛ أي: قرية البدن، ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء:75]؛ وهي النفس الأمارة بالسوء، ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [النساء:75]؛ أي: كن لنا من فضلك وكرمك وليًا تخرجنا من ظلمات البشرية والخلقية إلى نور الربوبية والإلهية، ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:75]، من ولاية النبوة شيخًا مرشدًا ينصرنا على النفس والهوى والشيطان والدنيا.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:76]، يشير إلى: إنه إنها أمر بجهاد النفس؛ لأن إمارة الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا لا اسميًا ومجازيًا، أن يقاتلوا أو يجاهدوا أنفسهم في سلوك السبيل إلى الله تعالى، وإمارة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:76]، كفران النعمة ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ [النساء:76] القلوب ﴿فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:76] طاغوت الهوى، ﴿فَقَاتِلُوا﴾ [النساء:76]، فجاهدوا ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء:76]؛ وهم النفس والدنيا والهوى، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء:76]، ومكره ومكر أوليائه ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:76] في جنب مكر الله تعالى معهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54]؛ أي: غالب عليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: 77].

ثم أخبر عمن رغب في القتال كالرجال والأبطال، ثم رغب عنه في أثناء الحال من الملامة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء:77]، والإشارة فيها: إن الذين قيل لهم من أصحاب السلامة: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء:77] عن الاعتصام بحبل أهل الملامة، ولا تقدموا أقدام الأبطال في معركة الرجال، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:77]، فإنكم لستم في بذل الروح من الغزاة ولا يجول في هذا الميدان إلا أهل الغرام، فاقنعوا أنتم بدار السلام فتمسكوا بأذيال الرجال واشرعوا مع النفس في

الجهاد واسلكوا سبل الرشاد، فلما لم يكون دليلهم العظام قطع الطريق عليهم لوم اللئام، [ونومة] النيام، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:77]، ويخافون لوم الإنسان، وكان من شرطهم ألاَّ يخافون لومة لائم ولا ينامون نومة نائم، فبقوا عن فريقهم كالحالم، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:77]، فنموت بالآجال، فإن لنا كل لحظة موتة في ترك حظه، ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:77] والتمتع بها، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:77]، عن كل شيء بالمولى، ومن كان في الله فتيلاً يحيى به ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:77].

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء: 78 - 79].

ثم أخبر أن آجالهم تدرك آمالهم بقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء:78]، إشارة في الآيتين: إن يا أهل البطالة في زي الطلبة والبطلة الذين غلب عليكم الهوى وحب الدنيا فأقعدكم عن طلب المولى، ثم ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة:38] واطمأننتم بها، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء:78] اضطرارًا إن لم تموتوا قبل أن تموتوا اختيارًا، ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:78] أجساد مجسمة قوية أمزجتها، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ [النساء:78]؛ يعني: أهل البطالة من مدعي الطلب، ﴿حَسَنَةٌ﴾ [النساء:78]، من شواهد الغيب وفتوحاته، ﴿يَقُولُوا هَذِهِ﴾ [النساء:78] الفتوحات ﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء:78]، لا يرون للشيخ فيها عليهم حقًا، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء:78] من الرياضة والمجاهدات، ﴿يَقُولُوا﴾ [النساء:78] للشيخ، ﴿هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:78]؛ أي: بسببك وسعيك، ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء:78]، القبض والبسط، والفرح والشرح، والفتوح والجروح، ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:78]، خاصته هذا الحديث وما يقاسي أهله من الشدائد والمحن حتى أورثتهم الفوائد والمنح.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ [النساء:79] فتوح وموهبة ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ [النساء:79]؛ أي: فمن مواهبه فضلاً وكرمًا، وإن كان يتصرف الشيخ وقوة ولايته وتأثير همته فيك، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ [النساء:79] شدة وبلاء وهم وعناء ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79]؛ أي: من صفات نفسك وخاصية أمارتها بالسوء وشوب معاملاتها بالهوى، وسعيها واكتسابها في طلب شهوات الدنيا ولذاتها، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286].

ثم اعلم أن الأعمال أربع مراتب: منها: مرتبتان لله تعالى وليس للعبد فيها مدخل التقدير والخلق، وإن الله تعالى قدر الأشياء قبل خلقها، كما قال ﷺ: «إن الله تعالى فرغ من الخلق والخلق والرزق والأجل»[1]؛ يعني: قدَّر هذه الأشياء وفرغ من تقديرها؛ لأنه يخلق كل يوم وساعة ولحظة ﴿خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون:14]، كيف فرغ من الخلق؟ فافهم جيدًا.

ومنها: مرتبتان للعبد وليس لله فيها مدخل وهما: الكسب والفعل، فإن الله تعالى منزه عن الكسب والفعل بالسببية، وإنها يتعلقان بالعبد؛ ولكن العبد وفعله وكسبه مخلوقة خلقها الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96]، فهذا لتحقيق قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ خلقًا وتقديرًا، لا كسبًا وفعلاً، فافهم واعتقد، فإنه مذهب أهل الحق وأرباب الحقيقة، ويشير بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:79]؛ أي: للناس الذين نسوا الله ونسوا ما شاهدوا منه وعاهدوا عليه الله، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ [النساء:79] رسولاً إليهم؛ لتبلغهم كلامنا، وتذكرهم أيامنا، وتجددهم عهودنا ترغبهم شهودنا، وتدعوهم إلينا وتهديهم إلى صراطنا، وتكون لهم﴿سِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب:46]، يهتدون ويبتغون خطاك إلى أن توصلهم إلى الدرجات العلا وتنزلهم في المقصد الأعلى ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:79]؛ أي: شاهدًا لأحبابه وأوليائه؛ لئلا يكتفوا براحة دون لقائه.

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾

---

(1) ذكره حقي (3/ 59).

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء: 80 - 82].

ثم أخبر أن الوصول في طاعة الرسول بقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80]، إشارة في الآيتين: إن الرسول ﷺ كان يوصف بالفناء، فانيًا في الله باقيًا بالله قائمًا مع الله، وكان خليفة الله على الحقيقة فيما يعامل الخلق، حتى قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17]؛ يعني: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:17]، من حيث كنت بك أنت، ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:17]، بخلافة الله بالله لا بك،﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17]، إذا كنت به أنت، وكان الله خليفته فيما يعامل الخلق حتى قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح:10]؛ لأن الله بخلافتك باق عنك، فبكونه كان خليفة بك عنك للخلق فكانت ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10]، ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80]؛ لأن الرسول فانيًا عنه باقيًا بالله والله خليفته؛ ولهذا كان يقول ﷺ: «الله خليفتي على أمتي»[1]، ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ [النساء:80]؛ يعني: عن طاعة الرسول فقد تولى عن الله تعالى: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:80]؛ أي: حافظًا، فإنك لست بذلك حافظًا فكيف لهم؟ فإنهم تولوا عني ولا عنك فإنما على حسابهم لا عليك لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِم﴾ [الغاشية:21-22]، إلى آخر السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء:81]، إشارة إلى أحوال كثير مريدي هذا الزمان، إذا كانوا حاضرين في الصحبة ينعكس عليهم تلالأ من أشعة أنوار الولاية في مرآت قلوبهم، فيزدادون إيمانًا مع إيمانهم، وإرادة مع إرادتهم، فيصغون بآذانهم الواعية إلى الحكم والمواعظ الحسنة، ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:83]، ويقولون السمع والطاعة فيما يسمعون ويخاطبون به، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

(1) ذكره حقي (3/ 31).

عِندِكَ﴾ [النساء:81]، وهبت عليهم رياح الهوى والشهوة والحرص، وتمايلت قلوبهم من مجازاة القرار على الولاية، وعاد المشئوم إلى طبعه ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:81]؛ أي: تقدر وتقرر مع نفسه، ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ﴾ [النساء:81]، يغير عليهم ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء:81]؛ أي يعيرون على أنفسهم؛ لأن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11]، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء:81]؛ أي: فأصفح عنهم وأصبر معهم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء:81]، لعل الله يصلح بالهم ولا يجعل التغيير وبالهم، ويحسن عاقبتهم ومالهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:81]، للمتوكلين عليه والملتجئين إليه.

ثم أخبر عن الدواء كما أخبر عن الداء بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82]، والإشارة فيها: إن العباد لو لم يتدبرون ويتفكرون في آثار معجزاته وأنوار هدايته، ومظهر آياته وكمال فصاحته، وجمال بلاغته وجزالة ألفاظه، ورزانة معانيه ومتانة مباينه في أسراره وحقائقه، ودقة إشاراته ولطائفه، وأنواع معالجاته لأمراض القلوب في إزالة ضرر الذنوب ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ﴾ [النساء:82]؛ لكل داء دواء ولكل مرض شفاء، ولكل عين قرة ولكل وجه غرة، والرد الحاسبة موصوفًا بالصفاء محفوظًا عن العداء، بحرًا لا ينفض عجائبه، وبرًا لا ينتفي غرائبه، روحًا لا تباغض فيه ولا خلاف، وجنة لا انتقاض فيها ولا اختلاف، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82]، ولم يوجد فيه نقيرًا وقطميرًا[1].

---

(1) قال الشيخ البقلي: القرآن صفات القدم، وهو موصوفٌ به؛ لأنَّ كلامه الأزلي والقرآن صفةٌ خاصةٌ ذاتيةٌ من جملة صفاته، وهو واحدٌ من جميع الصفات، لكنه مجمع الصفات كلها، فيه الأسماء والنعوت وخبر الصفات، وإعلام تقديس الذات، وهو قائمٌ بذات الله بغير علة الأصوات والحركات والحروف، ولو وقع للخلق التفكر والتدبر فيه بنعت المشاهدة والكشف لعلموا أنه خارجٌ من صفة الحوادث؛ لأنه نعت الأزلية، ووقعوا في بحار أسراره، وفنوا في أنواره، وخرجوا منها جواهر حكم القدمية ورموز السرمدية وحقائق الأبدية التي هو خبر جلال الذات وعيون الصفات وأسرار الأفعال من العرش إلى الثرى، صفته تجلت في حروف الوحدانية، وتجلت حروف الوحدانية في حروف القرآن، وكل حرف مملوءٌ من بحار نكت الإلهية، من وقف على أسرارها يدهش في تجليها، ويعرف أنها خرجت من القدم، وأنها ليست من أوصاف أهل العدم، لأن وصف الله منزَّهٌ عن الخلل والتضاد والخلاف، وأوصاف -

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [النساء: 83 - 84].

وفي وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: 83]، إشارة إلى أرباب السلوك وأبناء السير إلى الله إذا فتح لهم من الإنس أو الهيبة والحضور والغيبة من آثار صفات الجمال والجلال، تفشوا الأسرار إلى الأغيار، وأشاعوا في الأقطار، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء:83]؛ يعني: ولو كان رجوعهم في حل مثل هذه المشكلات وكشف هذه المعضلات إلى سنن الرسول ﷺ، وإلى سير أولي الأمر منهم وهم المشايخ البالغون والواصلون، ومن كان له شيخ كامل فهو ولي أمره، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:83]، وهم أرباب الكشوف بحقائق الأشياء، فهم العالمون بعلوم الوقائع الغيبية الغواصون في بحار أوصاف البشرية، المستخرجون من أوصاف العلوم درر ورق دقائق المعرفة، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء:83] ببعثه رسول الله ﷺ إليكم، ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83]، وفي الحقيقة كان النبي ﷺ فضل الله ورحمته، يدل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة:2]، إلى قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة:4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، فلولا وجود النبي ﷺ وبعثه لبقوا في نية الضلالة تائهين، كما قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164]، قبل بعثته، وكانوا قد اتبعوا الشيطان إلى شفا حفرة من النار، وكان ﷺ فضله ورحمته عليهم فأنقذهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:103]، وقوله تعالى:﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:83]، لعل استثناء

-

الخلق متضادةٌ متباينةٌ متغيرةٌ، وذلك المعنى موجودٌ فيما بقي من الآية.

راجع إلى أبي بكر الصديق ﷺ، فإنه كان قبل بعث النبي ﷺ مرافقًا في طلب الحق، قالت عائشة - رضي الله عنها -: «لم أعقل أبواي قط إلا وهما يدينان بدين الإسلام دين رسول الله ﷺ، ولا يمر علينا يومًا إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية»(1).

وروي عن النبي ﷺ: «كنت وأبو بكر كفرسي رهان فسبقته فتبعني، ولو سبقني لتبعته»(2)، والله أعلم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء:84]؛ المعنى: فجاهد في طلب الحق نفسك، فإن في طلب الحق لا تكلف نفس أخرى إلا نفسك، وفيه معنى آخر: لا تكلف نفس أخرى بالجهاد لأجل نفسك؛ لأن حجابك من نفسك لا من نفس أخرى، فدع نفسك وتعالى فإنك صاحب ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾ [الانفطار:19]؛ وذلك لأنه ﷺ اختص بهذا المقام من جميع الأنبياء والمرسلين أن يكون فاني النفس، والذي يدل عليه أن الأنبياء - عليهم السلام - يوم القيامة يقولون لبقاء نفوسهم: نفسي نفسي، ويقول النبي ﷺ لفناء نفسه: «أمتي أمتي»(3)، فافهم جيدًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:84] على القتال؛ يعني: في الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:84] ظاهرًا وباطنًا، فالظاهر الكفار، والباطن النفس، ﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء:84]، في استبطاء سطوات صفات قهره عند تجلي صفة جلاله للنفس من بأس الكافر عليها.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ

(1) رواه أحمد (26374).

(2) ذكره حقي (2/ 419).

(3) أخرجه أحمد (2/ 435، رقم 9621)، والبخاري (4/ 1745، رقم 4435)، ومسلم (1/ 184، رقم 194)، والترمذي (4/ 622، رقم 2434) . وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (6/ 378، رقم 11286)، وابن أبي شيبة (6/ 307 رقم 31674) .

اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: 85 - 87].

ثم أخبر عن بضاعة أهل الشفاعة بقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء:85]، الإشارة فيها: إن من يشفع شفاعة حسن لإيصال نوع من الخيرات إلى الغير، فإنها من خصوصيتها أن يكون له نصيب منها؛ أي: فيه نصيبًا من هذه الحسنة، فمن تلك الخصوصية قد يشفع شفاعة حسنة، ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء:85]؛ يعني: من تلك السيئة التي هي إيصال نوع من الشر إلى الغير فيها قد شفع شفاعة سيئة، كما قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾ [الأعراف:58]، إن الله تعالى ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:85] في الأزل ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء:85]، شهيدًا في إيجاد المحن والمنى، مقتدرًا عليًا حفيظًا فيهما من استعداد شفاعة حسنة وسيئة، لا يقدر اليوم على تبديل استعدادهما القابلية الخير والشر، فافهم جيدًا.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ [النساء:86] من الخير والشر، ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء:86]، أما الخير فبخير أحسن، وأما الشر فبحلم وعفو ومكافأة الخير، ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء:86]؛ يعني: كافئوا المحسن بمثل إحسانه، والمسيء بمثل إساءته، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:40]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة:237].

وقد روي عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، عن الله تبارك وتعالى في تفسير قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:199]، قال: «تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك»(1)، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النساء:86] من العفو والإحسان والإساءة، ﴿حَسِيبًا﴾ [النساء:86] محاسبًا، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7-8].

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النساء:87]؛ يعني: كان الله في الأزل، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا

---

(1) أخرجه البيهقي (10/ 235، رقم 20880)، وفي شعب الإيمان (6/ 260، رقم 8077) . والطبراني في الأوسط (5/ 364، رقم 5567) .

﴿هُوَ﴾ [النساء:87] أي: لم يكن معه أحد يوجد الخلق من العدم، ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: 87] في العدم مرة أخرى إلى أخرى إلى أخرى ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء:87]، فيفرقكم فيها، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:7]، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:87]، لا شك في الرجوع إلى هذه المنازل والمقامات، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:87]، ليحدثكم بمصالح دينكم ودنياكم ومفاسد أخراكم وأولاكم، ويهديكم إلى الهدى وينجيكم من الردي.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [النساء: 88 - 89].

ثم أخبر عن أهل الردة ومن أضله الله عن الهدى بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْـمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء:88]، فانتين إشارة في الآيتين: إن الاختلاف واقع بين الأمة في أن خذلان المنافقين إنما هو ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:109]، أو أمر من عند الله وقضائه وقدره، فبين الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْـمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ [النساء: 88]، إلى قوله: ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء:90]، فتبين أنهما فرقتين، فرقة يقولون: الخذلان في النفاق منهم، وفرقة يقولون: من الله وقضائه وقدره، ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء:88]؛ يعني: إن الله تعالى تكسبهم بقدره وردهم بقضائه إلى الخذلان للنفاق، ولكن بواسطة كسبهم ما يثبت النفاق في قلوبهم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42]، ولهذا مثال وهو:

إن القدر كتقدير نقاش الصورة في ذهنه، والقضاء كرسمه تلك الصورة لتلميذه بالإسراب، ووضع التلميذ الأصابع عليها متبعًا لرسم الأستاذ؛ هو الكسب والاختيار، والتلميذ في اختياره لا يخرج عن رسم الأستاذ، كذلك العبد في اختياره لا يمكنه الخروج عن القضاء والقدر ولكنه متردد، ومما يؤيد هذا المثال والتأويل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:14]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:

127]، وذلك مثل ما ينسب الفعل إلى السبب الأقرب تارة، وإلى السبب الأبعد أخرى، فالأقرب كقوله: قطع السيف يد فلان، والأبعد كقوله: قطع الأمير يد فلان، ونظيره: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:11]، وفي موضع ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:42]، قال ابن نباتة:

إذا ما الإلهُ قضى أمرَه فأنتَ إلى ما قضاهُ السَّبَبْ

فعلى هذه القضية: «من زعم أن لا عمل للعبد أصلاً فقد عاند وجحد، ومن زعم أنه مستبد بالعمل فقد أشرك»، ثم قال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ [النساء:88]؛ لأن تهدوا ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [النساء:88]؛ أي: قدر له بالضلالة من الأزل، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ [النساء:88] بقضائه وقدره، ﴿فَلَنْ تَجِدَ﴾ [النساء:88]، يا محمد ﴿لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88]، إلى الهداية؛ لأنك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:56] الآن، و﴿اللَّهَ يَهْدِي﴾ [القصص:56] الآن، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:56] بالهداية في الأزل، فإن مشيئته أزلية، فاعلم أن اختيار العبد بين طرفي الجبر؛ لأن أول الفعل وآخره إلى الله، فالعبد بين طرفي الاضطرار مضطر إلى الاختيار، فافهم جيدًا.

ثم قال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:89]، إشارة إلى من ود الكفر لغيره فذلك من إمارة الكفر في باطنه وإن كان يظهر الإسلام؛ لأنه يود تسوية الاعتقاد فيما بينهما، وهذا من خاصة الإنسان إنه يحب أن يكون كل الناس على مذهبه واعتقاده ودينه، وقالوا: «الرضا بالكفر كفر»(1)، ثم نهى المؤمنين عن موالاة المنافقين؛ لئلا يتعدَّى نفاقهم إليهم، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [النساء: 89]؛ يعني: يهجروا خلاق السوء ويفارقوا عن النفاق ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في طلب الحق والرجوع في سبيل الهوى، وفيه إشارة إلى أرباب الطلب السائرين إلى الله تعالى ألاَّ يتخذوا من أهل الدنيا وإتباع الهوى أولياء لعباد لا يخالطوهم، حتى يهاجروا عما هم فيه من الحرص والشهوة وحب الدنيا، ويوافقوكم في طلب الحق وترك الدنيا وزخارفها،

(1) انظر: تفسير القرطبي (5/ 412).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [النساء:89] عما أنتم عليه من التوجه إلى الحق والتوالي عن الباطل، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ [النساء:89]، بالعظة الحسنة والنصح والتبليغ، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾ [النساء:89] بسيف صدقكم وموعظتكم عن جدالكم بالحق، ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [النساء:89] كلما رأيتموهم، وفيه معنى آخر: واقتلوا أنفسكم من حيث وجدتم صفة من صفاتها غالبة، فإن تزكية النفس في اعتدال صفاتها، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ [النساء:89]؛ أي: صديقًا وخليلاً، «فإن المرء على دين خليله»[1]، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:89]؛ أي: معاونًا في أمر من الأمور الدنيوية؛ لئلا يشوب نصحكم وعظتكم لهم بعلة دنيوية فلا يتصرف ولا يؤثر فيهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: 90 - 91].

ثم استثنى منهم قومًا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء:90]؛ المعنى: الأقوام من أهل الدنيا يصلون بالإرادة والتقرب والتودد إلى قوم من أهل الدين من الذين بينكم وبينهم عهد وأخوة وصداقة في الدين أو في الحرفة والصحبة، فإن المخالطة معهم بتبعية الأحوال وقبول الرفق منهم جائز، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء:90]؛ يعني: إذ جاءوكم طائفة أخرى من أهل الدنيا، وما فيهم أن ينكروكم ويجادلوكم على ما أنتم فيه، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:90] بالإنكار والاعتراض، ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ [النساء:90]؛ أي: فنازعوكم وخاصموكم بالباطل، ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ [النساء:90]؛ أي: اعتزلوا

(1) أخرجه أبو داود (4/ 259، رقم 4833)، والترمذي (4/ 589، رقم 2378) وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص 418، رقم 1431).

شرهم عنكم، ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ [النساء:90]؛ أي: يخاصموكم ولا يشوشون الوقت عليكم، ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ [النساء:90]؛ أي: السلامة، ﴿فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:90] في غيبتهم والطعن فيهم وتحقيرهم؛ يعني: إذا أسلمتم منهم فينبغي أنهم يسلمون منكم، فإن لم تكونوا لهم فلا تكونوا عليهم، كما لم يكونوا عليكم إذا لم يكونوا لكم.

ثم أخبر عن محنة أهل الفتنة بقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ [النساء:91]، والإشارة فيها: إنكم أصحاب الولاية وأرباب الهداية، ستجدون من أهل الإرادة أخرى غير أصحاب الجد والاجتهاد يريدون أن يأمنوكم عن رد الولاية فيرتدون إليكم ويخدمونكم، ويظهرون الصدق والإخلاص معكم، وهو أصحاب الأموال والأولاد والقوم والقبيلة، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء:91] عن الملامة والتعبير في تضييع الأموال والأولاد، ﴿كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ [النساء:91]؛ أي: دعوا إلى الفتنة وهي الأموال والأولاد، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:15] فإنهم أمروا بالحذر منهم، ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء:91]؛ أي: رجعوا إليها ضعفاء في الطلب وفرقًا من الملامة، ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ [النساء:91]؛ أي: ينقطعوا عنكم ويترددون إليكم بصدق الإرادة ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ [النساء:91]؛ أي: يستسلموا لكم وينقادوا، ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ [النساء:91] بالإرادة عن أموالهم وأولادهم، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ [النساء:91]، بالإرادة وأقبلوا عليهم بالتربية، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾ [النساء:91]؛ أي: اقتلوا أنفسهم بالمجاهدة والرياضة وصيام الولاية، ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [النساء:91]؛ يعني: سويتم عوجهم كما يقوم الرياح بالثقاف، ﴿وَأُولَئِكُمْ﴾ [النساء:91]؛ يعني: أهل الإرادة؛ يعني: إذا كونوا ذوي العلائق كثير العوائق، ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:91] في قطع علائقهم ودفع عوائقهم بحسن التربية وسطوة الولاية.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: 92 - 93].

ثم أخبر عن المؤمن أنه لا يقتل مؤمنًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء:92]، والإشارة فيها: إن ليس لمؤمن الروح أن يقصد قتل مؤمن القلب إلا إن قتل خطأ، وذلك أن الروح إذا خلصت عن حجب صفات البشرية تتجلى الروح للقلب فتنور بأنوار الروحانية، ثم تنعكس أنوار الروح عن مرآة القلب إلى النفس الأمارة فتموت عن صفاتها الذميمة الظلمانية وتحيى بالصفات الحميدة النورانية، وتطمئن إلى ذكر الله لاطمئنان القلب به؛ ففي بعض الأحوال تتأيد الروح بوارد روح قدس رباني، وتتجلى في تلك الحالة الروح للقلب، فيخر موسى القلب صعقًا ميتًا بسطوة تجلي روح القدس الرباني، ويجعل جبل النفس الكافر دكًا ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ [النساء:92]؛ أي: قلبًا مؤمنًا، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:92]؛ وهي رقبة السر الروحاني، فتصير رقبة السر محررة عن رق المخلوقات، ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ [النساء:92]؛ يعني: يسلم العاقلة وهو الله تعالى دية القلب إلى أهله؛ وهم أوصافه الحميدة الروحانية من جمالات الألطاف لتصير الأوصاف بها أخلاق ربانية، ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء:92]؛ يعني: إلا أن يتصدق الأوصاف الروحانية القلبية هذه الرتبة على فقراء ومساكين أوصاف النفس الحيوانية والشيطانية ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ [النساء:92] لمعنى القتيل بالتجلي، ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ [النساء:92]؛ أي: صفة من صفات النفس، وهي عدو لكم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء:92]؛ يعني: هذه الصفة بأنوار الروح القدس دون أخواتها من الصفات، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:92]؛ وهي رقبة القلب تصير محررة عن رق حب الدنيا، ولا دية لأهل القتيل وهم هم بقية أوصاف النفس؛ لأنهم كفار يخربون القلب وأوصافه، ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ [النساء:92]؛ يعني: القتيل ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء:92]؛

وهم صفات النفس وميثاقها قبول أحكام الشرع ظاهرًا، أو ترك المحاربة مع القلب وأوصافه باطنًا، ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ [النساء:92] على عاقلة الرحمة، ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ [النساء:92]، إلى أهل تلك الصفة المقتولة وهم بنية صفات النفس، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53]، ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:92]؛ وهي رقبة القلب محررة عن رق الكونين، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ [النساء:92]؛ يعني رقبة مؤمنة من القلب والروح والسر؛ لتحرير رقابهم عن رق ما سوى الله، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:92]؛ يعني: فعليه الإمساك عن مشارب العالمين على التتابع والدوام، مراقبًا قلبه لا يدخله شيء من الدنيا والآخرة، مراعيًا وقته لا يفوته طرفة عين، بحيث لو أفطر بأدنى شيء من المشارب كلها يستأنف الصوم بالإمساك، ولا يفطر بشيء دون لقاء الله تعالى كما قال قائلهم:

وحق له لما اعتراه نواكم   لقد صام طرفي عن شهود سواكم

ويبدو هلال الصب حين يراكم   بعيد قوم حين يبدو هلالهم

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:92]، إشارة أخرى؛ وهي أن تربية النفس وتزكيتها ببذل المال وترك الدنيا مقدمة على تربيتها بالجوع والعطش وسائر المجاهدات، فإن: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وهو عقبة لا يقتحمها إلا الفحول من الرجال، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ*فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد:11-13]، وإن أول قدم السالك أن يخرج من الدنيا وما فيها، وثانية أن يخرج من النفس وصفاتها، كما قال: دع نفسك وتعال، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:149]، وفي قوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾ [النساء:92]، إشارة إلى: إن الإمساك عن المشارب كلها من الدنيا والآخرة على الدوام، وهي جذبة من الله تعالى ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:92] في الأزل ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:92] بمن يصلح لهذه الجذبة، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:92] فيما اختارها يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم أخبر عن قصد قتل المؤمن بالعمل بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء:93]، والإشارة فيها: إن القلب مؤمن من أصل الفطرة، والنفس كافرة في أصل

الخلقة، وبينهما عداوة جبلية وقتال أصلية وتضاد كلية، فإن في حياة النفس موت القلب، وفي حياة القلب موت النفس، فلما كان نفوس الكفار حية كانت قلوبهم ميتة، فسماهم الله تعالى الموتى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: 80]، ولما كانت نفس الصديق ﷺ ميتة وقلبه حيًا، قال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر ﷺ»[1]، فالإشارة في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ [النساء: 93]؛ أي: القلب والنفس؛ يعني: النفس الكافرة إذا قتلت قلبًا مؤمنًا متعمدًا للعداوة الأصلية باستيلاء صفاتها البهيمية والسبعية والشيطانية على القلب الروحاني، وغلبت هواها عليه حتى يموت القلب، فإنها سمها القاتل، ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ [النساء: 93]؛ أي: جزاء النفس ﴿جَهَنَّمُ﴾ [النساء: 93]؛ وهي سفل عالم الطبيعة، ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: 93]؛ لأن خروج النفس عن سفل الطبيعة إنما كان بحبل الشريعة، والتمسك بحبل الشريعة إنما كان من خصائص القلب المؤمن بالله، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: 5-6]، فالإيمان والعمل الصالح من شان القلب وصنيعته، فإذا مات القلب وانقطع عمله تخلد النفس في جهنم سفل الطبيعة أبدًا، ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: 93]، بأن يبعدها ويطردها عن الحضرة والقربة، ويحرمها عن إيصال الخير والرحمة إليها بخطاب ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28]، ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93]، عن حضرة العلي العظيم والحرمات عن جنات النعيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء: 94 - 95].

(1) ذكره حقي (3/ 56).

ثم أخبر عمن يسلم إذا ألقى السلم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:94]، والإشارة فيها إلى البالغين الواصلين بالسير إلى الله تعالى؛ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:94]، وما قنعوا على مجرد الإيمان بالغيب، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:94]؛ يعني: بل سرتم بقدم السلوك في طلب الحق، حتى صار الإيمان إيقانًا، والإيقان إحسانًا، والإحسان عيانًا، والعيان غيبًا، وصار الغيب شهادة، والشهادة شهودًا، والشهود شاهدًا، والشاهد مشهودًا، وبهما اقسم الله تعالى بقوله ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:3]، فافهم جيدًا، وهذا مقام الشيخوخة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء:94] عن حال المريدين وتثبتوا في الرد والقبول، وفي وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:94]، وألقي إليكم السلام بالانقياد والاستسلام، فلا تقولوا: ألست مؤمنًا؟ أي: صادقًا مصدقًا في التسليم لأحكام الصحبة، وقبول التصرف في المال والنفس بشرط الطريقة، ولا تردوه ولا تنفروه بمثل هذه الشدائد، وقوله كما أمر الله موسى وهارون عليهما السلام ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه:44]، فما أنتم أعز من الأنبياء، ولا المريد المبتدئ أذل من فرعون، ولا يهونكم أمر رزقه فتجتنبون منه للتخفيف، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء:94]، فلا تهتموا لأجل الرزق ﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء:94]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2-3]، ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء:94]؛ أي: كذلك كنتم ضعفاء بالصدق والمطلب محتاجين إلى الصحبة والتربية والإرادة من قبل، ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:94] بصحبة المشايخ وقبولهم إياكم والإقبال على تربيتكم وإيصال رزقكم إليهم وشفقتهم وعطفهم عليكم، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء:94]، أن تردوا صادقًا اهتمامًا لرزقه، وتقبلوا كاذبًا حرصًا على كثير المريدين، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء:94] في الأزل، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النساء:94] اليوم من الرد والقبول والاحتياج إلى الرزق تهتمون له، ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:94]، فدبر الأمور وقدرها في الأزل وفرغ منها، كما قال: ﷺ «إن الله تعالى فرغ من الخلق والخلق والرزق والأجل»[1].

---

(1) تقدم تخريجه.

وقال ﷺ: «الضيف إذا نزل، نزل برزقه، وإذا ارتحل، ارتحل بذنوب مضيفه»[1].

ثم أخبر عن فضل المؤمن المجاهد على المؤمن القاعد بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:95] إلى قوله: ﴿غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء:96].

والإشارة فيها: ألاَّ يستوي القاعدون عن طلب الحق، وإن كانوا أولي العذر من المؤمنين العالمين المتقين، ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:95] في طلب الحق القائمون في أداء حقوق الطلب، ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:95]؛ أي: بترك الدنيا ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 95]؛ أي: ببذل الوجود في طلب المعبود، ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ [النساء:95]، غير بالرفع صفة للمجاهدين؛ يعني: في الله حق جهاده ولا يرون ضرر الجهاد وضررًا على أنفسهم من بذل المال والأنفس، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ﴾[2] [النساء:65]، ثم قال تعالى: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء:95]؛ يعني: فضلهم بفضيلة الولاية، والتوفيق لبذل المال والنفس على القاعدين يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:46]، وذلك القيل ما كان من طريق القوم الخذلاء لما خذلهم الله تعالى ولم يوفقهم للقيام، كما قيل لهم: ﴿اقْعُدُوا﴾ [التوبة:46]، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء:95]؛ يعني: للمجاهدين فضيلة درجة الولاية على القاعدين، ثم عمم القول في المجاهد والقاعد بلا عذر، فقال تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء:95]؛ يعني: الجنة فيما بين الواصلين البالغين والطالبين المنقطعين بعذر،

---

(1) ذكره حقي (3/ 59).

(2) قال أبو حفص: رضي الله تعالى من عباده لنفسه بظاهر القول، ولم يرض لنبيه ﷺ إلا بإخلاص القلب، والرضا بحكمه ساء أم سرَّ، ومن لم يكن للنبي ﷺ مستقيمًا ظاهرًا وباطنًا وسرًّا وعلنًا وحقيقة ورسمًا كان بعيدًا عن حقيقة الإسلام ومراتب المسلمين.

قال عبد العزيز المكي: أقسم الحبيب للحبيب بالحبيب أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك، فيا لها من شرف، ويا لها من كرامةٍ حارت فيه أوهام الخلائق، وجعل نفسه لنفسه، وجعل الرضا بحكمه كالرضا بحكمه ما وجب على خلقه الرضا، والتسليم بحكم نبيه ﷺ، كما أوجب عليهم الرضا والتسليم بحكمه، فهكذا إنسان المتحابين. قال بعضهم في هذه الآية: أظهر الحق على حبيبه خلعةً من خلع الربوبية، فجعل الرضا بحكمه ساء أم سرَّ سبيلًا لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه لإيقان الموقنين، فأسقط عنه اسم الواسطة؛ لأنه متصفٌ بأوصاف الحق متخلقٌ بأخلاقه؛ ألا ترى كيف قال حسان: «فذُو العَرْشِ محمودٌ وَهَذا محمَّدُ».. [العرائس].

وعوام المؤمنين القاعدين عند الطلب بلا عذر، ثم خص المجاهدين بالانفراد في نيل الدرجات والوصول إلى القربات، فقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْـمُجَاهِدِينَ﴾ [النساء:95] بعد الطالبين والواصلين مطلقًا، ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ [النساء:95]؛ يعني: المنقطعين بعذر أو بغير عذر مطلقًا، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:95]، وعظم الأجر على قدر مراتب الطالبين والواصلين، وخصهم بدرجات منه لا من غيره، فقال تعالى: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ [النساء:96]؛ أي: قربات منه، ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ [النساء:96] منه لبعضهم؛ وهو أن يتجلى بصفة الغفران لهم فيكونوا مستورين بصفاته لا منتفين بصفاته عن صفاتهم، لا فانين عن ذواتهم بذاته.

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:96]؛ يعني: يكون الله تعالى بذاته غفورًا، والغفور للمبالغة؛ يعني: كثير الغفران لبعضهم حتى يغنيهم عن ذواتهم ويبعثهم برحمة ذاته تعالى وتقدس، فافهم واغتنم هذا الجهاد الأكبر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾ [النساء: 97 - 99].

ثم أخبر عن القاعدين الظالمين لأنفسهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْـمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء:97]، إلى قوله: ﴿غَفُوراً﴾ [النساء:99]، والإشارة فيها: إن المؤمنين عوام وخواص وخاص الخاص، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:32]؛ وهو العام، ﴿وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ﴾ [فاطر:32]؛ وهو الخاص، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْـخَيْرَاتِ﴾ [فاطر:32]؛ وهو خاص الخاص، فالذي ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97]؛ فهم العوام الذين ظلموا على أنفسهم بتدسيسها من غير تزكيتها عن أخلاقها الذميمة وتحليتها بالأخلاق الحميدة ليفلحوا فخابوا وخسروا، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:9-10]، ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء: 97]؛ أي: قالت الملائكة حين قبضوا أرواحهم في أي غفلة كنتم تضيعون أعماركم تبطلون استعدادكم الفطري؟ وفي أي واد من أودية الهوى تهيمون؟ وفي أي روضة من

رياض الدنيا تسرحون؟ أكتتم تؤثرون الفاني على الباقي، وتنسون الطهور الساقي، وإخوانكم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ويهاجرون عن الأوطان ويفارقون الإخوان والأخدان، ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء:97]؛ أي: عاجزين عن استيلاء النفس الأمارة، وغلبة الهوى ما سوى الشيطان في حبس البشرية، ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً﴾ [النساء:97]؛ أي: أرض القلب واسعة، ﴿فَتُهَاجِرُوا﴾ [النساء:97] عن مضيق أرض البشرية تسلكوا في فسحة عالم الروحانية، بل تطيروا في هواء الهوية، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ [النساء:97]؛ يعني: ظالمي أنفسهم، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:97] البعد عن مقامات القرب، ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:97]، جهنم البعد لتاركي القرب، والقاعدين عن جهاد النفس، ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء:98]، الذي صفتهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ [النساء:98] في الخروج عن الدنيا؛ لكثرة العيال وضعف الحال، وعلى قهر النفس وغلبة الهوى، ولا على قمع الشيطان في طلب الهدى، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:98]، إلى صاحبة ولاية يتمسكون بعروة الوثقى، ويعتصمون بحبل إرادته في طلب المولى، فيخرجهم من ظلمات البشرية إلى نور سماء الربوبية على أقدام العبودية؛ وهم المقتصدون المشتاقون، ولكن بحجب الأنانية محجوبون عن شهود جمال الحق محرومون فعذرهم الله، ووعدهم الله رحمته وقال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:99]، السكون عن الله والركون إلى غير الله ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:99] في الأزل، ﴿عَفُوًّا﴾ [النساء:99]؛ لعفوه أمكنكم التقصير في العبودية ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:99]؛ ولغفرانه أمهلهم في إعطاء حق الربوبية.

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: 100 - 101].

ثم أخبر عن المهاجرين وهم السابقون بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:100]، والإشارة فيها: إن من غاية ضعف

الإنسان، وجبانة الحيوانية، واستهواء الشيطانية يكون خوف البشرية غالبًا على الطالب الصادق في بدء طلبه، فكلما أراد أن يسافر عن الأوطان ويهاجر عن الإخوان طالبًا فوائد إشارة أن يسافروا تصحوا، وتغتنموا الإزالة مرض القلب ونيل صحة الدين والفوز بسنح[1] كامل مكتمل، وطيب حاذق مشفق ليعالج مرض قلبه ويبلغه كعبة طلبه، فسولت له النفس إعواز الرزق وعدم الصبر، ويعده الشيطان بالفقر فقال تعالى: على قضيته ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة:268]، ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [النساء:100]؛ أي: في طلب الله، ﴿يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً﴾ [النساء:100]؛ أي: بلاءً أطيب من بلاءه، وإخوانًا في الدين أحسن من إخوانه، وسعة في الرزق، وفيه إشارة أخرى؛ وهي ومن يهاجر عن البشرية في طلب حضرة الربوبية يجد في الأرض الإنسانية، ﴿مُرَاغَماً كَثِيراً﴾ [النساء:100] أي: متحولاً ومنازل مثل القلب والروح والسر، ﴿وَسَعَةً﴾ [النساء:100] أي: وسعة في تلك العوالم الوسيعة وسعة من رحمة الله. كما أخبر تعالى على لسان نبيه ﷺ عن تلك العوالم الوسيعة بقوله: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»[2]، فافهم يا كثير الفكر قصير النظر قليل العبر.

ثم قال تعالى دفعًا للهوى حبس النفسانية ووساوس الشيطانية في التخويف بالموت والإبعاد بالفوت ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ [النساء:100] أي: ببيت بشريته بترك الدنيا وقمع الهوى وقهر النفس بهجران صفاتها وتبديل أخلاقها ﴿مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ﴾ [النساء: 100] وطالبًا له في متابعته، ﴿وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ [النساء:100] قبل وصوله، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء:100]؛ يعني: فقد أوجب الله تعالى على ذمة كرمه بفضله ورحمته أن يبلغه إلى أقصى مقاصده وأعلى مراتبه في الوصول ينال على صدق نية وخلوص طوية إذا كان المانع من أجله، ونية المؤمن أبلغ من عمله، ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ [النساء:100]؛ لذنب بقية أنانية وجوده، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:100]، عليه بتجلي صفة جوده ليبلغ العبد إلى كمال مقصوده بمنّه وكرمه وسعة وجوده.

---

(1) أي: بيُمن وبركة الكُمَّل.

(2) تقدم تخريجه.

ثم أخبر عن خوف الأعداء على طريق الأولياء بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء:101]، إلى قوله: ﴿عَذَاباً مُّهِيناً﴾ [النساء: 102].

والإشارة فيها: إن الله تعالى خلق الخلق للعبودية والمعرفة، وقد جعلها مخبأة، فأما العبودية ففي صورة الصلاة، وأما المعرفة ففي التكبيرات والتسبيحات وسائر أركان الصلاة وشرائطها مودعة، وليس هذا موضع شرحها وسنبينها في موضعها إن شاء الله تعالى، فلهذا المعنى فرض الصلاة في الخوف وشدة القتال والحضر والسفر والصحة والمرض، فإن الصلاة صورة جذبة الحق ومعراج العبد؛ ليكون العبد مجذوب العناية على الدوام مترقيًا مقامات العبودية والمعرفة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ [النساء:103]؛ يعني: واجبًا في جميع الأوقات حين فرضت بقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [النساء:103]؛ أي: أديموها رخص فيها بخمس صلوات في خمسة أوقات بضرورة ضعف الإنسانية، كما كانت الصلاة خمسين صلاة حين فرضت ليلة المعراج فجعلها بشفاعة النبي ﷺ خمسًا وهذا لعوام الخلق، وأثبت دوام الصلاة للخواص بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: 102].

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾(1) [النساء:102]، إشارة إلى هذا المعنى؛

(1) بيّن الله سبحانه أن واجبات العبودية لا تسقط عن العبد ما دام فيه الرمق، إما في الخوف وإما في الأمن، ومن تاه في الوجد وهام في الغلبة فهو مجنون العشق، خارجٌ عن مراتب التمكين، وذلك علة له؛ حيث ضعف في الوجد عن حمل وارد الشرع؛ لأن سلطان الشرع حقُّ الله، وسلطان الوجد حظُّ العبد.

يعني: مادمت بالصورة بينهم وهم ينظرون إليك فقد أدمت لهم الصلاة؛ لأن النظر إليك عبادة، كما ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:45]، فإنك تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وكذلك لمن يكون له نور نبوتك في قلبه متصرف على الدوام فأدمت له الصلاة، فلما لم يكن هذا المقام ميسر لجميع الخلق أن يكون بينهم لا بالصورة ولا بالمعنى قال الله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ﴾ [النساء:102]؛ يعني: من الخواص ﴿مِنْهُمْ﴾ [النساء: 102]، أي: من عوامهم ﴿مَعَكَ﴾ [النساء:102]؛ ليكونوا دائمين في الصلاة قائمين مع الله على الدوام، فإن من يكون معك فقد يكون مع الله، لأنك مع الله لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40]، ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ [النساء:102]؛ يعني:

وسلطان الله غالبٌ على ما دونه؛ لذلك أمر سيد الرسل والأنبياء والأولياء بإقامة الصلاة في مقام الاضطراب والتلوين والامتحان، وهو سائح بحر المشاهدة، وأصحابه فرسان ميادين المحبة، وسادات أهل الولاية، ولو سقطت العبودية عن أهل الوجد لما أمر لسيد الواجدين بأداء الفريضة في مقام الخوف.

والإشارة فيه: أي: إذا كنت بينهم فتكون الصلاة على وفق مراد الله من العباد. وأيضًا: إذا كنت فيهم فالصلاة ترجع إليهم، وإذا غبت عنهم فالصلاة ترجع إلينا؛ لأنهم في البداية في رؤية الوسيلة، وفي النهاية في إسقاط الوسيلة. وأيضًا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ اشتغلت بتأديبهم، وإذا غبت عنهم اشتغلت بنا، فالشرع خفي على العباد، وخفي لك الحجاب لحق مشاهدة الشرع في مواطن القرب، بقوله ﷺ: «إنه ليُغانُ على قلبي» أي: شغلي بكم حين يمنعني قلبي من حظ مشاهدتي من الله. وأيضًا: أي: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:102] لأنك تدري أن ساحة كبريائي مقدسةٌ عن وقوف المصلين، وشريعة بحار قدمي منزهةٌ عن ورد الواردين، فالعبودية ترجع إلى العباد، والربوبية ترجع إلى عظمتي وكبريائي. وأيضًا: إذا كنت مشغولًا بمشاهدة جمالي، وتسبح في بحار عظمتي فتضيف عالم الخدمة إليهم، فإنك غائبٌ بسترك في عيني وغيب غيبي وجلال مشاهدة أزلي، وسقط عنك ما أوجبت على الغير، وهذا موضعٌ خاصٌ له عليه الصلاة والسلام، الذي قال ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ».

قال الحسين بن منصور: ليس لله مقامٌ ولا شهودٌ في نادٍ، ولا استهلاكٌ في حيرةٍ، ولا ذهولٌ في عظمته بقطع عن الآداب الشرعية، ولا له مقامٌ أوقف فيه الموحدين، أشهدهم الشريعة أن جريانها عليهم علمٌ للغير لا لهم.

ومما يصح هذا قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فجعل إقامته للصلاة أدبًا لهم، وهو في الحقيقة في عين الحصول لا يرجع إلى غير الحق في تصرفاته، ولا يشهد سواه في سعاياته.

طائفة من بقية القوم ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:102]، من الطاعات والعبادات دفعًا لعدو النفس والشيطان، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ [النساء:102]؛ يعني: من معك ونزلوا مقامات القربة، ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ [النساء:102]؛ أي: هؤلاء العوام ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ [النساء:102] في المرتبة والمقام والمتابعة ويحفظونكم باشتغالهم بالأمور الدنيوية لحوائجكم بالضرورات الإنسانية، ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى﴾ [النساء:102]، بعدكم ﴿لَمْ يُصَلُّوا﴾ [النساء:102] معك في الصحبة ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء:102] في الوصلة، ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ [النساء: 102]؛ وهو آداب الطريقة، ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:102]؛ وهي أركان الشريعة بنظر شيخ كامل من أهل الحقيقة، فإنه من جملة الحذر يبقى العبد محروسًا عن مكائد كفار النفس والشيطان، ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء:102]؛ أي: عن أركان الشريعة ومراقبة القلوب في حفظ مواهب الحق وفتوحات الغيب، ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:102]؛ يعني: عدو النفس وصفاتها والشيطان وأعوانه، ﴿مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ [النساء:102]؛ يعني: من كثرة اشتغال الدنيا وضروريات البشرية تمطر عليكم في بعض الأوقات، ﴿أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء:102] من أركان الشريعة عند الضرورة ساعة فساعة، ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:102]، من التوجه الحق ومراقبة الأحوال، وحفظ القلب وحضوره مع الله، وخلو السر عن الالتفات بغير الله، ورعاية التسليم والتفويض إلى الله تعالى، والاستمداد من همم المشايخ والالتجاء إلى ولاية النبوة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: 103 - 105].

ثم أخبر عن معنى آخر من معنى الحذر؛ وهو المداومة على الذكر بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:103]، إلى قوله: ﴿عَلِيماً

حَكِيماً﴾ [النساء:111]، والإشارة فيها: إن الله تعالى يأمر من لم تكن صلاته دائمة، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء:103] المكتوبة المفروضة المعدودة فلا تحسبوا أنها تكفيكم في إقامة العبودية، أو تصلون بمجردها إلى حضرة الربوبية، ولكن ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ [النساء: 103] في جميع حالاتكم ولا تخلوا حالاتكم من هذا [الوصف]، إما تكونوا قيامًا أو قعودًا أو على جنوبكم ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:103] حتى يطمئن قلبكم بذكر الله، ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء:103]؛ أي: فأديموها؛ يعني: فإذا اطمأن القلب بذكر الله فقد أقام القلب الصلاة، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا﴾ [النساء:103] أي: مكتوبًا أزليًا، ﴿مَوْقُوتًا﴾ [النساء:103] أي: مؤقتًا إلى الأبد.

فاعلم أن لله تعالى عبادًا قد منحهم ديمومة الصلاة فهم في صلاتهم دائمون من الأزل إلى الأبد، وليس هذا من مدرك عقول الخيال فلا يعقلها إلا العالمون، وقد أشار إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً﴾ [الفتح:1] منا بنا عليك، ﴿مُبِيناً﴾ [الفتح: 1]؛ أي: بينا لك ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ﴾ [الفتح:2] بما فتح منه عليك، ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ [الفتح:2] في الأزل، ﴿مِن ذَنبِكَ﴾ [الفتح:2] بأن لم تكن مصليًا، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:2] إلى الأبد من ذنبك بأن لا يكون مصليًا، ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:2]؛ يعني: نعمة المغفرة، وإتمامها أن يجعل بها سيئاتك وهي عدم صلاتك في الأزل والأبد مبدلة بالحسنات وهي الصلاة المقبولة من الأزل إلى الأبد ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ [الفتح:2] من الأزل إلى الأبد، ومن الأبد إلى الأزل، ﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ﴾ [الفتح:3] بالظفر على هذا الأكبر الأعظم، ﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ [الفتح:3]، لا يعز به غيرك ولا يتنسم روائحه إلا بمسام متابعتك، ففهمها من فهمها، وجهلها من جهلها، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء:104] أي: في طلب النفس وصفاتها والجهاد معها، ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء:104] في الجهاد معها، ويتعبون بالرياضات والمجاهدات، وملازمة الطاعات والعبادات، ومداومة الذكر ومراقبة القلب في طلب الحق، والوصول إلى المقامات العلية، ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ [النساء:104]؛ يعني: النفس والبدن في طلب الشهوات الدنيوية، واللذات الحيوانية والمرادات الجسمانية، ويأملون ويتعبون في طلبها، ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ﴾ [النساء:

104]، العواطف والعوارف الأبدية، ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:104]، النفوس الردية من هممها الدنية التي لا تجاوز قصورها من المقاصد الدنيوية، ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ [النساء: 104]، في الأزل باستعداد كل طائفة من أصناف الخلق، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:104]، فيما حكم لكل واحد منهم من المقاصد والمشارب، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:60]، وجعل ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:53].

ثم أخبر عن إنزال الكتاب بالحق إنه على من أنزل من الخلق بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء:105]، والإشارة فيها: إن إنزال الكتب من الله تعالى على الأنبياء- عليهم السلام - كان بواسطة الألواح والصحف وجبريل ﷺ، وكان النبي ﷺ ليلة المعراج بلا هذه الوسائط، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]؛ يعني: من القرآن وما بعد له يدل عليه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1-2] ليلة المعراج، وقال:ﷺ «أوتيت القرآن وما بعد له»(1)، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء:105]؛ يعني: القرآن بلا واسطة ليلة المعراج ﴿بِالْحَقِّ﴾ [النساء:105]؛ أي: الحق تعالى أنزله إليك نظير قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:105]، فكان النبي ﷺ مخصوصًا بهذه الكرامة من جميع الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- يدل عليه قوله ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست، فقال: أوتيت جوامع الكلام»(2)، ويؤكد ما قلنا في تأويل ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء:105] قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النساء:105]؛ يعني: بما حين أوحى إليك بلا واسطة وأريك آياته الكبرى، وقوله تعالى:﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11]، بإراءة الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:105]؛ يعني: ولا تكن أبدًا للخائنين خصيمًا بما أريك الله من الحق، وفي الآية تقديم وتأخير تقديره ولا تكن للخائنين خصيمًا، ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء:107].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩﴾ [النساء: 106 - 109].

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللهِ﴾ [النساء:106]؛ يعني: الذين يختانون أنفسهم بالمعاصي، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء:106]، في الأزل ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:106] لك ولمن تستغفر لهم من أمتك، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:106] بك وبهم، وبرحمته أرسلك إليهم ولغفلتهم، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ [النساء:108]؛ أي: ممن هو ناس ليستخفون مع احتمال نسيانهم ذنوبهم، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:108] في جميع الأحوال، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:19]، يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:108]، ولا ينسى أفعالهم، ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:108] في الأزل ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [النساء:108]، اليوم ﴿مُحِيطًا﴾ [النساء:108] علمه قبل وقوع العمل، ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء:109] يا أهل الغيبة عن الله، ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ [النساء:109] عن أهل الباطل لغيبتكم عن الله وحضوركم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء:109]، والغالب عليكم رؤية الخلق ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء:109] في حضور الحق وقد وقع عليكم الفزع الأكبر ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء:109] يتكلم بوكالتهم، ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ [الانفطار:19].

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝١١٢ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣﴾ [النساء: 110 - 113].

ثم أخبر عن الدواء بعد الداء بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾

[النساء:110]، والإشارة فيها: إن من يعمل سوءًا؛ أي: عملاً من مأمورات النفس وشهواته، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53]، أو يظلم نفسه بأن يشرك بالله في عبودية أحدًا، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13] ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [النساء:110]، يفر من أنانيته ويطلب من الله أن يغفر بهويته، ﴿يَجِدِ اللَّهَ﴾ [النساء:110] عند الطلب، فإنه قال: «من طلبني وجدني»(1)، ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:110] بهوية أنانيته، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء: 110] فيرحم أنانيته بهويته، ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ [النساء:111] ولا يستغفر الله، ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء:111]، فإن دين الإثم يظهر في الحال في صفاء مرآة قلبه فيعميه عن رؤية الحق، ويصمه عن سماع الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ [النساء:111] في الأزل ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:111]، بكسب إثمه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:111] فيما أظهر أثر كسبه في زين قلبه، ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ [النساء:112]؛ وهي ما تكسب نفسه من مذمومات الصفات بغير عمده وقصده، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء:112] ذنبًا بعمده وسعيه، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء:112]؛ أي: قلبه البريء من مذمومات الصفات وعمده الذنب فإن من شأن القلب الطاعة والعبودية والصفات الحميدة؛ يعني: تسعى النفس وتتبع شهواتها واستيفاء حظوظها إلى أن يؤثر ظلمة طبيعتها في صفات القلب، ويستلذ القلب من مشتهيات النفس فيتصف القلب بصفات النفس فيبهت عنها ويقع في ورطة الهلاك، ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ﴾ [النساء:112] صاحب النفس ﴿بُهْتَانًا﴾ [النساء:112] مما أبهت القلوب عن العبودية والطاعة ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء:112] مما أنبت به نفسه من المعاصي وأثم بها قلبه، فيكون بمنزلة من جعل اللب وهو القلب جلدًا وهو النفس، وهذا من إكسير الشقاوة فلا ينقطع عنه العذاب، إذا صار كل وجوده جلودًا فيكون من جملة الدين، قال الله تعالى فيهم: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:56]؛ لأنهم بدلوا الألباب بالجلود وهاهنا كما قررنا، والله أعلم.

ثم أخبر عن فضيلة النبي ﷺ وأنه بالفضل جعله خير البرية بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا

(1) تقدم تخريجه.

﴿فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء:113]، والإشارة فيها: إن فضل الله موهبة من مواهب يؤتيه من يشاء، وليس لأحد فيه مدخل بالكسب والاستجلاب، وبذلك يهدي للإيمان ويوفقه الله للعمل الصالح، ولهذا قال سيد الأولين والآخرين: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء:113] من الأزل إلى الأبد ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء:113] عن طريق الوصول إلى الله، ولولا إنا أفنيناك عنك بل عن كل ذرة من ذرات المخلوقات من الروحانيات والجسمانيات حتى نفسك وروحك لكان حجابك عن الحضرة وما معك من الوصلة، فبجذبات الفضل أفنينا عنك وعن حجب المكونات، وبكرامات الرحمة جعلنا ذرات المكونات مرقات لك إلى الوصلة، وأبقيناك بنا حتى كنت فضلنا ورحمتنا فأرسلناك ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]، وقلنا لهم: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64]، فلا يقدر أحد أن يضلك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء:113]، من أراد أن يضلك؛ لأنهم بإرادة إضلالك يضلون أنفسهم عن متابعتك ومطاوعتك، وأنت فضل الله ورحمته عليهم فيضلون عنك، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء:113]؛ بل يضلون أنفسهم بالحرمان عنها ﴿أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء:113]؛ وهو القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:113]؛ وهي حقائق القرآن وأسراره ولطائفه وإشاراته، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: 113]؛ وهو علم ما كان وما سيكون، فإنه ﷺ ما كان يعلم قبل أن أسري به علم ما كان وما سيكون، وهذا هو حقيقة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(1)

---

(1) قال الشيخ سيدي إسماعيل حقي: احسبوا أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر أن الله علمه ما لم يكن يعلم فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظار للوحي حين سألته اليهود فقد كان لغموض في معنى الجواب ودقة لا تفهمها اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب ولما عبروا بالسر عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزلة الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار صفات مشاهدات الجميل الخفي، وإذا فنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن إنانية الوجود ووصلوا إلى الجنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى وإذا
=

[النساء:113]، والعظيم هو الله، والإشارة أن الله العظيم هو فضل الله عليك ورحمته، كما أنك فضل الله ورحمته على العالمين، ولهذا قال: «لولاك لما خلقت الأفلاك»(1)، فافهم جيدًا.

﴿۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ

استغرقوا في بحر الهوية وابقوا ببقاء الإلهية عرفوا الله بالله، فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال من يقول علمت ما كان وما سيكون. [روح البيان7/ 280].

(1) تقدم تخريجه، وانظر تعليقنا على أوليته ﷺ وعلى آله في بداية سورة النساء، ونزيد بيانًا فنقول: كل خير وصل الكون وأهله فلجلالته - صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله - على الخلق فيه نعمتين: الإمداد؛ لأنه القاسم أمداد الخزائن الإلهية على أجناس الدوائر المُلكيّة والله المعطي، أخرج الإمام البخاري في صحيحه (1344)، والإمام مسلم (6116) قوله - صلى الله عليه به -: «إِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ ... الحديث»، فما تنعَّم أهل الأرض بشيء إلا مما في الأيادي الكريمة المحمدية مفاتحه، وفي الصحيح (71)، والإمام مسلم (2439) أيضًا: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي»، وسُمِّيَ بالقاسم ﷺ وعلى آله، لأنه المتولي قسمة مواهب الله تعالى؛ فكل من حصلت له رحمة أو رزق من الدنيا والآخرة النعم الدينية - ومنها العلوم الظاهرة الباطنة؛ ومنها الطاعات والدنيوية - والبرزجية والأخروية الأبدية، فهو بواسطته ﷺ وعلى آله، وهو الذي يقسِّم الجنة بين أهلها.

والثانية: الإيجاد، لأن الله المنعم الخالق الموجد للنعم - جل شأنه - لم يكن ليرزق العالم إلا لأجله فهو السبب، أخرج أبو الشيخ في طبقات الأصفهانيين (794)، والحاكم في المستدرك وصححه (4227) عن سيدنا ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: «أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى آمن بمحمد، ومُرْ أمتك أن يؤمنوا به؛ فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب؛ فكتبت عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فسكن»، وروى الديلمي (8031): «أتاني جبريل فقال: يا محمد لولاك لما خُلِقَت الجنة، ولولاك ما خلقت النار»، وعند ابن عساكر (1/ 176): «ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك ... لقد قرنت اسمك مع اسمي، فلا اذكر في موضع حتى تذكر معي، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك علي ومنزلتك عندي، ولولاك يا محمد ما خلقت الدنيا»، ومعرفة بعض كرامته على ربه ﷺ وعلى آله مستلزمة محبته، وهي مستلزمة محبة ربه تعالى مجده، ومحبته سبحانه مستلزمة طاعته ﷺ وعلى آله، وطاعته هي عبادة الله التي خلق الكون من أجلها، فأوسع الناس معرفة به ﷺ وعلى آله أشدهم طاعة لله تعالى، وأشدهم طاعة له أعرفهم به سبحانه؛ فسبحان من لم يجعل الدليل على نبيه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يُعرَّف به إلا من أراد التعرف إليه، قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، أي: إلا ليعرفون - وهو مجاز مرسل من إطلاق اسم السبب على المسبب- فأكرم به من محمد وأحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله، اللهم به وبكل من انتسب إليه اجعلنا من آله وحزبه المفلحين، وكل من قال آمين.

النَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: 114 - 116].

ثم أخبر عن نجوى أصحاب الهوى بقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ [النساء:114]، إشارة في الآيتين: إن لا خير في كثير من نجواهم؛ أي: الذين يتناجون من النفس والهوى والشيطان؛ لأنهم شرًا، ولا فيما يتناجون به؛ لأنهم يأمرون بالسوء والشر والفحشاء والمنكر، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:114]، إلا فيمن أمر بهذه الخيرات فإنه فيه الخير وهو الله تعالى، فإنه يأمر بالخيرات بالوحي عمومًا، ويأمر بالخاطر الروحاني والإلهام الرباني خواص عباده، والخاطر يكون بواسطة الملك وبغير الواسطة، كما قال ﷺ: «أَلا وَإِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْـمَلَكِ إِيعَادٌ لِلْخَيْرِ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ، فَمَنْ وَجَدَ لَمَّةَ الْـمَلَكِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ لَمَّةَ الشَّيْطَانِ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْ ذَلِكَ»[1]، والإلهام ما يكون من الله تعالى بغير الواسطة؛ وهو على ضربين:

ضرب منه: ما لا شعور للعبد به إنه من الله تعالى، وضرب منه: ما يكون بإشارة صريحة يعلم العبد إنه وارد من الله تعالى بتعليم نور الإلهام، وتعريفه لا يحتاج إلى معرف آخر إنه مع الله تعالى، وهذا يكون بالولي وغير الولي، كما قال بعض المشايخ: حدثني قلبي عن ربي، وقال ﷺ: «إن الحق ينطق على لسان عمر»[2].

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير (7/ 498).

(2) حديث ابن عمر: أخرجه أحمد (2/ 53، رقم 5145)، وعبد بن حميد (ص 245، رقم 758)، والترمذي (5/ 617، رقم 3682) . وأخرجه أيضًا: ابن حبان (15/ 318، رقم 6895)، والطبراني في الأوسط (3/ 338، رقم 3330)، وتمام (2/ 19، رقم 1016)، وابن عساكر (44/ 103) . حديث أبي ذر: أخرجه أحمد (5/ 165، رقم 21495)، وأبو داود (3/ 139، رقم 2962)، والحاكم (3/ 93، رقم 4501)، والطبراني في مسند الشاميين (2/ 382، رقم 1543)، وابن عساكر (44/ 99) . حديث أبي سعيد: أخرجه تمام (2/ 41، رقم 1086)، وابن عساكر (44/ 101) . حديث أبي

وقال: «كادت فراسة عمر أن تسبق الوحي»(١)، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ [النساء:114]، أي: من يفعل بها ألهمه الله تعالى طلبًا لمرضاته: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:114] ذكر بقاء التعقيب قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ [النساء:114]؛ يعني: عقيب الفعل ﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:114]، وهو جذبة العناية التي تجذبه عنه وتوصله إلى العظيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ [النساء:115]؛ أي: يخالف الإلهام الرباني الذي هو رسول الحق تعالى إليه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْـهُدَى﴾ [النساء:115] بتعريف إلهامه ونوره، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:115] الموقنين بالإلهام، بأن يتبع الهوى وتسويل النفس وسبيل الشيطان، ﴿نُوَلِّهِ﴾ [النساء:115]؛ أي: نكله بالخذلان ﴿مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ﴾ [النساء:115]، بسلاسل معاملاته التي تؤتي بها إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ [النساء: 115]، سفليات البهيمية والسبعية والشيطانية ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:115]؛ أي: ما صار إليه من عباده الهوى واتباع النفس والشيطان وإشراكهم بالله في المطاوعة.

ثم أخبر عن حال أهل الشرك بالضلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:116].

والإشارة فيه: إن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، فمن خلقه أهلاً للجنة فقد غفر له قبل أن يخلقه، ومن غفر له فإنه لا يشرك بالله، فالإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:116]، إن لم يغفر فأشرك به، ولو كان مغفورًا لم يشرك به، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:116]؛ يعني: وقد غفر ما دون من أشرك به في الأزل فلم يشرك به الآن، ومما يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13]، وأمثاله في القرآن، ويدل عليه أيضًا

- هريرة: أخرجه أحمد (2/ 401، رقم 9202)، وأبو يعلى كما في إتحاف الخيرة المهرة (9/ 219 رقم 8861)، وتمام (2/ 253، رقم 1664)، وابن حبان (15/ 312، رقم 6889)، وأبو نعيم في الحلية (1/ 42)، وابن عساكر (44/ 101). حديث معاوية: أخرجه الطبراني (19/ 312 رقم 707).

(1) لم أقف عليه.

بقية الآية وهي: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:116]؛ يعني: ومن يشرك بالله الآن فقد ضل ضلاله في الأزل، وهو الضلال البعيد الأزلي بمشيئته في تحقيق: ويضل من يشاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:116]، ومشيئته أزلية أبدية فافهم جيدًا.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: 117 - 121].

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء:117]؛ يعني: ما يعبدون من دون الله، ولا يطلبونه من الدنيا والآخرة ومنافعها، إلا هو بمثابة الإناث لكم يتولد منه الشرك المقدر بمشيئته الأزلية، ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ [النساء:117]؛ أي: وإن يعبدون ﴿شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء:117]، ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ [النساء:118]؛ يعني: وما يعبدون شيئًا إلا هو شيطان لهم يضلهم عن طلب الله والوصول إليه، وقد لعنه الله وأبعده عن الحضرة إذا كان سببه ضلالتهم، كما قال ﷺ: «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»(1)، وإنما لعن الله الدنيا وأبغضها؛ لأنها كانت سببًا للضلالة وكذلك الشيطان، فافهم جيدًا.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء:118]، والنصيب المفروض من العباد؛ هم طائفة خلقهم الله أهل النار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف:179]؛ وهم أتباع الشيطان هاهنا، والنصيب المفروض في الأزل، إذ قال تعالى بالكلام الأزلي القديم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 85]، وإبليس مع كفره ظن أنه قد يرى، إذا قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:

(1) أخرجه الترمذي (4/ 561 رقم 2322)، وابن ماجه (2/ 1377 رقم 4112).

119]، ما علم أنه بعث مزينًا وليس إليه من الضلالة شيء، كما قال ﷺ: «بعثت مبلغًا وليس إليَّ من الهداية شيء»(1)، فمن يرى حقيقة الإضلال مشيئة من إبليس فهو إبليس وقته، وقد قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر:8]، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ [البقرة:26]، فكما أن لأهل الإيمان أتباع النبي ﷺ وإنه لا يهدي من أحب، فكذلك أهل الضلالة هم أتباع إبليس وإنه لا يضل من أحب، فافهم جيدًا.

ثم أول إضلال إبليس بقوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء:119]، فليس على الإضلال للشيطان قدرة وقوة إلا بطريق الفتنة والتزيين، والأمر والدعاء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم:22]، فإني ما كنت لكم في الضلالة إلا عونًا ووليًا، وأنتم اتخذتموني في ذلك وليًا، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:119] من نواة سعادة الدارين؛ لأن الشيطان يعدهم برحمة الله وعفوه من غير توبة على المعاصي والكف عن الذنوب، ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ [النساء:120] بما يلائم طباعهم، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:120]، إلا أن يغتروا بالحياة الدنيا وزينتها، ويغتروا بكرم الله وعفوه، وقد قال تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾ [لقمان:33]؛ والغرور: هو الشيطان، ومن يغتر به ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:121]؛ أي: مقامهم ومسكنهم؛ لأنهم خلقوا لذلك، وإنما اغتروا بقول الشيطان لهذه الخاصية، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:121]، إذ هي ناديهم ولها خلقوا على التحقيق بالحكمة البالغة والمشيئة الأزلية، فافهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ

(1) رواه البيهقي (2/ 433).

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: 122 - 124].

ثم أخبر عمن خلق للجنان وأنهم أهل الإيمان بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء:122]، والإشارة فيها وهي إن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء:122]؛ يعني: الذين آمنوا واتقوا ولازموا ذكر لا إله إلا الله فتبين لهم أنهم عملوا الصالحات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب:70]؛ وهو لا إله إلا الله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب:71]؛ أي: يخلص، فإن إصلاح الأعمال في إخلاصها.

ثم اعلم أن بالإيمان والتقوى، وملازمة الذكر يكون العمل صالحًا، وبالعمل الصالح يصعد الذكر إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10]، فبالذكر والعمل الصالح يجتذب الذاكر عن أنانيته إلى هوية المذكور، كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]، فيعبر عن أول مرتبة المذكور به بقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: 122]، ويعبر عن مراتبها الباقية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، ﴿وَعْدَ الله حَقًّا﴾ [النساء:122]، وعده ما قال هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلًا﴾ [النساء:122]؛ أي: لمن قوله بصدق قوله ويؤمن بوعده، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ [النساء:123]؛ يعني: بأماني عوام الخلق والذين يذنبون ويطمعون أن يغفر الله لهم، والله تعالى يقول: وإني لغافر لمن تاب وآمن وعمل صالحًا، ﴿وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:123]؛ يعني: علما السوء الذين يغرون بالرخاء المذموم، ويقطعون عليهم طريق الطلب والجد والاجتهاد، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:123] في الحال بإظهار الدين على مرآة قلبه بقدر الذنب، كما قال ﷺ: «إذا أذنب العبدُ نُكِتَ في قلبه نُكْتَةٌ سوداء فإن تاب صُقِلَ»[1]، ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله﴾ [النساء:123]؛ يعني: ولا يجد له إلا الله، ﴿وَلِيًّا﴾ [النساء:123]، يخرجه من ظلمات

---

(1) أخرجه الترمذي (5/ 434، رقم 3334) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (6/ 110، رقم 10251)، وابن ماجه (2/ 1418، رقم 4244)، والحاكم (1/ 45، رقم 6). «صقل»، جُلِيَ.

المعصية إلى نور الطاعة بالتوبة، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:123] سوى الله بالظفر على النفس الأمارة بالسوء، فيزكيها عن صفاتها وعلى الشيطان فيدفع سره وكيده، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء:124]؛ أي: الخالصات، ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [النساء:124]، يشير بالذكر إلى القلب، وبالأنثى إلى النفس، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء:124] مخلص في ذلك الأعمال، ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء:124]؛ المعنى أن القلب إذا عمل مما وجب عليه من التوجه إلى العالم العلوي، والإعراض عن العالم السفلي، وغض البصر عن سوى الحق يستوجب دخول الجنة، والقربة والوصلة والنفس إذا عملت مما وجب عليها من الانتهاء عن هواها وترك حظوظها، وأداء حقوق الله في العبودية واطمأنت بها تستحق الرجوع إلى ربها والدخول في جنة عالم الأرواح، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27-28]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:124] فيما قدر الله لهم من الأعمال الصالحات، ولا من الدرجات والقربات، فليس من تمنى نعمة من غير أن يتبعني في خدمة من يتمنى نعمته وإن بينهما بوناً بعيدًا من أعلى مراتب القرب إلى أسفل سافلين البعد.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَآءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى النِّسَآءِ الَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَٰمَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النساء: 125 - 127].

ثم أخبر عن أحسن الدين لأهل اليقين بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:125]، والإشارة فيها: إن لا أحد أحسن دينًا ممن ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾؛ أي: أسلم ذاته وحقيقته بالكلية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]؛ أي: ذاته وحقيقته، وهو؛ أي: من أسلم محسن محمد ﷺ وإنما سما محسن لمعنيين:

أحدهما: إنه ﷺ كان مخصوصًا من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالرؤية والمشاهدة، وإنه فسر الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه، فسماه الله تعالى محسنًا؛ لاختصاصه بالرؤية والمشاهدة، والثاني: لأنه ﷺ أحسن الدين فأجمله بخلقه العظيم إلى أن بلغ الدين بعده حد الكمال، فكان ﷺ أحسن الدين من سائر الدين من سائر الأنبياء عليهم السلام فسماه محسنًا؛ فمعنى الآية على التحقيق أن لا أحسن دينًا من محمد ﷺ وقد استتم ذاته وحقيقته بالكلية حتى اسلم سره وروحه وقلبه ونفسه وشيطانه، كما قال ﷺ: «أسلم شيطاني على يدي»[1]، ومن إسلام نفسه يقول يوم القيامة: «أمتي أمتي»[2]، حتى يقول الأنبياء: نفسي نفسي، ومما يدل على هذا التأويل قوله: عقيب وهو محسن ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:125]، والاحتمال الذي اتبع ملة إبراهيم وأمره به كان محمد ﷺ بقوله: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النحل:123]، وقال ﷺ: «بعثت بالحنفية السهلة السمحة»[3]، ثم شرع في شرح ملة إبراهيم التي اتبعها محمد ﷺ وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:125]، ومن شرك الخلة استسلام العبد في عموم أحواله لله بالله، وأن لا يدخر شيئًا عن الله لا من ماله، ولا من جسده ومن روحه وجلده، ولا من أهله وولده، وهذا كان حال إبراهيم عليه السلام، ومن شرط المحبة فناء المحبة في المحبة وبقاؤه بالمحبوب حتى لم تبقى المحبة من المحب إلا الحبيب، وهذا كان حال محمد ﷺ قيل لمجنون ليلى ابن عامر: ما اسمك؟ قال: ليلى، وقيل لمحمد ﷺ: حبيبًا خليلاً فقيرًا من الخلة وهي الحجة والفقر؛ أي: مفتقر بالكلية إلى الله في كل أحواله ليس له منه شيء، هل هو من الله؟

---

(1) أخرجه أحمد (1/ 385، رقم 3648)، ومسلم (4/ 2167، رقم 2814)، وأبو يعلى (9/ 77، رقم 5143)، وابن خزيمة (1/ 330، رقم 658)، والبزار (5/ 254، رقم 1871)، وابن حبان (14/ 327، رقم 6417)، والطبراني (10/ 218، رقم 10522)، والشاشي (2/ 251، رقم 824) وقال: حسن. والديلمي (4/ 37، رقم 6115). بلفظ آخر نحوه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) أخرجه أحمد (1/ 236، رقم 2107)، وأخرجه البخاري في الأدب (1/ 108، رقم 287)، والبزار كما في كشف الأستار (1/ 58، رقم 78)، والطبراني (11/ 227، رقم 11572)، وعبد بن حميد (ص 199، رقم 569)، والبخاري معلقًا (1/ 23).

كما قال:ﷺ «أنا من الله»(1)، وقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء:80]، فافهم جيدًا.

والفرق بين مقام الخليل ومقام الحبيب، إن الخليل اتخذ الآلهة عدوًا في الله وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، والحبيب اتخذ نفسه عدوًا في الله وقال: ليت رب محمد ﷺ لم يخلق محمدًا، كما قيل قريب بهذا المعنى: بيني وبينك أني يزاحمني فارفع بجودك إني من البين(2).

قال الشيخ الإمام مصنف هذا الكتاب - رحمه الله -: فلما أن رأيت وجودك رحمة، تمنيت من الله أن ليت لم أخلق.

وفي وقوله تعالى: ﴿وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النساء:126]، إشارة إلى: إنه تعالى يوجد عند كل ذرة من ذرَّاتها بالإيجاد والحفظ، والإبقاء والإفناء، والكل يقولون: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156]، فمن طلب الحق عند كل شيء يجده مع كل شيء وفي أول كل شيء، وأول كل شيء وأخر كل شيء، وظاهر كل شيء، وإلى هذا يشير بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:126]، وكذا قوله: ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت:54]، تفهم إن شاء الله تعالى.

---

(1) تقدم تخريجه، وانظر تعليقنا على أوليته ﷺ وآله في بداية تفسير سورة النساء.

(2) قال الشيخ النيسابوري: وهذا مقام الفناء في الفناء بل البقاء بعد الفناء فلا جرم يقول بالرب عن الرب. [رغائب الفرقان (3/ 85)].

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [النساء: 127]، اعلم أن النفس بمثابة المرأة لزوج الروح ففي قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء:127]، يسير إلى الاستخبار عن النفوس ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ [النساء:127]، عن الصفات ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء:127]؛ يعني: ما أوجب الله تعالى على العبد الطالب الصادق من حقوق النفس، كما قال ﷺ لعبد بن عمرو رضي الله عنه حين جاهد نفسه بالليل بالقيام وبالنهار بالقيام: «إن لنفسك عليك حقًا صم وأفطر وقم ونم»[1]؛ والمعنى: ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء:127]، إنها مراكبكم في السير إلى الله فلا تقبلوا عن ترتيبها بالكلية فتجاهدوها بالرياضات فتنقطع عن السير؛ بل الجواب أن تتفقدوها بأداء حقوقها وتواسوها بالرفق في تركيبها، كما قال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»[2]، يريد لا تحملوا على أنفسكم، ولا تكلفوها ما لا تطيقه فتعجز، وترك الدين والعمل ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:127]؛ يعني: ولا ترغبوا عن مصاحبة النفس وصفاتها، والمداومة معها في تهذيب أخلاقها وتربية صفاتها، إلى أن تردوها إلى حد الاعتدال، فإن قلع هذه الصفات ونفيها بالكلية ليس بمحمود، وإنها المحمود اعتدالها في أن تفي إلى أمر الله وأحكام الشرع، وكذا ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ [النساء:127]؛ وهو الأفعال المتولدة من صفات النفس: كالأكل والشرب والنكاح وأمثالها، فإن لكل واحد منهم حقًا ورعاية حقوقهم، ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ [النساء:127]؛ يعني: وإن تقوموا لرعاية حقوق النفس وصفاتها وأفعالها بميزان الشرع قيامًا بالحق والعدل، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [النساء:127] في حق النفس وصلاحها وإصلاح صفاتها، ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:127]، وكذلك ما تفعلوا من شر في التفريط والإفراط فيجازيكم به.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

(1) أخرجه أبو داود (2/ 48، رقم 1369). وأحمد (6/ 268، رقم 26351).

(2) أخرجه أحمد (3/ 198، رقم 13074)، والضياء (6/ 120، رقم 2115).

خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: 128 - 129].

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ﴾ [النساء: 128] يعني: نفس، ﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ [النساء: 128]؛ يعني: من الروح المتصرف فيها، ﴿نُشُوزًا﴾ [النساء: 128] في رعاية حقوقها والمداراة معها، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: 128] بالكلية بإظهار عداوتها وتشديد في اجتهادها وقصد هلاكها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: 128] بأن تطيع النفس الروح في عبودية الحق، وتترك بعض حظوظها رعاية لحقوقه في طلب الحق، ويؤثر حقوقه عليها معاونة على حصول مقاصده من [حظه] ويواسيها الروح بأن لا يعرض عنها بالكلية ويساعدها في بعض الأوقات مساعدة الراكب في أثناء الطريق لاستراحته عن التعب واستنشاطه للسير، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128] للروح من الانقطاع طلب المقصد والمقصود، وللنفس من الهلكة في أعراض الروح عنها، والمبالغة في اجتهادها وارتياضها ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: 128]؛ يعني: كل نفس مجبولة على البخل بنصيبها وحظها، فالروح تسنح بترك حقوق الله تعالى من نفسه، والنفس تسنح بحظوظها من هواها، ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ [النساء: 128]؛ يعني: بالتسوية بينهما في الصلح والعبودية للحق، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ [النساء: 128] الحيف والجور على كل واحد منهما، ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء: 128]، في الأزل ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النساء: 128] اليوم ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء: 128]، فإنه أعطى لكل واحد منهما استعداد الإحسان والاتقاء في الأزل، وإلا ما كان لهما الإحسان والاتقاء اليوم، فافهم جيدًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: 129]؛ يعني: لا تقدرون على تزكية النفوس وتسوية الصفات وتعديلها ولو تحرصون عليها، وهذا نظير قوله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»(1)، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ

(1) حديث ثوبان: أخرجه الطيالسي (ص 134، رقم 996)، وأحمد (5/ 276، رقم 22432)، وابن ماجه (1/ 101، رقم 277)، والدارمي (1/ 174، رقم 655)، وابن حبان (3/ 311 رقم 1037)، -

﴿الْـمَيْلِ﴾ [النساء:129] في رعاية حقوق الروح واستيفاء حظوظ النفس، ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ [النساء:129]؛ يعني: النفس ﴿كَالْـمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:129] بين عالم السفل وعالم العلو، ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ [النساء:129] على العبودية وامتثال الشرع في حفظ الحدود، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ [النساء:129] طرفي التفريط والإفراط في الحقوق، ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء:129]، في الأزل ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:129] للروح برش النور المقدس، ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:129] بالنفس حتى صارت مأمورة بعد كانت أمارة، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53].

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء: 130 - 131].

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ [النساء:130]؛ يعني: الروح والنفس بجذبات الإلوهية، فالروح تنجذب عن النفس بجذبة دع نفسك وتعالى إلى سعة غنى الله في عالم هويته، فيستغني عن مركب النفس بالوصول إلى المقصود، والنفس تنجذب عن الروح بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر:28] إلى سعة غنى الله في عالم، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29-30]، فتستغني عن راكب الروح بعناية، ﴿يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:130] في الأزل، ﴿وَاسِعًا﴾ [النساء:130] لهما في سعة رحمته، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:130]، حكم عليهما بالاجتماع والافتراق، ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة:30].

-

والطبراني (2/ 101 رقم 1444) والحاكم (1/ 220 رقم 447)، والبيهقي (1/ 82، رقم 389)، والطبراني في الشاميين (2/ 277، رقم 1335)، وفي الصغير (1/ 27، رقم 8)، والروياني (1/ 404، رقم 614).

حديث ابن عمرو: أخرجه ابن ماجه (1/ 102، رقم 278)، والبيهقي في شعب الإيمان (3/ 37 رقم 2803)، والبزار (6/ 358 رقم 2367).

ثم أخبر عن وصاية أهل الهداية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء:131]، إشارة في الآيتين: إن لله ما في السموات من الدرجات العلا وجنات المأوى والفردوس، وما في الأرض من نعيم الدنيا وزينتها وزخارفها، والله مستغن عنها، وإنها خلقها لعباده الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [الجاثية:13] منه وخلق العباد لنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: 41]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:131]؛ يعني: جميع أهل الأديان، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [النساء:131] أيها المؤمنون، ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:131] ولا تطلبوا منه غيره، فإن الله تعالى مهما يكن لكم يكن ما في السماوات والأرض لكم، واتقوا الله من الله غير الله، ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ [النساء:131] بهذه النعمة العظيمة والكرامة الجسمية وتطلبوا غير الله فلن تجدوه ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 131]، فلا تملكونه إلا بالله فإنه خلق لكم، لأنكم كنتم محتاجين ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ [النساء: 131] في الأزل إلى الأبد ﴿غَنِيًّا﴾ [النساء:131] عنه وعنكم، ﴿حَمِيدًا﴾ [النساء:131] في ذاته وصفاته فلا يحتاج إلى أحد منكم ولا إلى أن ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحشر:24]؛ لأنه ليس لشيء وجود حقيقي قائم بنفسه إلا بالله.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٣٢ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ [النساء: 132 - 134].

﴿وَلِلَّهِ﴾ [النساء:132] جنود ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء:132]، وقيامه وبقيوميته قائم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:132] في إيجاده وحفظه وتدبيره لكم فيما تحتاجون إليه من الدنيا والآخرة، فاتخذوه وكيلاً، فإن لم ترضوا بوكالته وتنسون وصايته فله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء:133] أيها الناسون وصية والطالبون غيره، ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء:133] ولا يطلبون منه غيره، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ [النساء:133]، من الأزل ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ [النساء:133]؛ أي: على إثبات جميع الخلق بهذه الصفة، ﴿قَدِيرًا﴾ [النساء:

133]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:13] والناس؛ أي: الناسين توصيته، دليله قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾ [السجدة:14] وصيتنا ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [السجدة: 14].

ثم أخبر عما عنده لعبده بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ [النساء:134]، إشارة في الآية: إن من كان دنيء الهمة قصير النظر يطلب من الله الدنيا الدنية وما فيها، ﴿فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء:134]؛ يعني: لا يختص على متاع القليل الدنيا من سعة كرم الله وجوده، وإن عنده الدنيا والآخرة، وهو كريم يحب أن يسأل العبد منه شيئًا، ويحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها، فلا تقنعوا منه بالدنيا الدنية، ﴿وَمَنْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:20]، فاطلبوا منه الآخرة، فإنه يزيد فيها؛ لأنه قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:20]؛ أي: نعطيه ما يحتاج إليه من الدنيا بالتبعية، ثم أشار بقوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: 134] إلى مقام العندية؛ يعني: لا تطلبوا من الله إلا مقام العندية، فإن من يكون منزلته من عند الله ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55] فقد وجد الله تعالى ووجد ما عنده من الدنيا والآخرة، ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا﴾ [النساء:134] لحاجات طالبه ومناجات راغبيه، ﴿بَصِيرًا﴾ [النساء:134]، بمصالح دينهم ودنياهم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: 135 - 136].

ثم أخبر عن قسط الشهداء ولو على الآباء والأقرباء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ﴾ [النساء:135]، إشارة في الآية: أمر الله في خطابه مع المؤمنين حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ﴾ [النساء:

135] أمر تكوين وتحويل، فلا بد وأن يكونوا كما كونهم، نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً﴾ [الأنبياء:69] فكانت كما أمرت وكونت، فلما قال تعالى للمؤمنين الذين كونوا مشارًا إليهم بذكر الإيمان: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135]، فيكونوا قائمين به وبحكمته البالغة وفي قوله: ﴿شُهَدَاءَ لله﴾ [النساء:135]، إشارة إلى عوام المؤمنين أن كونوا شهداء الله بالتوحيد والوحدانية، ﴿بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135] يومًا ولو كان في آخر نفس من عمرهم على حسب ما قدر لهم، ويكونهم كما شاء ومتى شاء بمشيئته الأزلية، وأشار إلى الخواص أن كونوا شهداء لله حاضرين مع الله بالفردانية، وأشار إلى أخص الخواص أن كونوا شهداء في الله غائبين عن وجودكم في شهوده بالوحدة.

ثم اعلم أن في إشارته إلى الخواص شركة للملائكة كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْـمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:18]؛ وهي تدل على هذا التأويل، وأما إشارته إلى أخص من الأنبياء وكبار الأولياء؛ وهم أولوا العلم فمختصة بهم من سائر العالمين، وفي هذا سر عظيم لا يبخل بالعقول المجردة، فضلاً عن العقول المركبة المدنسة بدنس الوهم والخيال والحس، ولأولي العلم سير في شهود ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [آل عمران:18]، وليس للملائكة وأولوا العلم في هذا الشهود مدخل، إلا أنهم قائمون بالقسط في شهود الوحدانية والفردانية كما حذرنا، وهم بمعزل عن شهود الوحدانية، فافهم جيدًا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:135]،إشارة إلى: إن كونوا شهداء لله في شهود الوحدة، ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء:135] بإفنائها، ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾ [النساء:135] بنفيهما في طلب الحق عن الالتفات والتعلق بهما. ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:135]؛ أي: والأقربين، ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ [النساء:135] الوالدين، ﴿غَنِيًّا﴾ [النساء:135] لا يحتاجون إلى التفاتك إليهما، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ [النساء:135] يحتاجون إليك في النفقة وغيرها، ﴿فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء:135]، فإنه خالقهما ورازقهما لا أنتم، ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْـهَوَى﴾ [النساء:135] في رعاية حقوقهم، ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:

135] عن طلب الحق ورعاية حق الربوبية بالعبودية، فإن الله قدم العبودية على حقوقهما، وقال: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [البقرة:83]، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ [النساء:135]؛ أي: وإن تتلوا أمرها، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء:135] عن الله وطلبه، ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ﴾ [النساء:135] في الأزل، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النساء:135] اليوم، ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:135]، وإنه أعطاكم استعداد هذه الأعمال، وإنه بما تعملون اليوم يجازيكم غدًا، واليوم بالخير خيرًا وبالشر شرًا، والله أعلم.

ثم أخبر عن الإيمان الحقيقي دون التقليدي وعلم أهل الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء:136]؛ فمعناه من آمن بالتقليد ظاهرًا ينبغي له بالتحقيق والتصديق باطنًا، وبالقول ظاهرًا أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما نطق به الكتب والرسل من الوعد والوعيد، والبعث النشور والحساب، والميزان والصراط، والجنة وغير ذلك(1)، يدل

(1) قال الشيخ روزبهان: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: الآية: 136] هذا بلسان الحقيقة خاطب المريدين الذين آمنوا بالمقامات والكرامات والمكاشفات والمشاهدات في بدو الإرادة مطلقًا بغير المباشرة، فإذا وقعوا في مسلك الحقائق رأوا أحكام الغيب، وسمعوا أصوات الإلهام من هواتف الملكوت، واضطربوا عند معارضة النفوس، أي: أيها المدّعون في بدايتكم بالإيمان على حقائق الطريقة اثبتوا بنعت الإيقان في محل الامتحان عند كشوف أسرار الغيب، وأيقنوا أن ما سمعتم من خطاب الأسرار فهو كلامي على لسان تلك الهواتف.

وأيضًا: لهذا خطاب الأكابر، أي: أيها العارفون اعرفوني؛ فإن ما وصلكم من معرفتي فهو يؤولكم إلى النكرة، ومَنْ ظن منكم أنه بلغ إلى حقيقة المعرفة أخطأ الطريق، فإني ممتنعٌ بعزتي وجلالي عن مطالعة الخليقة وجود قدمي، وارجعوا من تفردكم عند إفرادكم القدم عن الحدوث إلى الوسائط، يعني الإيمان بالرسول؛ فإنه حادثٌ يكون محل الحوادث، وساحة الكبرياء منـزّهةٌ عن الإيمان والكفر.

سُئل فارس: ما معنى هذه الآية وليس في ظاهرها التجريد؟ قال: التجريد إنما يقع بلسان السرّ من جهة هواتف الحق، ومعنى الآية: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ يريد تكرار الإيمان.

وقيل: أي: أيها المدعون تجريد الإيمان بي من غير واسطة، لا سبيل لكم إلى الوصول إلى عين التجريد إلا بقبول الوسائط.

قال الأستاذ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن يؤمنوا من حيث الكشف والعيان. ويقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا تجتم بعفوه الوصول،

على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:136] فقد أدرج جميع ما ذكرناه وجعلناه شرط الإيمان فيه، وحكم أن عدم الإيمان بهؤلاء كفر؛ يعني: عدم الإيمان بكل ما مر ذكره كفر.

ثم اعلم أن مراتب الإيمان ثلاث: مرتبة العوام، ومرتبة الخواص، ومرتبة الأخص، فمرتبة العوام في الإيمان: ما قاله ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة والنار والقدر خيره وشره»[1] وهو إيمان غيبي، ومرتبة الخواص في الإيمان: هو عيان، وكان ذلك أن الله تعالى إذا تجلى بصفة من صفاته وخضع جميع أجزاء وجوده، وآمن بالكلية عيانًا بعد ما كان يؤمن قلبه بالغيب، ونفسه تكفر بما آمن به قلبه، إذا كانت النفس عن تنسم روائح الغيب بمعزل، فلما تجلى الحق تعالى لجبل القلب ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى﴾ [الأعراف:143] النفس، ﴿صَعِقًا﴾ [الأعراف:143]، فالنفس في هذا تكون بمنزلة موسى عليه السلام، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143]، فافهم جيدًا.

ومرتبة الأخص في الإيمان: غيبي وذلك بعد رفع حجب الأنانية بسطوات تجلي حجب الجلال، فإذا أفناه عنه بصفة الجلال يبقيه بصفة الجمال، فلم يبق له الدين وبقي في العين فيكون إيمان عينيًا، كما كان حال النبي ﷺ ليلة المعراج فلما بلغ قاب قوسين كان في حيزين فلما جذبته العناية من كينونية إلى عينونية أو أدنى، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة:285]؛ أي: صفات ربه، فآمنت صفاته بصفاته، وذاته بذاته، فصار كل وجوده مؤمنًا بالله إيمانًا عينيًا ذاته وصفاته، فأخبر عنهم فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ﴾ [البقرة:285]؛ يعني: آمنوا بهويته لا

واستمكنت منكم حيرة البديهة، وغلبات الذهول، ثم أفقتم من تلك الغيبة، فآمنوا أن الذي كان غائبًا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات، فإن الصمدية ممتنعة مقدسةٌ عن كل قربٍ وبعدٍ ووصلٍ وفصلٍ.

(1) أخرجه الترمذي (5/ 6، رقم 2610) وقال: حسن صحيح. والنسائي (8/ 97، رقم 4990)، ومسلم (1/ 36، رقم 8)، وأبو داود (4/ 223، رقم 4695).

بأنانية وجودهم، فالله عز وجل من كمال رأفته ورحمته على عباده المؤمنين يشير إليهم بحقيقة هذا الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:136]؛ يعني: من أنانيتكم آمنتم إيمانًا غيبيًا، ﴿آمِنُوا بِاللهِ﴾ [النساء:136]؛ يعني: فاسعوا إلى الله بقدم ذكره لعله بذكركم يغنيكم به عنكم، فتؤمنوا بهويته إيمانًا عينيًا، وتؤمنوا برسوله ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء:136]؛ يعني: من لم يكن له إيمان عيني في متابعة الرسول ﷺ لا يعرف الرسول عند هذا الكمال، فلا يكون إيمانه بالرسول حقيقيًا، ولا بالكتاب الذي نزل على الرسول تلك الليلة، ولا ﴿الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء:136]، وذلك أن الكتب المنزلة كلها كانت مندرجة في الكتاب الذي أنزل على الرسول تلك الليلة في سر ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]؛ ولهذا قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[1]، ولذلك ذكر الله ﴿الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء:136]، عقيب قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء:136]، ولم يذكر الرسل الذين أنزلت عليهم الكتب؛ ليعلم أن المشار إليه في ذكر ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء:136]؛ هو أيضًا الرسول، فالمؤمن يؤمن بهذا الرسول المنزل عليه جميع الكتب؛ ليكون إيمانه بالله ورسوله وكتبه حقيقيًا لا تقليديًا- تفهم إن شاء الله- وتؤمن بهذا الإيمان إن لم تؤمن بحقيقته، فإن من يكفر بهذا الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ [النساء:136] في نية أنانيته، ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:136] عن الله ومعرفته ومعرفة رسوله وكتبه والإيمان بهم، فافهم جيدًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء: 137 - 139].

ثم أخبر عن التقليدي لا الحقيقي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [النساء:137]، والإشارة فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:137]؛ يعني: بالتقليدي، ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [النساء:137] إذ لم يكن للتقليد أصلاً، ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ [النساء:137]

(1) تقدم تخريجه.

بالاستدلال العقلي، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [النساء:137]، إذ لم يكن عقولهم مؤيدة بالتأييد الإلهي، ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [النساء:137] بالشبهات العقلية، إذ تمسكوا بالعقول المشوبة بالهوى وحب الدنيا فوقعوا في ورطة الهلاك مع المبتدعة والمتفلسفة، وإلا نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:137]، يشير إلى: إن من يكون إيمانه تقليديًا ذلك بأن لم يكن الله في الأزل عاقرًا لهم بنوره عند العرش، كما قال: ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه فقد اهتدى، ومن أخطأه فقد ضل، فلما أخطأهم ذلك النور فما آمنوا بالله بالحقيقة، وإن آمنوا بالتقليد كفروا، كما كانوا على أصل الضلالة، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:137]، إلى الهدى اليوم؛ لأن الأصل لا يخطأ إذ أخطأهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:138]؛ لأن أصل نفاقهم من أخطاء ذلك النور أيضًا؛ يعني: بشرهم بأن أصل جوهرهم من جواهر الكفار ولهذا ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:139]، فإن ائتلافهم هاهنا نتيجة تعارف أرواحهم هناك؛ لقوله ﷺ «الأرواح جنود مجندة»(1)، فمن تعارف أرواحهم أرواح الكافر والمنافق هناك يأتلفون هاهنا، ومن تناكر أرواحهم أرواح المؤمنين هناك يختلفون.

ثم أشار بقوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:139] إلى من يطلب العزة في الدارين، فليست العزة عند الدنيا وأهلها، فلا تطلبوها عندهم ولكن فاطلبوها عند الله؛ أي: في مقام العندية، فإن عنده خير الدنيا والآخرة جميعًا، فمن تابع النبي ﷺ حق المتابعة وقال تعالى ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، يقال له: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:8].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

---

(1) تقدم تخريجه.

جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: 140 - 141].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [النساء:140]؛ أي: في كتاب العهد يوم الميثاق ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ [النساء:140]؛ أي: النفوس وأربابها، ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾ [النساء:140]، الخطاب للقلوب وأربابها ﴿مَعَهُمْ﴾ [النساء:140]؛ أي: مع النفوس؛ أي: لا تصاحبوهم ولا توافقوهم في شيء من أهوائهم، ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء:140]، فإن تفعلوا أيها القلوب وأربابها، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء:140]، مثل النفوس وأربابها؛ يعني: يكون القلب كالنفس، وصاحب القلب كصاحب النفس بالصحبة والمخالطة والمتابعة، ﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْـمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:140]؛ لأنهم كانوا في عالم الأرواح في صف واحد، وفي الدنيا بذلك التناسب والتعارف في فن واحد، وقال ﷺ: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تحشرون»[1]، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن أخلاق أهل النفاق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء: 141]، إشارة فيها: إن المنافقين الذين يتربصون بكم، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ﴾ [النساء:141] من الفتوحات الدنيوية، ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [النساء:141] طمعًا فيه لما حرموا علو الهمة في الدين وعدموا خلوص العقيدة في علم اليقين تربصوا للفتوحات الدنيوية، وذهلوا عن الفتوحات الأخروية والحضرية؛ وهي ﴿فَتْحٌ مِنَ اللهِ﴾ [النساء: 141]؛ يعني: ما يفتح الله للناس من رحمة ومن فتوحات الغيب وشواهد الحق حتى ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء:141] من الدنيا والمرادات الدنيوية ﴿قَالُوا﴾ [النساء:141]؛ لخسة عقلهم ودناءة همتهم وقصورهم ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:141]، طاروا بأجنحة الأطماع والخذلان عن إنكار الإيمان إلى منازل

(1) ذكره حقي (3/ 125).

الكفر ودركات النيران، ثم يودي بأنهم أهل الملامة، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء:141]؛ ليعلم مَنْ أهل العزة والكرامات، ومَنْ أهل العزة والندامات، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:141]، فإن وبال كيدهم إليهم مصروف، وجزاء مكرهم عليهم موقوف، والحق من قبل الحق سبحانه وتعالى منصور أهله، والباطل بنصر الحق محيت أهله.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: 142 - 145].

ثم أخبر عن أمارات المنافقين وعلامات المخادعين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ﴾ [النساء:142]، إشارة في الآيتين: أن المنافقين غنها يخادعون في الدنيا؛ لأن الله ﴿خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:142] في الأزل عند رش نوره على الأرواح، وذلك أن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فلما رش نوره أصاب الأرواح المؤمنين وأخطأ أرواح المنافقين والكافرين، ولكن الفرق بين المنافق والكافر أن المنافقين رأوا رشاش النور وظنوا أنهم يصيبهم فأخطأهم، وأرواح الكافرين ما شاهدوا ذلك الرشاش ولم تصبهم، فإن المنافقين خدعوا عند مشاهدتهم الرشاش إذا ما أصابهم، فمن نتائج مشاهدتهم الرشاش ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [النساء:142]، من نتائج حرمانهم إصابة النور، ﴿قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:142]، كأنهم يراؤونهم النور ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:142]؛ لأنهم يذكرونه بلسان الظاهر القالبي لا بلسان الباطن القلبي، والقالب من الدنيا وهي قليلة قليل ما فيها، والقلب من الآخرة وكثيرة كثير ما فيها، فالذكر الكثير من لسان القلب كثير، والفلاح في الذكر الكثير لا في القليل، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال:45]؛ أي: بلسان القلب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:45]، ولما كان ذكر المنافقين بلسان القالب كان قليلاً كلما أفلحوا به، وإنما كان

ذكر المنافق بلسان الظاهر؛ لأنه شاهد رش النور ظاهرًا من العبد ولم يصبه، فلو كان أصابه ذلك النور لكان صدره منشرحًا به، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر:22]، فهو على نور من ربه؛ أي: على نور مما رش به ربه، ومعدن النور هو القلب، وإذا كان قلبه ذاكرًا لله النور فإنه يصير لسان القلب، فقليل الذكر منه يكون كثيرًا، فافهم جيدًا.

فلما كان أرواح المنافقين مترددة متحيرة بين رشاش النور وبين ظلمة الخلقية، لا إلى هؤلاء الذين أصابهم النور، ولا إلى هؤلاء الذين لم يشاهدوا الرشاش، كذلك كانوا ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء:143] المؤمنين والكافرين، ﴿لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ [النساء:143] بأخطاء ذلك النور، كما قال: ومن أخطأه فقد ضل ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء:143] هاهنا إلى ذلك النور، يدل عليه قوله تعالى:﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40] قسمته من ذلك النور المرشش، فما له اليوم نصيب من نور الهداية والله أعلم.

ثم أخبر عن منازل المنافقين باتخاذهم الأولياء من الكافرين ونهى عن المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 144]، والإشارة فيها: إن النهي في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:144]، نهي التكوين؛ يعني: ما كونهم مستعدين لاتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين؛ لأن المؤمنين خلقت أرواحهم في غير صف أرواح الكافرين، حيث كانت الأرواح جنود مجندة فكان بين أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين تعارف يأتلفون به هاهنا من دون المؤمنين، إنما قيد موالاتهم بقوله تعالى﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 144]؛ لأن موالاتهم على نوعين:

أحدهما: ما يكون بمناسبة كلية بين الأرواح بأن يكونوا في صف واحد، فتلك المناسبة بين الكافرين والمنافقين موالاة حقيقية، وهذا هو الذي نهى عنه المؤمنون نهي التكوين، وبهذا النوع يتخذ المنافقون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

والنوع الثاني: ما يكون من أدنى مناسبة يكون بين الأرواح وإنما يكونوا في صف

واحد، بل يكون لمحاذاة أرواحهم في الصفوف، فتلك المناسبة تكون بين المؤمنين والكافرين صورة موالاة دنيوية معلولة في بعض الأوقات، ولا يكون لها إثبات ولا ينقطع موالاته مع المؤمنين في الدين البتة، ويرجع المؤمن من موالاتهم البتة يومًا، ثم قال تعالى لمن آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 144]، ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:144]؛ يعني: بعد أن خلقكم في صف أرواح الكافرين وأخطأكم رشاش النور حتى إئتلفتم هاهنا مع الكفار، ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللهَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:144]، في عقابكم يوم القيامة باتخاذكم الكفار أولياء، ﴿سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ [النساء:144]، عذرًا واضحًا وبرهانًا لائحًا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:145]؛ يعني: الذي آمنوا باللسان ولم تؤمن قلوبهم وهذا أحوالهم فهم المنافقون، ومنازلهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأن أرواحهم كانت في آخر الصفوف وأسفلها، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:145] في الإخراج عن الدرك الأسفل؛ لأنهم أفسدوا استعداد صفاء الروحانية الكلية بالنفاق ورينه بخلاف الكافر؛ لأن الكافر وإن أفسد برين الكفر صفاء روحه، ولكن ما أضيف إلى رين كفره رين النفاق فكان لرين كفره منفذ من القلب إلى اللسان فيخرج بحاره من لسانه بإظهار الكفر، وكان للمنافق مع كفره ورين الكفر ورين النفاق زائد، ولم يكن لبخل رينه منفذ إلى لسانه، فكان لنجارات الكفر ورين النفاق منفذ ينفذ إلى صفاء الروحانية فلم يبق له الخروج عن هذا الأسفل، ولم ينصره نصير بإخراجه؛ لأنه مخذول الحق في آخر الصفوف.

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:160]؛ يعني: في خلق أرواحكم في صف أرواح المؤمنين ﴿فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:160] بأن يردكم إلى صف أرواح الكافرين، ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ [آل عمران:160] بأن يخلق أرواحكم في صف أرواح الكافرين، ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران:160] بأن يخرجكم إلى صف المؤمنين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: 146 - 148].

ثم استثنى منهم من كان كفره ونفاقه عارية، وروحه في أصل الخلقة خلق في المؤمنين، ثم بأدنى مناسبات في المجازات بين روحه وأرواح الكافرين والمنافقين ظهر عليه من نتائجها موالاة معلولة مع القوم أيامًا معلومة مع القوم أيامًا معدودة، فما أفسدت صفاء روحانيته بالكلية، وما انسد منفذ قلبه إلى عالم الغيب فهبت له من وهب العناية نفحات ألطاف الحق، ونبهته عن نوم الغفلة، ونبهته عن الرجوع إلى الحق بعد التمادي في الباطل، ونودي في سره بأن لا نصير لمن يختار الأسفل، ولا يخرج منه ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء:146] وندموا على ما فعلوا، ورجعوا عن تلك المعاملات الردية، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ [النساء:146] ما أفسدوا من حسن الاستعداد، وصفاء الروحانية بترك الشهوات النفسانية، والحظوظ الحيوانية، ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء:146] بحبل الله استعانة على العبودية، ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:146] لله في الطلب لا يطلبون منه إلا هو ثم قال تعالى: من قام بهذه الشرائط ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:146]؛ يعني: في صف أرواحهم خلق روحه لا في صف أرواح الكافرين، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:146]، التائبين ويتقرب إليهم على قضية «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا وقال من أتاني يمشي أتيته هرولة»[1]، وهذا هو الذي سماه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:146] والله أعظم.

ثم أخبر عن كمال فضله وجلال عدله بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:147]، والإشارة فيها: إن الله عز وجل يذكر العباد المؤمنين من نعمة السابقة منها: إخراجهم من العدم ببديع فطرته، ومنها: إنه خلق أرواحهم قبل خلق

(1) تقدم تخريجه.

الأشياء، ومنها: إنه خلق أرواحهم نورانية بالنسبة إلى أن خلق أجسادهم ظلمانية، ومنها: إن أرواحهم لما كانت بالنسبة إلى نور القدم ظلمانية رش عليهم من نور القدم، ومنها: لما أخطأ بعض الأرواح ذلك النور وهو أرواح الكفار والمنافقين فقد أصاب أرواح المؤمنين، فيقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النساء:147]، هذه النعمة التي أنعمت بها عليكم من غير استحقاق منكم، فإنكم إن شكرتم هذه النعمة برؤيتها ورؤية المنعم بها فقد آمنتم بي ونجوتم من عذابي وهو ألم الفراق، فإن حقيقة الشكر رؤية المنعم، والشكر على وجوده أبلغ من الشكر على وجود النعم قال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ [البقرة:152]؛ أي: أشكروا لوجودي، ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:147]، في الأزل ﴿شَاكِرًا﴾ [النساء:147]؛ لوجوده، ومن شاكرًا لوجود أوجد الخلق بجوده، ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:147] بمن يشكر وبمن يكفر، فإعطاه جزاء الشاكرين قبل شكرهم؛ لأنه مشكور وأعطى جزاء الكافرين قبل كفرهم؛ لأن الكافر كفور.

ثم أخبر عن محبة المظلوم بقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ [النساء:148]، الإشارة فيها: إن الله تعالى ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:148] من العوام، ولا من التحدث مع النفس من الخواص، ولا من الخطرة التي يخطر بالبال من الأخص من القول، ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء:148] تبعًا من دواعي البشرية من غير اختيار وبابتلاء من اضطرار، وأيضًا ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: 148]، إفشاء بأسرار الربوبية وإظهار المواهب الإلوهية، وأيضًا ﴿لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:148]، إفشاء بأسرار الربوبية بكشف القناع من مصنوعات الغيب، ومكنونات غيب الغيب، ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء:148] بغلبات الأحوال وتعاقب كؤوس عقار الجمال والجلال فأضطر إلى المقال، فقال باللسان الباقي لا باللسان الفاني: أنا الحق سبحاني، ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ [النساء:148] في الأزل ﴿سَمِيعًا﴾ [النساء:148] لمقالهم، ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:148] قبل أداء مالهم.

﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ

وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: 149 - 151].

ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ [النساء:149]؛ يعني: مما كوشفتم به من ألطاف الحق تنبيهًا للخلق وأفادت بالحق، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [النساء:149] صيانة لنفوسكم عن آفات الشوائب، وفطامها من المشارب، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ [النساء:149] مما يدعوكم إليه سوى النفس الأمارة، أو تتركوا إعلان ما جعل إظهاره سوء، فإن الله عفو، فتكون عفوًا متخلقًا بأخلاقه متصفًا بصفاته، وأيضًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ [النساء:149] في الأزل، ﴿عَفُوًّا﴾ [النساء:149] عنك بأن لم يجعلك من المخذولين حتى صرت عفوًا عما سواه، وكان هو ﴿قَدِيرًا﴾ [النساء:149] على خذلانكم حتى لا يقدر على أن يعفوا عن مثقال ذرة لكفرانك، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:34].

ثم أخبر عن لوم الإحسان وكفرانه، وعن كرم الحق وغفرانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء:150]، إشارة فيها: إن الذين يكفرون بالله ورسله ومنها ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:150]، ومنها ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء:150]؛ يعني: بين أنهم يؤمنون ببعض من الكتب والرسل ويكفرون ببعض، فيضعون ذنبًا ومذهبًا يضلون به الخلق عن الصراط المستقيم والدين القويم، فلما ازدادوا كفر وضلالة حتى آل أمرهم في الكفر إلى أن يصنعوا ذنبًا في الضلال؛ ليضلوا الناس به عن طريق الحق، وصار كفرهم حقيقيًا فسماهم الله في الكفر حقًا، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 151]؛ يعني: الذين أخطأهم النور عند الرشاش على الأرواح، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ [النساء:151]، في يوم رش النور ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:151]؛ لحرمانهم عن تلك السعادة إذا كرم المؤمنين بإصابة ذلك النور، وأهين الكافرين بحرمانهم عنهم، وفي الآية دلالة على أن الإيمان لا يتجزأ ولا ينقسم وإن كان يزيد وينقص؛ لأنه لو كان متجزئًا لكان من يؤمن بالله وببعض الكتب والرسل جزء من الإيمان، فلما لم يكن لهم من الإيمان شيء علمنا إنه لا يتجزأ ولا ينقسم وإن كان يزيد وينقص فحسب، مثل نور الشمس وضياؤه

إذا دخل البيت من كوة فيزيد وينقص بحسب زيادة الكوة ونقصانها، ولكن لا يمكن تجزئتها البتة بحيث يؤخذ جزء منه فيجعل في شيء آخر غير محاذي الشمس، والآية تدل على أن الإيمان لا يحصل بزعم المرء وحسبانه وإنما يحصل بحصول شرائط نتائجه منه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء: 152 - 153].

كما أخبر عن الإيمان ونتائجه فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: 152]، فكان من نتائج إيمانهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء:152]؛ أي: من رسله، ومن نتائجه القبول من الله والجزاء عليه، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء:152]، ومن شرائط الإيمان ما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:152]؛ يعني: كان في الأزل غفورًا بإصابة النور أرواح المؤمنين، ولولا ذلك لما آمنوا، رحيمًا بهم بإفاضة النور عليهم.

ثم أخبر عن الكفر ونتائجه بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء:153]، والإشارة فيها: إن من نتائج كفرهم سألوا النبي ﷺ ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى﴾ [النساء:153] من نتائج كفرهم، ﴿أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء:153] من بعد ما سمعوا كلام الله، ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:153]، وما طلبوا الرؤية على وجه التعظيم أو على وجه التصديق، ولا حملهم عليه شدة الشوق أو ألم الفراق كما كان الفراق، كما كان لموسى عليه السلام حين ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، ولعل ضربة موسى عليه السلام في جواب ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، كانت من شؤم القوم، وما كان في أنفسهم من سوء أدب هذا السؤال؛ لئلا يطمعوا في مطلوب لم يعطه نبيتهم فما اتعظوا بحال نبيتهم؛ لأنهم كانوا أشقياء، والسعيد من وعظ بغيره حتى ادركتهم الشقاوة الأزلية، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:153] بأن طمعوا في فضيلة وكرامة ما

كانوا مستحقيها، ﴿ثُمَّ﴾ [النساء:153]، من نتائج كفرهم﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [النساء: 153]، العجل إلهًا وعبدوه، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: 153]، ما نفعتهم البينات والمعجزات أيضًا من نتائج الكفر، من طبع كافرًا ولو يرى الله جهرة فإنه لا يؤمن به، ومن طبع مؤمنًا عند رشاش النور بإصابته فإنه يؤمن بنبي لم يره وكتاب لم يقرأه بغير معجزة أو بينة، كما كان الصديق ﷺ حين قال النبي ﷺ: «بعثتُ»، فقال: «صدقتَ»[1] ولم يتلعثم، وكما كان حال موسى- ﷺ- فإنه لم ير النبي ﷺ ولا المعجزة فقد آمن به، ثم قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:153]؛ وهو ظاهر الآيات التسع، وفي الباطن برهانًا من وارد الحق، مظهرًا ما تعجز النفس عن تكذيبه، والسلطان المبين الحق الظاهر بحيث لا يحتجب بشيء ولا يحجبه شيء.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: 154 - 156].

ثم أخبر عن بقية نتائج الكفر بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء:154]- والإشارة فيها لأرباب العناية هداية على هداية تكون على أصحاب الجهالة ضلالة على ضلالة قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا﴾ [النساء:154]، كانت آية عظيمة من الآيات التي ابتلي بها بنو إسرائيل، وكان من خذلانهم وشؤم كفرانهم أنهم كلما رأوا آية في الظاهر زادوا جحدهم في الباطن، فلم ينفعهم زيادة نصب الإعلام لما لم ينفتح لشهودها بصائر قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101]، فكلما ازداد جحودهم زاد بلاؤهم، فازداد ابتلاؤهم فابتلوا بدخول ﴿الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء:154]، فما خرجوا عن عهدته فزاد البلاء والابتلاء فابتلوا بترك اصطياد الحوت، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾

(1) انظر: روح البيان لحقي (3/ 140).

[النساء:154]، فاعتدوا فيه فزادهم البلاء والابتلاء فابتلوا بالأخذ، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:154]، فنقضوا العهد وأرادوا الجحد، فلحقهم شؤم المخالفات بترك الموافقات إلى أن جرهم إلى الكفر بالآيات، ثم بشؤم كفرهم خذلوا حتى قتلوا الأنبياء بغير حق، ثم بشؤم ذلك تجاسروا حتى ادعوا بشدة التفهم، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: 155]، أدعية العلوم رد الله عليهم فقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:155]؛ أي: ختم قلوبهم [بسبب] كفرهم وسوء معاملاتهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14] محجوبون على العرفان حتى بالغوا في الخذلان وأوقعوا في البهتان كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:156]، فقوم تقوّلوا على مريم فرموها بالزنا، وآخرون جاوزوا الحد في تعظيمها فقالوا: ابنها ابن الله، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال.

ويقال: مريم عليها السلام كانت ولية الله، فشقي بها فرقتان أهل الإفراط وأهل التفريط، وكذلك كل ولي سبحانه وتعالى، فمنكرهم شقي بترك احترامهم وطلب أذيتهم، والذين يعتقدون فيهم مالا يستوجبون يشقون بزيادة إعظامهم، وعلى هذه الجملة ورج الأكثرون.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: 157 - 159].

ثم بلغوا في الكفر حد المنتهى وغاية القصوى حتى هموا بقتل عيسى عليه السلام روح الله وكلمته العليا، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾(1) [النساء:157]، ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:158]، وأنعم عليه بالإفاضة

(1) قال سيدي البيطار: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:
-

55] تعلقت بعصمتي بالله تعالى أن يكشف لي حقيقة هذا التوفي فورد على قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18] فعلمت أن الله تجلى على عيسى ﷺ باسمه الحق فزهق، أي: اضمحل باطل خلقيته فظهر حقه وبطن خلقه، وهو المراد بالدمغ؛ لأن الدمغ هو الشجة التي تبلغ الدماغ فيظهر ما بطن، والدماغ باطن الرأس، ولما كان عيسى بهذه المثابة رفعه الله إليه، فهو الحق حينئذ، فينسب إليه ما يُنسب إلى الحق تعالى من الإيجاد والإحياء والإماتة وإبراء الأكمه والأبرص، ولذلك لما أرادوا قتله وصلبه أنشأ مثالاً من نفسه على صورته فتمثل لهم كما تمثل جبريل لأمه بشرًا سويًا، ورُفع إلى الله، ولا يمكن الوصول إلى التسلط على الله فقتلوا وصلبوا تلك الصورة التي على شاكلة عيسى. فلهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157] أي: قتلوا الشبه وصلبوه، الذي هو على صورة عيسى، فلم يشك اليهود أنهم قتلوا عيسى بعينه، حتى النصارى قالوا: رفع اللاهوت وصلب الناسوت، وهذا من الخرافات الباطلة؛ لأن لاهوت عيسى عين ناسوته، فإن الله أخبر أنه رفعه إليه، والله تعالى حقيقة اللاهوت والناسوت، وهذا الرفع ليس رفع مكان بل رفع مكانة بالتجلي الإلهي الذاتي، فناسوت عيسى عين ذات الله بنص الله، فإن الله قال فيه: روح الله، وروح الله عينه، فلذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: 157] أي: شبهًا وتمثيلاً، فإن الله لم ينف التشبيه والتمثيل بل نفى القتل والصلب عنه، فكان عيسى من كونه روح الله مقتدرًا أن يظهر بكل صورة في الوجود، وما أجهل من يقول: إنه رفع إلى السماء، فإن الله تعالى لم يقل: ورافعك إلى السماء، بل قال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:55]. فإن قلت قد ورد الحديث: «ينزل فيكم عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير» إلى آخر الحديث، وهو حديث صحيح لاشك فيه، فالمراد بهذا النزول تنزله من رتبة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11] إلى مرتبة الظهور بالصورة الحسيَّة لنا مع أنه فينا، فهذا نزول إلهي مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: 84] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4] والحاصل أن الله رفعه من الخلقية إلى الحقيَّة فاستحق التحقق بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4] فعيسى ﷺ في السماوات وفي الأرضين حي بحياة الحي القيوم إلى أن يتزوج في الأرض ويولد له، فيظهر عند ذلك موته.

وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ فالضمير في خلقه راجع لآدم لا إلى عيسى؛ لأن عيسى لم يكن أصله التراب بل الروح، وقال الشيخ الأكبر قدس الله سره: معنى تشبيه عيسى بآدم بالنسبة لتمام الدورة بظهور ذكر - وهو عيسى - من أنثى - وهي مريم - كما ظهرت أنثى - وهي حواء - من ذكر وهو آدم، أقول: على هذا يكون عيسى ﷺ شبيهًا بحواء لا بآدم، والذي يظهر لي في التشبيه الدوري أنه كما ظهرت إنسانية آدم من جسم ترابي ظهرت إنسانية

مما لديه، ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ [النساء:158]، اعز من أن يتخذ ولدًا مثل عيسى عليه السلام أو غيره، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:93]، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:158]، يخلق بحكمته ما يشاء، ويختار ويرفع إليه من يشاء، ويجير ولا يجار عليه.

ثم أخبر عن نزول عيسى عليه السلام ليعلم أنه ليس في الموتى بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:159]؛ أي: وقت نزوله، والإشارة فيها: إن الله عز وجل لما ذكر من كمال عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:157-158]؛ ليعلم قومًا من الذين قالوا: المسيح ابن الله إذا سمعوا هذا القول يسبق وهمهم إلى تصديق مقالهم، فالإشارة في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ [النساء:159]، إلى نزول عيسى عليه السلام من السماء وإلى موته؛ ليعلم أنه لو كان ابنًا كما زعموا لما نزل إلى الأرض بعدما رفع وما مات؛ وفيه معنى آخر: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:159]، وذلك أن اليهود يؤمنون به بعد نزوله وقتله الدجال، وإظهاره وتقريره دين الإسلام وتقويته المسلمين، ومتابعته النبي ﷺ وصلاته خلف المسلمين، وكسره الصليب وقتله الخنزير وأمثال هذا، فيتحقق لهم صدق نبوته بهذه الدلالات وبإظهار العبودية، فيتحقق لهم أنه عبد نبي لو كان ابنًا لما كان متابعًا لنبي آخر لاستغنائه عنه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:159] بالإيمان ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء: 159].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

عيسى من روح قدسي، فانفصل آدم من الجسم، وانفصل عيسى من الروح الإلهي، وكانت مريم مجلي تجلي هذا الروح، فعيسى ما اكتسب الصورة إلا من أمه مريم، والصورة أمر حكمي لا وجودي عيني، فعيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأخبر الله أنه روح منه فلم ينسبه إلى جبريل بل قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: 17]، وروح الله عينه، فلو قالوا: إن الله هو المسيح ولم يقيدوه بمريم ولم يحصروه لما كفروا، ولكنهم حصروا الله في الجسم البشري، مع أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11] بل ليس معه شيء، فافهم.

﴿ لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 160 - 162].

ثم أخبر عن تتمة نتائج كفرهم بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء:160]، إلى قوله ﴿أجراً عظيماً﴾ [النساء:162]؛ لكنه قال تعالى لهم: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأعراف:157] وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ [المائدة:88]، فلم يحرم علينا شيئًا بذنوبنا، وكما [عفانا] من تحريم الطيبات في هذه الآية نرجوا أن [يعافينا] في الآخرة من العذاب الأليم؛ لأنه جمع بينهما في الذكر في هذه الآية، وقال أهل الإشارات: ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المباحات، وقال الشيخ - رحمه الله - الإسراف في ارتكاب المباحات يوجب حرمان المناجات، والإشارة فيها: إن الظلم من شيمة الإنسان؛ يعني: نفس الإنسان؛ لأنه خلق ظلومًا جهولاً، فالظالم من يظلم غيره، والظلوم من يظلم نفسه، وإلى هذا أشار بقوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:160]؛ يعني: لما ظلموا أنفسهم بنقض الميثاق والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، والكفر بعيسى وتقول البهتان على مريم، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء:157]، ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ [النساء:160].

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:161] وغير ذلك من المخالفات، حرمنا عليهم بإبطال استعدادهم طيبات من مقام القربات والدرجات والغرفات، ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:160]؛ أي: لأرواحهم الطيبين الطاهرين قبل التلوث بقذر المخالفات، فإن ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:26]، «فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»(1)، وإنهم لما أشركوا تنجسوا، فإن المشركين نجس، فحرموا من تلك الطيبات، وصدوا عن سبيل الله وكفروا به، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ [النساء:161]؛

(1) تقدم تخريجه.

أي: من الذين ظلموا أنفسهم بهذه المخالفات، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:161]، بالحرمان عن الدرجات والقربات.

﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [النساء:162]؛ أي: من الذين هادوا، والراسخون في العلم؛ هم الذين رسخوا بقدمي الصدق والعمل في العلم إلى أن بلغوا معادن العلوم فاتصلت علومهم الكسبية بالعلوم العطائية الدينية، كما كان حال عبد الله ابن سلام ﷺ فإنه كان عالمًا في التورية وقد قرأ فيها صفة النبي ﷺ، فلما كان راسخًا في العلم اتصل علم قراءته بعلم المعرفة، فقال: لما رأيت وجه رسول الله ﷺ عرفت بأنه ليس بوجه كاذب فآمن به، ولما لم يكن للأحبار رسوخ في العلم وإن قرأوا صفة النبي ﷺ في التورية فلما رأوا النبي ﷺ ما عرفوه فكفروا به، كقوله تعالى: فلما جاءهم ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [النساء:162] مؤمني أهل الكتاب، ووصفهم بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:162]، والأجر العظيم هو المسبوق بالعناية الأزلية، وهو ثمرة بذر رشاش النور في بدء الخلقة، وقدر عظيم الأجر لكل واحد على قدر كمالية الثمرة وبلاغتها، فافهم جيدًا.

﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: 163 - 165].

ثم أخبر عن إلجائه إلى الأنبياء للحجة على الأمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء:163]، والإشارة فيها: إن إفراد النبي بالذكر في الوحي في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ

﴿نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:163]؛ لاختصاصه بالفضائل من جملتهم، وأما إفراد نوح عليه السلام واشتراكه مع النبي ﷺ؛ فلأنه أول الرسل، والنبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأما إفراد إبراهيم عليه السلام ومن ذكر بعده فلاختصاصهم على غيرهم بالفضيلة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:253]؛ ومعناه إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى جميع الأنبياء؛ ولكن خصصناك بالفضائل دونهم، قال ﷺ: «فضلت على الأنبياء بست»[1].

وفيه إشارة أخرى: إنا أوحينا إليك في سر ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 10]، أفردناك عن جميعهم ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء:164]؛ أي: ليلة المعراج فيما أوحى إليك قصص جميع الرسل، ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164] في القرآن بأسمائهم وأحوالهم مفصلة، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[2] [النساء: 164]؛ يعني: كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده أوحينا إليك، وكلمناك كما كلمنا موسى مع اختصاصه بالكلمة عن غيره إلا عنك؛ فكانوا جميعًا ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ [النساء:165] بالجنة ونعيمها، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء:165] من النار وجحيمها، فلك اشتراك معهم بهذه البشرى والإنذار في الجنة والنار، وانفرد بالتبشير بالوصول إلى الله

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) بيَّن تخصيص موسى عليه السلام بمقام الخطاب الخاص بلا واسطة، بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء بسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال الشوق بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:10، 11]، وإن الله سبحانه إذا أراد أن يسمع كلامه أحدٌ من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعًا من أسماعه، فيسمع بها كلامه، كما حكى ﷺ عنه تعالى: «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به»، أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية الذي منزَّهٌ عن همهمة الأنفاس، وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيءٌ، هناك السامع والمسمع واحدٌ من حيث المحبة لا من حيث الجمع والتفرقة.

والإنذار من الانقطاع عن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الفتح:8]، ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللهِ﴾ [الأحزاب:46]؛ يعني: لتدعوهم إلى الله بالانقطاع عن غيره للوصلة إليه بالتبشير بالوصول، والإنذار عن الانقطاع، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ [النساء:165]؛ أي: للناس ﴿عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:165]، المذكورين لهم بالعهود السابقة والنعم السابقة، بأن يقولوا: إنا نسينا تلك العهود التي جرت بيننا يوم الميثاق، فإن الرسل يذكرونهم، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ﴾ [إبراهيم:5]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:21]، وأيضًا ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [النساء:165] في الانقطاع عن الله، وعن عبوديته بأن يقولوا: كنا مشتاقين إلى لقائك ومحتاجين إلى نعمائك، ولكن لم يكن لنا دليل يدلنا إليك وبيانًا عما لديك يبشرنا بك وبما عندك، ويطعمنا بالوصول إليك وبما عندك، وينذرنا ويخوفنا عن الانقطاع عنك والحرمان عما عندك، فإن من طبيعة الإنسان ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة:16]، فبعث الرسل مبشرين به مطمعين فيما لديه، ومنذرين عن الانقطاع، مخوفين بما أعد لهم من العذاب ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا﴾ [النساء:165]، فيما يعز أوليائه بالوصول، ويتعذر عن إعطائه بالانتقام والانقطاع، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:165]، فيما يحكم على الأولياء والأعداء بحكمته كيف يشاء، وفيما بعث الأنبياء والرسل شرفًا لهم في البعثة، وسعادة للخلق في بعثهم عمومًا، ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ﴾ [النساء:166] لك خاصة، ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:166]، فيما أوحى إليك، ما أوحى سرًا بسر وإضمار بإضمار، ثم بين بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:166]؛ يعني: إنه أنزل إليك القرآن وأنزل في القرآن بعلمه القديم الذي هو غير متناه، وذلك أنه تعالى تجلى له بالصفة العالمية حتى علم بعلمه ما كان وما سيكون، فافهم جيدًا.

﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء: 166 - 170].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:166] على تلك الخلة لك مع الله وإن لم يسبقوك فيها؛ لأنك قد عبرت عليهم بالعروج عند الدخول والخروج، وإن لم يشاهدوا تلك الأحوال ولم يشاهدوا على تلك الأسرار، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:166] عليها جرى فجرى ما جرى عند الانبساط عليّ [بقاب قوسين] أو أدنى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:10].

فظـن خيرًا ولا تسـأل عـن الخبر   قـد كـان مـا كـان سر إلا أبـوح بـه

ثم أخبر عن المحرومين عن هذه القضية والمهمومين بهذه القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:167]، إلى قوله: ﴿يَسِيرًا﴾ [النساء:169]، والإشارة فيها: إن الذين كفروا ستروا الحق إنما ستروا اليوم الحق؛ لأن أرواحهم بقيت مستورة في ظلمة الخلقية عند رشاش النور الربانية، وما أصابهم ذلك النور وإنما صدوا عن سبيل الله؛ لأن نور الله صد عنهم، فانسد عليهم سبيل الله، ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ [النساء: 167] ذلك اليوم عن سبيل الله، ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:167] من ذلك اليوم لا إقبالاً قريبًا من هذا اليوم؛ لأن الضلال اليوم من نتائج ذلك الضلال من ذلك اليوم، وفيه إشارة أخرى وهي: إن الذين كفروا وإن كانوا قد صدوا عن سبيل الله بكفرهم لا ريب في أنهم ضلوا ضلالاً بعيدًا عن الهداية، ولكن يحتمل أن يكون هذا الكفر والصد فيهم عارية، والعارية مردودة فيكمن أنهم في مناسبة ما وقعوا في هذا الكفر، أو بالتقليد أخذوا من آبائهم، وما أخطأهم ذلك النور عند الرشاش، ويرجعون إلى الحق ويؤمنون به كما آمن كثير منهم، ويغفر الله لهم ويهديهم طريق الحق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ [النساء: 168] على أنفسهم بأنواع المعاملات التي تفسد استعدادهم الأصلي وتبطل صفاء أرواحهم بالكل، ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:168] حين رش على الأرواح نور مغفرته، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ [النساء:168] اليوم، ﴿طَرِيقًا﴾ [النساء:168] إلى الحق والقربة، ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء:169]، الفرقة والقطيعة بإتباع الهوى وحب الدنيا،

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 169]، إذ لم يكن فيه ذرة من ذلك النور فيخرجون به من النار، كما قال ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»(1)، وكان ذلك السبب الذي أخلدهم في النار.

ثم أخبر عن صورة ذلك النور في هذا العالم ورشاشته على العالمين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 170]، والإشارة أن الله تعالى جعل ابتداء إصابة النور المرشش على الأرواح بالنبي ﷺ، فعبر عن هذا السر بقوله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري»(2)، وكان ﷺ أكملهم نورًا فشرح الله صدره بذلك النور، فعلى واستعلى النور بإمداد أنوار الوحي حتى أحاط بجميع أجزائه ظاهره وباطنه، فجعله بالكل نورًا كما كان يدعوا الله ويقول: «اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي سمعي نورًا وفي بصري نورًا وعن يميني نورًا وعن شمالي نورًا وأمامي نورًا وخلفي نورًا وفوقي نورًا وتحتي نورًا واجعلني نورًا»(3)، فلما جعله نورًا أرسله إلى الخلق فصار ﷺ صورة ذلك النور الغيبي المرشوش على الأرواح فهو النور المرسل إلى الأجساد، فمن كان قابلاً لإفاضة نور دعوته

---

(1) أخرجه أحمد (5/ 43 رقم 20457) والطبراني كما في مجمع الزوائد (10/ 359)، وابن أبي شيبة (7/ 59، رقم 34193)، وابن أبي عاصم (2/ 403، رقم 837)، والبزار (9/ 122، رقم 3671)، والطبراني في الصغير (2/ 142، رقم 929).

(2) روي في الجزء المفقود من مصنف عبد الرازق حديث رقم (18)، والمطبوع حديثًا بدمشق، وهو حديث صحيح، وقد أورده الشيخ الأكبر قدس سره في كتابه تلقيح الأذهان (مخ بدار الكتب 17أ) بنفس اللفظ، وأخرجه بمعناه الخركوشي في شرف المصطفى (1/ 703) عن علي كرم الله وجهه، وذكره العجلوني في كشف الخفا (1/ 311)، فقال: رواه عبد الرازق بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ، والقسطلاني في المواهب اللدنية (1/ 71)، وقد أفرد الكثير من علماء الإسلام كتبًا خاصة في إثبات أوليته ﷺ وأنه منه خلق الله العوالم بأسرها منها «صلاة الصفا في نور المصطفى» ﷺ لإمام أهل السنة العلامة أحمد رضا خان القادري ﷺ، فضلاً عن مباحث كثيرة في جُل كتب الشمائل، وبينوا وجه الجمع بين الأحاديث الواردة في الأولية، ومن كلامهم: أن الأولية نسبية فكل شيء أول بالنسبة لمن جانسه أو شابهه، ونور سيدنا ومولانا ﷺ هو الأول في الخلق على الإطلاق، وقد أشرنا إلى جملة من ذلك فيما سبق.

(3) أخرجه الطيالسي (ص 353، رقم 2706)، وأحمد (1/ 352، رقم 3301)، والبخاري (5/ 2327، رقم 5957)، ومسلم (1/ 529، رقم 763)، والنسائي (2/ 218، رقم 1121). وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (6/ 29، رقم 29231)، وابن حبان (6/ 362، رقم 2636).

فقد اهتدى، ومن أخطأه فقد ضل، والذي يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ فالنور هو محمد ﷺ ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة:16]، والسلام هو الله تعالى، ﴿فَآمِنُوا﴾ [النساء:170] بمحمد ﷺ اليوم يكن ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء:170] من إصابة ذلك النور المرشش، وأنتم على دين غير دينه؛ لأن بالإيمان يتصل ذلك النور الغيبي بهذا الشاهد المستفاد من الإيمان بمحمد ﷺ فيكون ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35]؛ يعني: إن كان الأنبياء يدلون من الأمم من كان إصابة النور المرشش إلى دار السلام، وهو في متابعتهم يصلون إلى دار السلام، فإن من آمن بالنبي ﷺ وتابعه يصل إلى السلام؛ لأن نوره الغيبي أيد بالنور الشاهدي، فصار أجره كفلين بكفل من أجره ووصل إلى الجنة، وبكفل آخر وصل إلى الله، والذي يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:28]؛ يعني: من آمن من أهل الكتاب اتقوا الله في تكذيب محمد ﷺ، وآمنوا برسوله وهو محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:28]؛ يعني: من النور الذي انعم به عليكم مما أصابكم عند الرشاش حتى آمنتم بأنبيائكم به، كفلا من الإيمان بمحمد ﷺ حتى تصلوا به إلى الله تعالى ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ [النساء:170]؛ يعني: بمحمد ﷺ وتؤمنوا بجميع الأنبياء فلا ينفعكم إيمانكم، وتضرون أنفسكم وفي قوله تعالى:- ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النساء:170]، عقيب قوله ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ [النساء:170]، إشارة إلى: إن ما في السموات والأرض يكون لكم أن تؤمنوا وفي ميزانكم؛ لأنكم بنور الإيمان تشاهدون الآيات الدالة على الوحدانية، كما قيل ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ [النساء:170]، فلم يكن ما في السماوات والأرض لكم ويكون لله وعليكم، فافهم جيدًا.

﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا﴾ [النساء:170]، بأحوال من يصيبه ذلك النور فيؤمن، ومن لم يصبه فيكفر، ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:170]، فيما دبر عند رشاش ذلك النور وأصاب أرواح مؤمني أهل الكتاب على قدر أن يكون لهم كفلاً من الرحمة، وأصاب أرواح المؤمنين بمحمد ﷺ بمقدار ما يكون له كفلين من الرحمة؛ لأنه كان صورة ذلك النور وصورة

الرحمة المهداة إلى الخلق بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: 171 - 172].

ثم أخبر عن أهل الغلو وهم أهل السلو بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء:171]، الإشارة أن الغلو والمبالغة في الدين والمذهب حتى يجاوز حدًا غير مرضٍ، كما أن كثير من هذه الأمة غلوًا في مذهبهم، فمن ذلك مذهب الغلاة من الشيعة على أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حتى ادعوا بإلهيته فقال: الشاعر فيهم:

قوم غلوا في علي لا أبا لهم ... واجتشموا أنفًا في حبه نصبًا

قالوا هو الله جل خالقنا ... عن أن يكون بشيء أو يكون أبا

وكذلك المعتزلة غلوا في التنزيه حتى نفوا صفات الله، وكذلك المشبهة غلوا حتى في إثبات الصفات حتى جسموه، ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً﴾ [الإسراء:43] ولدفع الغلو كان رسول الله ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم»[1]، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ [النساء:171]، وذلك لأن الغلو من العصبية وهي من صفات النفس المذمومة، والنفس هي أمارة بالسوء ولا تأمر إلا بالباطل، والإشارة في قوله تعالى: ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء:171]، إلى ألاَّ تتكلموا في الدين بأمر النفس؛ لأنها لا تأمركم بالقول الحق، ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾

---

(1) أخرجه الطيالسي (ص 6، رقم 24)، والحميدي (1/ 16، رقم 27)، وأحمد (1/ 23، رقم 154)، والدارمي (2/ 412، رقم 2784)، والبخاري (3/ 1271، رقم 3261)، والترمذي في الشمائل المحمدية (1/ 271، رقم 331)، وأبو يعلى (1/ 142، رقم 153)، وابن حبان (14/ 133، رقم 6239) . وأخرجه أيضًا: عبد الرزاق عن معمر في الجامع (11/ 273، رقم 20524) .

[النساء:171] إلا بأمر القلب، فإنه يأمركم بالقول الحق؛ لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن،فلا يأمر إلا بالقول الحق، ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ [النساء: 171] لا ابن الله وهذا هو القول الحق، وكذلك ما قاله عيسى ﷺ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ [مريم:30]، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء:171]، إشارة إلى أن عيسى ﷺ كان يكلمه الله تعالى، وهي قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، بكلمته من غير واسطة أب، فإن تكوين الخلق كلمة بكلمة كن، ولكن بالوسائط بأن يتعلق كن بتكوين الأبناء، فلما كان تعلق أمر كن بعيسى ﷺ في رحم مريم من غير تعلقه بتكوين أب له فتكون عيسى ﷺ بأمركن وكن هي كلمة الله، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء:171]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ﴾ [آل عمران:59]؛ يعني: في التكوين، ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:59]؛ يعني: سوى جسمه من تراب، ثم قال له؛ يعني: عند بعث روحه إلى القلب ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59]، وإنما ضرب مثله بآدم في التكوين؛ لأنه أيضًا تكون بكلمة من غير واسطة أب، وشرف الروح على الأشياء بأنه أيضًا تكون بأمر كن بلا واسطة شيء آخر، فلما تكون بأمر كن يكون كن سمي روح منه؛ لأن الأمر منه كما قال تعالى:﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:85]، وكما أن إحياء الأجسام الميتة من شأن الروح إذ ينفخ فيها، فكذلك كان عيسى ﷺ من شأنه إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص بإذن الله، وكذلك ينفخ في الطين كهيئة الطير فيكون طيرًا بإذن الله.

ثم اعلم أن هذا الاستعداد الروحانية الذي هو من كلمة الله مركوز في جبلة الإنسان وخلق منه؛ أي: من الأمر، وإنما أظهره الله تعالى في عيسى ﷺ من غير تكلف منه في السعي لاستخراج هذا الجوهر من معدنه؛ لأن روحه لم تركض أصلاب الآباء وأرحام الأمهات كأرواحنا، فكان جوهره ظاهرًا في معدن جسمه غير مخفي فيه ببشرية أب، وجوهرنا مخفي في معدن جسمنا ببشرية آبائنا إلى آدم ﷺ، فمن ظهور أنوار جوهر روحه كان الله تعالى يظهر عليه أنواع المعجزات في بدء طفوليته، ونحن نحتاج في استخراج الجوهر الروحاني عن المعدن الجسماني إلى نعل صفات البشرية المتولدة من بشرية الآباء

والأمهات من سعادتنا بأوامر الأستاذ هذه الصفة ونواهيه هو النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:7]، فمن تخلص جوهر روحانيته من معدن بشريته وإنسانيته بكون عيسى وقته فيحيي الله بأنفاسه القلوب الميتة، ويفتح به آذانًا صمًا، وعيونًا عميًا، فيكون في قومه كالنبي في أمته، فافهم جيدًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: 171]؛ يعني: إن أردتم التوحيد الحقيقي فآمنوا بالله الذي خلقكم، وجعل بشريتكم معدن جوهر روحانيتكم، وجعل روحانيتكم معدن جوهر وحدانيته، فبنور وحدانيته يتحقق لكم أن ﴿لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء:171]؛ يعني: نفوسكم والرسول والله تعالى، فتنتهوا بنظر الوحدة عن رؤيته الثلاثة فيكشف لكم ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء:171]؛ أي: إن يتولد من وحدانيته شيء ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء:171]، إيجادًا واقتدارًا، وبه ظهر ما ظهر ومنه صدر ما صدر، وليس لشيء وجود حقيقي، وله الوجود الحقيقي القائم الدائم أولاً وآخرًا، أو ظاهرًا وباطنًا، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:88]؛ وهو الوكيل لكل هالك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:171].

ثم أخبر عمن يتفاخر بربوبيته وعمن يستنكف عن عبوديته بقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:172]، إلى قوله: ﴿وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ [النساء:173]، والإشارة فيها: لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله؛ لأن العبدية كانت من شأنه في رضاعه، وإن نطق بها قبل أوان نطقه بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ [مريم:30]، و«عَادَةٌ تَرَضَّعَتْ بِرُحِها تَنَزَّعَتْ»[1]، وكيف يستنكف عن عبوديته وقد أثر عليه آثار ربوبيته بإحياء الموتى، وإبراء الزمني قال تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:172]، ما ذكرهم للفضيلة على عيسى عليه السلام وإنما ذكرهم لأن بعض الكفار قالوا بنات الله، كما قالت النصارى المسيح ابن الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ

(1) انظر: مجمع الأمثال للميداني (2/ 55).

الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم:21-22]، بل فضل الله تعالى المسيح ﷺ عليهم بتقديم الذكر؛ لأن المسيح نسب إليه بالبنوة ونسبت الملائكة إليه بالبنتية، وللذكر فضيلة وتقدم على الإناث كقوله تعالى: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 176]، فقدم الذكر على الأنثى وجعل له سهمين وللأنثى واحدًا، فكما أن للذكر فضيلة على الأنثى، فكذلك للمسيح فضل على الملائكة، وفضيلته على الملائكة أكثر وأعظم، يدل عليه ما صح عن جابر عن عبد الله ﷺ أن الله تعالى لما خلق آدم ﷺ وذريته قالت الملائكة: يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، قال الله تبارك وتعالى: «لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فيكون»(1).

قال الشيخ المصنف- رحمه الله- وهذا من فضيلة عيسى ﷺ، فافهم جيدًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾ [النساء:172]، الإشارة: إن المستنكف والمستكبر والمؤمن والولي والنبي محشرهم ومرجعهم إليه جميعًا، كما صرح به بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [لقمان:15]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:8]، فالولي مرجعه إلى لطف الله ورحمته، والعدو مرجعه إلى قهر الله وعقوبته، وصورتها الجنة والنار.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً (175)﴾ [النساء: 173 - 175].

كما أخبر بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء:173] بالعبودية، ﴿وَعَمِلُوا

(1) حديث جابر: أخرجه الديلمي (3/ 421، رقم 5289)، وابن عساكر (34/ 110).

حديث عمرو بن عروة بن رويم عن الأنصاري: البيهقي في شعب الإيمان (1/ 172، رقم 149).

الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء:173] للتقرب إلى حضرة الربوبية، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: 173] بجذبات العناية، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:173] بتجلي صفات الإلوهية، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا﴾ [النساء:173]، عن أقسام الناسوتية، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ [النساء: 173] عن الانمحاء للاهوتية، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:173] في دركات من الحرمان عن الحضرة الربانية، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [النساء:173] اليوم وليًا؛ ليخرجهم من الأنانية إلى نور الربوبية، ومن الحرمان عن الحضرة الربانية، ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:173] ينصرهم على قمع النفس والهوى للوصول إلى المولى.

ثم أخبر عن نصرة وليِّه ببعثة نبيه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء:174]، إلى قوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:175]، والإشارة فيها: إن الله تعالى أعطى لكل نبي آية وبرهانًا ليقيم به الحجة على الأمة، وجعل نفس النبي ﷺ برهانًا منه وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء:174] وذلك؛ لأن برهان الأنبياء عليهم السلام كان في الأشياء الخارجة عن أنفسهم، مثل ما كان برهان موسى عليه السلام في عصاه في الحجر التي ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:60] وكان نفس النبي ﷺ برهانًا بالكلية، وكان برهان عينه ما قال ﷺ: «لا تسبقوني بالركوع والسجود فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي»[1]، وبرهان بصره: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم 16- 17]، وبرهان أنفه: إنه قال ﷺ: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن»[2]، وبرهان بصاقه: قال جابر رضي الله عنه أمرنا ﷺ يوم الخندق: «لا تخبزن عجينكم ولا تنزلن برمتكم حتى أجيء فجاء فبصق في العجين وبارك فأقسم بالله أنهم لأكلوا وهم ألف حتى تركوه وانصرفوا»[3]، وإن برمتنا لتغط؛ أي: تغلي وإن عجيننا ليخبز كما هو، وبرهان تفله: إنه تفل في عين علي رضي الله عنه وهي ترمد فبريء بإذن الله تعالى يوم خيبر، وبرهان يده: ما قال الله تعالى:

---

(1) أخرجه النسائي (2/ 91، رقم 813)، وأبو يعلى (6/ 46، رقم 3291)، وأبو عوانة (1/ 380، رقم 1376) . وأخرجه أيضًا: أحمد (3/ 268، رقم 13865) .

(2) أخرجه الطبراني (7/ 52، رقم 6357).

(3) رواه البخاري (4102)، ومسلم (5436)، والحاكم (4342).

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17]، وإنه سبح الحصى في يده، وبرهان أصبعيه: إنه أشار بأصابعه إلى القمر فانشق فلقتين حتى رؤي حراء بينهما، وبرهان بين أصابعه: إنه كان الماء ينبع من بين أصابعه حتى شرب منه ورفعه خلق عظيم، وبرهان صدره: إنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل، وبرهان قلبه: إنه تنام عينه ولا ينام قلبه، وقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:11]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193-194]، وأمثال هذه البراهين كثيرة، فمن أعظمها أنه عرج إلى السماء حتى جاوز قاب قوسين وابلغ أو أدنى وذلك برهان لنفسه بالكلية، وما أعطى نبي قط وكان بعد أن أوحى إليه ما أوحى أفصح العرب والعجم وكان من قبل أميًا لا يدري ما الكتاب والإيمان، فأي برهان أقوى من هذا وأوضح وأظهر، وأن الله تعالى أكرم هذه الأمة به ومن عليهم به فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء:174]، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ [النساء:174]؛ يعني: مع هذا البرهان الواضح ﴿نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء:174]؛ وهو القرآن سماه نورًا؛ لأنه من صفاته القديم الذي به يهتدي إلى الصراط المستقيم؛ وهو صراط الله العظيم وكلمته التي بنورها اهتدى الأشياء من العدم إلى الوجود كما يهتدي بالنور، يدل عليه سياق الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ﴾ [النساء:175] إيمانًا حقيقيًا بنور الله لا بالتقليد، ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ [النساء:175]؛ أي: وتخلقوا بخلق القرآن فهو الاعتصام به على التحقيق ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ [النساء:175]؛ يعني: بجذبات العناية يدخلهم في عالم الصفات، فإن رحمته صفته ﴿وَفَضْلٍ﴾ [النساء:175]؛ أي: في فضل إذ هو أيضًا صفته لأنه ذو الفضل العظيم، ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ [النساء:175]؛ يعني: بنور القرآن وحقيقة التخلق بخلقه، ﴿إِلَيْهِ﴾ [النساء:175]؛ أي: إلى الله ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:175]؛ وهو في الحقيقة صراط أنزل به القرآن فبالاعتصام به يصعد السالك بهذا الصراط المستقيم إلى حضرة الله الحليم الكريم، فافهم جيدًا.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا

إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [لنساء: 176].

ثم أخبر عن الاستفتاء عن أهل البقاء بعد الإخبار عن أهل الفناء بقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:176]، والإشارة: إن الله تعالى لم يكل بيان قسم التركات إلى النبي ﷺ مع أنه تعالى وكل بيان أركان الإسلام من الشهادة والصلاة والزكاة والحج إليه ﷺ وأحكام الشريعة ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:7]، وولاه ببيان القرآن العظيم، وقال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:44]، وتولى قسم التركات بنفسه جل جلاله كما قال ﷺ: «إن الله لم يرض بملك مقرب ولا نبي مرسل»[1]، حتى تولى قسم التركات وأعطي كل ذي حق حقه، إلا فلا وصية للوارث، وأنتم لم توله قسم التركات؛ لأن الدنيا مزينة للناس، والمال محبب إلى الطباع، وجبلت النفوس على الشح، فلو لم ينص الله على مقادير الاستحقاق وكان القسم موكولاً إلى النبي ﷺ لعل الشيطان أوقع في بعض النفوس كراهة عن النبي ﷺ لذلك فيكون كفرًا، كقوله:ﷺ «لا يكون بعدكم مؤمنًا حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» كما أوقع في نفوس بعض شبان الأنصار يوم حنين أفاد الله ورسوله أموال هو أذن وصفق النبي ﷺ يعطي رجلاً من قريش المائة من الإبل كل رجل منهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس رضي الله عنه فحدث رسول الله ﷺ مقالهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم ولم يدع أحدًا من غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم كذا وكذا الذي» قالوا: فقال النبي ﷺ: «إنّي أعطي

---

(1) أخرجه أحمد (3/ 177، رقم 12837)، وعبد بن حميد (ص 355، رقم 1175)، والبخاري (1/ 14، رقم 15)، ومسلم (1/ 67، رقم 44)، والنسائي (8/ 115، رقم 5014)، وابن ماجه (1/ 26، رقم 67)، والدارمي (2/ 397، رقم 2741)، وابن حبان (1/ 405، رقم 179).

رِجَالاً حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ الله – صلى الله عليه وسلم –، فَوَاللهِ مَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» . قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ رَضِينَا – صلى الله عليه وآله وسلم –»[1] فأزال ما وقع الشيطان في نفوسهم بهذه اللطائف، فلو كان قسم التركات إليه لكان كلهم للشيطان إلى آخر الدنيا، أن يوقع الشر في نفوس الأمة ولم يمكن إزالته عن النفوس لتعذر الوصول إلى الخلق في حال الحياة وبعد الوفاة، فتولى تعالى ذلك؛ لأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:11]، ولعباده غفور رحيم، فختم تلك الجملة بما نص على المقادير في الميراث فضلاً منه وقطعًا لمواد الخصومات بين ذوي الأرحام، ورحمة على النسوان في التوريث لضعفهن وعجزهن على الكسب، وإظهار التفضيل للذكور عليهن في دينهن وتبيانًا للمؤمنين؛ لئلا يضلوا بظن السوء بالنبي ﷺ ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:176].

تم ما كتب على سورة النساء بحمد الله الملك المنان

(1) رواه البخاري (3147).

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)﴾ [المائدة: 1-2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(1) [المائدة: 1]، والإشارة أن سماع اسم: «الله» فهو اسم ذات الألوهية يوجب الهيبة والعظمة والفناء والغيبة من شأنها، وسماع: «الرحمن الرحيم»، وهما من صفات لطفه يوجب الحضور والأوبة، ومن شأنها البقاء والقربة، فمن أسمعه: بسم الله غيبه في كشف جلاله، ومن أسمعه: «الرحمن الرحيم» غشيه بلطف أفضاله، ثم خاطبهم بخطاب الأولياء وعاتبهم عتاب الأحباء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالتوحيد عند امتحان ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]؛ إذ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172] ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1] التي جرت بيننا يوم الميثاق ليوم التلاق، وهذه عهود أهل الوفاق والنفاق أوفوا بالعهود أيها العشاق وعهود قبل وجودهم وإشهادهم وبشهودهم وعقودهم على بذل وجودهم لنيل مقصودهم عاقدوا على

(1) الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومُكابدة، فمَن عقد عقدة مع ربه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكمْ بالاستماع والاتّباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أُحِلَّت لكم الأشياء كلها تتصرّفون فيها بهِمّتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المُكوِّن كانت الأكوان معكم، إلا ما يُتلَى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهِمَم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير مُتَعَرِّضين لشهود السِّوى، وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (2/ 28)].

عهدهم، يحبهم ويحبونه ولا يحبون معه دونه، فالوفاء بالعهد الصبر على الجفاء والحمد فمن صبر على عهوده فقد فاز بمقصوده عند بذل وجوده.

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة:1] أي: ذبح بهيمة النفس التي هي كالأنعام في طلب المرام، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:1] يعني: أيتها النفس المطمئنة التي تُليت عليها: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، فإنها تنفرت من الدنيا وما فيها فإنها كالضيف في الحرم وأنتم حرم بالتوجه إلى كعبة الوصال بإحرام الشوق إلى حضرة الجمال، والجمال متجردين من كل مرغوب ومربوب متفردين من كل محبوب ومطلوب.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾ [المائدة:1] بذبح النفس إذا كانت موصوفة بصفة البهيمية ترتع في مراتع الحيوان السفلية، ويحكم بترك ذبحها ويخاطبها بالرجوع إلى حضرة الربوبية عند اطمئنانها مع الحق واتصافها بالصفات العلوية لمن يريد ﴿مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:1].

ثم أخبر أن تعظيم الشعائر من صدق الضمائر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة:2]، والإشارة مع سلاطين الدين وملوك السلوك الذين خرجوا عن أوطان الأوطان وسافروا عن ديار الأغيار وسلكوا بوادي الشهوات، وعبروا عن منازل المهلكات، وتجردوا عن حظوظ الدنيا، وتفردوا لحقوق العقبى وأحرموا لطواف كعبة المولى، فقال: يا أيها الذين آمنوا بشهود القلوب لقصد زيارة المحبوب لا تحلوا شعائر الله مناسك الوصول إلى الله تعالى، فهي معالم الدين والشريعة وآداب الطريقة بإشارة أرباب الحقيقة فإنهم أولى بهذا الطريق وحضراء هذا الفريق.

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة:2]، إشارة إلى تعظيم عظمة الله تعالى من الزمان والمكان والإخوان، ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:2]، وهم القاصدون إلى الله تعالى، الصادقون في طلب الله، عليكم بالرفق في مرافقتهم والتزام الصدق في موافقتهم، ﴿يَبْتَغُونَ﴾ [المائدة:2] الوصول، ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة:2]، رافقوهم وكونوا إخوانًا، أهدوا للقربان نفوسهم وقلدوها بلحاء الشجرة الطيبة ليأمنوا من مكر الأعداء الخبيثة، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ [المائدة:2]، لإتمام الحج وقضاء مناسك الوصول، ﴿فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:2]، أرباب الطلب بشبكة الدعوى إلى الله تعالى.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة:2]، يعني: لا يحملنكم حسد الحساد وقصد القضاء والذين يريدون أن يصدوكم عن الحق ويمنعوكم بالحسد عن دعوة الحق ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:2]، على الطالبين الصادقين بالبعد عنهم وردهم عن الإرادة فتكونوا قطاع الطريق في طلب الحق.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾ [المائدة:2]، وهو التفرد للحق بما شرح الله تعالى صدره؛ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177].

﴿وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:2]، وهو الخروج عما سوى الله؛ فإن الوصول لا يمكن إلا بها، ولهذا قال من قال: خطوتان وقد وصلت ولا يمكن للمريد الصادق أن يتحلى بهاتين الخطوتين إلا بمعاونة شيخ كامل مكتمل واصل موصل.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ [المائدة:2]، بالتهاون في دعوة العوام وتربية الخواص من الطلبة، ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:2]، بأن تكلوهم إلى أنفسهم في إضاعة بضاعتهم وإفساد استعدادهم، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة:2]، في القيام بحقوق التعظيم لأمر الله ورعاية حقوق الشفقة على خلق الله، ﴿إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:2]، لمن يعاقبه بالخذلان ويعاقبه بالهجران.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: 3 – 4].

ثم أخبر عن الحرام على الخواص والعوام بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْـمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: 3]، والإشارة أن ظاهرها كما كان خطابًا لأهل الدنيا والآخرة فباطنها عتاب لأهل الله وخاصته حرمت عليكم يا أهل الحق الميتة فهي الدنيا بأسرها، ﴿وَلَحْمُ الْـخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: 3]، يعني: حلالها وحرامها قليلها وكثيرها وذلك لأن من الدم ما هو حلال والخنزير كله حرام، والدم بالنسبة إلى اللحم قليل واللحم بالنسبة إلى الدم كثير.

﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ﴾ [المائدة: 3]، يعني: كل طاعة وعبادة وقراءة ودراسة ورواية يظهرون به لغير الله، ﴿وَالْـمُنْخَنِقَةُ وَالْـمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: 3]، يعني: الذين يخنقون نفوسهم بالمجاهدات ويقذونها بأنواع الرياضات نبهها عن المرادات وزجرها عن المخالفات للرياء والسمعة، ﴿وَالْـمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾ [المائدة: 3]، الذين يتردون بنفوسهم من أعلى عليين إلى أسفل السافلين بالتناطح مع الأقران، والمماراة مع الإخوان، والتفاخر بالعلم والزهد بين الإخوان.

وفي قوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 3]، إشارة إلى أن فيما يحتاجون إليه من القوة الضرورية كونوا محترزين من أكلة السباع وهم الظلمة الذين يتهارشون في جيفة الدنيا تهارش الكلاب، ويتجاذبون بمخالب الأطماع الفاسدة، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ بالكسب الحلال ووجه صالح بقدر ضرورة الحال.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: 3]، فيه يشير إلى ما تذبح عليه النفوس بأنواع الجد والاجتهاد من المطالب الدنيوية والأخروية، ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: 3]، يعني: أن تكونوا مترددين نقالين في طلب المرام متقين بحصول المقصود، متهاونين في بذل الوجود فإذا انتهيتم عن هذه الدواعي وأخلصتم لله في الله وخرجتم عن سجن الأنانية وسجن الإنسانية بجذبات الربانية؛ فقد عاد ليلكم نهارًا وظلمتكم أنوارًا.

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 3]، من النفس وصفاتها والدنيا وشهواتها، ﴿مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 3]، وتيقنوا أن ما بقي لكم الرجوع إلى ملتهم والصلاة إلى قبلتهم، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [المائدة: 3]، فإنكم خلصتم من شبكة مكائدهم ونجوتم من عقد مصائدهم، ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 3]، أي: فإن كيدي متين وصيدي مبين وبطشي شديد،

وحسبي مديد، ثم أخبر عن إكمال الدين وإجلال أهل اليقين بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3]، والإشارة أن اليوم إشارة إلى الأزل، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(1) أي: جعلت الكمالية الآن بإظهار رؤيتكم على الأديان كلها في الظاهر وأنا في الحقيقة، وسيجيء شرحه إن شاء الله.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]، تستكملون به إلى الأبد بحيث من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه، وذلك لأن حقيقة الدين الذي هو سلوك سبيل الله ﷻ بعدم الخروج عن الوجود المجازي للوصول إلى الوجود الحقيقي، وأن الإنسان مخصوص به من سائر الموجودات، ولهذا الآية اختصاص بالكمالية في السلوك من سائر الأمم خالدين في عهد آدم عليه السلام كان من التكامل بسلوك الأنبياء عليه سبيل الحق إلى عهد النبي ﷺ وكل نبي سلك في الدين مسلكًا أنزله بقربة من مقامات القرب؛ لكن بإخراج أحد منهم بالكلية عن الوجود المجازي للوصول إلى الوجود الحقيقي بالكمال فقيل للنبي ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90]، فسلك النبي ﷺ جميع المسالك التي سلكها الأنبياء عليهم السلام أجمعين فلم يتحقق له الخروج أيضًا بقدم السلوك عن الوجود المجازي بالكلي حتى تداركته العناية الأزلية لاختصاصه بالمحبوب، وبجذبات الربوبية أخرجه من الوجود المجازي ليلة أسرى بعبده وأعطاه ما تميز به عن الأنبياء كلهم وبلغ في القرب إلى الكمالية في الدنو وهو سر أو أدنى فاستسعد بسعادة الوصول إلى الوجود الحقيقي في سر فأوحى إلى عبده ما أوحى.

وفي الحقيقة قيل له في تلك الحالة: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:3]، ولكن في حجة الوداع يوم عرفة عند وقوفه بعرفات أظهر على الأمة عند

---

(1) إكماله الدين -وقد أضافه إلى نفسه: صَوْنُه العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أثلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور، ويقال: إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ في المآل، كما أن ابتداءَ الدِّين توفيقُ الحصول في الحال: فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول، ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق سبحانه من أوصافه، وقد علَّمك، ويقال: إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته -على التفصيل- أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار. [تفسير القشيري (86/2)].

إظهاره على الأديان كلها وظهور كمالية الدين نزول الفرائض والأحكام بالتمام فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

ويدل على هذا التأويل ما روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل ابتنى بيوتًا فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون حولها ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت هذه اللبنة، فتم بناؤها، فقال محمد:ﷺ فأنا اللبنة»[1]، متفق على صحته.

فصح ما قررناه من مقامات الأنبياء - عليهم السلام - تكامل الدين بهم وكماله بالنبي ﷺ بخروجه عن الوجود المجازي بالكلية وأن الأنبياء لم يخرجوا عنه بالكلية.

ويدل على هذا المعنى أيضًا أن الأنبياء كلهم يوم القيامة يقولون: نفسي نفسي لبقية الوجود، والنبي ﷺ يقول: أمتي أمتي؛ لفناء الوجود، فافهم جيدًا.

ومن كرامة هذه الأمة لشركهم في كمالية الدين مع النبي ﷺ فخوطبوا بمتابعة النبي ﷺ، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3]، ليعلم أن الكمالية فيه مشتركة بينهم لا يتهاونون في طلبها، وقال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:3]، وهي أسباب تحصيل الكمال ومعظمها بعثة النبي ﷺ، وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]، وهو استسلام الوجود المجازي إلى النبي ﷺ وإلى خلفائه بعده ليطرح عليه إكسير المتابعة فيبذل الوجود المجازي المجيء بالوجود الحقيقي المحبوبي، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:31]، يعني: ويغفر الوجود الحقيقي ذنوب الوجود المجازي، فافهم جيدًا وانتبه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة:3]، فمن ابتلي بالالتفات إلى شيء من الدنيا والآخرة مضطرًا إليه فهو في غاية الابتلاء وكثير التربية، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة:3]، غير قابل إليه بالإعراض عن الحق؛ ولكن فترة تقع للصادقين أو وقفة تكون للسالكين ثم يتداركون بصدق الالتجاء إلى الحق وأرواح المشايخ والاستغاثة بهم وطلب

(1) رواه مسلم في «صحيحه» (15/ 202)، والبيهقي في «الشعب» (4/ 17).

الاستغفار عن ولاية النبوة وإعانته، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ [المائدة:3]، لما ابتلاهم به، ﴿رَحِيمٌ﴾ [المائدة:3]، بهم بأن يهديهم إلى الصراط المستقيم بإفاضة الدين القويم.

ثم أخبر عما أحل من الطيبات ومن المحصنات المؤمنات بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة:4]، والإشارة أن أرباب الطلب وأصحاب السلوك يسألونك ماذا أحل لهم؛ إذ حرم عليهم الدنيا والآخرة كما قال ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا»(1)، وهما حرمان على أهل الآخرة، ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾(2) [المائدة:4]، وهي ما لا يقطع عليكم طريق الوصول إلى الله تعالى، فإن الله

---

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 410)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (3/ 184).

(2) قال العارف البقلي في العرائس: هذا خطاب أهل المشاهدة، أي: إذا وصلتم مقام المشاهدة فلا تميتوا قلوبكم بالمجاهدة، فإن المجاهدة للنفوس، والمشاهدة للقلوب، وإذا ظهرت المشاهدة للقلوب فلا يبقى فيها للنفوس أثر، وأعلم بذلك تعالى أهل قربه الذين بلغوا مقام الأنس والبسطان ما يجري في قلوبهم من ذكر بدايتهم في ترك الطيبات من القوت واللباس، لا يجوز في هذه المقامات الرجوع إلى البدايات، فإن هاهنا لا يليق مجاهدة النفس بهم؛ لأنهم يذوبون في روح الأنس ونور البقاء، وهم في ذلك عرائس الله يبيح لهم ما لا يبيح للمريدين من أكل الطيبات ولبس الناعمات لبقائهم في الدنيا ولا يحترقون بواردات الوجد. ألا ترى أن سبب نزول هذه الآية اجتماع أخيار الصحابة مثل: عثمان بن مظعون، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسالم مولى حذيفة، والمقداد بن أسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن على ترك النساء والطيب واللحم، واختاروا صوم الدهر، وقيام الليل، والسياحة في الأرض والرهبانية، ولبس المنسوج، ورفض الدنيا كلها، فنهاهم الله ورسوله عن ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾ [المائدة: 87]. وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقًا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقومُ وأنامُ، وأصومُ وأفطرُ، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، ومَنْ رَغِبَ عن سنَّتي فليس منِّي»، بيّن ذلك ألا يجوز لأهل الحقائق والمشاهدات أن يرجعوا إلى مقام البدايات.

وتصديق هذه المعاني الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 88] الحلال ما وصل إلى العارف من خوان الغيب بلا كلفة إنسانية، والطيب ما يقوّي قلبه في شوق الله وذكر جلاله بالتسرمد.

قال سهل في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾: هو الرفق بالأسباب من غير طلب، ولا إشراف نفس، وقد يبدأ الرفق بالسبب لأهل المعرفة على الظاهر وهم يأخذونهم من المسبب بالحقيقة.

قال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركةٍ منك ولا استشرافٍ، وهو الطلب الحلال يحلك محل الدعة ويطيب قلبك بتناوله.

طيب لا يقبل إلا الطيب فكل مأكول ومشروب وملبوس ومقول ومفعول ومعمول طلبتموه بحظ من الحظوظ فقد لونتموه بلون دواعي الوجود فهو من الخبيثات لا يصلح إلا للخبيثين وما طلبتموه بالحق للقيام بأداء الحقوق مطيبًا بنفحات الشهود فهو من الطيب لا يصلح إلا للطيبين.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة:4]، يشير إلى النفوس المعلمة بعلوم الشريعة المؤدبة بآداب الطريق المنورة بأنوار علوم الحقيقة التي تكشف لأسرار الصديقين بتجلي صفات العالمية وهي العلوم اللدنية التي يعلمها الله أخص الخواص من عباده كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65].

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:4]، يشير إلى تناول ما اصطاد نفوس المطمئنة من عالمي الغيب والشهادة بالأمر لا بالطبع فما أمسكن بالقيام للحقوق لا عليهن للقيام بالحظوظ، ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:4]، يعني: واذكروا عند تناول كل ما ورد عليكم من الأمور الدنيوية والأخروية اسم الله عليه ولا تتصرفوا فيه إلا لله بالله في الله، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة:4]، أي: اتقوا به عما سواه: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة:4]، يحاسب العباد على أعمالهم قبل أن يفرغوا منها ويجازيهم في الحال بالإحسان إحسان القربة ورفعة الدرجة، وجذبة العناية وبالإساءة إساءة العبد والطرد إلى الشغل والخذلان.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ

وقال الأستاذ: مما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك أن تستبدل تلك الحال بالخلطة دون العزلة، والعشرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم، والخسران المبين ذكره في تفسير قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ﴾ وقال في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: الحلال الصافي أن يأكل ما يأكل على شهوده، فإن نزلت الحالة عن هذا فعلى ذكره، فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة، ولي في الحلال والحرام لطيفةٌ، وهي أن الحلال الذي يراه العارف في خزانة القدرة، فيأخذ منها بوصف الرضا والتسليم، والحرام ما قدر لغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه لقلة عرفانه بالمحذر في المقدر، وهذا العلم غير موازنٍ في العقول، وما لم يكن مرضيًا في الشريعة لم يكن مرضيًا في المعرفة، ولمّا قوي العباد بنسائم لطفه وغذاهم من موائد قربه، ورماهم بشهيات نعمه، دعاهم بعد ذلك إلى طاعته وطاعة رسوله؛ لئلا يسقط عليهم آداب الحضرة وعلامات العبودية وظرافة الخدمة.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: 5 - 6].

ثم قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:5]، وكرر فيه القول وفائدة التكرار، يعني: أحل لكم ما أحل لكم يا أرباب الحقيقة اليوم الذي قدر كمالية الدين لكم في الأزل من جميع الطيبات التي تتعلق بسعادة الدارين بل أحل التخلق بأخلاق الطيبات وهي أخلاق الله تعالى المتنزهات عن الكميات والكيفيات المتنزهات من النقائص والشبهات، ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة:5]، وفي الحقيقة هم الأنبياء عليهم السلام.

﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة:5]، أي: غذيتم بلبان الولاية كما غذوا بلبان النبوة عن حكمي الشريعة والحقيقة، ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة:5]، يعني: منبع لبن النبوة بالولاية واحد فإن كان الثدي اثنين، فشربتم بشراب ألطافنا من مشرب الولاية، وشرب الأنبياء ألبان أفضالنا من مشرب النبوة، قد علم كل أناس مشربهم، والنبي ﷺ شركة في المشارب كلها وله اختصاص في مجلس المقام المحمود من المحبوب بمشرب «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1]، لا يشاركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿وَ﴾، [المائدة:5]، كذلك أحل لكم، ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [المائدة:5]، وهي أبكار حقائق القرآن

(1) رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (2/ 463).

التي أحصنت من قيام الأرواح المؤمنات بها وهي أرواح العلماء وخواص الأمة.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:5]، وهي أبكار حقائق الكتب المنزلة على الأمم السابقة التي أحصنت من الذين أنزلت عليهم الكتب وأدرجت في القرآن نور خفيته لكم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ [السجدة:17]، يعني: في القرآن من قرة أعين وهي أبكار حقائق جميع الكتب المنزلة، فافهم جيدًا فكلها معدة لكم.

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:5]، أي: صور هذه الأبكار وهي بذل الوجود ﴿مُحْصِنِينَ﴾ [المائدة:5]، متعففين في بذل الوجود ليكون على وجد الحق بتصرف المشايخ الواصلين، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [المائدة:5]، على وفق الطبع وخلاف الشرع وبتصرف الهوى، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:5]، يعني: في بذل الوجود لا يكون عند فناء إلى شيء من الكونين ولا إلى أحد في الدارين سوى الله تعالى ليكون هو المشرب ومنه الشراب وهو الحريق والشافي.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ [المائدة:5]، بهذه المقامات والكمالات إذ حرم عن العيان من هذه العادات، ﴿ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:5]، الذي عمل على العماء والتقليد، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:5]، الذين خسروا الدنيا والعقبى والمولى.

ثم أخبر عن أسباب القعود إلى هذه المقامات وآداب القيام إلى الصلاة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة:6].

والإشارة فإن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا خطاب مع الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا عند خطاب: ألست بربكم، بقول: بلى، وهم أهل الصدق الأول يوم الميثاق آمنوا بعدما عاينوا، وأهل الصف الثاني آمنوا إذا شاهدوا، وأهل الصف الثالث آمنوا إذا سمعوا الخطاب، وأهل الصف الرابع آمنوا تقليدًا لا تحقيقًا؛ لأنهم ما عاينوا ولا شاهدوا ولا سمعوا خطاب الحق بسمع الفهم والدراية؛ بل سمعوا سماع الفهم والنكابة فتحيروا في الجواب حتى سمعوا جواب أهل الصفوف الثلاثة إذ قالوا: بلى، فقالوا بتقليدهم بلى فلا جرم بهذا ما آمنوا وهم الكفار وإن آمنوا ما آمنوا على التحقيق؛ بل بالتقليد أو بالنفاق وهم المنافقون، وأهل الصف الثالث هم عوام المسلمين فكما آمنوا هناك

بسماع الخطاب فكذلك هنا آمنوا بالسماع بقوله: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران:193].

وأهل الصف الثاني هم خواص المؤمنين فكما آمنوا هناك؛ إذ شاهدوا فكذلك هنا آمنوا بشواهد المعرفة كما قال تعالى: ﴿وإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [المائدة:83]، ومن هنا قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه، وأهل الصف الأول وهم الأنبياء وخواص الأولياء فكما آمنوا هناك إذ عاينوا فكذلك آمنوا هنا إذا عاينوا كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: 285]، وذلك في ليلة المعراج إذا أوحى إلى عبده ما أوحى، قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة:285].

وكان إيمان موسى عليه السلام نوعًا من هذا، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:143]، فقال علي رضي الله عنه: «لم أعبد ربًا لم أره» قال بعضهم: رأى قلبي ربي، وقال آخر: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله قبله، فخاطب أهل الصف الأول: يا أيها الذين آمنوا تحقيقًا ثم أهبطوا عن ممالك القرب إلى مهالك البعد، ومن رياض الأنس إلى سباخ الإنس، ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ من نوم الغفلة وانتبهتم من رقدة الفرقة، ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ هي معراجكم للرجوع إلى مقام قربكم، كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:19].

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:6] التي توجهتم بها إلى الدنيا ولطختموها بالنظر إلى الأغيار بماء التوبة والاستغفار، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:6] أي: واغسلوا أيديكم عن التمسك بالدارين والتعلق بما في الكونين حتى الصديق الموافق والرفيق المرافق، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:6]، ببذل نفوسكم، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:6] أي: واغسلوا أرجلكم عن طين طينتكم والقيام بأنانيتكم.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ [المائدة:6]، بالتفات إلى غيرنا، ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:6]، بالنفوس عن المعاصي وبالقلوب عن رؤية الطاعات، وبالأسرار عن رؤية الأغيار، وبالأرواح عن الاسترواح عن غيرنا، وبسر الستر عن لون الوجود، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ [المائدة:6]، من حب الدنيا، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [المائدة:6]، في متابعة الهوى، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة:6]، في قضاء حاجة شهوة من الشهوات، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ

النِّسَاءَ﴾ [المائدة:6]، وهي الدنيا في تحصيل لذة من اللذات، ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [المائدة: 6]، التوبة والاستغفار، ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:6]، فتمرغوا في تراب أقدام الكرام فإنه طهور الذنوب العظام، ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [المائدة:6]، أي: تراب أقدامهم وشمروا بخدمتهم﴿وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة:6]، لأن فيه شفاء لقساوة القلوب ودواء لمرض الذنوب، ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:6]، بهذه الذلة والصغار، ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (1) [المائدة:6]، من الذنوب الكبار وأكبر الكبائر الشرك بالله وأعظم الشرك شرك الوجود مع وجود المعبود، وهذا ذنب لا يغفر إلا بالتمرغ في هذا التراب ولوث لم يُطهر إلا بالالتجاء إلى هذه الأبواب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:6] بعد ذوبان نحاس أنانيتكم بنار تصرفات هممهم العالية بطرح إكسير أنوار الهوية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:8]، إذ تهتدون بأنوار الهوية إلى رؤية أنوار المنعم.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة: 7 – 9].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾ [المائدة:7]، التي أنعم بها، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:7]، في بدء الوجود بإخراجكم من ظلمة العدم إلى نور الوجود قبل كل موجود وخلقكم في أحسن التقويم بقول الدين القويم، وهداكم إلى الصراط المستقيم، واستماع خطاب ألست بربكم وجواب بلى، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المائدة:7]؛ أي: العهد الذي عاهدكم به على التوحيد والعبودية ووفقكم للسمع والطاعة ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:7]، ولو لم

(1) يعني: يطهركم من أحوالكم وأخلاقكم وأفعالكم، لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلق بسبب من الأسباب، والطهارة على سبعة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية، وطهارة اليقين من الشك، وطهارة العقل من الحمق، وطهارة الظن من النميمة، وطهارة الإيمان مما دونه، ولكل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب؛ فإنها قسوة. [تفسير التستري (24/1)].

تكن نعمة التوفيق لقلتم سمعنا وعصينا كما قال أهل الخذلان في العصيان ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة:8]، أي: اتقوا بالله عن غير الله ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة:7]، أي: بالقلوب وما فيها من الاتقاء عن الأشياء.

ثم أخبر عن طريق الاتقاء وترك الالتجاء بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ﴾ [المائدة:8]، والإشارة أن الخطاب في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا مع أهل الصف الأول في الميثاق الذين آمنوا بالعيان لا بالبيان كونوا قوامين، ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:8]، فالأمر أمر التحويل والتكوين فكما خوطبوا وأمروا أن يكونوا فكانوا قائمين بالحق ناطقين بالحق شاهدين بالحق ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8]، فيه معنيان أحدهما: لا يحملنكم عداوة الشيطان والنفس والهوى والدنيا على أن تظلموا وتجوروا على أنفسكم بالظلم على المسلمين، فإن الشيطان من شيمته العداوة فلا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ولا يضركم على أنفسكم في الدنيا والآخرة والنفس من طباعها أنها أمارة بالسوء فهي أعدى الأعداء، والهوى من شأنه أن يضلكم عن سبيل الله، والدنيا قد زينت لأربابها وهي رأس كل خطيئة فلا يحملنكم شنآن هذا القوم على أن تعدلوا والمعنى العالي، ولا يحملنكم حسد الحساد وعداوة الأعداء على أن تعدلوا مع أنفسكم وتظلموها بمنازعة الحساد ومناسبة الأعداء فتقعوا في ورطات الهلاك ويغلب عليكم الصفات السبعية والشيطانية.

﴿اعْدِلُوا﴾ [المائدة:8]، هذا أيضًا من التلوين للقوامين بالقسط فلا يسعهم إلا العدل، وهو القيام بالاعتدال الحقيقي في العبودية والاستواء على سمت الربوبية ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:8]، يعني: العدل بهذا المعنى أقرب إلى البقاء بالمولى مما سواه ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة: 8]، أي: اتقوا بالله عن غير الله ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]، إنكم لا تقدرون على الاتقاء بالله إلا بجذبات الله.

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة:9]، التي تصلحهم بقبول الجذبات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:9]، وهو جذبات لتأخذهم عنهم به إليه فافهم جيدًا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: 10 – 12].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة:10]، تداركهم الخذلان حتى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة:10]، الذين كانوا يوم الميثاق في الصف الرابع فما فهموا أخطابنا ولا صوبوا جوابنا فاستوجبوا عتابنا واستحقوا عقابنا.

ثم ذكر أهل العناية بما أنعم عليهم في البداية فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:11]، بما عاينوا ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:11]، في بدء الخلقة حين أراد أن يخرجكم من ظلمة العدم إلى نور الوجود بأمر ﴿كُن﴾ ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة:11]؛ ليؤخروكم عن الخروج من العدم ويسبقوكم بالخروج إلى الوجود ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة:11]، لتكونوا أنتم السابقون ويباهي به النبي ﷺ وتقولون نحن الآخرون السابقون يعني: الآخرون بالصورة، السابقون بالروح في الخروج عن العدم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة:11]، في الرجوع إلى العدم لتتقوا بالله عما سوى الله، والله يعلم أن رجوعكم إلى العدم ليس لكم ولا إليكم كما لم يكن خروجكم بكم فإن خروجكم كان بجذبة أمر كن فلذلك رجوعكم لا يكون إلا بجذبة أمر ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28]، فكونوا واثقين بكرم الله وفضله شارعين في طلب مرضات الله جاهدين على وفق الأوامر والنواهي في الله؛ ليهديكم إلى جذبات عنايته ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:11]، بهذه الكرامات المجتهدون لنيل هذه السعادات فإنه يبلغهم.

ثم أخبر عن ميثاق اليهود ونقضهم العهود بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة:12]، والإشارة أن الله تعالى لما أخذ ميثاق بني إسرائيل أخذ ميثاق هذه

الأمة يوم الميثاق ولكن أخذ ميثاق بني إسرائيل ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ﴾ [هود:2]، وأخذ ميثاق هذه الأمة أن ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، ولا يحبوا غيره، فلما كان ميثاق بني إسرائيل منهم لا من الله فنقضوا الميثاق وعبدوا العجل وقتلوا الأنبياء، ولما كان ميثاق هذه الأمة من الله ثم منهم بقوله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، بذلوا في الله أرواحهم وما بذلوا بعهدوهم ومحبوبهم وما نقضوا ميثاقهم وعهودهم كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:23]، ومن كمال عنايته مع هذه الأمة أنه تعالى جعل في أمة موسى عليه السلام النقباء المختارين المرجوعين إليهم عند الضرورة اثني عشر لقوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:12]، جعل في هذه الأمة من النجباء البدلاء وأعزة الأولياء أربعين رجلاً في كل حال وزمان.

كما قال النبي ﷺ: «يكون في هذه الأمة أربعون على خلق إبراهيم عليه السلام وسبعة على خلق موسى عليه السلام وواحد على خلق محمد ﷺ»(1) فهم على مراتب رجائهم ومناصب

---

(1) روى عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه: فِيمَا أَعْلَمُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»، رواه الإمام أبي داود في السنن (4293)، والبيهقى فى المعرفة (1/ 208، رقم 422)، والطبرانى فى الأوسط (6/ 323، رقم 6527)، والحاكم (4/ 567، رقم 8592)، والخطيب (2/ 61)، والديلمى (1/ 148، رقم 532). قال المناوى (2/ 282): قال الزين العراقى وغيره: سنده صحيح. قلت: وهو «القطب»، أو «المجدد» أو «الغوث» أو «المحمدي» في اصطلاح السادة الصوفية، و«المجدد» عند غيرهم، وروي الطبراني فى الأوسط (4/ 247، رقم 4101) عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن تخلوا الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر»، قال سعيد: وسمعت قتادة يقول: لسنا نشك أن الحسن منهم. قال الهيثمي (10/ 63): إسناده حسن، وأيضا ما روي عن سيدنا ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أربعون رجلا من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال»، قال رسول الله ﷺ: «إنهم لم يدركوها ولا بصوم ولا صدقة. قالوا: يا رسول الله فبم أدركوها؟ قال: «بالسخاء والنصيحة للمسلمين»، قال الهيثمي: رواه الطبراني- في الكبير - (10/ 181) من رواية ثابت بن عياش الأحدب عن أبي وكلاهما لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد 10/ 163)، وكذا روه في الحلية (4/ 173)، وقد جمع جملة من تلك الأحاديث وبين حكمها، أعجوبة النوع الإنساني الحافظ السيوطي رضي الله عنه في كتابه (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والأبدال) وطبع عدة طبعات، وأيضًا ضمن الحاوي، فوجودهم معلوم بالسنة

مقاماتهم أمنة هذه الأمة كما قال ﷺ: «بهم يرزقون وبهم يمطرون وبهم يدفع الله البلاء»[1] قال أبو عثمان المغربي: البدلاء أربعون والأمناء سبعة والخلفاء من الأمة ثلاثة، والواحد القطب عارف بهم جميعًا ويشرف عليهم، ولا يعرفه واحد ولا يشرف عليه، وهو إمام الأولياء، والثلاثة الذين هم الخلفاء من الأئمة يعرفون السبعة، ويعرفون الأربعين ولا يعرفهم أولئك السبعة، والسبعة هم الأمناء يعرفون الأربعين الذين هم البدلاء ولا يعرفهم الأربعون، وهم يعرفون سائر الأولياء من الأمة ولا يعرفهم من الأولياء أحد، فإذا نقص من السبعة واحد جعل مكانه واحد من الأربعين، فإذا نقص من الثلاثة واحد جعل مكانه واحد من السبعة، وإذا مضى القطب الذي هو واحد في العدد وبه قوام أعداد الخلق جعل بدله واحد من الثلاثة إلى أن يأذن الله في قيام الساعة.

ثم قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:12]، علق المعية معهم بهذا الشرط، وقال تعالى: لهذه الأمة عن غير تعليق بشرط ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]، والإشارة فيه أن من يقيم بهذه الشرائط إنما يقيم بها لأن الله تعالى وعد بني إسرائيل بتكفير سيئاتهم بعد القيام بهذه الشرائط.

وقال: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة:12]، ووعد هذه الأمة على القيام بأقل من هذه الشرائط بتبديل سيئاتهم حسنات وقال: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:70]، وتحقيق قوله تعالى ﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة:12] فإقامة الصلاة في أداءها منها بأن تجعل الصلاة معراجك إلى الحق، وقدم العروج بدرجاتها إلى أن تشاهد الحق كما شاهدته يوم الميثاق، ودرجاتها أربع القيام والركوع والسجود والتشهد على دركات نزلت بها من عليين وجوار رب العالمين إلى

-

المحمدية المطهرة؛ ومشاهد عيانًا؛ فعليك بها ودعك من قول فلان وفلان، المنكر لوجود تلك الطوائف من الأولياء؛ فالناطق بها ﷺ هو الشافع فينا لا هم، وهو من تعبدنا الله تعالى بإتباعه لا هم، وهو من قيل فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3] لا هم.

(1) ذكره الهيثمي في «المجمع» (9/ 499) بنحوه.

أسفل سافلين القالب وهو العناصر الأربعة التي خلق منها قالب الإنسان فالمتولدات منها على أربعة أقسام ولكل قسم منها ظلمة خاصة تحجبك عن مشاهدة الحق، وهي الجمادية وخاصيتها التشهد، ثم النباتية وخاصيتها السجود، ثم الحيوانية وخاصيتها الركوع، ثم الإنسانية وخاصيتها القيام، فالقيام يشير إليك بالتخلص عن حجب طبع النباتية وأعظمها الحرص على الجذب للنشوء، والنماء وهي خاصية الماء، والتشهد يشير إليك بالتخلص عن حجب طبع الجمادية وأعظمها الجمود وهي خاصية التراب، ومن هذه الصفات الأربع تنشأ بقية الصفات البشرية فإذا تخلصت عن هذه الدركات والحجب عرجت بهذه المدارج الأربعة إلى جوار رب العالمين وقربه فقط قمت الصلاة مناجيًا ربك مشاهدًا له كما قال ﷺ: «أعبد الله كأنك تراه»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة:12]، إشارة إلى صرف ما زاد على روحانيتك بتعلق القلب بالوجود كله في سبيل الله ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ [المائدة:12]؛ أي: استسلم بالكلي لتصرفات النبوة والرسالة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:12]، وهو أن يأخذ منكم وجودًا مجازيًا فانيًا ويعطيكم وجودًا حقيقيًا باقيًا كما يقول: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة:12]، أي: لأسترن بالوجود الحقيقي عنكم سيئات الوجود المجازي ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ [المائدة:12]، الوصلة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: 12]، أنهار الحكمة ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [المائدة:12]، يعني: بعد هذه المواعظ الحسنة ولم يعمل بها ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:12]، يعني: بضلالته اليوم من نتائج أخطاء النور عند رشاشه على الأرواح في بدء الخلقة كما قال ﷺ: «فمن أخطأه ذلك النور فقد ضل»[2].

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (6/ 115)، والطبراني في «الكبير» (20/ 175).

(2) رواه البيهقي في «القضاء والقدر» (1/ 49).

قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[المائدة: 13 - 15].

قال تعالى شكاية لأفعالهم من سوء خصالهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة:13]، يعني: بعد هذه المواعيد نقضوا ميثاقهم الذي أخذناه على التوحيد أبعدناهم وطردناهم عن جوارنا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:13]، بالنسيان والغفلة وحب الدنيا ومتابعة الهوى ﴿قَاسِيَةً﴾ [المائدة:13]، لا تؤثر العظة والنصح، ومن قوتها ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة:13]، يتصرفون في كلام الحق ويغيرون أحكام التوراة ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:13]، أي: نسوا نصيبهم من تذكر ما ذكروا به أي: ذكرهم الأنبياء - عليهم السلام - من يوم الميثاق ومخاطبة الحق إياهم تشويقًا لهم إلى تلك الأحوال ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:13]؛ لأن جعلنا جزاء عصيانهم الخذلان للزيادة في العصيان ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة:13]، وهم الذين أصابهم رشاش النور في بدء الخلقة ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:13]؛ يعني: عن هذا القليل أن صدر منهم بعض معاملات أهل الكفر والطغيان موافقة لآبائهم بالسوء والنسيان لا مخالفة لربهم بالعمد والعدوان ﴿وَاصْفَحْ﴾ [المائدة:13]، بالحلم والكرم عما جرى عليهم قبل التوبة والندم؛ إذ حسن إسلامهم وحصل بالإيمان مراحهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13]، الذين يحسنون طلب الحق ويتجاوزون عن جرائم الخلق.

ثم أخبر عن ميثاق النصارى بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة:14]، والإشارة أن الله تعالى أخذ الميثاق من اليهود والنصارى على التوحيد كما أخذ هذه الأمة يوم الميثاق ولكنه لما وكل الفريقين إلى أنفسهم نسوا ما ذكروا به ابتلوا بالنسيان والخذلان؛ فأخبر عن نسيان اليهود بقوله تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:14]، وعن نسيان النصارى بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا

مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:14]، فما بقي للفريقين حظ من ذلك الميثاق.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:14]، تحقيقه إذ لم يبق لهم حظ من ذلك الميثاق بإبطال الاستعداد الفطري بالكمال الإنساني صاروا أولئك كالأنعام بل هم أضل أي: كالسباع يتحاربون ويتحارشون ويتهارشون بالعداوة والبغضاء إلى يوم القيامة فإن أرباب الغفلة لا ألفة بينهم، وإن أصحاب الوفاق لا وحشة بينهم، وأما هذه الأمة لما أبدت بالتأييد الإلهي إذ كتب في قلوبهم الإيمان بقلم خطاب ألست بربكم يوم الميثاق وأيدهم بروح منه مما نسوا مما ذكروا به وقيل لنبيهم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، وقال تعالى خطابهم إذ ينسوا ولم ينقضوا ميثاقهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]، على أن ذكره آبائهم كان قبل وجودهم وذكرهم إياه حين ذكرهم بالمحبة وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

ثم أخبر عن حقيقة الحظ الذي نسوه أهل الكتاب، وما نسته هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾ [المائدة:15]، والإشارة أن الله تعالى بعث النبي ﷺ نورًا يبين حقيقة حظ الإنسان من الله تعالى مما خفي عليهم وهم مستعدون فحاصل الخلقة الاحتظاظ به دون سائر المخلوقات.

وقد حظي هنا أهل الكتاب بالخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة:15]؛ لأنهم أخفوا ما بين الله لهم في الكتاب المنزل على أنبيائهم ثم عمم الخطاب وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ﴾ [المائدة:15][1]، وهو الرسول ﷺ مبين معه كتاب مبين حظ العباد من الله ببيان الرسول ﷺ أن الله تعالى سمى نفسه نورًا بقوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:35]؛ لأنهما كانتا مخفيتين في ظلمة العدم فالله تعالى أظهرهما بالإيجاد

(1) أراد نور المعرفة بلا واسطةٍ ولا تصنُّعٍ. وأيضًا: نوره الذي يتجلَّى به من وجود الأنبياء والأولياء لأبصار الناظرين، وشاهد ذلك النور ما جاء في كتابه من بيان مقامات الصديقين، قد جاء النور منه جمعًا، وجاء الكتاب تفرقةً ظاهرةً في شهادته على مَنْ له من الله نورٌ، والنور والكتاب صفتان من صفات الأزل ظهر لجذب السالكين إلى الله. قيل: كشف عن أسراركم غطاء الوحشة، وألبسكم لباس الأنس. قال بعضهم: بعناية الأزل وصلتم إلى نور الكتاب المبين ونور التوحيد.

وسمى الرسول نورًا؛ لأن أول شيء أظهره الحق بنور قدرته من ظلمة العدم كان نور محمد ﷺ كما قاله عليه ﷺ: «أول ما خلق الله نوري ثم خلق العالم بما فيه من نوره بعضه من بعض فلما ظهرت الموجودات من وجود نوره سماه نورًا وكل ما كان أقرب إلى الاختراع كان أولى باسم النور كما أن عالم الأرواح أقرب إلى الاختراع من عالم الأجساد»[1] فلذلك يسمى عالم الأرواح والعلويات نورانيات بالنسبة إلى السفليات فأقرب الموجودات إلى الاختراع لما كان نور النبي ﷺ كان أولى باسم النور ولهذا كان يقول «أنا من الله والمؤمنون مني»[2]، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:15].

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة: 16 - 17].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ﴾ [المائدة:16]، أي: بنور النبي ﷺ وهو نور حكمته وإرشاده ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة:16]، أي: من اتبع النبي ﷺ لأنه رضوان الحق تعالى كما أن الملائكة رضوان الجنة ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة:16]، طرق السلام وهو الله ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ [المائدة:16]، أي: من ظلمات وجودهم المجازي، ﴿إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة:16]، أي: إلى نور الله تعالى وهو الوجود الحقيقي الأزلي الأبدي ﴿بِإِذْنِهِ﴾، أي: بجذبات عنايته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:16]، إلى الله تعالى وهذا حقيقة حظ العباد من الله ورسوله فافهم جيدًا وإن لم تُفهم حقيقته.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

---

(1) انظر تعليقنا على مسألة أوليته ﷺ، صدر تفسير صورة النساء، وهذا اللفظ للحديث المذكور ذكره العلامة عبد الحي اللكنوي في «الآثار المرفوعة» (1/ 43).

(2) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 205).

بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: 18 – 20].

ثم أخبر عن حظ اليهود والنصارى من الدنيا إذا نسوا حظهم من المولى بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:17]، إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة:18]، والإشارة فيها أن الله تعالى أظهر ظلومية الإنسان وجهوليته عند الخذلان وعدم العناية حتى كفر بقول: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ولم يتفكر أن من اشتمل عليه أرحام الصلوات متى يفارقه نقص الخلقة وضعف البشرية ومن لاحت عليه شواهد التغير أنى يليق به نعت الألوهية فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ [المائدة:17]، في جواب هؤلاء المغرورين الممكورين ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:17]، يعني: أن الإله هو الذي يملك التصرف في الأشياء كلها ولا يملكَ أحد على التصرف فيه بشيء ما، فمن يملك من الله شيئًا بالدفع والمنع ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:17]، قهرًا منه بشؤم قولكم: إن الله هو المسيح ابن مريم: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة:17]، يعني: يستحق الألوهية من له ملك السماوات والأرض وملك التصرف فيهما وتصرف لأحد فيه فيمنعه عن التصرف فيهما ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة:17]، لما يشاء متى يشاء كيف يشاء: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:17]، يعني: الإله من يكون بهذه الصفة.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة:18]، من غاية خذلانهم وجهلهم وطغيانهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ﴾ [المائدة:18]، أي: رسلنا أبناء الله يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:30].

﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:18]، أي: نحن أولياؤه يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: 6]، ثم الزمهم الحجة وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: 18]، إن كنتم أحباء الله والمعنى من تعذيبهم قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ﴾ [المائدة: 18] فقد عذبهم بهذا القول عاجلاً لاستكمال تعذيبهم آجلاً بذنوب تقدمت منهم من تكذيب محمد ﷺ وتغيير نعته وتحريف كلام الله تعالى ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: 18]؛ يعني: من عوام الخلق لا من الذين اختصهم بعد أن خلقهم في ظلمة الخلقة بإفاضة رشاش النور عليهم وإصابته، فإنهم الأولياء والأحباء وإن الله لا يعذبهم بذنوب تصدر منهم عند الابتلاء بل يتوب عليهم ويبدل سيئاتهم حسنات كما كان حال آدم عليه السلام كان منه ما كان كقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]، وكان من الله ما قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 122]، ثم أثبت الملك والقدرة والمشيئة والاختيار والإرادة كله لنفسه جل جلاله ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 18]، من أمة محمد ﷺ بإصابة رشاش النور في البداية وبالإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وبالمغفرة ودخول الجنة وسعادة الرؤية في العقبى ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 18]، من أهل الكتاب بإخطاء النور في بدء الخلقة وبالكفر والشرك في الدنيا وبالقطيعة والحجاب ودخول النار في العقبى ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: 18]، يتصرف في حكمه كيف يشاء فيجعل أقوامًا مظهر صفات لطفه وجماله، كما فعل بأمة محمد ﷺ وأقوامًا مظهر صفات قهره وجلاله كما فعل بأهل الكتاب والمشركين منهم وسائر الكفار، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18]، للفريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ [الشورى: 7]، وهي دار لطفه وجماله ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]، هي دار قهره وجلاله.

ثم أخبر عن تأكيد الحجة وإظهار الحجة بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: 19]، والإشارة فيها أن الله تعالى خاطب اليهود والنصارى وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 19] يشير إلى أنكم لستم أهل الله الذين يتدارسون الكتاب لله؛ بل أنتم من أهل الكتاب الذين يطلبون من دراسة الكتاب والعلوم الشهرة طلبًا للرئاسة والوجاهة وقبول الخلق والمنافع الدنيوية.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 19] فيه نكتة وهي أنه تعالى أضاف الرسول إلى نفسه وقال: ﴿رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 19] وما أضاف إليهم؛ لأن فائدة رسالته لم تكن راجعة

إليهم، ولما خاطب هذه الأمة أخبرهم عن مجيء الرسول إضافة إلى نفسه وإنما جعله من أنفسهم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128]؛ لأن فائدة رسالته راجعة إلى أنفسهم.

ثم قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة:19]؛ يعني: يبين لكم أن تكونوا أهل الله لأنكم حصلتم على فترة من الرسل وما بين لكم من بيان رسول ألا تقنعوا من الدين باسم، ولا من الكتاب برسم، ومن الدراسة بذكر فينبئكم رسولنا برسالتنا ويبشركم بالوصول إلينا، وينذركم من القطيعة عنا ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ [المائدة:19] يوم القيامة في مقام الحسرة والندامة، ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: 19]، بشركم بنا ونذير ينذركم عنا ويدعوكم إلينا ويكون لكم سراجًا منيرًا تهتدون به إلينا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:45]، وليكون حجة الله عليكم ولا يكون لكم حجة على الله، ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:19]، مما يدعوكم إليه الرسول ويبشركم به وينذركم عنه، ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:19]، قادر على أن يعطيكم ما وعدكم رسوله؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

ثم أخبر عن فضله وكرمه وما أتاكم من نعمه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:20]، إلى قوله: ﴿قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:24]، والإشارة فيها أن الله تعالى أظهر الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل على لسان نبيهم؛ إذ قال موسى لقومه: يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم وتولى أمر هذه الأمة بنفسه تعالى وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]، فشتان بين من أمره سبحانه بذكره وبين من يذكر نعمه، ثم عدد ما أنعم به عليهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1] [المائدة:20]، من الآيات والمعجزات والنعم

---

(1) قال ابن عجيبة: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكًا [البحر المديد (2/ 49)].

الظاهرة والبراهين الباهرة، فلما لم يكونوا أهلاً لهذه الكرامات ومستحقًا لهذه السعادات ابتلاهم بدخول الأرض المقدسة، كما قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:21]، ثم أنذرهم وأوعدهم عليه.

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المائدة: 21 – 24].

وقال: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة:21]، بالامتناع عن الدخول فيها فتجعلوا هذه النعمة على أنفسكم نقمة ودعاء أنبيائكم لكم فيها لعنة والمملكة ذلة ﴿تَنقَلِبُوا﴾ [المائدة:21]، بشؤم معاملاتكم ونقض معاهداتكم، ﴿خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 21]، الدنيا والآخرة والمأوى.

فما يفهم الإنذار ولا الاستذكار إذ كانوا أهل البوار حتى قالوا: ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22]، فمن الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل أن الله تعالى كتب عليهم دخول الأرض المقدسة على الخصوص وما وفقوا لدخولها وجعلوا أذلة لم يدخلوا الأرض المقدسة، وقيل لهذه الأمة: «جعلت لكم الأرض مسجدًا وترابها طهورًا»[1].

﴿وهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29]، فشتان بين من خلق له الأرض بما فيها وجعلت له مسجدًا وذلولاً وبين من جعل عليه الأرض المقدسة محرمة وجعل لأجلها ذليلاً.

ثم أنعم الله تعالى على رجلين منهم إظهارًا للقدرة بأن يخافوا الله وينصحان لهم

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (6/ 48) بنحوه.

بالدخول ليعلم أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وذلك كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة:23]، أي: أنعم الله عليهما فصارا من الذين يخافون ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة:23]، بأمر الله ورسوله واثقين بفضل الله ورحمته ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ [المائدة:23]، على طاعة الله فتكونوا من حزب الله ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: 23]؛ لأن حزب الله هم الغالبون، ولا تنظروا إلى عظم أجسامهم وقوة أجسادهم ولا إلى ضعف أبدانهم ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾(1) [المائدة:23]، وقوة إيمانكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:23]، بالإيمان الحقيقي فلاحظوا الأغيار بعين الحسبان لا بنور الإيمان فتوهموا منهم الحدثان، فداخلهم هواجم الرعب فاصبروا على ترك الأمر ومن طالع الأغيار بنور العرفان لم يختم من أهل الخذلان.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة:24]، فمن أقصته سوابقُ التقدير لم تُخَلِّصه لواحقُ التدبير، تركوا أدب الخطاب فصرحوا بما يوجب العقاب ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:24]، فلم يخشوا من مجاهر الرق ولم يستوحشوا من مجاهرة الضد.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ

---

(1) أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن قُدِّرَ أن واحدًا منهم لا يتوكل، فلا يخرج به ذلك عن الإيمان، كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر؛ فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة، ويقال: بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر، ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها، ويقال: الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النَّفْس، ويقال: الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ، ويقال: الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل: ملاحظتُه الأعواض عنها، والسرور والفرح بمدح الناس لها، ويقال: الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العوض عليها [تفسير القشيري (6/ 103)].

يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: 25 - 28].

ثم أخبر عن نتائج خذلانهم وبوادر كفرانهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة:25]، والإشارة أن موسى عليه السلام لما ظن أنه يملك نفسه ونفس أخيه، قال: رب لا أملك إلا نفسي وأخي ابتلاه الله بالدعاء على أمته حتى قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:25]، فأظهر له أنك لو كنت تملك نفسك ما دعوت على أمتك، ولا سميتهم بالفاسقين، ولقلت اللهم أهد قومي وأصلحهم في عبوديتك كما كان حال النبي ﷺ حين نتج رأسه وكسرت رباعيته وأدمي وجهه وهو يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»(1) ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الفتح:11]، لأنه لا يملك أحد نفسه ولا نفس غيره على الحقيقة فالله تعالى حرم على الذين دعا عليهم موسى عليه السلام دخول الأرض المقدسة بدعائه.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:26]، وأخذ موسى عليه السلام على دعائه عليهم وجعل معهم في التيه وقال له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:26]، يعني: لا تحزن على قوم سميتهم فاسقين، ولا على نفسك ولا على أخيك، وإنما يملك نفسه إذا ملكت عليها عند الغضب، كما قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(2) وكان موسى عليه السلام عند الغضب ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:150]، ولما غضب موسى عليه السلام على بني إسرائيل قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:25]، فلم ادعى أنه يملك نفسه، ويقال معناه: لا أملك إلا نفسي لا أؤخرها عن البذل في أمرك، ولا أملك أخي فإنه لا يخالفني في هذا فالعجب في أن موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - بشؤم معاملة بني إسرائيل بقيا في التيه أربعين سنة، وبنو إسرائيل ببركة كرامتهما ظلل

(1) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (3/ 484).

(2) ذكره الغزالي في «الإحياء» (2/ 355).

عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى في التيه ليعلم أثر بركة صحبة الصالحين، وأثر شؤم صحبة الفاسقين.

ثم أخبر عن سيرة الصالح وسيرة الطالح بقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة:27]، والإشارة أن آدم الروح بازدواجه مع حواء القالب ولد قابيل النفس وتوأمته إقليما الهوى، في بطن أولى، ثم هابيل القلب وتوأمته ليوذا العقل، فكان الهوى في غاية الحسن؛ لأن القلب به يميل إلى طلب المولى وما عنده مهر محبب إليه، وكان ليوذا العقل في نظر هابيل في غاية القبح والدمامة؛ لأن القلب به يغفل عن طلب الحق والفناء في الله، ولهذا قيل العقل عقالة الرجال، وفي نظر قابيل النفس أيضًا في غاية القبح؛ لأن به يغفل عن الدنيا والاستهلاك فيها فالله تعالى حرم الازدواج بين التوأمين كلاهما وأمر بازدواج توأمة كل واحد منهما إلى توأم الأخرى؛ لئلا يغفل القلب عن طلب الحق بل يحرضه الهوى على الاستهلاك والفناء في الله، ولهذا قال بعضهم: لولا الهوى ما سلك أحد طريقًا إلى الله تعالى، فإن الهوى إذا كان رفيق النفس يكون حرصًا فيه نزل النفس إلى أسفل الدنيا، وبعد المولى، وإذا كان رفيق القلب يكون عشقًا فيه يصعد القلب إلى أعلى عليين العقبى وقرب المولى، ولهذا سمي العشق هوى كما قال الشاعر:

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى ... فصادفَ قلبي فارغاً فتمكَّنا(1)

ولتعقل النفس عن طلب الدنيا بل يحرضها العقل على العبودية وينهاها عن متابعة الهوى، فذكر آدم الروح لولديه ما أمر الله به، فرضي هابيل القلب، وسخط قابيل النفس وقال: هي أختي - يعني إقليما الهوى - ولدت معي في بطني، وهي أحسن من أخت هابيل القلب - يعني ليوذا العقل - وأنا أحق بها، ونحن من ولائد جنة الدنيا، وهما من ولائد أرض العقبى فأنا أحق بأختي، فقال له أبوه: إنها لا تحل لك يعني؛ إذ كان الهوى قرينك فتهلك في أودية حب الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها؛ فأبى أن يقبل قابيل النفس هذا الحكم من آدم الروح، وقال: الله تعالى لم يأمر به وإنما هذا من رأيه، فقال لهما آدم الروح: قربا قربانًا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها، فخرجا ليقربا، وكان قابيل النفس

(1) البيت لداود بن عيسى الأيوبي، من بحر الطويل.

صاحب زرع يعني مدبر النفس النامية، وهي القوة النباتية فقرب طعامًا من أردأ زرعه، وهو القوة الطبيعية، وكان هابيل القلب راعيًا يعنى مواشي الأخلاق الإنسانية والصفات الحيوانية، فقرب جملاً يعنى الصفة البهيمية، وهي أحب الصفات إليه لاحتياجه إليها لضرورة التغذي والبقاء، ولسلامتها بالنسبة إلى الصفات السبعية الشيطانية، فوضعا قربانهما على جبل البشرية، ثم دعا آدم الروح، فنزلت نار المحبة من سماء الجبروت؛ فأكلت جمل الصفة البهيمية؛ لأنها حطب هذه النار، ولم تأكل من قربان قابيل النفس حبة لأنها ليست من حطبها بل هي من حطب نار الحيوانية، فهذا تحقيق قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْـحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ [المائدة:27].

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 29 – 32].

ثم ظهر لقابيل النفس الحسد والعداوة والبغضاء على هابيل القلب وقصده ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة:27]، حسدًا ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْـمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27]، بالله عما هو سواه ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ [المائدة:28]، حسدًا ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة:28]، حسدًا وأمنعك من قتلي بغير إذن بقاء بل أريد أن تقتلني ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:28]، ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة:29]، فتبوء بإثم وجودي وإثم وجودك فإن الوجود حجاب بيني وبين محبوبي ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المائدة:29]، نار الفرقة والبعد والحسرة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:29]، الذين يعبدون الدنيا وزينتها ويشتغلون باستيفاء لذاتها وشهواتها.

ثم أخبر عن مطاوعة النفس ومتابعتها والندامة والغرامة على متابعتها بقوله تعالى:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة:30]؛ لأن النفس أعد أعداء القلب ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:30]، يعني: في قتل القلب خسارة النفس في الدنيا والآخرة أما الدنيا فتحرم عن الواردات والكشوف والعلوم الغيبية التي تنشئ القلب عن ذوق المشاهدات ولذة المؤنسات فتبقى في خسران جهولية الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:1-2]، وأما في الآخرة فتخسر الدخول في جنات النعيم ولقاء الرب الكريم، والنجاة من الجحيم والعذاب الأليم، وفي قوله: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة:31]، إشارات منها ليعلم أن الله قادر على أن يبعث غرابًا أو غيره من الحيوانات إلى الإنسان؛ ليعلمه ما لم يكن يعلم كما يبعث الملائكة إلى الرسل والرسل إلى الأمم؛ ليعلموهم ما لم يعلموا، ومنها لئلا يعجب الملائكة والرسل أنفسهم باختصاصهم بتعليم الحق فانه يعلمهم بواسطة الغراب، كما يعلمهم بواسطة الملائكة والرسل، ومنها ليعلم الإنسان أنه محتاج في التعلم إلى غراب ويعجز أن يكون مثل غراب في العلم كما قال: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ [المائدة:31]، ومنها أن الله تعالى في كل حيوان بل في كل ذرة آية تدل على وحدانيته وربوبيته واختياره حيث يبدع المعاملات المعقولة عن الحيوانات غير العاقلة، ومنها إظهار لطفه مع عباده في أسباب العيش حتى إذا أشكل عليهم أمر كيف يرشدهم إلى الاحتيال بلطائف أسباب تحليه ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:31].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة:32]، أي: من أجل تلك الندامة والحسرة عنها ولدفعها عنهم كتبنا أي: أظهرنا على بني إسرائيل وغيرهم أنه من قتل نفسًا بغير قصاص نفس أو بغير فساد يظهر منه موجب لقتله ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:32]، في الأرض لأن كل نفس على حدة هي آدم في نفسها إذ يخلق الله منها خلقًا، كما خلق من نفس آدم كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:1]، فإنها مستعدة لهذا فمن أبطل هذا الاستعداد بقتلها فكأنما قتل جميع الناس المحتمل خلقهم منها، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة:32]، بترك قتلها ونجاتها من القتل والهلاك، ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ﴾ [المائدة:32]، المحتمل خلقهم منها ﴿جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ

﴿رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة:32].

واعلم أن كل شيء ترى فيه آية من الله تعالى فهو في الحقيقة رسول من الله إليك ومعه آية بينة ومعجزة ظاهرة يدعوك بها إلى الله، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة:32]، يعني: من الذين شاهدوا الآيات ولحقتهم البينات ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [المائدة:32]، أي: بعد رؤية الآيات ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:32]،أي: في أرض البشرية لمجاوزون حد الفريضة والطريقة بمخالفة أوامر الله ونواهيه.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: 33 - 35].

ثم أخبر عن جزاء المخالفين والمحاربين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة:33]، إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:34] والإشارة فيها أن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - يعني بمعاداة أولياء الله - فإن الخبر الصحيح حكاية عن الله تعالى «من عاد إليّ وليًا فقد بارزني بالحرب وأني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث لحرده»[1] ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:33]، بمعاداتهم ﴿فَسَادًا﴾ [المائدة:33]، يظهر أثره في البر والبحر كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:41].

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ [المائدة:33]، بسكين الخذلان ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة:33]، بحبل الهجران على جذع الهجران ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:33]، عن أذيال الوصال ﴿وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [المائدة:33]، عن الاختلاف ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ﴾ [المائدة:33]، بُعد وهوان ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:33]،

(1) ذكره البغوي في «شرح السنة» (2/ 381).

الفرقة والقطيعة ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [المائدة:34]، وأنابوا إلى الله واستغفروا واعتذروا عن أولياء الله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:34]، برؤية الولاية أيها الأولياء فإن ردكم رد الحق وقبولكم قبول الحق، وإن مردود الولاية مقصود العناية ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [المائدة:34]، لمن تاب ورجع إلى الله ﴿رَحِيمٌ﴾ [المائدة:34]، بهم أن يقبل توبتهم ويغفر حوبتهم.

ثم أخبر عن حقيقة التقوى أنها ابتغاء الوسيلة والقربى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:35]، إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: 68]، والإشارة فيها أن الله تعالى جعل الفلاح الحقيقي في أربعة أشياء، أحدها: الإيمان وهو إصابة رشاش النور في بدء الخلقة، وبه تخلص العبد من حجب ظلمة الكفر، وثانيها: التقوى وهو منشأ الأخلاق المرضية ومنبع الأعمال الشرعية، وبخلص العبد من ظلمة المعاصي، وثالثها: ابتغاء الوسيلة وهو إفناء الناسوتية في بقاء اللاهوتية، وبه يتخلص العبد من ظلمة أوصاف الوجود، ورابعها: الجهاد في سبيل الله وهو اضمحلال الأنانية في إثبات الهوية، وبه يتخلص العبد من ظلمة الوجود، ويظفر بنور الشهود، والمعنى الحقيقي يا أيها الذين آمنوا بإصابة النور اتقوا الله بتبديل الأخلاق الذميمة، وابتغوا إليه الوسيلة في إفناء الأوصاف ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [المائدة:35]، بتبديل الوجود ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:35]، بنيل المقصود من المعبود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: 36 - 40].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة:36]، بإخطاء النور ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:36]؛ لدفع عذاب نار

القطيعة بكفرهم، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27]، لا من الكافرين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:36]، من الحسرة والحرمان والقطيعة والكفر ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة:37]، الخذلان ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:37]؛ لأنهم خلقوا لدركات النيران ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة:37]، من بدء الخلقة بإخطاء ذلك النور إلى الأبد لاستحالة خروجهم عن ظلمة الوجود، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن نكال السارقين وقبول التائبين بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:38]، إلى قوله ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:40]، والإشارة فيهما أن السارق والسارقة كانا مقطوعي الأيدي عن قبول رشاش النور وإصابة في بدء الخلقة فكان تطاول أبدانهما اليوم إلى أسباب الشقاوة من نتائج قصر أيديهما اليوم ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة:38]، الآن في عالم القوة ﴿نَكَالًا مِنَ اللهِ﴾ [المائدة:38]، تقديرًا في الأزل وإخطاء لرشاش النور ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ [المائدة:38]، قاهر [غالب لا فعل له إلا الصواب]، ﴿حَكِيمٌ﴾ [المائدة:38]، ولحكمته قبل من قبل بإصابة النور ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ [المائدة:39]، فيه إشارة إلى أن السرقة منه ما كانت من نتائج أخطاء النور، وإنما كانت من وضع الشيء في غير موضعه حتى تاب منها ﴿وَأَصْلَحَ﴾ [المائدة:39]، بالإنابة إلى الله وترك الدنيا ما أفسد من حسن الاستعداد الفطري بالحرص على الدنيا ﴿فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:39]، يعني: ينظر إليه ينظر العناية الأزلية حتى تاب ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [المائدة:39]، لرياضات النور هناك ﴿رَحِيمٌ﴾ [المائدة:39]، به بأن تاب عليه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ﴾ [المائدة:40]، هو الذي ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: 40]، وليس له شريك في الملك يتصرف في ملك مماليكه كيف يشاء ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:40]، بإخطاء النور إظهار القهر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:40]، بإصابة النور إظهارًا للطفه ومشيئته ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المائدة:40]، من إظهار اللطف والقهر ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:40].

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ

أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: 41].

ثم أخبر عمن جعله مظهر قهره بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة:41]، والإشارة أن الله تعالى لما أقصى الكفار وأهل الشقاوة عن محل القرب وأرخى لهم عنان الإمهال للتعذيب حتى يسارعوا في بوادي البوار، وما هو في أودية الضلالة أمر رسوله بترك المبالاة بأمثالهم وقلة الاهتمام، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:41]، يعني: الذين دخلت كلمة الإيمان في أفواههم ولم يدخل نور الإيمان في قلوبهم ولم تخرج ظلمة الكفر منها ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة:41]، أي: تابوا ظاهرًا ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة:41]، أي: يصغون كذبات النفس في هواجسها ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة:41]؛ أي: يسمعون هذه الكذبات ويعملون ويسنون السنن السيئة لقوم آخرين من أمتك لم يأتوك بعد ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾، أي: يغيرون قوانين الشريعة ويبدلونها بتمويهات الطبيعة ﴿يَقُولُونَ﴾ [المائدة:41]، لرفقائهم من أهل الطبيعة ومن أضلهم عن جادة الشريعة ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:41]؛ يعني: إن أوتيتم أرباب الشريعة مثل مقالاتنا ومعتقداتنا تناسب محالاتنا، فاقبلوا وإلا فاحذروا، وعما تقولوا من القرآن والأحاديث هذا حال أرباب الدعاوى العواري عن المعاني من المتفلسفة والإباحية، فقد أزلهم الشيطان عن الصراط المستقيم وأضلهم عن الدين القويم، وأوقعهم في المزلات والشبهات، فيؤولون القرآن والأحاديث على وفق أهوائهم ويقرون بآرائهم فعرف الله تعالى نبيه أنهم معزولون عن رحمته محتجبون بعزته، وإن من رؤية القسمة الأزلية والعزة الصمدية لا يفيده اهتمام المهتمين ولن ينفعه الشافعون.

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: 42 – 44].

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:42]، يعني: من أوثقه الله تعالى بالخذلان وأغرقه في الحرمان فليس إلى الأغيار حياته، ولا إلى الأغيار نجاته ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:42]، يعني: أولئك الذين جبلوا على نجاسة الشرك، وما اقتضت الإرادة الأزلية والحكمة الإلهية أن يطهروا بماء إصابة النور إذا رش عليهم في بدء الخلقة من نجاسة ظلمة الشرك قلوبهم، ويقال من يروا الله فتنته من أرسل إليه غائمة الهوى، وسلط عليه نوازع المنى فأنى له بسوط القضاء فليس بلقاء غير الشقاء ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [المائدة:42]، أي: في بدء الأمر من إخطاء النور المرشش ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:42]، من لقاء العلي العظيم فلا يدري أي: حالتيهم أقرب إلى استجلاب الذل وبدايتهم في الخذلان أم نهايتهم في الحرمان.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:42]، يعني: أخلاقهم الرديئة أورثتهم الأعمال الدنيئة، وأن الأخلاق نتائج الأعمال والأعمال نتائج الأخلاق كلها من نتائج الجوهر الفطري والاستعداد الأصلي فمن خساسة الجوهر قنعوا بحظوظ خسيسة وتزهدوا عن أعراض نفيسة ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ [المائدة:42]، يعني: فإن جاءك هؤلاء المعلولون طالبي دعائهم فاحكم بينهم تداويًا لدائهم إن رأيت التداوي سببًا لشفائهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة:42]؛ يعني: داوهم على ما يستحقون من دائهم وأواصل النفرة بالإذلال ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:42]، الإقساط الدوران مع الحق حيث ما دار والوقوف عليهم من غير ميل إلى الحظوظ.

ثم أخبر عمن تولى عن حكم النبي والمولى بقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ

وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [المائدة:43]، والإشارة أن في نفي تحكيم اليهود النبي ﷺ لعدم الإيمان به ولغيره من الأنبياء حقيقة إثبات الإيمان الحقيقي لمحاكمته؛ إذ قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [المائدة:43]، أي يعرضون عن حكم الله مع زعمهم أنهم يؤمنون بها ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:43]، حقيقة يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:65]، ثم قال ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾[1] [المائدة: 44]، كما أرسلناك هاديًا تهدي إلى صراط مستقيم، وجعلناك نورًا، فلما لم تهتدوا بهدي التورية ونورها مع زعمهم أنهم يؤمنون بها، فكيف يهتدوا بهداك ونورك فهم كافرون بك وبما أنزلنا إليك، وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم، وقوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾ [المائدة:44]، إشارة إلى أنه استحفظ بني إسرائيل التوراة فحرفوها وضيعوها وما حفظوها، ومن الله على هذه الأمة فخصهم بالقرآن وتولى سبحانه حفظه عليهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، فلهذا ما قدر أحد أن يحرف شيئًا من القرآن: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة:44]، يبنون ما يخفى منه كما فعله ابن صوريا ثم نهى الحكام أن يخشى غير الله في حكوماتهم، فقال تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:44]، فإن الخلق تحت أحكام القدرة مقهورون، وعند جريان القضاء والقدر مجبورون، فلا سبيل إلى الخشية منهم فلا يصح الخوف عنهم، وخافوني أن كنتم مؤمنين بقدرتي على الإيجاد مؤمنين ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ [المائدة:44]، بمعجزاتي مع الأنبياء وبكرامات مع الأولياء ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة:44]، من حطام الدنيا وتمتع النفس بالهوى والامتناع عن قبول حكم المولى فإنه يوجب خسارة الأخرى والأولى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا

---

(1) الربانيُّ من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله، ويقال: الربّانيُّ الذي ارتقى عن الحدود، والربانيُّ مَنْ توقّى الآفات ثم ترقّى إلى الساحات، ثم تلقّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِرَبِّه وبربِّه، وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاءٌ ينهون الخلْق بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُؤمِئُون إليه، وتحقق ما علقوا هممهم به [تفسير القشيري (2/ 144)].

أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44]؛ لأن من اتخذ حكمًا غير الله ولم يستسلم تحت جريان الحكمة رضاء وتسليمًا، فلا يخلوا عن شرك خاطر قلبه وكفر قاهر عقله.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾ [المائدة: 45 - 47].

ثم أخبر عن إنزال الأحكام على الخواص بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة:45]، الإشارة إن الله تعالى جعل المساواة بين النفوس في القصاص كما جعلها بين الأرواح والأعضاء، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾، كما قاله تعالى: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:45]؛ ليتحققوا بالتساوي وفي الاستعداد الإنساني لقبول الفيض الرباني في طلب الكمال والبلوغ إلى ذروة الوصال، وأنه تعالى قد كرم بني آدم بنيل هذه الكرامة، وعنهم باختصاص هذه السعادة فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وإنما التقصير والتواني وقع من قبل الإنسان في طلب الكمال بترك الاجتهاد، فإن المجاهدات تورث المشاهدات، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69]، وقد جاء في بعض الكتب المنزلة «من طلبني وجدني»، والذي يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7-10]، فأظهر الله من تقي في حضيض النقصان بقي لترك التزكية بالخذلان، وإن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة وقال: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1]، وفيه معنى آخر وهو كما أن في إهلاك النفس بهلاك النفر المهلك، وفي إتلاف العضو المثلث كذلك إحياء نفس الطالب بحياة الدين حياة نفس محييها وفي معالجة

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (7/ 268)، والبيهقي في «الشعب» (2/ 17).

عين قلبه وأنف قلبه وسن قلبه علاج معالجة وبمزيد الإدراك في هذه الأشياء المذكورة ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ [المائدة:45]، أي: بهذه الإحياء والمعالجة ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: 45]، على نفسه فيما فرط في إحياء نفسه ومعالجة قلبه طرفة عين ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [المائدة:45]، وفي تزكيتها عن الأوصاف الذميمة وتحليها بالأخلاق الحميدة على قانون الشريعة بتربية أرباب الطريقة للوصول إلى الحقيقة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:45]، فقد ظلموا أنفسهم بترك التربية؛ إذ وضعوا متابعة الحظوظ في موضع ملازمة الحقوق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:46]، أي: اتقاء الأنبياء بعضهم بعضًا، فأنزلنا الكتب بعضها مصدقًا لبعض ومفردًا له؛ لبيان الدين القويم والهداية إلى صراط مستقيم والرجوع إلى رب العالمين لأرباب اليقين من المتقين ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ [المائدة:47]، وكذلك أهل كتاب كل كتاب في سلوك الطريق ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [المائدة:47]، من أهل كل كتاب ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:47]، الخارجون عن الصراط المستقيم فضلوا عن طريق الحق، وذلوا بالباطل.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: 48 - 50].

ثم أخبر عن حال النبي ﷺ وكتابه وما أشار إليه من خطابه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة:48]، إشارة إن الله تعالى خصص حبيبه ﷺ من بين سائر

الأنبياء - عليهم السلام - بإنزال الكتب إليه بالحقيقة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: 48]، أي: بالحقيقة وذلك لأنه أنزله على قلبه وأنزل الكتب على الأنبياء في الألواح والصحف، وبينه وبينهم بون بعيد وفرق عظيم، فإن ما أنزل على القلب يكون صاحب القلب مخصوصًا به من سائر الخلق بخلقه، فلهذا كان خلقه القرآن، وما أنزل في الألواح والصحف يستوي فيه الخواص والعوام في التخلق بخلقه بإئتمار الأوامر وانتهاء النواهي: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]؛ أي: يصدق الكتب المنزلة قبله تصديقًا حقيقيًا عيانيًا لا بيانيًا بحيث يشاهد قلب المنزل إليه بنور حقائق جميع الكتب ومعانيها وأسرارها، فيشهدوا على صدقها وحقيقتها بخلاف ما أنزل في الألواح والصحف، فإن الألواح والصحف لا ينشأ حقيقتها ولا تشهد على صدقها وحقيقتها ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 48]، أي: فأقم بالله أحكام الدين بنوره الكتب بينهم بما أنزل الله على قلبك أو اعتنق ملازمة الحقوق بترك ملازمة الحظوظ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 48]، أي: لا تستملك إلى هويتهم الفاسدة حرام الجنسية ومكارم الأنسية، فيلهيكم عما جاءك من الحق بالعيان من حقائق القرآن وأنواره وحقيقة الفرقان وأسراره ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 48]، معاشر الأنبياء ﴿شِرْعَةً﴾ [المائدة: 48]، يشرع فيها بالبيان ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، يسلك فيه بالعيان ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: 48]، أي: جعل أممكم أمة واحدة تهتدي بالبيان إلى البيان ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [المائدة: 48]؛ يعني: الأمم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: 48]، من البيان والتبيان والحجج والبرهان والعزة والسلطان وابتلاكم بزينة الدنيا واتباع الهوى ونيل المنى والرفعة بين الورى والنجاة في العقبى؛ ليهتدي التائبون بالبيان والتبيان ويقتدي العالمون بالحجة والبرهان، ويجذب العارفون بالعزة والسلطان بل يقصدون الزاهدون برضا الدنيا، ويقدم العابدون بنهي الهوى ويسلك المشتاقون بنفي المنى، ويجذب العارفون بترك الورى، ويسلب الواصلون بالسلو عن الدنيا والعقبى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: 48]، ببذل الموجود، وسارعوا إلى القربات بفقد الوجود ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48]، إما بالاختيار بعدم الصدق في الإفناء لنيل المرام في عالم البقاء، وإما بالاضطرار عند حلول الآجال بعد الفناء لويل الملام يوم اللقاء ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾

[المائدة:48]، بنتائج الأعمال وثمرات الأحوال ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:48]، من المقاصد والمطالب والمشارب.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [المائدة:49]، قم بالله فيما يحكم وأقم حقوقه فيما تقدم وتؤخر، ولا تلاحظ الأغيار فيما تؤثر، وتغتر فإن الكل يحق في التحقيق ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة:49]، بالإعراض عن الحق ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة:49]، بالتصريف ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:49]، من الحقوق بشواهد الحق ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [المائدة:49]، عن الحق وأبوا قبوله ﴿فَاعْلَمْ﴾ [المائدة:49]، بمطالعة القضاء ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾ [المائدة:49]، في الحكم المقدر ﴿أَنْ يُصِيبَهُمْ﴾ [المائدة:49]، مصيبة الإعراض ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:49]، وهو الاعتراض لأن الحق سبحانه يلزمهم التكليف ويقدمهم ويؤخرهم بعين التصرف، فالتكليف فيما أوجب والتصريف فيما أوجد والعبرة بالإيجاد لا بالإيجاب ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:49]، الخارجون عن جذبات العناية ولخطاب الهداية.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:50]، يطلبون منك أن تحد عن الحجة المثلى بعدما طلعته شموس الدين، وسقطت براهين اليقين واستنار القلب بأنوار الغيب وانتهكت أستار الترتيب ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50]، لا أحدًا يحكم لأهل الإيقان بحقائق الفرقان من أحسن الرحمن.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: 51 – 53].

ثم أمر الأولياء أن لا يتولوا الأعداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:51]، إشارة إن: يا أهل الإيمان الحقيقي لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء في الحقيقة، فإنهم أعداء الله وأعداؤكم إنما وليكم الله ورسوله

والذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:31]، وقال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:257]، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:51]، فإن الجنسية موجبة القسم ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:51]؛ يعني: ومن يتولهم ممن يتجلى تحلية الإسلام، ويتزيَّ بزي أهل الدين ظاهرًا فإنه منهم أي: من طينتهم وخلقهم ووصفهم حقيقة وباطنًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي﴾ [المائدة:51]، إلى الائتلاف أهل التعارف الروحاني ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:51]، الذين هم أهل التناكر الواضعين المحبة والولاء في غير موضعه.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [المائدة:52]، عن جريان نور الإيمان والخلق عن التوحيد والعرفان ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة:52]؛ أي: في قوة أهل التناكر «فإن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1]، فمن تعمَّ فما يرهم وعمى بصائرهم حين حجبوا عن مقر التوحيد، وتفرقوا في أودية الحسبان والظنون تسبق موالاة الأعداء خوفًا من معادتهم، وطمعًا في المأمول من صحبتهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:52]، من دوائر الزمان وبوائر الحدثان ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة:52]، فتح عين قلوبهم ليشاهدوا أنهم في أسر العجز وذل الافتقار ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة:52]، تصفيته مشارب الإكرام وإضاءة زواهد القرب ومشارق القلوب ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ [المائدة:52]، عن ليلة الغفلة ﴿عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المائدة:52]، من ظنون كاذبة ﴿نَادِمِينَ﴾ [المائدة:52]، فحينئذ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:53]، بأنوار الغيب في أستار القلوب ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ﴾ [المائدة:53]، جهلاً عن أحوالهم في ملكهم ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة:53]، بالنفاق ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة:53]، في الوفاق ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [المائدة:53]، وبطلت آمالهم ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:53]، بإبطال الاستعداد الفطري في الدنيا واستحقاق دركات جهنم البعد في الآخرة.

(1) تقدم تخريجه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (58)﴾ [المائدة: 54 – 58].

ثم أخبر عن أهل المحبة في الدنيا وأهل المحنة في العقبى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [المائدة:54]، إشارة أن الدين الحقيقي هو طلب الحق فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:54]، بطلب الحق بعد أن كانوا في ضلالة طلب غير الحق من يرتد منكم عن دينكم، وهو طلب الحق حقيقته طالبًا غير الله من الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران:152]، حتى قرئ هذه الآية عند النبي ـ رحمه الله ـ فشهق شهقة، وقال: ثمنًا حد، فقال: ومنكم من يريد الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فخص هذه المرتبة بقوم دون قوم، لا ريب أن هذا القوم هم أرباب السلوك من المشايخ الذي جذبتهم العناية بجذبات المحبة الإلهية عن أوطار أوصاف الخلقية إلى مرادفات جلال الصمدية نفاهم عنهم بسطوات يحبهم، ثم إبقائهم به بهبوب نفحات يحبونه، فإن العبدية إفناء الناسوتية في اللاهوتية، وإن محبة الله العبد بقاء اللاهوتية في إفناء الناسوتية، فالله تعالى يحب العبد بصفة ذاته أزلاً، وهي الإرادة القديمة المخصوصة بالعناية، والعبد يحب الله تعالى بذات تلك الصفة، فافهم جيدًا فتكون من إمارة تلك المحبة الأزلية الأبدية لهم أن تكون ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:54]، لفناء الناسوتية وارتفاع الأنانية ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:54]، ببقاء اللاهوتية وإثبات الوحدانية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [المائدة:54]، في طلب الحق في البداية وببذل الوجود ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:54]، عند غلبات الوجود في الوسط لدوام الشهود ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:54]؛

يعني: صدق الطلب في البداية، وغلبات الوجد في الوسط، والاختصاص بالمحبة في النهاية لنيل المقصود ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ [المائدة:54]، كرم أن يتفضل بذلك على كل أحد لكنه ﴿عَلِيمٌ﴾ [المائدة:54]، بمن يستحق لهذه الفضيلة ويستعد للتوسل بهذه الوسيلة.

ثم أخبر عمن مشمول العناية منهم إنه المنعوت بالولاية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة:55]، إشارة أن الله تعالى أعز المؤمنين بعز موالاته وموالات رسوله وموالات المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:55]، فموالات الله في معادات ما سوى الله كما كان حال الخليل عليه السلام قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، وموالاة الرسول في معاداة النفس ومخالفة الهوى كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»(1)، وموالاة المؤمنين في مؤاخاتهم في الدين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:10]، فقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(2)، وقيل: من عادى نفسه لم يخرج بالمخاصمة عنها مع الخلق وبالمعارضة فيها مع الحق، ثم أخبر عن أهل الموالاة من المؤمنين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة:55]؛ أي: بديمومتها محافظًا حدودها في الظاهر مراقبًا حقوقها في الباطن بمراعاة السير مع الله أن لا يخطر بباله غير الله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة:55]، أي: يبذلون ما زكى من وجودهم في طلب الحق وهو الفناء في الله ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:55]، راجعون إلى الله بالانحطاط من قيام البشرية إلى القيام بالقيومية ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:56] فهم من ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ [المائدة:56]، أهل الله وخاصيته ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:56]، أهوائهم وأنفسهم وعلى الدنيا والشياطين القائمون مع الله على نشر الاستقامة.

ثم أخبر عن صفة الأعداء، وأنهم لا يصلحون لهؤلاء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ [المائدة:57]، الإشارة أن لا تحجبوا إلى الملاينة مع أعداء الدين يا أهل الإيمان خصوصًا مع الذين اتخذوا ﴿دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

---

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (1/ 31)، ومسلم في «صحيحه» (1/ 207).

(2) رواه البخاري في «صحيحه» (1/ 29)، ومسلم في «صحيحه» (1/ 209).

﴿الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:57]، من أهل الأديان والملل ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ [المائدة:57]، ولا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:57]، فإنهم أعداء الله وأعداءكم، وفيه أيضًا إشارة إلى أهل التحقيق؛ الذين هم أهل المحبة المجذوبون إلى سراء قلق الجلال بجذبات الوصال، أن لا تتلوا أهل الغفلة والسلوة الذين اتخذوا دينكم ومنهيكم في المحبة والطلب هزوا ولعبًا للجهل بأموالكم والغفلة عن أمالكم من الذين أوتوا الكتاب؛ أي: العلوم الظاهرة من النقليات والكفار؛ يعني: الفلاسفة الذين يمسكوا بالعلوم من العقليات، فإنهم بمعزل عن العلوم من الدنيا والكشفيات فلا تتخذوهم أولياء فإن بعضهم أولياء بعض والضدية بينكم وبينهم قائمة، فإن الناس أعداء ما جهلوا من لم يتق لا يدري فلم يدروا أن لا يدروا فهم يحسبون أنهم يدرون، فهذا هو الجهل المركب، فافهم جيدًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 58]، واخشوه ولا تخشوا غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:58]، بأن لا وجود إلا الله ولا يوجد سوى الله.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾ [المائدة: 59 - 63].

ثم أخبر عن استهزائهم عند الصلاة، وندائهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:58]، إشارة أن الله تعالى أخبر عن أهل الغفلة والسلو المحجوبين بأستار العزة عن أحوال العزة والمحبة، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾؛ أي: دعوتموهم إلى محل القرب والنجوى، اتخذوها هزوا ولعبًا لجهالتهم بأحوالها وضلالتهم عن عرفان كمالها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:58]؛ أي: لا تدرك عقولهم الفاسدة بالوهم والخيال لذاذة شهود ذلك الجمال والجلال، فإنها بمعزل عن تلك الأحوال

لاهية عن درك الوصول والوصال ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة:59]، إشارة إلى أهل العلوم الظاهرة من أهل السلو ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ [المائدة:59]، تنكرون علينا وتحسدوننا وتعيروننا وتؤذوننا ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ [المائدة:59]، إلا بأن آمنتم بإيمان تقليدي بياني، وآمنّا بالله وبأنوار هدايته إيمانًا حقيقيًا عيانيًا ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [المائدة:59]، من الواردات الربانية والعلوم اللدنية ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة:59]، على الأنبياء من الكتب الإلهية بكشف حقائقها ومعانيها، ورشق دقائقها ومبانيها ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:59]، خارجون عن الصراط المستقيم من طلب الحق إلى طلب الدنيا وشهواتها، والرضا على جميع أموالها وطلب رياستها، ثم أخبر عمن هو بِشَرٍّ حاله.

وروى خصاله بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ [المائدة:60]، الإشارة أن الله تعالى جعل لإظهار قهره بعض الجواهر الإنسانية المستعدة لقبول فيض صفة اللطف من الرحمانية والمحبة الربانية؛ مستحقًا لقبول فيض صفة القهر من الطرد واللعن والغضب، ينزله أحسن المنازل، ويبعده عن نعت الأخيار الفواضل، وليسكنه حضيض الأشرار الأرازل، مخذولاً عن صراط سوى الطريقة، محجوبًا عن شهود الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 60]، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:60]؛ أي: جعل صفة القردية والخنزيرية وعبد الطاغوت من بعض أفاعيلهم ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [المائدة:60]؛ يعني: من هؤلاء ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:60]؛ أي: عن طريق الحق المعني أن القردة والخنازير، وإن كانت ضالة عن طريق الحق بعدم الاستعداد وهؤلاء الذين كانوا مستعدين لسلوك سبيل الحق والوصول إليه، ثم مكانًا منهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وأضل الأبطال استعداد الوصول كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179]، وذلك لأن من أعمالهم أنهم ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة:61]، بالنفاق ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾ [المائدة:61]، لا بالإيمان ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: 61]؛ أي: الكفر وليس هذا النفاق من شأن القردة والخنازير، فيقدم النفاق الكفر نزلوا إلى أحسن التنازل وصاروا أشر الأرازل ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:61]؛

أي: يخفون من رزائل الأخلاق وخبائث الأعراق ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة:62]، من هذه الطائفة ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ [المائدة:62]؛ أي: يسمون بجذب عظيم في طلب الدنيا ولذاتها وشهواتها ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:62]، إلى مخالفة الأوامر وتتبع النواهي ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة:62]؛ أي: إطعامهم فيما سوى الله وإعراضهم عن الحق ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:62]؛ لأنهم بهذه الأقدام ينزلون إلى أسفل السافلين ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ [المائدة:63] وهم المشايخ الواصلون من أهل التربية بتسليكهم إياهم إن كانوا مستسلمين قابلي التصرف ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:63]، علم العلماء المتقون يدعوهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ [المائدة:63]، في طلب الدنيا وما فيها ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة:63]، فهو كل شيء غير الحق ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:63]، المشايخ والعلماء في ترك النصيحة «وإنما الدين النصيحة»(1) ولولا حقيقة هذا المعنى في التوبيخ لما اشتغل أهل الله المحققون بدعوة الخلق، وتربيتهم لاستغرابهم في مشاهدة الحق، ومؤانستهم به.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾ [المائدة: 64 - 66].

ثم أخبر عن بعض موجبات اللعنة لأهل الغفلة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:64]، إشارة أن الله تعالى مهما وكل الإنسان إلى خصائص نفسه وخساسة طبعه وركاكة نظره وعقله بالخذلان يترشح بما في إنائه من صفاته الظلومية

(1) رواه النسائي في «سننه» (7/ 156)، والبيهقي في «الشعب» (4/ 323).

والجهولية التي جبل عليها حتى يظن السوء، ويقول على الله ما لا يعلم، كما قالت اليهود: يد الله مغلولة؛ أي: من إصابة الخير ومهما أدركته العناية الربانية وأيده بالتأييد الإلهي فما ينطق عن الهوى إلا بما يُلهم أو يوحي كما قال ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(1) ثم أصابهم الحق، وقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: 64]؛ أي: أيديهم عن إصابة الخير مغلولة، وشأنهم عن تنسيم روائح الصدق مزكوة، وإنهم عن أبواب الحق مطرودون إلى خصائص النفس مردودون ثم أثنى على نفسه فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64]؛ أي: يد اللطف ويد القهر ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:64]، من خزائن اللطف والقهر على المؤمنين من الهداية والإيمان، والإحسان على الكافرين من الضلالة والغواية والكفران وعذاب النيران؛ فيرفع قوة للدرجات العلى ويضع آخرين الدركات السفلى، ويدفع عن قوم الشر والبلاء ويمنع عن قوم الخير والنعماء بل يعم نعم الدفع أو يخص نعم النفع ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:64]، فيه إشارة إلى أهل الحسد فإنهم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله، وينكرون ذوي الفضل فلا يزيدهم الحسد إلا الطغيان فكما أن مصائب قوم عند قوم فوائد كذلك قوم عند قوم مصائب، ثم أدرك الحسد خذلان الحق وجعل بأسهم بينهم كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة:64]، فلا يوجد ذو جلالاً بينه وبين صاحبه في الحسد عداوة وبغض، والحقد إلى أن يتوارثوا بطنًا عن بطن فلا يكون بينهم موافقة في الحقيقة ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ [المائدة:64]؛ أي: يجتمعون لإثارة الفتنة على أهل الحقيقة ويتعفون على إظهار الباطل﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة:64]، نار مكرهم وشتت عليهم أمرهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:64]، بإظهار الإنكار والغيبة والبهتان وتقبح أحوال أهل الحق عند العوام؛ لكسر قلوبهم في نظر الخلق ليحقروا بعد وقرُوا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:64]، الذين يفسدون اعتقاد الخلق في أرباب الصدق وأهل الحق.

ثم أخبر عن إصلاح حال من يقبل الصلاح بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (24/ 267)، ومسلم في «صحيحه» (6/ 291).

آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [المائدة:65]، الإشارة ولو أن أهل الكتاب؛ يعني: أهل العوام الظاهر وآمنوا بالعلوم الباطنة وأقروا وصدقوا أهلها فيما يخبرون عنها، واتقوا الإنكار والاعتراض والحسد عليهم لكفر عنهم سيئاتهم، وهي الغفلة عنها والجهل بها والإنكار عليها، والحسنات التي تصدر عن الأبرار بالعكوف على الأعمال البدنية دون القلبية ولزوم العلوم الظاهرة بالإعراض عن العلوم الباطنة، فإنها سيئات المقربين ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة:65]؛ أي: لأنزلناهم مع المقربين منازل الأولياء والصديقين ودرجات الشهداء والصالحين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة:66]، في القرآن المجيد والكتب المنزلة والصحف الأولى؛ يعني: لو علموا بمقتضياتها ولزموا مستحسناتها، وهي تزكية النفس عن خصائصها الذميمة وتحليتها بدوام الذكر ومراقبة السر لحصول الأخلاق الكريمة ومخالفة الهوى وإيثار الآخرة على الأولى يدل على هذا التحقيق قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:14] إلى آخر السورة.

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة:66]؛ يعني: رزقوا من الواردات الروحانية والمشاهدات الربانية ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة:66]؛ أي: تسخر النفس بالهمم العلية بأن ينهوها ويجعلوا مرادتها تحت أقدامهم ليصلوا إلى مقامتهم كقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40-41]، ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66]؛ أي: علماء السوء ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:66]، فيما يحسدون أهل الحق وينكرون عليهم ويؤذونهم بالكذب والافتراء والتخطية.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ [المائدة: 67 – 70].

ثم أخبر عن تبليغ الرسالة وعدم الالتفات بأهل هذه الحالة وسوء المقالة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:67]، إشارة إن الله تعالى أمر الرسول ﷺ أن يبلغ الرسل إليه من دينه مطلقًا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:67]، فاندرج تحت الأمر ما أنزل إليه من ربه من الوحي والإلهامات والمنامات والوقائع والواردات والمشاهدات والكشوف والأنوار والأسرار والأخلاق والمواهب والحقائق ومعاني النبوة والرسالة كلها.

ثم أكد الأمر بقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:67]؛ لأن الحكمة في إرسال الرسول أن يكون الرسول داعيًا إلى الله بإذنه، ويكون لهم في سلوك الطريق هاديًا إلى صراط مستقيم إلى الله وسراجًا منيرًا يهتدي به ويقتدي إلى أن يوصلهم إلى الله تعالى، فحقائق النبوة والرسالة والمشاهدات والكشوف كلها منازل منارات ومقامات أحوال الواصلين السائرين إلى الله تعالى، فالرسول إن لم يبلغ بعض هذه الحقائق إلى العباد؛ فلا يمكنهم الوصول إلى الله تعالى، فلا يحصل مقصود ما أرسل منه، ففي الحقيقة ما بلغ رسالته بالكمال إلا أن للتبليغ مراتب بحسب ما أنزل إليه، كما أنزل إليه بأحوال مختلفة، فالتبليغ بالعبادة؛ وتبليغ بالإشارة وتبليغ بالتأديب والتهذيب، وتبليغ بالتعليم وتبليغ بالتزكية وتبليغ بالتحلية وتبليغ بالأخلاق وتبليغ بالضرة وتبليغ بجذبات الولاية، وتبليغ بقوة النبوة والرسالة وتبليغ بالشفاعة، وهذا سر عظيم يتضمن حقائق كثيرة، ولهذا السر قال ﷺ: «يحتاجون إلى شفاعتي يوم القيامة حتى إبراهيم ﷺ»[1].

واعلم أن للحق أيضًا مراتب في قبول الدعوة والرسالة وحقائقها، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ [الأنعام:124]، حيث يجعل رسالته، ولهذا التفاوت في قبول الدعوى على حسب الاستعدادات المختلفة، قال أبو هريرة ﷺ: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم، فأما أحده فقد بثثته، وأما الآخرة فلو بثته ليقطع هذا البلعوم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ

(1) ذكره حقي في تفسيره (4/ 294).

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(1) [المائدة:67]؛ أي: يعصمك بأوصاف لاهوتيك عن أوصاف ناسوتيتك؛ لتتصرف في الخلق بقوة اللاهوتية فتوصلهم إلى الله، ولا يتصرفون فيك فيقطعوك عن الله ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:67]؛ يعني: من سنته ﷺ أن لا يهدأ إلى حضرته قومًا جحدوا نبوة الأنبياء، وما قبلوا رسالة الرسل ليبلغوا إليهم ما أنزل إليهم من ربهم، وأنكروا على الأولياء وما استمسك بعروة ولايتهم؛ ليوصلوهم إلى الله تعالى سنة الله ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:23].

ثم أخبر أن المتمسكين بأقوال أهل الحق بقوامات ما ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة:68]، إشارة أن الخطاب يعم جميع من أنزل إليهم الكتب، ويخص لأرباب العلوم الظاهرة المحرومين عن العلوم الباطنة ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المائدة:68]، من حقيقة الدين بمجرد تعلم العلوم الظاهرة وشرائع الدين، أنتم الغافلون عن العلوم الباطنة وحقيقة الدين ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة:68]؛ يعني:حتى تقيموا أحكام ظاهرها وباطنها، وزينوا ظاهركم وباطنكم بالأعمال والأحوال التي يشير إليها ظاهريًا وباطنها وهذا احتمالاً بتصور إلا بمقدمتين ونتائج أربع، فأما المقدمتان فأولها: الجذبة الإلهية، وثانيها: التربية الشيخية، وأما النتائج فأولها: الإعراض عن الدنيا وما يتعلق بها كلها، وثانيها: التوجه إلى الحق بصدق الطلب، وهي من نتائج الجذبة، ثم تزكية النفس عن الأخلاق الذميمة وتحلية القلب بالأخلاق الإلهية، وهما من نتائج التربية الشيخية باستمداد القوة النبوية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة:68]؛ يعني: من العلماء التوبة ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:68]، من أنصاف الربوبية يا أهل التحقيق في العبودية ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:68]، إنكارًا وحسدًا ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ [المائدة: 68]، يا أهل التحقيق ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:68]، الجاحدين المنكرين فإنهم خلقوا مستعدين لهذا الإنكار الموصل إلى دركات النار.

ثم أخبر عن إيمان أهل الإتقان بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

(1) أي: يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم، ويقال: يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجودًا بين طرفي العَدَم [تفسير القشيري (2/ 148)].

﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة:69]، إشارة أن من ادعى الإيمان وأظهر من الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ﴿وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ﴾ [المائدة:69]، من هؤلاء ﴿بِاللهِ﴾ [المائدة:69]، بهداية الله ونوره ولا بالتقليد والنفاق بالعادة المعتادة بين قومه وأهل بلده ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المائدة:69]؛ أي: شاهد بنور الله الذي حقيقة الإيمان يوم الآخرة وحقيقة الجنة والنار كما قال حارثة ﷺ وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وأهل النار يتعادون ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:69]، فيما لا يكون على شيء فإنهم يقيمون بأنك كنز التوراة والإنجيل والقرآن عملاً بالظاهر والباطن ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:69]، على ما يقاسون من شدائد الرياضات والمجاهدات من مخالفات النفس في ترك الدنيا، وقمع الهوى ولا على ما أصابهم من البلاء والمحن والمعيبات والآفات، وهذا حال خواص الأولياء كما قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62].

ثم أخبر عن أهل الهوى بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 70]، الإشارة إنا لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل؛ يعني: يوم الميثاق مع ذريات بني آدم؛ إذ أخرجهم من ظهر آدم في التوحيد والمعرفة في غيبة الأجساد، ثم ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ [المائدة:70]، في حضورهم بالأجساد في عالم الشهادة من الإلهامات الربانية والواردات الروحانية والرسل الحسدانية ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ [المائدة:70]، من هؤلاء ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ [المائدة:70]؛ أي: على خلاف هوى نفوسهم وكانوا مغلوبي الهوى يحجبهم الهوى عن استماع الحق ورؤية الشواهد ومعرفة الرسل ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ [المائدة: 70]، من الإلهامات والواردات ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:70] من الرسل ظاهرًا فعبدوا الهوى، واتخذوا إلههم أهوائهم.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: 71 – 72].

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ﴾ [المائدة:71]، عبادة الهوى وتكذيب الرسل وقتلهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ [المائدة:71]، عليهم وإن سألوا عقوبتها عاجلاً دون أجلاً ﴿فَعَمُوا﴾ [المائدة:71]، بعيون القلوب عن شواهد الحق ﴿وَصَمُّوا﴾ [المائدة:71]، بآذان القلوب عن استماع الإلهامات وإحساس الواردات عقب غلبة الهوى، وتكذيب الرسل وقتلهم عقوبة لذلك عاجلاً ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:71]؛ أي: على بعضهم من قابل التوبة وأهل الرجوع إلى الحق ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ [المائدة:71]؛ يعني: بعضهم ممن لم يكونوا قابلي التوبة وأهل الرجوع، كما بين وقال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ [المائدة:71]، في الأزل بتقدير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:71]، اليوم من الخير والشر، فقدر ما شاء كما شاء لمن شاء، فيجازيهم ما يشاء ومهما يشاء.

ثم أخبر عن بعض ما قدر لمن قدر كيف قدر بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:72]، إشارة أن النصارى لما أرادوا أن يسلكوا طريق الحق بعدم العقل وينظروا إلى أحوال الأنبياء بنظر العقل تاهوا في أودية الشبهات؛ فانقطعوا في بوادي الهلكات جل جناب القدس عن إدراك الأنس هيهات هيهات، وهو حال من يقفوا أثرهم فأطرت النصارى عيسى عليه السلام إذ نظروا بالعقل في أمره، فوجدوا مولوداً من أم بلا أب فحكم عقلهم أن لا يكون مولود بلا أب، فينبغي أن يكون هو ابن الله واستدلوا على ذلك بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويخبر عما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون وهذا من صفات الله، ولو لم يكن المسيح ابن الله لما أمكنهم هذا، وإنما أمكنه لأن الولد سرُّ أبيه، وقال بعضهم: إن المسيح لما استكمل تزكية النفس عن صفات الناسوتية حلّت لاهوتية الحق في مكان ناسوتيته؛ فصار هو الله تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرًا، ثم اعلم أن أمة محمدًا ﷺ لما سلكوا طريق الحق بأقدام جذبات الألوهية على وفق المتابعة الحبية أسقط عنهم كلفة الاستدلال ببراهين الوصول والوصال، كما كان حال الشبلي ـ رحمه الله ـ حين غسل كتبه بالماء فكان يقول: نعم الدليل أنتم، ولكن الاشتغال بالدليل بعد الوصول إلى المدلول محال، فهؤلاء القوم بعد ما وصلوا إلى سرادقات حضرة الجلال شاهدوا بأنوار صفات الجمال أن الإنسان هو الذي حمل أمانة الحق من بين سائر المخلوقات، وهي فيض نور الإلوهية بوساطة الأنبياء فهم مخصوصون بأحسن التقويم

في قبول هذا الكمال؛ فيتحقق لهم أن عيسى عليه السلام لما صار قابلاً بعد التزكية والتخلية والمحبية كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله؛ أعني كان صورة الفعل منه ومنشأ صفة الخالقين حضرة الألوهية، وهذا كما أن لكرة البلور المخروط استعداد في قبول فيض الشمس إذا كانت في محاذاتها، فتقبل الفيض وتحرق اللوح المحاذي لها بذلك الفيض فمصدر الفعل المحرق من الكرة ظاهرًا ومنشأ الصفة المحرقية حضرة الشمس حقيقة؛ فصارت الكرة بحسن الاستعداد قابلة للفيض والمظهر منها صفات الشمس، وما حلت الشمس في كرة البلور تفهم إن شاء الله وحده.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ [المائدة: 73 - 75].

وكذلك حال الأنبياء في المعجزات وكبار الأولياء في الكرامات والفرق أن الأنبياء مشتغلون بهذا المقام والأولياء متبعون، فالله تعالى كفر الحلولية والأقانيمية وهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية من النصارى، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:72]؛ أي: ضل به وأثنى على توحيده عليه السلام وإقراره في العبودية ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:72]، بالخالقية والمالكية؛ يعني: الذي أعبده وأنتم عبيده وهو ربه وربكم بالخالقية ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ [المائدة:72]؛ أي: يقول بإلهية أحد غير الله فهذا شرك لا يغفر، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:72]، وأما شرك الرياء فيحمل المغفرة ولا يحرم عليه الجنة بل يحرم عليه القربة، ومن حُرِّم الجنة ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة:72]، فيعذب بنار الفرقة مع الحرقة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:72]، الذين وضعوا الإلهية غير موضعها ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:72]، يوصلون لهم ما قطعوا على أنفسهم من عقد التوحيد.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:73]؛ يعني: في اللاهوتية كفرهم الله بأنهم أضافوا اللاهوتية إلى ثلاثة وأثبتوا عند أمه، وهذا من غاية الخذلان، ويحكم العقل عليه بالبطلان أن عيسى ابن مريم عليه السلام كانا محدثين مخلوقين والمحدث المخلوق كيف يكون إلها خالقًا قديمًا، وهذا لا يخفى على المجانين فكيف على العقلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة:73]، الذي هو صانع كل شيء وخالقه ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة:73]، بما قالوا ويكفرهم ﴿مِنْهُمْ﴾ [المائدة:73]؛ أي: من الذين لم ينتهوا عن هذا القول؛ لأن الله قدر لهم الكفر بين تقي من تقي في بطن أمه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:73]، لا يفارقهم أبدًا ألمه.

ثم أخبر أن باب التوبة عليهم مفتوح، وأن الغفران ممنوح بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:74]، إشارة أن الله تعالى نفى الألوهية عن عيسى عليه السلام وأثبت له بنوَّته من مريم، وأنه اشتملت عليه الأرحام وتناوبته الأيام، وأثبت له الرسالة وأثبت الرسل قبله، وإنهم قد خلوا، وإن ما يظهر منه من المعجزات فهو مثل ما كان يظهر من الرسل، وأثبت أنها مريم أم عيسى، وإن لها مقام الصديقية التي هي تتلو النبوة ونفى الإلهية عنها، وأثبت الحاجة الماسة إلى الطعام لها وإصابة الضرورة إلى أن يتخلصا من قضايا الطعام، احتج بهذه الضرورات البشرية عدم استحقاق الربوبية لهما ونفي الإلهية عنهما وغير ذلك من الأسرار والحقائق في ضمن هذه الكمالات البليغة الفصيحة المعدودة، وهي قوله تعالى:﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة:75]، إلى قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة:75]، ثم قال تعالى إظهارًا لما بين الآيات إلى ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ [المائدة:75]، وهي تضمين المعاني والحقائق الكثيرة في هذه الألفاظ اليسيرة، والآية الأخرى هي نفس عيسى ومريم، كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: 50]، وذلك أن آية الأنبياء فيها غير أنفسهم إعجاز الخلق، وكان آية عيسى وأمه في نفسهما بأن مريم ولدت مولودًا من غير زوج، وأن عيسى ولد من غير أب إظهارًا للقدرة ﴿ثُمَّ انْظُرْ﴾ [المائدة:75]؛ أي: من جعلهم الله بالخذلان ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171]، ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:75]؛ أي: يصرفون عن وجه الحق مع ظهور

الآيات الدالة عن الحق.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [المائدة: 76 - 79].

ثم نفى إيصال النفع والضر عن قدرة عيسى عليه السلام مع تمكينه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: 76]؛ لكي تهتدوا إلى التوحيد، ولتعلموا أن ما ظهر عن عيسى عليه السلام من الإبراء والإحياء كان بإذن الله وقدرته ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ [المائدة: 76]، بما تحدث به أنفسهم عند تعليق القلوب بدون الرب في استدفاع الشر واستجلاب الخير ﴿الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: 76]، بمن يدفع عنهم الشر ويصيبهم الخير، فإذا الضار والنافع وهو الذي يخاف ويرجى في الضراء والسراء لا غير.

ثم أخبر عن الغلو من السلو بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 77]، إشارة أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 77]، مع المقلدين من أهل الكتاب؛ لأنه قال ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ أي: في مذهبكم الذي اتخذتم بالتقليد من أهل الأهواء والبدع، ما قال في الدين مطلقًا؛ لأن الغلو في دين الحق حق، ولهذا قال تعالى: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 77]؛ أي: فيما غير الحق من دينكم؛ يعني: الغلو بما هو الحق من دينكم حق، ثم أكد ما بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: 77]؛ إذ غلب عليهم الهوى فاتخذوه إلهًا يعبدونه على اتباعه، وزين الشيطان في أعينهم الشبه المعقولة والمشوبة بالهوى فضلوا بها من قبل ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا﴾ [المائدة: 77]، من جهال المبتدعة ومقلديهم في اتباع أهوائهم وشبههم، وضلوا يعني: كلا الفريقين التابع والمتبوع ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77]؛ يعني: استقامة طريق الوصول إلى الحق، فإن

الهداية الحقيقية هي الانقطاع عن الخلق والتولي عن طريقه ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 78]، فيه إشارة إلى سر الخلافة، وهو أن الإنسان الكامل الذي يصلح للخلافة الحق هو مظهر صفات لطفه للحق وقهره، فقبولهم قبول الحق، وردهم رد الحق، ولعنهم لعن الحق، وصلاتهم صلاة الحق، فمن لعنوه فقد لعنه الحق، ومن صلوا عليه فقد صلى عليه الحق؛ لقوله تعالى لنبيه وحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: 103]، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: 43]، فمظهر اللعن كان لسان داود وعيسى، وكانت اللعنة من الله حقيقة، كقوله: ﴿لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء: 47]، وهم الذين لعنهم داود عليه السلام صرح هاهنا أن اللعن كان منه تعالى، وإن كان لسان داود ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: 78]؛ أي: موجب اللعن كان مخالفة أمر الحق والاعتداء وهو الإصرار على العصيان وترك التوبة يدل عليه بالعدة ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: 79]؛ يعني: كانوا يصرون على فعل المنكر، وإنما سمي العصيان منكرًا؛ لأنه يوجب المنكرة كما سمي الطاعة معروفًا؛ لأنها توجب المعرفة ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]، الإصرار على الفعل المنكر لأن الإقدام على الفعل المنكر معصية والإصرار على المعصية كفر.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾ [المائدة: 80 - 81].

ثم أخبر عن نتائج إصرارهم بقوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 80]؛ يعني: من المُصرين ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 80]، وتوليه الكافر في كفره، كقوله ومن يتلوهم منكر، فإنه منهم ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [المائدة: 80]؛ يعني: ما يقولون الكفار ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 80]؛ لأن ذلك التولية موجبة لسخط الله عليهم فإن موالاة الأعداء توجب معادات الأولياء ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: 80]؛ يعني: عذاب معادات الحق لا ينقطع أبدًا.

ثم استدل على كفر من يتولى الكافر وهو يزعم أنه مؤمن بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [المائدة:81]، إيمانًا حقيقيًا ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ [المائدة:81]، ويؤمنون بنبوة محمد ﷺ على التحقيق لا على التقليد ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ [المائدة:81]، من القرآن والحكمة والحقائق ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:81]؛ لأنهم أعداء الله والمؤمنين من كان الله وليه والرسول والمؤمنون، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:257]، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة:81]؛ يعني: من الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله والنبي ﴿فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:81]، خارجون عن وصف الإيمان وحقيقته، وهم يظنون أنهم يؤمنون وهم أهل الأهواء والبدع، ومفهوم الخطاب أن أيضًا كثيرًا منهم مؤمنون على الحقيقة.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: 82 - 83].

ثم أخبر عن اليهود وشدة عداوتهم والنصارى وقرب مودتهم بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ [المائدة:82]، إشارة أن اليهود لما انحرفوا عن الصراط المستقيم وانصرفوا عن الدين القويم شاركوا المشركين في إبطال الاستعداد الروحاني لقبول الإسلام الفطري؛ فصاروا أضداداً وأعداءً لأهل الإيمان أشد عداوة لهم من جميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة:82]، وذلك لأنهم بدلوا دين موسى عليه السلام بما اقتضت آراءهم واتبعوها وأشهدت أهواءهم وفازوا بالطبيعة على الشريعة، وتساووا مع المشركين في الكفر بالحقيقة، ثم بين الله تعالى أن النصارى الذين يبدلون دين عيسى عليه السلام لما أخذوا بوصية عيسى عليه السلام واتبعوا العلم والعبادة والرتب، ولم يبطلوا استعدادهم الروحاني القابل للإسلام الفطري ثبت لهم، والمودة لأهل الإيمان لمناسبة أرواحهم فإن تعارف الأرواح يوجب الائتلاف بين الأشباح فقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:82]؛ يعني: مقاربة النصارى إلى أهل الإيمان ومودتهم إياهم ببركة علمائهم تحققوا بعلمهم ورهبهم وصفاء قلوبهم وصدق طويتهم أن دين الإسلام حق، وعرفوا أمارات وعلامات وجدوها في الإنجيل في وصف محمد ﷺ وأصحابه وحقيقة دينه كما أخبر الله تعالى عن حالهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:83]، فكانوا يخبرون النصارى ما وجدوه في الإنجيل من نعت محمد ﷺ فالمستعدون منهم للإيمان يؤمنون به ويصدقونه، فإذا بلغ إليهم الدعوى يتفادون ولا يستكبرون، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:82]، حين دعوا إلى التوحيد بخلاف المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: 83]، إشارة أنهم سمعوا إذا سمعهم الله لما علم فيهم خيرًا من أحسن الاستعداد الفطري في إنزال إلى الرسول من كلامه القديم كما أنزل إلى الذرات التي أخرجها من ظهر آدم إذ قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، فأسمعهم كلامه ووفقهم للجواب الصواب حتى شهدوا بربوبيته وقالوا: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:172] فكذلك أسمعهم هاهنا كلامه وعرفهم حقيقة كلامه؛ فاشتاقوا إليه وتذكرت قلوبهم ما شاهدوا عند الميثاق من تلك المشاهدة؛ فبكوا بكاء الشوق وبكاء المعرفة كما أخبر عنهم، وقال تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:82]، في الحق على أرواحهم؛ فكوشفت في الغيب بشواهد الحق فعرفوه وآمنوا به قالوا: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:83]، الذين شهدوا يوم الميثاق بالربوبية طوعًا ورغبة، فإن بعض الأرواح شهدوا كرهًا ورهبة.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ

مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: 84 - 88].

ولهذا اختلفت أحوالهم هاهنا ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ [المائدة:84]، بعد شهود الشواهد ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:84]، من لوامح المعرفة وطوالع المحبة ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة:84]؛ يعني: فلما شهدنا الشواهد اشتقنا إلى المشاهدة وطمعنا في الدخول في زمرة الواصلين وجملة الصالحين للوصال والوصول ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة: 85]، فعل إثابة الجنان بما قالوا عن شهود، ومفهوم الخطاب مبني بأنهم موحدون بما نالوا وبما سألوا وقالوا: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:85]، الذين يعبدون الله على الشواهد والشهود فإن «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»(1).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة:86]، ستروا بحجب أوصاف البهيمية والسبعية والشيطانية؛ فأعمهم الله وأعمى أبصارهم اسمعوا فلم يسمعوا شاهدوا فلم يبصروا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [المائدة:86]؛ إذ لم يبصروا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: 86]؛ أي: هم الذين خُلقوا للنار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:179].

ثم أخبر عمن سمعوا فاستمعوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:87]، إشارة أن الله تعالى خاطب من رزقهم الإيمان الحقيقي وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾، أي: لا تحرموا على أنفسكم بشغل الاستعداد بتمتعات الحيوانية والانتفاعات الجسمانية أي: طيبات ما أحل الله لكم خاصة دون سائر المخلوقات من الحيوانات والمنافقين والكفار بل فضلاً على الملائكة المقربين، وهي المواهب الربانية عند صفاء الروحانية من المكاشفات وحمل الأمانة التي اختص بحملها نفس الإنسانية، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾، أي: عدها لكم وأعدكم لها ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:87]، ولا تجاوزا عن حد العبودية بدعوة النبوة والحلول والاتحاد، وهما كالنصارى والحيلولية وبعض الشطاح تعالى الله عما يقول الظالمون

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (16/ 12)، ومسلم في «صحيحه» (1/ 114).

ويتوهمه الجاهلون علوًا كبيرًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:87]؛ يعني: من تجاوز حده إلى ما ليس هو حده ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:88]؛ أي: جدوا واجتهدوا في طلب ما رزقكم وخصكم به من تجلي جماله والجلال ما يكون بريئاً من وصمة الحدوث من مواهب الحق، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب فالطيب الذي يقبله الحق من أن يكون متبرئًا عن المحدثات؛ ليكون محلاً لقبول ما هو بريء من وصمة الحدوث فافهم جيدًا، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:88]؛ أي: اتقوا من غير الله بالله لتكونوا واصلين به بعدما أنتم به مؤمنون.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: 89 - 91].

ثم أخبر عن لغو أيمان أهل الأيمان بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة:89]، إشارة أن لا يؤاخذكم أهل الفقه باللغو في أيمانكم عند استيلاء النفس وغلبات صفاتها وسلطان الهوى في أثناء المجاهدة وشدة المكابدة وإعواز المشاهدة أن تحلفوا بالآيات على التبرم من ولاية ملالة النفس وكلالة التقوى، ثم إذا كشطت عن سموات قلوبكم غمام القبض تعدون الولاء عين الفرض ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة:89]، على الهجران وقصدتم الصدود بالخذلان فأبديتم الشاقة وأخفيتم الكرامة وتعرضتم للملامة ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ [المائدة:89]؛ أي: فكفارة ما عقدتم وقصدتم إليه ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة:89]، وهم الخواص الخمس الظاهرة والباطنة فإنها مدخل الآفات وموئل الفترات ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة:89]، وهم القلب والسر والروح والغنى، وطعامهم الشوق والصدق والإخلاص والتفويض، وعملهم الرضا والأنس والهيبة والشهود والكشوف بواسطة الذكر والتذكير، وتفكروا والتفكر والتشوق والتوكل والتعبد والخوف والرجاء، فإطعام الحواس الظاهرة والقوى الباطنة هذه الأطعمة باستعمالها في التعبد بها والتحفظ عما ينافيها ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ [المائدة:

89]، وهو ألباس الحواس والقوى بلباس التقوى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:89]، النفس عن عبودية الهوى والحرص على الدنيا: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ [المائدة:89]، السبيل إلى هذه الأشياء ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:89]، وذلك لأن الأيام لا تخلو عن ثلاث إما يوم قد مضى، أو يوم قد حضر، أو يوم قد بقي، فصيام اليوم الذي قد مضى بالإمساك عما عقد عليه أو قصد إليه أو بالصبر على التوبة عنه، وصيام الذي قد حضر بالإمساك عن التغافل عن الأهم وبالصبر عن الجد والاجتهاد، وبذل الجهد في طلب المراد وصيام اليوم الذي قد بقي بالإمساك عن فسخ العزيمة في ترك الجريمة، وفسخ الإخلاص في طلب الخلاص وبالصبر على قدم الثبات في تقديم الطاعات والمبرات وصدق التوجه إلى حضرة الربوبية بمساعي العبودية من لغو اليمين عند أرباب اليقين أعلم أن الطالب الصادق عند غلبات الشوق ووجدان الأرق يقسم عليه بكماله وجلاله أن يرزقه شظية من إقباله ووصاله وذلك في شريعة الرضا لغو، وفي مذهب التسليم سهو فيعفو عنه رحمة عليه لضعف حاله ولا يؤاخذه بمقاله، وإن الأولى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت جريان أحكام المولى في القبول والرد والإقبال والصد وإيثار الاستعانة في أداء حقوقه على الكرامة، وعلى لذة تقريبه وإقباله وشهوة وصوله ووصاله، كما قال قائلهم:

أريـــد وصـــاله ويـــريد هجـــري   فأتـــرك مـــا أريـــد لمـــا يـــريد

وحقـــك مـــا نظـــرت إلى ســـواك   بعـــين مـــودة حتـــى أراك

وهذا حكم التوحيد لغو وعن شهود الأحدية سهو وأين في الدار ديار، ومن أنت في الرفعة حتى يتحقق لك وصله أو بحره بل هو الله الواحد القهار ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [المائدة:89]، وفي مرآة روحه وصفاته الوحدانية القهارية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:89]، نعمة رؤية هويته بوحدانيته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: 90 - 91].

ثم أخبر عن الاجتناب عن الخمر والميسر والأزلام والأنصاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: 90]، إشارة أن الله تعالى أخبر عباده المؤمنين عن الأعمال التي يوسوسهم بها الشيطان ويضلهم عن طريق الهدى ويهلكهم بمتابعة الهوى، وإن النجاة والفلاح في اجتنابها فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:90] إيمانًا حقيقيًا مستفادًا من كتابة الحق بقلم العناية في قلوبهم ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:90].

﴿إنما الخمر﴾ فلأنها تخمر العقل وهو نور روحاني علو من أوليات المخلوقات ومن طبعه الطاعة والانقياد والتواضع لربه كالملك وضده الهوى، وهو ظلمة نفسانية سفلية من أخريات المخلوقات من طبعه التمرد والمخالفة والآباء والاستكبار عن عبادة ربه كالشيطان، فإذا خمر الخمر نور العقل يكون العقل مغلوبًا لا يهتدي إلى الحق وطريقه، ثم يغلب ظلمة الهوى فتكون النفس أمارة بالسوء وتستمد من الهوى فيتبع بالهوى السفلي جميع شهواتها النفسانية مستلذاتها الحيوانية السفلية، فيظفر بها الشيطان فيوقعها في مهالك المخالفات كلها ولهذا قال ﷺ: «الخمر أم الخبائث»[1] لأن هذه الخبائث كلها تولدت منها.

وأما الميسر فإنه فيه تهيج أكثر الصفات الذميمة مثل الحرص والبخل والكبر والغضب والعداوة والبغض والحقد والحسد وأشباهها وبها يضل العبد عن سوء السبيل.

وأما الأنصاب فهي تعبد من دون الله فيها يصير العبد مشركًا بالله.

وأما الأزلام ما يلتفت إليه عند توقع الخير والشر والنفع والضر من دون الله وأنها من المضلات، فإن الله هو الضار النافع، ثم قال تعالى: ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:90]؛ يعني: هذه الأشياء أحب شيء من أعمال الشيطان التي يغوي بها العبد ويضلهم عن صراط الحق وطريق الرشاد، ثم قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:90]، يعني: اجتنبوا الشيطان ولا تقبلوا وساوسه واتركوا هذه الأعمال الخبيثة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90]، تخلصون من مكائد الشيطان وجناية هذه الأعمال آفاتها ومحنها وتظفرون بالقربات والمواصلات ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾

---

(1) رواه الدارقطني في «سننه» (15/ 470)، والطبراني في «الأوسط» (4/ 81).

[المائدة:91]، والصفات الذميمة التي ذكرناها ﴿فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة:91]، كما ذكرناها ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة:91]؛ يعني: عن شهود قلوبكم مع الله تعالى ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة:91]؛ يعني: لذة المناجاة مع الله تعالى وعروج الأرواح إلى الله فإن الصلاة معراج المؤمن ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة:91]؛ أي: فاتركوا هذه المعاملات التي من عمل الشيطان لتفوزوا بمواصلات الرحمن في نعيم الجنان.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94)﴾ [المائدة: 92 – 94].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [المائدة:92]، فيما يأمركم بما يقربكم إليه ويباعدكم عنكم ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة:92]، يخرجكم من ظلمات وجودكم إلى نور شهود معبودكم ﴿وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:92]، المخالفات فإنها تباعدكم عن الله وتزيد في حجب أنانيتكم ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [المائدة:92]، عن طلب الحق في متابعة النبي ﷺ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:92]؛ يعني: على الرسول التبليغ والدلالة وعليكم المتابعة وعلينا التوفيق والهداية ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:93]، يعني: بالتقليد لا بالتحقيق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة:93]؛ أي: حافظوا على الأوامر والنواهي ﴿جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة:93]؛ يعني: من المباحات ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ [المائدة:93]، الشبهة والإسراف ﴿وَآمَنُوا﴾ [المائدة:93]، بالتحقيق بعد التقليد، فإن الأعمال الصالحات أنوار الهداية واتقاء الشبهة فعلى أقدر الأعمال يتنور القلوب بالأنوار، وعلى قدر الأنوار تكاشف القلوب بالأسرار ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة:93]، ففائدة التكرار فيه أن الأذل يشير إلى الأعمال البدنية مثل المحافظة على الأوامر والنواهي، والثاني يشير إلى الأعمال القلبية مثل تصفيته القلوب عن دنس كل حب في حب الله وطلبه تحليتها بالصدق والإخلاص والتوكيل والتسليم والرضا واليقين ويجميع الأخلاق الحميدة ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾

[المائدة:93]، الالتفات بغير الله بحيث ما رضوا من الله بشيء دونه ﴿وَآمَنُوا﴾ [المائدة: 93]، بواحدية أي: تيقنوا أنه تعالى المعاصي يوجد باب لطفه كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني»[1]، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ [المائدة:93]، ترك اللاإثنينية ببذل الأنانية وإفنائها في هويته ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة:93]، تهدوا الحق بالحق فإن «الإحسان أن تعبدوا الله كأنك تراه»[2] ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:93]، الفانين عن أنانيتهم والباقين بهويته المشاهدين بأنوار جماله إلى جلاله، فهم القوم الذين قال تعالى فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وحقيقة الإشارة أن المحبوب الأزلي من هذا سيره وسيره لا يضره التصرف في المكونات بمحصول هذا الشرائط فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن ابتلاء أهل الولاء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ [المائدة:94]، إشارة إن الله تعالى جعل البلاء لأهل الولاء كاللهب للذهب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: إيمان المحبين الذين تجردوا عن ملاذ الدنيا وشهواتها من الحلال والحرام، وأحرموا بحجج الوصول وعمرة الوصال ليبلونكم الله في أثناء السلوك بشيء من الصيد، وهو ما سنح من المطالب النفسانية الحيوانية والمقاصد الشهوانية والدنياوية ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ [المائدة:94]؛ أي: ما يتعلق بشهوات نفوسكم ولذات أبدانكم ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:94]؛ أي: ما يتعلق بالمال والجاه ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:94]، وهو يعلم ويرى ليظهر الله ويميز بترك المطالب والمقاصد في طلب الحق من يخافه بالغيبة والانقطاع عنه ويحترز عن الالتفات بغيره ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [المائدة:94]، تعلق بالمطالب بعد ترك الطلب ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:94]، من الرد والصد والانقطاع عن الله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (4/ 342).

(2) تقدم تخريجه.

أَنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: 95].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:95]، بتحقيق الطلب والوصول في متابعة الرسول ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:95]، النكتة في أنه أباح الصيد لمن كان حلالاً وهم أهل السلوة من العوام الذين رضوا من الكمالات الدينية بالأعمال البدنية من تصور هممهم الدنية، وحرَّم الصيد على من كان حرامًا وهم أهل المحبة المحرومون من الدنيا لزيارة كعبة الوصلة؛ يعني: من قصدنا فعليه بحسم الأطماع جملة، ولا ينبغي أن يكون له مطالبته بحال من الأحوال إلا طالب الوصال، ويقال العارف عبد الحق، ولا يكون للصيد صيد ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم﴾ [المائدة:95]؛ أي: من الطلاب إذا التفت بشيء من الدنيا ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ [المائدة: 95]، وهو الذي واقف على مضرته وعالم بآفته فيغلب عليه الهوى ويقع فيه بحرص النفس ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة:95]، يجازي نفسه برياضة ومجاهدة يماثل المهالك اللذة والشهوة ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ [المائدة:95]؛ أي: بتكلف المجازاة ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة:95]، وهي القلب والروح يحكمان على مقدار الإيمان وعلى أنواع الرياضات بتقليل الطعام والشراب، أو ببذل المال أو بترك الجاه أو بالعزلة والخلوة وضبط الحواس ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:95]؛ أي: خالصًا لله فيما يعمل بحيث يصلح لقبول الحق من غير ملاحظة الخلق ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة:95]، وهم العقل والقلب والسر والروح والخفي، فإنهم كانوا محرومين من أغذيتهم الروحانية من صدق التوجه إلى الحق، وخلو من الأعراض عن الخلق ويخترع الصبر عن المكروهات والفطام عن المألوفات والشكر على الموهوبات والرضا بالمقدورات والتسليم الأحكام الأزليات ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة:95]، والصيام هو الإمساك عن ملاحظة الأغيار وطلب الاختيار والركون إلى غير الملك الجبار ﴿لِّيَذُوقَ﴾ [المائدة:95]، النفس الأمارة بالسوء ﴿وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة:95]؛ أي: تتألم بألم هذه المعاملات التي على خلاف طبعها جزاء وكفارة لما نالت من لذات الشهوات وخلوات الغفلات ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95]، من الطالبين قبل إقدام على الطلب ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ [المائدة:95]، إلى تعلق شيء من الدنيا بعد الخروج عنها بقدم الصدق ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة:95]، بالخذلان في الدنيا والخسران في العقبى ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ [المائدة:95]، لا يوجد من تعلقات الكونين حتى

يتجرد الطالب عن القليل والكثير والصغير والكبير ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة:95]، ينتقم من أحبابه باحتجاب التعزز بالكبرياء والعظمة على قدر التفاتهم إلى غيره، وملاحظة ما سواه وينتقم من أعدائه بما قاله ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 96 - 97].

ثم قال تعالى:﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة:96]، ما تصيدون من بحر المعرفة بالمشاهدة والكشوف ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:96]، يعني: تنفقون بها يرد عليكم ومردات الحق وتجلي الصفات كما قال ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1] وتطعمون منه السائرين إلى الله من أهل الإرادة كقوله تعالى:- ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:28]، وهذا حال المشايخ وأهل التربية من العلماء الراسخين ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:96]، أيها الطلاب ﴿صَيْدُ الْبَرِّ﴾ [المائدة:96]، وهو ما سنح في أثناء السير إلى الله من مطالب الدنيا والآخرة، كما قال ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة.... الحديث»[2] ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:96]؛ أي: محرمين إلى الكعبة الوصال متوجهين إلى حضرة الجلال، فإن حكم المتوجه بنا في حكم الواصل الكامل؛ لأن من وصل صار محوًا فالمتوجه صاح فرق بعيد بين الصاحي والماحي، فإن أفعال الصاحي به، ومنه وأحوال الماحي ليست به ولا منه، والله غالب على أمره «فبي يسمع وبي يبصر وبي وينطق وبي يبطش»[3] ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:2]، إلي إذا فرغتم من مناسك الوصول وسلكتم مسالك الوصول سقط عنكم كلف المجرمين ومؤنات

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه البخاري (21/ 392) بنحوه.

المسافرين، وثبت لكن لزوم العاكفين وأحكام الطائفين كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:96]؛ أي: اتقوا بالله الذي تجمعون وتصلون إليه عما سواه لكيلا تجوروا بعدما تكوروا نعوذ بالله من الجور بعد الكور.

ثم أخبر عن القيام أنه بالبيت الحرام بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾(1) [المائدة:97]، إشارة أن الله تعالى كما جعل الكعبة في الظاهر قيامًا للناس العوام والخواص يلوذون ويستحجبون بالتضرع والابتهال هناك حاجاتهم الدنيوية والأخروية، كذلك جعل كعبة القلب في الباطن قيامًا للخواص وخواص الخواص ليلوذوا بطريق دوام الذكر، ونفي الخواطر بالكلية وإثبات الحق بالربوبية والوحدانية بأن لا موجود إلا هو ولا وجود إلا له، ولا مطلوب ولا محبوب إلا هو وسماه البيت الحرام ليعلم أنه بيت الله على الحقيقة وحرام أن يسكن فيه غيره، فيرى فيه ذكر ما سوى الحق وحبه، وطلبه الإذن يفتح الله له أبواب فضله ورحمته ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:97]، وهو أيام الطلب والسير إلى الله حرام على الطالب فيها مخالطة الخلق وملاحظة ما سوى الحق ﴿وَالْهَدْيَ﴾ [المائدة:97]، وهو النفس البهيمية فساق إلى كعبة القلب مع ﴿وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة:97]، وهي أركان الشريعة فتذبح على عتبة القلب بسكين آداب الطريقة عن شهواتها ولذاتها الحيوانية ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا﴾ [المائدة:97]، بالحقيقة ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:97].

---

(1) ألبس الله الكعبة سناء قدس آياته ونورها بصبح مشارق صفاته من مطالع ذاته، وصيرها مرآة حسنه وجماله لنظر نظار معارفه، وأبصار عشاق كواشف رداء عظمته وكبريائه؛ لقيامهم على مشاهد قربه ومواقف قدسه، ليطلبوا منها رؤية براهين هلال صفته ومشارق صنع جلال قدمه، وحرّم تلك المنازل على الأغيار دون الأخيار، ومنع الأخيار عن الدخول فيها مع بقاء نفوسيتهم؛ ليعلموا أنها ممنوعةٌ من تناول الكل لهم، ليعرفوا عين القدم أنه منزّهٌ عن خطرة كل حادثٍ، جعل الكعبة بيته، وجعل بيته قلب العالم، ويظهر بجلاله منه لعيون العارفين، كما ظهر لموسى عليه السلام من طور سيناء، وظهر لعيسى عليه السلام من طور المصيصة، وظهر لمحمد ﷺ وأمته من الكعبة، كقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»، هكذا جعل قلب العارف كعبة مشاهدته في حرم صورته، وسد بابه عن كل طائف غير نظره، فيظهر آثار جلاله من صورهم. قال الشبلي: الكعبة أمام أعين الناس، والحق أمام قلوب أوليائه. [عرائس البيان].

﴿ اعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة: 98 - 100].

ثم قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:98]، يستدل الحجاب لغير الأحباب ممن ركنوا إلى الدنيا واغتروا بزينتها وشهواتها ﴿وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 98]، لطالبيه وقاصدي حضرته بفتح الأبواب ورفع الحجاب ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:99]؛ يعني: عليه التبليغ بالقال والحال، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:2]:

فأما القال: فهو قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، وأما الحال فهو كقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يزكي نفوسهم عن الأخلاق المذمومة بأنوار الصحبة وآدابها، فإن النفوس كالمرآة قابلة لأخلاق صاحبها، وأن الطبع من الطبع يسرق وهذا أحد أسباب تعليم حقيقة الكتاب والحكمة ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [المائدة:99]، من الإيمان بإقرار اللسان وعمل الأركان ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:99]، من تصديق الجنان والتكذيب وصدق التوحيد وإخلاص النية في طلب الحق أو غير ذلك ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة:100]، الخبيث ما يشغلك عن الله والطيب ما يوصلك إلى الله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة:100]، فيه إشارة أخرى أن الطيب هو الله الواحد والخبيث ما سوى الله وفيه كثرة ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة:100]؛ أي: اتقوا بالله عن غير الله ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [المائدة:100]، وهم الذين تخلصت ألباب قلوبهم وأرواحهم عن قشور الأبدان والنفوس، فيحثهم على أن يركنوا إلى الدرجات الروحانية ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:100]، لكي تظفروا بالقربات الربانية.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن

قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ [المائدة: 101 - 104].

ثم أخبر عن كثرة السؤال أحتها تورث الملال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ [المائدة:101]، إشارة أن الله تعالى نهى أهل الإيمان أن يتعلموا علم اللدنية وحقائق الأشياء بطريق السؤال؛ لأنها ليست من علوم القال وإنها من علوم الحال، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾، أي: من حقائق الأشياء ﴿إِنْ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة:101]، بيانها بطريق القال ﴿تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:101]؛ إذ لم تهتدوا إلى الحقائق ببيان القال فتقع عقولكم المنسوبة بآفات الهوى والوهم والخيال في الشبهات فتهلكوا في أوديتها كما كان طوائف حال الفلاسفة؛ إذا طلبوا علوم حقائق الأشياء بطريق القال والبراهين المعقولة، فما كان منها مندرجة تحت نظر العقل المجردة عن شوائب الوهم والخيال أصابوها المتحذلقة منهم، وهو من يدعي الحذاقة أكثر مما عنده، وما ضاقت منه نطاق العقول عن دركها استزلهم الشيطان عند البحث والنظر عن الصراط المستقيم، وأوقعهم في أودية الشبهات بوادي المهلكات فهلكوا وأهلكوا خلقًا عظيمًا بتصانيفهم في العلوم الإلهية، وبعضهم خلطوا العلم الأصول وقرروا شبهاتهم فيما ضلوا عن سواء السبيل، وما علموا أن تعلم علوم الحقائق بالقال محال، وإنما تعلمها يحصل بالحال كما كان حال الأنبياء - عليهم السلام - مع الله تعالى، فقد أعلمهم علوم الحقائق بالإرادات لا بالروايات، فقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]، في حق النبي ﷺ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه:23]، وقال ﷺ إرثاء الأشياء كما هي، وكما كان حال الأمة مع النبي ﷺ كان يعلمهم الكتاب بالقال، والحكمة بالحال بطريق الصحبة وتزكية نفوسهم عن شوائب آفات النفس وأخلاقها، كقوله تعالى فيمن تحقق له فوائد الصحبة على موائد المتابعة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾

[المائدة:11]، وإن كان لا يدلكم من السؤال عن حقائق الأشياء، فاسألوا عنها بعد نزول القرآن أي: عن القرآن ليخبركم عن حقائقها على قدر عقولكم، فأما العوام منكم فيؤمنون بمتشابهات القرآن فإنها بيان حقائق الأشياء ويقولون كل من عند ربنا ولا يتصرفون فيها بعقولهم طلبًا للتأويل فإنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:7]، وهم الخواص، وأما الخواص فيفهمون عما يشير القرآن إليه من حقائق الأشياء بالنور والإشارات والمتشابهات حالاً يفهَّم غيرهم، كما أشار تعالى بقصة موسى والخضر - عليهما السلام - إلى أن تعلم العلم اللدني إنما يكون بالحال في الصحبة والمتابعة والتسليم وترك الأغراض على الصاحب المعلم لا بالقال والسؤال بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:66-67]؛ يعني: في المتابعة والتسليم وترك الاعتراض ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ [الكهف:69-70]؛ يعني: أن من شرط المتابعة ترك السؤال عن الأفعال، وغيرها فلما لم يستطع موسى عليه السلام معه صبرا قال - يعني موسى - ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف:76]، يشير إلى أن يعلم العلم اللدني بالحال في الصحبة والمتابعة والتسليم لا بالقال السؤال، وفي السؤال الانقطاع عن الصحبة فافهم جيدًا.

فلا عاد في الثالثة إلى السؤال، وقال: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً* قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78]، قال: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا﴾ [المائدة آية:101]؛ أي: عما سألتهم وطلبتم علوم الحقائق بالقال قبل نزول هذه الآية ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ [المائدة:101] لمن تاب ورجع إلى الله في طلب علوم الحقائق بالقال والسؤال ﴿حَلِيمٌ﴾ [المائدة:101]، بأن يطلب بالحال يحلم عنهم في أثناء الطلب بالصدر منهم مما ينافي أمر الطلب إلى أن يوفقهم لما يوافق الطلب، قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:102]؛ يعني: من مقدمي الفلاسفة قد شرعوا في طلب العلوم الإلهية بالقال ونظر العقل فوقعوا في أودية الشيطان ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة:102]؛ أي: بسبب الشبهات التي وقعوا فيها بتتبع القال والقيل وكثرة السؤال وترك متابعة الأنبياء - عليهم السلام -.

ثم أخبر عن اعتراض أهل الافتراء بقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:103]، إشارة أن الشيطان كما سلط على قوم حتى أغراهم على الابتداع في أحكام الأنعام وترك الاتباع، كذلك سلط على قوم قادر على التصرف في أنعام أجسامهم ونفوسهم مبتدعين غير متبعين وهم يزعمون أن هذه التصرفات في الله، ففي قوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ﴾ إشارة إلى أن من يتصرف في بدنه بما لم يؤمر به كمن يشق أذنه أو ينقبها، ويجعل فيها الحلقة من الحديد أو يثقب صدره أو ذكره، ويجعل عليه الغفل أو يجعل في عنقه الغل ويحلق لحيته مثل ما يفعلون هؤلاء القلندرية، ولا سائبة وهم الذين يدورون في البلاد ومنهم مسيبين، خليعي العذار يرتعون في مراتع البهيمية والحيوانية بلا لجام الشريعة وقيد الطريقة، وهم يدعون أنهم أهل الحقيقة، قد لعب الشيطان بهم واتخذوا إلههم هواهم، ﴿وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾ [المائدة:103] وهم الذين به يبيحون المحرمات ويستحلون الحرمات، ويتصلون بالأجانب من طريق الأخوة والأبوة كالإباحية والزنادقة، فيغتر به ويظن أنه بلغ مقام الوحدة وأنه محمي عن النقصان بكل حال، ولا تضره مخالفات الشريعة؛ إذ هو بلغ مقام الحقيقة، فهذا كله من وساوس الشيطان وهواجس النفس ما أمر الله بشيء من ذلك ولا خص لأحد فيه، ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة:103]، بترك الشريعة وادعوا الحقيقة ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة:103]، بمثل هذه الأشياء إنما من الله ولله وفي الله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:13]، إن هذا من الشيطان لا من الرحمن، وذلك أن أكثرهم قد أخذوا هذه الطريقة المضلة بالتقليد من الجهال وأهل الضلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [المائدة:104]، من الأحكام ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة:104]؛ أي: وإلى متابعته ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة:104]؛ أي: مشايخنا وأهل صحبتنا الذين أخذوا هذه الطريقة السوء منهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ [المائدة:104]، الذين وضعوا هذه الطريقة وابتدعوها ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [المائدة:104]، من الشريعة والطريقة ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:104]، إلى عالم الحقيقة فإنهما أهل الطبيعة وأرباب الخديعة، ولقد شاعت في الآفاق فتنتهم وكملت فيهم غرتهم، وما لهم من دافع ولا مانع ولا وازع على أن الخرق قد اتسع على الراقع.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا

حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107)﴾ [المائدة: 105 - 107].

ثم أخبر عن طريقة أهل الولاية عند استيلاء هذا البلاء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة:105]، إشارة أن في الخطاب تخصيص الطالب الصادق وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: إيمان الطالبين المحققين بأن الوجدان في الطلب كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني»[1] ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فاشتغلوا بتزكيتها فإنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:9-10]، فلا تشتغلوا قبل تزكيتها بتزكية نفوس الخلق، ولا تغتروا بإرادة الخلق وقبولهم وحسن ظنهم فيكم وتقربهم إليكم، فأيها الطالب اغتنم الساعة وأن مثل السالك المحتاج إلى المسلك والدين يدعي روانه ويتمسك به كمثل غريق في البحر محتاج إلى سائح كامل في ضيعته لينجيه من الغرق، فيتشبث به غريق في البحر وهو يأخذ بيديه لينجيه فيهلكان جميعًا، فالواجب على الطالب المحقق أن يتمسك بدليل إرادة صاحب ولاية له في هذه الشأن مسلك كامل ويستسلم لأحكامه، ولا يلتفت إلى كثرة الهالكين فإنه لا يهلك على الله إلا هالك ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ [المائدة:105]، أيها الطالبون ﴿مَنْ ضَلَّ﴾ [المائدة:105]، من المغرقين ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:15]، إلى الحق ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة:15]، أيها الطالبون بجذبات العناية على طريق الهداية والمضلون بسلاسل القهر والخذلان على طريق، والعصيان نزلت في منذر بن عمر وبعثه رسول الله ﷺ إلى أهل هجر فيدعوهم إلى الإسلام، فأبوا الإسلام فوضع عليهم الجزية، فقال: لا يضركم من ضل من أهل هجر إذا إهتديتم إلى الله يعني:

---

(1) تقدم تخريجه.

آمنتم بالله ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:105]؛ أي: فيذيقكم لذة ثواب أعمالكم، والمعنى ليس للطالب أن يلتفت في أثناء سلوكه إلى أحد من أهل الصدق والإرادة بأن يقبله ليربيه، ويغتر بأنه شيخ يقتدى به إلى أن يتم أمر سلوكه بتسليكم مسلك كامل واصل، ثم إن يرى شيخان له رتبة الشيخوخة فيتنبه بإشارة الحق في مقام التربية ودعوة الخلق إلى الحق فحينئذ يجوز له أن يكون هاديًا مرشدًا للمريدين باحتياط وافر فقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:7]، فأما في زماننا هذا فقد آل الأمر إلى أن من لم يكن قط مريدًا يدعى الشيخوخة ويخبر بالشيخوخة الجهال والضلال من جهالته وضلالته حرصًا لانتشار ذكره وشهرته وكثرة مريديه، وقد جعلوا هذا الشأن العظيم والسر الجسيم لعب الصبيان وضحكة الشيطان حتى يتوارثون كلما مات ولله منهم يجلسون ابنه مقام صغيرًا كان أو كبيرًا ويلبسون منه الخرقة ويتبركون به وينزلونه منازل المساعي، فهذه مصيبة قد عمت ولعل هذه طريقة قد تمت فأنذرت آثارها والله أعلم بأخبارها.

ثم أخبر عن كيفية الوصية لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة: 106]، إشارة إن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:106]، مع الروح وصفاته أن آمنتم إيمان المجتهدين في جهاد الأكبر شهادة بينكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْـمَوْتُ﴾ [المائدة:106]؛ أي: النفس تموت عن صفاتها الذميمة بالرياضات والمجاهدات ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ [المائدة:106]، والوصيان ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾ [المائدة: 106]، هما العقل والسر ﴿مِّنكُمْ﴾ [المائدة:106]؛ أي: من الروحانيات ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة:106]؛ يعني: من غير الروحانيات وهما الوهم والخيال من النفسانيات فالعقل والسر يشهدان بالحق، وإن كان على ذي قرابة من الروحانيات والوهم والخيال يتحملان الصدق والكذب في الشهادة ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:106]؛ أي: سافرتم في السفليات ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْـمَوْتِ﴾ [المائدة:106]؛ أي: تصيب النفس جذبة الحق فتموت ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ [المائدة:106]؛ أي: الشاهدين العقل والسر والوهم والخيال إن كنتم في بعد من الروحانيات ﴿مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة:16]، بعد حضور جامع الله تعالى وتوجهها إلى الحق ومراقبة ثابتة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة:106]، فيشدد على الشاهدين بالقسم والتخويف بالله أن

يؤديا شهادة الحق ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة:106]، يدفعان تركة النفس وهي صفاتها إلى ورثتها وهم القلب وصفاته، ولا يتصرفان في شيء من السفليات، ولا يميلان إلى حظ من حظوظها وإن كل خلق وصفة ذميمة ورثها القلب من النفس يجعلها خلقًا محمودة وصفة حميدة؛ لأن النفس كانت تشتمل تلك الصفة في السفليات وكانت ذميمة تستعملها القلب في العلويات فتكون حميدة مثاله أن الحرص صفة من صفات النفس، وهي تستعمله في طلب الدنيا ولذاتها وشهواتها فصارت ذميمة ويستعمله القلب في طلب الآخرة والمقامات وتحصيل العلوم والظلمات فيكون محمودًا وعلى هذا النفس الباقي﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا﴾ [المائدة:107]؛ يعني: الوصيين من العقل والسر والوهم والخيال ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ [المائدة:107]، بأنهما قصرا في أداء حق الوصية ومالا إلى حظ من الحظوظ السفلية ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ [المائدة:107]، يعني: مقام النصرانيين في استفاء حقوقهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ [المائدة:107]، وهما من صفات التذكر والتفكر الصاحب ينظر أن في عواقب الأمور، ويشهدان على أن الآخرة خير من الدنيا، وإن الباقي خير من الفاني وذلك قوله ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ [المائدة:107]، لأنهما أعني الوهم والخيال مالا إلى الحظوظ فيما كتما من الحقوق والتذكر والتفكر يميلان إلى حفظ الحقوق بترك الحظوظ ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ [المائدة: 107]، في حفظ الحقوق ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:107]، الواضعين الحظوظ في مقام الحقوق ذلك أدنى إلى الحق وأقرب.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: 108 – 110].

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ [المائدة:108]؛ يعني: العقل والسر إن كانا ثابتين في بدء الأمر بأداء الحقوق في استعمال صفات النفس للشعارات الأخروية؛ لكان أولى وأحرى ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة:108]؛ يعني: أو يخافا عواقب الأمور بأن يتنزل على أنفسهم باستمهال وتضييع الوقت وفوات القرش وإفساد الاستعداد، ثم بالتذكر والتفكر برد الأمر إليهم فيحتاجون إلى كثرة الرياضة والمجاهدة الزكية والتصفية، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة:18]، أي: اتقوا بالله عما سواه ﴿وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:18]، وأطيعوا أحكام الأزل ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ [المائدة:18]، إلى حضرته اليوم ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:18]؛ يعني: الذين كانوا خارجين عند رشاش النور على الأرواح عن قبول النور وإصابته كما قال ﷺ: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطاه فقد ضل»[1].

ثم أخبر عن إصابة أهل الإصابة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:109].

إشارة إن القيامة هي يوم يتجلى الحق فيه بالصفة القاهرية يوم يكشف عن ساق، يوم يجمع الله الرسل في حظائر القدس دون العالمين، فيكاشفهم بنقم الجلال فيقول لهم عند احتباس قومهم: ماذا أجبتم لما دعوتم الأمم إلي وإلى معرفتي وهم مستغرقون في بحر الشهود الغائبون عن أوصاف الوجود ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة:109]، فأنطقهم الله بالبراءة عن التحقيق بباطن الأمور وحقيقتها حتى نفوا العلم عن أنفسهم وأثبتوا لحضرة جلاله فقالوا: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:109]؛ أي: إنك تعلم ما غاب عنا وغبنا عنه، فإنك ما تغيب عن شيء، ولا يغيب عنك شيء كما قال ﷺ نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر.

ثم أخبر عن الآية ونعمائه مع نبي من أنبيائه بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة:110]، والإشارة فيها أن في قوله تعالى

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 102).

إذا قال الله: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إشارة إلى نعمة خاصة مع عيسى ووالدته دون سائر الخلق، وذلك أن حمل مريم ما كان من الرجال كسائر النساء وإنما كان بروح منه كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:12]، وكذلك ولادة عيسى عليه السلام وخلقه ما كان من نطفة الرجال إنما كانت كلمة ألقاها إلى مريم وروح منه، ومن نعم الله عليهما ما قال: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾(1) [المائدة:110]، يعني: تكلمك في الطفولية وفي الكهولية وبقية المعجزات التي ظهرت منك كما أنها نعمة في حقك، فكذلك هي نعمة في حق أمك بأنها تدل على براءة ساحتها فيما نسبوها إليه واتهموها به.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: 111 - 115].

ثم أخبر عن نعمة أخرى بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: 111]، الإشارة فيها وإذا أوحيت إلى الحواريين يعني: في عالم الأرواح يوم الميثاق إذا خاطبت الأرواح المستعدة لقبول الإيمان ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة:111]؛ إذ كانوا جنود مجندة وكان بين أرواح كل أمة وروح رسولها تعارف ومناسبة فبذلك التعارف

(1) قال بعضهم: قدست روحك أن تمازج شيئًا من هيكلك وطبعك، بل ظهرته لئلا ترى غيري، ولا تشاهد سواي، وأسكنته قالب جرمك سكون عارية كإسكان آدم عليه السلام الجنة، لأطهّر به جسدك عن أدناس الكون حتى أقدسها جميعًا وأخرجها إلى محل القدس، ومن تمام نعمة الله عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على مثابة القوة الإلهية بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله وربوبيته، وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه في كهولته حتى عرف عباد الله تنزيه الله، وقدس صفات الله، وحسن جلال الله.

﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة:111] ثم في عالم الصورة عند الملامات تتشاهد الأرواح فيعرف بعضها بعضًا فما أتلف بذلك التعارف ويقذف الله في طلبه؛ إذ يجدوا الإيمان فيؤمن برسوله فقذف الله تعالى في قلوب الحواريين لحسن استعدادهم أن آمنوا بي بأني واحد بلا شبهة، ولا ولد كما آمنتم بوحدانيتي يوم الميثاق وبرسولي عيسى ﷺ أو عبدي، وليس بولدي فلا تقولوا كما قالت النصارى المسيح ابن الله فإنهم ما خطبوا يوم الميثاق أن آمنوا على الحقيقة لعدم الاستعداد بل قالوا آمنا بوحدانيتك وبعبوديتك رسالتك ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:111]، منقادون في يوم الميثاق لأوامرك ونواهيك في إبداء الإباء[1].

ثم أخبر عمن خوطب بإيمان حقيقة ومن لم يخاطب بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ [المائدة:112]، إشارة إن الله تعالى لما أراد أن يميز الخبيث من الطيب والمؤمن المقلد من المؤمن الحقيقي، ويظهر بعض الحقائق المخفية والسرائر المخبية في الدنيا مما سيظهره في الآخرة؛ ليكون بحرة لأهل الخبرة فلا تغيروا بالصورة الإنسانية ولا تغفلوا عن الصفة الحيوانية، فيكونوا كالأنعام بل هم أضل فبالحكمة البالغة استخرج من بعض النفوس الخبيثة آثار خباثتها المخفية بعبارات الشهادة وحركات جوارحها كما استخرج

---

(1) وحي الله إلى المرسلين يكون خاصًا ويكون عامًا، الخاص بغير واسطة، والعام بواسطة جبريل ﷺ، وللوحي الخاص مراتب: وحي بالفعل، ووحي بالصفة، ووحي بالذات، وحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء، وهناك محل الفناء، ووحي الصفات يكون في مقام المعرفة عند تجلي الجلال، وهناك محل البقاء، ووحي الفعل يكون في مقام العشق والمحبة، وهناك منازل الأنس والانبساط، وهاهنا للأنبياء والأولياء نصيبٌ، وليس هم في الوحي برسالة المُلك نصيبٌ، وحي منزل التوحيد بالكلام، ووحي منزل المعرفة الحديث، ووحي منزل العشق الإلهام، ومقام الإلهام منقسمٌ على الإلهام الذاتي والصفاتي والفعلي، وربما يكون الإلهام الفعلي بواسطة الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة، وربما يرد على السمع قرع هواتف الغيب ظاهرًا، وربما يكون بلسان الخلق حركات الأكوان، ولا يعرف هذه المقامات إلا ذو منصبٍ في معرفة الخواطر وحقائق علومها، وهاهنا وحي الصفات الذي يتولد منه الإيمان والمعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي﴾ [المائدة: 111] أي: اعرفوني وصدقوني فيما كشفت لكم من أنوار الغيب في قلوبكم وبرسولي فيما أرسلت إليه من أنباء الغيب وبيان شرائط الشرع في نعوت العبودية.

قوله: ﴿آمِنُوا بِي﴾ مقام الجمع، و﴿وَبِرَسُولِي﴾ مقام التفرقة.

من بعض الحواريين المقلدين في الإيمان غير المحققين قولهم؛ إذ قال الحواريون ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾(1) [المائدة:112]، فأول الخذلان أنهم ما وقعوا في الخطاب مع رسولهم أن يقولوا: يا رسول الله ويا روح الله خاطبوه باسمه ونسوا الحالة ولو وقعوا للصواب لقالوا: يا روح الله ونسبوه إلى الله، ثم رفضوا الأدب مع الله تعالى وقالوا: هل يستطيع ربك كالمتشكك في استطاعته وكمال قدرته على ما يشاء كيف يشاء ثم تظهروا دناءة فمنهم وخساسة تهمتهم إذ طلبوا بواسطة مثل عيسى عليه السلام من الله تعالى فائدة دنيا، وهي فانية وما رغبوا في فائدة دينية كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:20]، فلما طلبوا المائدة الدنيا وبه وجدوا منها أيامًا فلا بد وقد ضيعوا نصيب السعادة الأخروية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ

(1) قال سيدي روزبهان: تفحص القوم مكانتهم من عند الله سبحانه بتأييد الظاهر ومشاهدة المعجزة جهرًا؛ لأنهم موقنون مشاهدون بالقلوب والأرواح والأسرار حقائق الغيب، ورأوا منازلهم في محل القرب والخطاب عند كشف رؤية الحق لإبصار قلوبهم، لكن القوم ليسوا بمتمكنين في شهود الغيب، تجري عليهم أحكام أهل التلوين من معارضة النفس والعدو في رؤية الغيب، وطلبوا آيات الله؛ لدفع المعارضة وطمأنينة القلوب. ألا ترى إلى الخليل في بداية أمره كيف قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:260]، فأجابه الله قال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260]، فأحوجه إلى رؤية القدرة في الفعل بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة:260]، وليس في الوصفين شكٌ من جانب النبوة ومن جانب الولاية، فلمّا سمع عيسى عليه السلام منهم اشتد عليه أمرهم وعجب منهم ذلك بعد إيمانهم، وأجابهم بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 112] أي: خافوا الله فيما يجري عليكم من معارضة النفس، أي: ألزموا اشتغالكم بدفع الخطرات؛ كي لا تحتجبوا عنه بغيره، وإن من وصل إليه بنعت المعرفة ورؤية الغيب لا يستحسن منه طلب الآيات لتصديق الباطن، فإنه صفة أهل البداية، فأظهر القوم عجزهم عن إدراك المقامات لأهل التمكين بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: 113] أي: نريد أن تربّي أبداننا بمأكول الجنة، كما تربّي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ويزيد في قلوبنا تصديقك ومحبتك حتى لا تبقى فينا معارضة الطبيعة، ونكون من شهداء رؤية المعجزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأولياؤه، وإذا حصل مرادنا تحصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله وصدقك وصدق ولايتنا، فسأل عليه السلام مرادهم بقوله تعالى: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 114] سأل من السماء لا من الأرض لمّا فيها من الروحانية والحنانية والملكوتية غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولد منه عصيان الله. وأيضًا: يسأل من السماء خصوصية في المعجزات.

﴿يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:20]، ثم من إجادة تقوتهم أنهم ما اتعظوا بموعظة نبيهم ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة:112]؛ أي: اتقوه ولا تسألوا عنه هذا الخسيس الدنيوي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:112]، إيمانًا حقيقيًا؛ فإن المؤمن من اختار الدين على الدنيا والباقي على الفاني فما قبلوا نصيحته وما اهتدوا بهدايته، واظهروا كمال حسنهم ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:112]، ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:113]، ولو كانوا أهل السعادة وأهل الإيمان الحقيقي لكان اطمئنان قلوبهم بذكر الله كقوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، ولعلموا صدق رسولهم بنور الإيمان فإن المؤمن ينظر بنور الله، وكانوا لله شاهدين بالوحدانية وما احتاجوا إلى هذا التساؤل وكانوا مؤمنين مسلمين لأحكام الله تعالى وأوامر رسوله كما كان الحواريون الذين، قالوا: آمنا إيمانًا حقيقيًا، وقالوا: واشهدوا بأننا مسلمون فلما علم عيسى عليه السلام أن الله تعالى في إنزال المائدة حكمة بالغة وألحوا عليها بسؤالها قال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة:114]، أي: مائدة الأسرار والحقائق التي تنزلها من سماء العناية عليها أطعمة الهداية ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ [المائدة:114]؛ يعني: لأهل الحق ﴿عِيدًا﴾ [المائدة:114]، ففرح بها ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ [المائدة:114]؛ أي: الأزل أنفاسنا وآخرها بالتصعد مع الله وتهوي مع الله ففي صعود النفس مع الله يكون عبدًا له وفي هوية مع الله يكون عبدًا له، وقال تعالى: ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة:114]؛ أي: تلك المائدة تكون تجلي صفة من الصفات ﴿وَارْزُقْنَا﴾ [المائدة:114]، من فضلك الخاص ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:114]؛ لأن رزقك الذي ترزق به خواص عبادك رزق منك ورزق غيرك لا يكون منه.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:115]، يا أرباب الطلب مائدة الأسرار والحقائق ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ [المائدة:115]، بأن لا يقوم بحقها ولا يؤدي شكرها ويجعلها شبكة يصطاد بها الحطام الدنيوي ويصرفها في تحصيل الشهوات البهيمية والحيوانية ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:115]، بأن أرده من مراتب الروحاني إلى مهالك الحيواني، وهذا هو المنح الحقيقي وفيه إشارة أخرى إن ذلك القوم من الحواريين الذين سألوا المائدة لما كان الإيمان تقليديًا لا تحقيقيًا تنفعهم

الآيات ولا المعجزات، ولما أراد الله تعالى أن يكشف عن بعض حقائق الأمور الأخروية تبنها للخلق وجعل المائدة محك نقود جواهر ذلك القوم، فلما كان الغالب عليهم حسه الحيواني وشهوته النفساني التمسوا المائدة وضيعوا الفائدة، وأكلوا منها وأسرفوا وتصرفوا فيها؛ فخابوا فلما أظهروا ما أظهروا من صفات الخنازير سلخ الله تعالى صورة الإنساني عن حقائق صفات الحيواني وألبسهم صورة من حقائق صفاتهم فمسخوا خنازير ليعتبر الخلق ويتحقق لهم أن الناس يحشرون على صور صفاتهم التي ماتوا عليها.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: 116 – 120].

ثم أخبر عن إظهار عزته مع خواصه وصفوته بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:116]، إشارة أن الحكمة في الخطاب مع عيسى ﷺ بقوله تعالى: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله مع علمه بأنه لم يقل من وجوه:

أولها: لأن يستخرج منه قوله ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة:116]، وذلك المعنيين أحدهما ليعلم أمته والناس أجمعون أن حضرة جلالته، وشدة كماله أعظم وأعلى من أن يكون معه إله غيره.

والثاني: ليعلموا أن ليس لعيسى ﷺ ولا أمه ولأحد من خلقه مرتبة الألوهية ولهذا قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:116]؛ يعني: ليس لي استحقاق الإلهية ولكن كان حقيقة مع الأمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلم الكفار يوم القيامة، ولا

ينظر إليهم فكلم عيسى عليه السلام بدلاً عنهم وكان الكلام حقيقة معهم.

والوجه الثالث: أنه تعالى نفى بهذا القول عن عيسى عليه السلام تهمة هذا المقام؛ لأنه ذكره بألف الاستفهام ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ والإثبات بعد الاستفهام نفي كما أن النفي بعد الاستفهام إثبات؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:173]؛ أي: أنا ربكم ونظيره في النفي والإثبات كقوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل:60]؛ أي: ليس مع الله إله فمعناه قلت أنت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، ولكنهم بجهلهم قد بالغوا في تعظيمك حتى طردك وجاوزا حدك في المدح ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم»[1].

والوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ يشير به إلى القول بأمر التكوين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:40]، أأنت خلقت فيهم اتخاذك وأمك بالإلهية أم أنا خلقت فيهم خذلانا؛ لعلمي بحالهم إنهم يستحقون لهذا الخذلان نظيره قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: 64]، وقوله ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:59]، وهذا نفي الفعل التكوين عن المخلوقين وإثباته لرب العالمين، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ [فاطر:3]، قال عيسى عليه السلام تعظيمًا لله تعالى: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق أن أقول هذا القول للتكوين ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ﴾ [المائدة:116]؛ أي: هذا القول ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: 116]؛ لأني لا أقدر على هذا القول إلا بإذن توجده في وتكونه بقولك كن ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة:116]، أوجدته وكونته وما ستوحده فيها ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة:116]، من صفاتك القديمة بالذات كما هي، وتعلم ما في نفسي من العجز والضعف والحاجة، ولا أعلم ما في نفسك من كمال القدرة والقوة والغنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:116]، وهي نوعين: الغيب، وغيب الغيب؛ فالغيب ما غاب عن الخلق ولم يحتمل لهم أن يعلموه فهو حقيقة الذات وكمالية الصفات ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل:65]، يشير إلى غيب الغيب؛ لأن ما سواه

---

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (12/ 156)، وابن حبان في «صحيحه» (2/ 137).

يعلمونه بإعلام الله إياهم.

ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة:117]؛ أي: بأمر التكوين خلقت في حتى قلت لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:117]؛ يعني: لما أقررت بربوبيتك وعبودية نفسي كيف أقول لهم اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:117]؛ أي: كنت شاهدًا على إقرارهم بوحدانيتك ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:117]؛ أي: كنت القادر على أن تحفظهم على التوحيد؛ إذ كنت رقيبًا والرقيب هو الحافظ، وكنت عليهم شهيدًا وليس للشهيد إلا الحضور والشهادة ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:117]؛ يعني: كما كنت شهيدًا عليهم ما دمت فيهم كنت أيضًا عليهم شهيدًا، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم والشهيد وما كنت شهيدًا ولا رقيبًا.

وكان لك القدرة على محافظتهم على التوحيد وكنت عاجزًا عن محافظتهم في الحياة والوفاة ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ [المائدة:118]، بسبب التوحيد عنهم وإيجاد الشرك فيهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:118]؛ يعني: إني أشهد لهم إنهم عبدوك يومًا ما لأني شهيد ليس علي إلا الشهادة كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء:41]، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة:118]، بأنهم عبدوك يومًا، وما كان لهم الخيرة أن تسلب عنهم التوحيد ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ [المائدة:118]، تعز بعزتك من تشاء ليس لأحد أن يعترض على ما تشاء ويمنعك عما تشاء ﴿الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:118]، في كل حال أن تعذبهم فلا يخلو على حكمة وإن تغفر لهم فلا يخلو عن حكمة[1].

---

(1) قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118] اتفق أهل التفسير أن الله لا يغفر للمشركين الذين ماتوا على شركهم، ذلك مذهب المسلمين جميعًا، وقد أرى هاهنا لطيفةً، وهي أن الله تعالى أجرى على لسان عيسى ﷺ سرًا مكتومًا مبهمًا عن قلوب جميع الخلائق، إلا مَنْ كان مِنْ أهل خالصة سرّه، ومحال أن خفيّ على عيسى ﷺ أن مَنْ مات على الشرك وهو غير مغفور في ظاهر العلم ووارد الشرع وإنما نطق بذلك من عالم السر المكتوم في الغيب، ومفهوم أصل خطاب في ذلك كأنه أشار إلى ما أشار ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:18]، قالا: يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم تجدد خلقهم.

ثم أخبر عن صدق قول عيسى عليه السلام ونفع صدقه بقوله تعالى: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]، إلى آخر السورة، والإشارة فيها أن الله تعالى إنما خص يوم القيامة بنفع الصادقين؛ لأن الصدق يحتمل في الدنيا النفع والضر للصادق مثل أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر من صدقه؛ فتصيبه منه مضرة في نفسه وماله أو جاهه، ولعله ينال من ثمرة الصدق قبولاً وجاهًا ومالاً وملكًا يشغله عن الله تعالى فيضره وربما يكون الصادق صدق في طلب الحق في الدنيا، ثم يضر عنه ولم يبق له ذلك الصدق، فأشار بقوله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم إلى الذين ماتوا على الصدق ووردوا القيامة مع صدقهم.

ثم أخبر عن نفع صدقهم بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [المائدة: 119]، وهذا الجزاء للصادقين فوز كبير كقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]، فهو قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]؛ أي: رضا الله عن الصادقين إذا ثبتوا على قدم الصدق في طلب الحق بعلو الهمة، وتقربوا إلى الله تعالى بأداء الفرائض، والإقدام على النوافل في اتباع الحبيب ﷺ

-

قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمانٌ تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

قال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعها خرابًا، ألا ترى صورة اللفظ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ [المائدة: 118] يعني بكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118] فهو حقٌّ لإطلاق الملك لك، وإن تغفر لهم ما هم فيه في الدنيا اليوم مَنْ يمنعك عن ذلك وأنت العزيز الواحد بالوحدانية في مُلكك لست بجاهل في غفرانهم، فإنك حكيمٌ في أمرك ومرادك وإمضاء مشيئتك، ونحن لا نقول أكثر من هذا، فإنه موضع الأسرار.

وأيضًا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بدعوى المعرفة بأن توقعهم في درك الحيرة والفناء في عظمتك، و﴿وَإِن تَغْفِرْ﴾ [المائدة: 118] بأن تدخلهم في مقام الالتباس حتى لا يدركوك بنعوت الوحدانية، وبقوا في حجاب حظوظهم عنك بك.

قال الوراق: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتقصيرهم في طاعتك، فإنهم عبادك مقرّين لك بالتقصير، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم فأنت أهل العزّة والكرم، فلَمْ يبدها إلا لمَنْ خلقه لها ومَنْ هو حق بها وأهلها.

قال بعضهم: ترك عيسى عليه السلام الانبساط في السؤال للأمة، وترك المحاكمة مع الحق في أفعاله ونبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يزال يشفع ويقول: أمتي ... أمتي!! حتى يجاب في الكل من أمته، وهذا هو المقام المحمود الذي خُصّ به، ويغبطه عليه الأولون والآخرون، حيث يراجع الحق منبسطًا ويجاب بقوله: «قلْ تسمعْ واشفعْ تشفّعْ.»

حتى أحبهم الله، فكان له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيدًا به يسمعون وبه يبصرون وبه يبطشون، فرضوا عنه به وفنوا عن وجودهم المجازي وإبقائهم بوجوده الحقيقي، وهذا هو الحكمة في إيجاد العالم بما فيه؛ ليكون هؤلاء السادة ثمار شجرة ويفوزوا بظهور الكنز المخفي الذي خلق الخلق لمعرفته، كما قاله تعالى: «كنت كنزًا مخفيًا... الحديث»[1] ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة:119]، والله أعلم.

ثم أخبر عن فناء وجودهم المجازي بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:120]، كما أخبر عنه بعد فناء العالم بمن فيه بقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16]، فلما لم يكن موجود يجيبه سوى وجوده الحقيقي الأزلي الأبدي، فأجاب نفسه فقال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:120]؛ يعني: على كل شيء قدير في الأزل من الإنسان وفوزه بظهور الكنز المخفي بأن خلق العالم وما فيه؛ لأجله كان قادرًا فخلقته كما أراد وإتمه على ما أراد كيف أراد والله ولي التوفيق.

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 132).

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)﴾ [الأنعام: 1 - 5].

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1] [الأنعام:1]، الإشارة فيها أن الله تعالى ذكر الحمد بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس، وفي قوله تعالى: ﴿لله﴾ لام التمليك يعني: في حمد يحمده أهل السماوات والأرض في الدنيا والآخرة ملك له، وهو الذي أعطاهم استعداد الحمد يحمده بآثار قدرته على قدر استعدادهم واستطاعتهم؛ فأين المحامد للجن والإنس متسعات لحد جناب القدس؟! بل هو حمد نفسه القديم الأزلي، وقال: «الحمد لله حمد الخلق له مخلوق»، فإن حمده لنفسه قديم باقٍ، ثم عرف نفسه بصنعته، فقال: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: سماوات القلوب في أرض النفوس وجعل الظلمات في النفوس، وهي صفاتها البهيمية والحيوانية وأخلاقها السبعية

---

(1) حقيقة الحمد الثناء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام هاهنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمَّا وصفًا وإمَّا خلقًا، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه، والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطَوْلِه، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود «قدرة» القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطَّوْل، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبوته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته، تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!! [تفسير القشيري (1/ 2)].

والشيطانية والنور في القلوب، وهي صفاتها الروحانية الباقية، وإنما ذكر بلفظ الجعل؛ لأن النور والظلمة من عالم المعاني وهو عالم الأمر كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:54]، ألا له الخلق والأمر فالسماوات والأرض من عالم الصورة ذكرها بلفظ الخلق كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والنور والظلمة من عالم المعنى ذكره بلفظ الجعل.

وقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:1]، كما أنه تعالى مهما ذكر آدم وأخبر عن معناه ذكره بلفظ الجعل، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، فهذا هو الفرق بين الجعل والخلق فمن غلب عليه النور، فهو صفة الملكية الروحانية يميل إلى عبودية الخلق تعالى ويقبل دعوة الأنبياء - عليهم السلام - ويؤمن بالله ورسله ويتحلى بحلية الشريعة، فإن الله تعالى يكون وليه فيخرج من ظلمات صفات الخلقية الحيوانية إلى صفات الملكية الروحانية، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، ومن غلبت عليه ظلمات البشرية الحيوانية واتبع طاغوت الهوى واستلذ بشهوات الدنيا، فالطاغوت يكون وليه فيخرجه من نور الروحانية إلى ظلمات الصفات الحيوانية، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257]، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1]؛ يعني: بعد أن خلق سماوات القلوب وأرض النفوس، وجعل فيهن الظلمات النفسانية والنور الروحاني مالت نفوس الكفار بغلبات صفاتها إلى طاغوت الهوى تعبدوه وجعلوه عديلاً لربهم.

ثم أخبر عن الهوية بهويته بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام:2]، الإشارة فيها أنه تعالى يعرف نفسه سبحانه بإظهار كمال قدرته على أن يخلق من الطين بشرًا وأولادًا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، فيسويه بحكمته قابلاً لنفخ الروح الخاص منه فيه يستحق سجود الملائكة، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:71-72]، ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ [الأنعام:2]؛ يعني: الروح المفارق عن مكثه قضي إجلالاً لأيام فراقه عن الحضرة وبُعده عن وطن الحقيقي ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام:2]، وهو أجل الوصلة بعد الفرقة في

مقام العندية، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، فلأجل الفرقة مدى ومنتهى ولأجل الوصلة لا مدى ولا منتهى وإنما قال تعالى مسمى لأن وقت الوصلة مسمى عنده، وهو حين يجذب إليه بجذبة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، فلأيام الوصلة ابتداء، وهو حين تطلع شمس التوحيد عن شرق القلوب إلى أن تبلغ حق شراء الوحدة، ثم شروق فلا غروب لها ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:2]، يا أهل الوصلة كما يمترون أهل الفرقة هذا محال جدًّا.

ثم أخبر عن مرام وجههم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:3]، إلى قوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:5]، والإشارة فيها أنه هو الله في سماوات القلوب وفي أرض النفوس ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام:3]، الذي أودع فيكم وهو سر الخلافة الذي اختص به الإنسان لقبول الفيض الإلهي ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:3]؛ أي: ما هو ظاهر منكم من الصفات الحيوانية والأخلاق النفسانية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:3]، باستعمال الاستعداد السر والجهر والمأمورات والمنهيات من الخير والشر، وقد خص الإنسان بهذا الكسب أيضًا من الملك والحيوان، فإن الملك لا يقدر أن يكسب من الصفات الحيوانية شيئًا، ولا الحيوان قادر على أن يكسب من الصفات الملكية شيئًا والإنسان متصرف في هاتين الصفتين، وله اكتساب التخلق بأخلاق الله، بالتقرب إلى الله بأداء ما فرض عليه والتزام النوافل واجتناب النواهي إلى أن يصير خير البرية، وأيضًا أن يكتسب من الشر ما يصير به شر البرية، فيكون من أحواله ما أخبر عنه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:4]، في الآفاق وفي أنفسهم من المعجزات والكرامات والإلهامات ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:4]، وذلك لإقبالهم على الدنيا وزينتها وشهواتها، فصاروا كأنعام فكسبوا ما صاروا به من جملته بل هم أضل، وذلك لأن لأنعام ما كذبوا بالحق وأنهم ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام:5]، فتكذيب الحق صاروا أضل من الأنعام ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ [الأنعام:5]، في الدنيا والآخرة ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام:5]، أما في الدنيا فقد استهزءوا بأقوال الأنبياء والأولياء وأحوالهم يعميهم الله، ويعمي أبصارهم فلا يهتدون إلى الحق ولا إلى حقيقته سبيلاً، وأما في الآخرة فيعذبهم بعذاب القطيعة والبعد

والحرمان والخلود في النيران.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: 6 - 11].

ثم أخبر عن أحوال أمثالهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [الأنعام:6]، والإشارة فيها أن المكذبين والمستهزئين بأرباب الطلب وأهل الحق ألم يروا كم أهلكنا أرواح المكذبين والمستهزئين من قبلهم من قرن لشؤم ذنوبهم واستهزائهم ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:6]، في طلب الحق وقهر النفس ونهي الهوى، وترك الدنيا وإقامة الطاعات وإدامة الخيرات ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام:6]، أيها المكذبون منها شيئًا ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ [الأنعام:6]؛ أي: مطر الواردات من سماء القلوب ﴿عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ [الأنعام:6]، متواليًا متعاقبًا ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ﴾ [الأنعام:6]؛ أي: مياه الحكمة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام:6]؛ أي: من تحت نظرهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الأنعام:6] مع هذه المقدمات ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام:6]؛ أي: أهلكنا أرواحهم بعد أن تمكنوا من أموالنا واستغنوا بزاهد نوالنا، فوطنوا على كواذب المنى قلوبهم وطلبوا من الدنيا محبوبهم، ففتحنا عليهم من مكامن التقدير بسوء التدبير فشربوا من كؤوس الذنوب سموم القلوب، فإن الذنوب سمومها كما أن الطاعات له حياتها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأنعام:6]؛ أي: من بعد إعراضهم عن الحق وإتباعهم الهوى وهلاك أرواحهم بطلب الدنيا واستيفاء لذاتها وشهواتها ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6]، من الطلاب الصادقين المخلصين التائبين المستقيمين في الطلب.

ثم أخبر عن حرمان أهل الخذلان بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام:7]؛ أي: قوله: ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ الإشارة فيها أن من أعرض عن الحق، وأقبل

على الدنيا وشهواتها يعمى له قلبه فلا يشاهد الآيات، وإن جعلته في كسوة الصورة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنعام: 7]، بالإعراض عن الحق ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:7]؛ لأن الله تعالى قد أعمى أبصارهم التي يبصرون الحق بها فما ازدادوا من ظهور الآيات إلا تماديًا في الباطل وإنكارًا على الحق، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:8]، وهذا الاعتراض من نتائج الإعراض وما تغني الشرح عن عمى بعد البصيرة ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام:8] أي: لقضي أمر النبوة بين الإنسان والملك وآل أمرها إلى الملك وليست النبوة من شأنه، وإنما خص بها الإنسان.

ولهذا قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ [الأنعام:9]، يخاطبكم وتخاطبونه، ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:9]، لاحتياج أن لبسه لباس البشرية حتى تسمعوا خطابه وكلامه، وهو يكون واقفًا على ابتلاء الإنسان من أحوال البشرية، فيكلمهم من حيث ما هم عليه ويعالجهم بما يرى في صلاح حالهم فإن النبي ﷺ كالطبيب، فينبغي أن يكون من جنس من يعالجه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:4]، وقد منَّ الله تعالى على الخلق بأن جعل رسولهم من جنسهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:128]، ثم قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:9][1] يعني: إلينا الهداية والضلالة من لم تقدس سره لبس عليه أمره، فلا تغني الحجج إلى الأبد عمن عدم عناية الأزل.

---

(1) قال ابن عجيبة: أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبسًا يطرق لهم إلى أن يُلبسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُونًا، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها أنها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها.

وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلاَّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصِّل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضِي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم [البحر المديد (2/ 126)].

ثم أخبر عن عاقبة أهل الاستهزاء والتكذيب بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:10]، الآيتين والإشارة فيهما أن الاستهزاء من نسيم النفوس المتمرد بأرباب الدين من الأنبياء والأولياء في كل زمان وحين، كما قال تعالى لحبيبه ونبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الرعد:32]، وذلك من عزة الدين وكمالية أرباب ولهوان الهوى ونقصانه أصحابه، فإن قطرة من الهوى تكدر بحرًا من الصفاء فمن غلب عليه الهوى يستغرق في بحر الدنيا، فيعمى عن العواقب والعقبى، فلا يؤثر فيه كلام الأنبياء والأولياء ولا يزدادون منه إلا الطغيان والنقمة والاستهزاء.

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ [الأنعام:10]؛ أي: أحاط بقلوبهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام:10]، من ظلمة الهوى وكدورته فبقيت محجوبة عن الله تعالى ومعرفته ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:11]، في أرض النفوس سير القدم التقوى ومخالفة الهوى إلى أن تبلغوا سواحل بحار القلوب، ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ [الأنعام:11]، بأنوار الله المودعة فيها؛ لتشاهدوا وتعاينوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:11]، بالدين وأحوال أربابه، وهلكوا في بوادي القطيعة؛ إذ سافروا على أقدام الطبيعة.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنعام: 12 – 16].

ثم أخبر عن الهالكين في الغفلة وكمال الرحمة بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ﴾ [الأنعام:12]، والإشارة فيهما أن ما في الكون سوى الله لا داع ولا مجيب، قل: «أنت» يا محمد [لأنك] لا بك؛ بل بتكوني إياك، وناد لمن في السماوات والأرض؛ فلا تجد على الحقيقة مجيبًا مكونًا من غير تكويني إياه، فقل: «أنت» يا محمد [لأنك] لا بك؛ بل بتكويني القول فيك الله؛ أي: لله ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا ووجودًا وعدمًا وإيجادًا واعدًا، فهو الأول الكون والآخر والظاهر والباطن ﴿كَتَبَ﴾ [الأنعام:12]، في

أزليته ﴿عَلَى﴾ [الأنعام:12]، ذمة كرم ﴿نَفْسِهِ﴾ [الأنعام:12]، وحقيقة هيئته ﴿الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:12]، بخلقه ومكوناته ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [الأنعام:12]، بالإيجاد لإظهار الرحمة في الوجود المجازي ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنعام:12]، الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام:12]، وهو يوم ظهور آثار الصفة القهارية لا يبقى فيه إلا الوجود الحقيقي، فأنادي بعزتي ولعظمتي ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:16]، فلا يكون مجيبًا لا في الصورة ولا في المعنى غير واحديتي، فأجيب لذاتي بذاتي ﴿لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16].

ففي ذلك اليوم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنعام:12]؛ أي: أفسدوا استعدادات أنفسهم لقبول الكمال في الدنيا، وذاقوا ألم خسرانهم في نقصانهم، ووجدوا عقوبة حرمانهم وخسرة خذلانهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:12]، بعد ﴿وَ﴾ قد شاهدوا على الحقيقة وعاينوا أن ﴿لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:13]؛ أي: من سكن في ليل البشرية إلى التمتعات الحيوانية، ومن سكن في نهار الروحانية إلى المواهب الربانية؛ كانوا ملكًا له يظهر عليهم آثار صفات قهره ولطفه؛ فالمعنى: فإنهم يؤمنون ولكن يوم لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، ويظهر لهم في ذلك اليوم أن الله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [الأنعام:13]؛ أي: كان سميعًا لما يسخرون من الأنبياء والأولياء ويطعنون فيهم ويكذبونهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:13]، بما كانوا يعمرون ولا يظهرون من حيث عقائدهم، فجازهم به وهو السميع ثناؤه من سكن إليه العليم تعلق من اشتياق إليه.

ثم أخبر عن امتناع النبي من اتخاذ غير الله الولي بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:14]، إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام:16]، والإشارة فيها: أن قل أغير الله اتخذ اليوم وليًا؟! وقد اتخذني الله في أزليته حبيبًا كما قال ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»(1).

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام:14] أي: فاطر سماوات القلوب على محبته، وفاطر أرض النفوس على عبوديته ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ [الأنعام:14]، أرواح العارفين من طعام المشاهدات، وليسقيهم شربات المكاشفات كقوله ﷺ: «أبيت عند ربي يطعمني

(1) رواه البخاري (1/ 178)، ومسلم (1/ 377).

ويسقيني»[1]، ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:14]، غيره هذا الطعام والشراب ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:14]، في الأزل وخصصت ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام:14]؛ أي: أخلص عن جنس الوجود وما خلص عنه غيره بالكلية، ولهذا يقول الأنبياء: نفسي نفسي، وهو يقول: أمتي أمتي، وخاطبني بخطاب التكوين، وقال في الأزل: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:14]، فما كنت من المشركين في أيام النبوة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ [الأنعام:15]، برؤية الضر والتفاته ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:15]، فهو يوم الشرك والعذاب العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]، وعذاب الشرك أن نزل قدمه عن مقام الوحدة ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:16]، عذاب الشرك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الأنعام:16]، يومًا قدر فيه الشرك لأقوام ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:16] أي: نظر إليه بالرحمة فيرحمه وعافاه عن الشرك، كما قال لحبيبه يومئذ: و﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فما كان ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام:16]، لمن نجاه من الشرك وألزمه التوحيد.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 17 – 21].

ثم أخبر عن ضرر الشرك وخير التوحيد أنهما إليه وبه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:17]، الآيتان والإشارة فيهما أن تعلم أن المقدر هو المدبر، ولا ينجيك من البلاء إلا من يعنيك في العناء، وإن تعلم أن دائرة أزليته متصلة بأبديته، وإن كل نقطة من الدائرة تصلح أن تكون مبدأ الدائرة وأولها، ومنتهى الدائرة وآخرها، فكل آن من آن أزليته وأبديته يصلح أن يكون أزلاً وأبدًا، فبهذا يتحقق قوله

(1) رواه ابن راهويه في «مسنده» (2/ 463).

تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام:17]؛ أي: يصيبك بقهر من الإبعاد ويبتليك بالإشراك والإضلال في البداية من حرمان النور المرشش على الأرواح.

﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:17]، في النهاية ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام:17]؛ أي: يصيبك بلطف من إصابة النور المرشش في البداية والنهاية، أو فيما بينهما ويهديك إلى الصراط المستقيم الذي هو صراط الله، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:17]، أزلاً وأبدًا.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:18] في الأزل، فبالقهر إخرجهم من مكامن العدم إلا أنه سبحانه وتعالى يقهر هذه الحالة ويبدل العدم بالوجود، وقد عم قهره جميع عباده، فقهر الكفار بموت القلوب وحياة النفوس إذ أخطأهم النور المرشش على الأرواح في بدء الخلقة، فضلوا في ظلمات الطبيعة وما اهتدوا إلى نور الشريعة، وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة؛ فأخرجهم عن ظلمات الطبيعة بالقيام على طاعته وقهر قلوب المحبين في بلوغات الاشتياق، فأسنها بلطف مشاهدته وقهر أرواح الصديقين بسطوات تجلي صفات جماله، وقهر أسرار الواصلين بسطوات بها صفات جلاله، وبالجملة لا ترى شيئًا سواه، إلا وهو مقهور تحت أعلام عزته وذليل في ميادين صمديته ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ [الأنعام:18]، فيما يقهر فلا يخلو عن حكمته بالعز ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:18]، بما يصلح للطعن وقهره، فالقهر بما قهره أولى، واللطف بما لطفه به أخرى.

ثم أخبر عن أكبر الشهادة لأهل السعادة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام:19]، والإشارة فيها أن الله تعالى أراد أن يخبر النبي ﷺ عقول مشركي أهل مكة بطريق السؤال عنهم في معرفة الله تعالى وجهلهم به، فأخبرهم بالسؤال، وقال: قل أي شيء أكبر شهادة، فمن كان التوفيق رفيقه يعلم أن شهادة الله أكبر من شهادة الخلق، وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلها، والحق سبحانه هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء؛ لا سيما بحقيقة وحدانيته فيؤمن بالله وحده ولا يشرك به أحدًا، ومن أوبقه الخذلان وعوقه الخسران يعرف الله ويقول: هو أكبر شهادة أمر الله تعالى نبيه ﷺ قل الله قل هو الله الذي أكبر شهادة من كل شيء وهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:19]، لعلهم ينتهون، ويعرفون الله بتعريفه إياهم ويؤمنون به.

ثم قال ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ [الأنعام:19] أي: قل يا محمد وأوحي إلى هذا القرآن وهو معجز من أعظم المعجزات وهو الجوامع الكلم التي أويتها ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ [الأنعام:19]، وأنبئكم بآياته وحقائقه وإعجازه لما فيه من أخبار الأمم السالفة، ولما فيه من الأعلام لما سيكون فكان مثل ما قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:67] أي: من أن يقتلوك، فكان النبي ﷺ معصومًا منهم.

وقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة:33]، فأظهر الله تعالى دين الإسلام على سائر الأديان بالحجة القاطعة وغلبة المسلمين على أكثر أقطار الأرض، وقال تعالى في اليهود وكانوا في وقت مبعثه أعز قوم وأمنعهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة:61]، فهم أذلاء إلى يوم القيامة، وأتى في القرآن بما كان وبما يكون وأوتي به مؤلفًا تأليفًا لم يقدر أحد من العرب أن يأتي بسورة مثله، وهم في الوقت الذي قيل لهم: ائتوا بسورة خطباء بلغاء شعراء لم يكن عندهم شيء إلا وجد من الكلام المنثور والموزون، فعجزوا عن ذلك فهذا كله حجة الله على من أدرك رسول الله ﷺ ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، بلغت نبوته ودعوته في حال حياته وبعد وفاته، وفيه إشارة أخرى: وهي لا تدرككم به ومن بلغه القرآن أعني وقف على حقائقه أيضًا ينذركم به متابعة لي، ويقول: بعد وفاتي بظهور ما أخبر القرآن بظهوره بعدي مع اليهود والنصارى وسائر المشركين ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:19]، بعد ظهور الإسلام على الأديان كلها، وبعد أن بلغ ملك هذه الأمة من الشرق إلى الغرب.

كما أخبر ﷺ قال: «زويت لي الأَرْض فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»(1)، فأي دليل أقوى وأظهر من هذا، كما قيل: إذا طلع الصباح استغني عن المصباح، ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام:19]؛ يعني: فإن أصمهم الله وأعمى أبصارهم حتى لا ينتبهوا عن نومه الغفلات ولا يسمع هذه التقريرات، ولا يبصروا هذه المشاهدات والمعاينات، وهم يشهدون آلهة أخرى في الظواهر من الأوثان، وفي الباطن من الهوى والدنيا ويعبد بها من دون الله ﴿قُلْ﴾ [الأنعام:19]، أنت يا محمد لا

---

(1) رواه مسلم (8/ 171)، وأبو داود في «السنن» (12/ 364).

أشهد ما تشهدون لأني أشاهد من شهود الحق ما لا تشاهدون ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام:19]، وقد شاهدت وحدانيته بوحدته ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19]، من الاثنينية التي أوبقتكم من الشرك.

ثم أخبر عن أهل المعرفة وذكر أهل النكرة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام:20]، إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 24]، الإشارة فيها أن الله تعالى ميز أهل المعرفة من أهل النكرة، إذ قال بعد قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:19].

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام:20] أي: فهمت قلوبهم حقائق الكتاب حتى تنورت بأنوارها فهم من ذلك النور يعرفونه؛ أي: يعرفون الله أنه إله واحد لا شريك له، ويجوز أن الهاء في قوله: يعرفونه عائدة إلى النبي ﷺ نور كقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]، فالنور هو محمد ﷺ [1]، والنور لا يدرك ولا يعرف إلا بالنور، فإن الكفار من أهل الكتاب فلما كانوا أصحاب الظلمة ما عرفوا الله ولا رسوله، كقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:89]، وفي قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:164]، إشارة إلى أن الآباء قد تحقق عندهم أنهم مصادر الأبناء ومبدأ وجود الأبناء منهم، فكذلك أهل المعرفة قد تحقق عندهم أن الله تعالى مصدرهم ومبدأ وجودهم منه تبارك وتعالى، وهو إله واحد لا شريك له ولكن ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام:20]، بإفساد استعداد فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو قبول نور الإيمان أفسدوه بانهماكهم في الشهوات الحيوانية

---

(1) أخرج عبد الرزاق في المصنف (20490)، في صفة مولانا ﷺ عن سيدنا أبي هريرة ﷺ: «إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة، وإذا ضحك كاد يتلألأ في الجدر، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ»؛ وأخرج الدارمي (59)، والطبراني في الأوسط (778)، عن سيدنا ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما-: «إِذَا تَكَلَّمَ رُئِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ»؛ فتدبر قول من شاهد: (يتلألأ في الجدر)، (رُئِيَ كَالنُّورِ) فقف على وصف الصحابة - المعدلين المقدسين من قِبَل رب العالمين - ترشد وتهتدي لتلك المفاوز القدسية، ودع عنك قول من لا يفقه عن الله، ويستعجز آثار القدرة في إبداعها لتلك الجلالة المحمدية ﷺ وعلى آله وصحبه.

ومتابعة الهوى ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:20]، بأن الله إله واحد؛ لأنهم من نور الإيمان بمعزل.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:21]، بأن يفسد استعداده الفطري فيضع الآلهة من الهوى والدنيا موضع إله واحد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام:21]، إذ يراها فلا يعرفها من عمى القلب ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:21]، من عمائهم؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: 22 - 27].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام:22]، أهل المعرفة وأهل النكرة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، من أهل الكفرة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام:22]، من أهل النكرة ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:22]، من الهوى والدنيا إذا اتخذتموها شركاء الله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام:23]؛ أي: كان لم يكن من نتائج ابتلائهم بعمى القلوب ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:23]، إلا أن حلفوا بالله كذبًا وما علموا أن الله يعلم كذبهم ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: 24]؛ يعني: يوم القيامة إذا فسدوا استعدادهم في الدنيا، وحصلوا العمى حتى كذبوا في الآخرة وما رأوا أن الله برأ كذبهم، ومن ضلالتهم الزائدة العمى.

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:24]؛ يعني: في الدنيا يقولون أن هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فيقولون في الآخرة: ما كنا مشركين.

ثم أخبر عن كمال إفساد استعدادهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام:25]، الآيتان الإشارة فيهما أن مكافأة من يستمع إلى كلام الله تعالى وإلى حديث النبي ﷺ وإلى كلمات أرباب الحقائق بالإنكار، ويأخذ عليها ويطعن فيها أن يجعل الله تعالى

حجابًا على قلوبهم وسمعهم حتى لا يوصل إليهم أنوارها، ولا يجدون حلاوتها ولا يفقهون حقائقها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام:25] إنكارًا واختيارًا ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنعام:25]، من شؤم إنكارهم ﴿أَكِنَّةً﴾[1] [الأنعام:25] حجابًا من عين الإنكار ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام:25]، أنه حق ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام:25]، من فساد الاستعداد الفطري. ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ [الأنعام:25] بعين الظاهر ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام:25]، من عمى القلوب وإعواز نور الإيمان فيها ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ﴾ [الأنعام:25]، من عمى قلوبهم ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ [الأنعام:25] بالباطن نفي الحق ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنعام:25]، مستردًا قلوبهم بحجب الإنكار ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25] من مقامات المتقدمين ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:26]؛ يعني: أهل الإنكار ينهون الطلاب، وأهل الإرادة عن الطلب واستماع كلام القوم ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:26]؛ أي: يتباعدون عن الحق وطلبه؛ خوفًا عن خلل في دنياهم ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ [الأنعام:26]، بتنفير الخلق عن الحق وتباعدهم عنه ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأنعام:26]؛ لأن التباعد عن أهل الحق وتنفير الخلق عنهم هو البعد عنه، وهذا هو الهلاك والضلال المبين ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:26]، أنهم مهلكون؛ لأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171].

ثم أخبر عن أحوال أهل الأهوال بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام:27]، إلى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:29]، الإشارة فيها أن من غاية فساد الاستعداد الفطري أن الأرواح الشقية بعد مفارقة عالم الصورة إذ وقفوا على النار وحقيقتها وذاقوا ألم عذاب القطيعة بعد الخلاص وحبس الطبيعة ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾

---

(1) قال العارف البقلي: كانت قلوبهم محجوبةً بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأمّارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغطية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لم يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين. قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.

وقال الواسطي: منهم مَنْ يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم مَنْ يستمع منك بنا؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

[الأنعام:27]، إلى عالم الصورة إلى الاستعداد الفطري ﴿وَ﴾ [الأنعام:27]، ياليتنا لما رددنا كنا ﴿لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ مرة أخرى ﴿وَ﴾ [الأنعام:27]، يا ليتنا أنا ﴿نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لا من الكافرين.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: 28 - 32].

فأخبر الله أنه لا ينفعهم التمني بعد فوات الفرصة وإفساد الاستعداد، وقال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام:28]؛ أي: ظهر لهم الشقاوة المتمكنة التي كتب لهم وكانوا يسترون آثارها في عالم الصورة بلباس البشرية، ويسترونها بالتكليف من قبل تجرذهم عن كسوة الصورة ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ [الأنعام:28]، إلى عالم الصورة ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا﴾ [الأنعام:28]؛ أي: إلا ما نهوا ﴿عَنْهُ﴾ [الأنعام:28]، من اتباع الهوى واتخاذه إلهًا مرة أخرى لفاسد الاستعداد وردوا إلى الاستعداد الفطري الذين جلبوا عليه يستعملونه مرة أخرى في الأعمال والأخلاق التي هي أسباب تحصيل الشقاوة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:28]، فيما يدعون لأنهم خلقوا مستعدين للكذب لا للصدق ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:23]، ﴿وَقَالُوا﴾ [الأنعام:29]، بعد ما ردوا إلى استعدادهم الذي كانوا عليه القابل للكذب والإنكار ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:29]، نعيش فيها ثم نموت ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:29]، بعد أن متنا وذلك لأنهم مجبولون على إنكار البعث وتكذيب الرسل، وأنهم قد كانوا في عالم الأرواح مشاهدين المطاف الحق ومخاطبي قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ومجيبي ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:172]، فلما بعثوا إلى عالم الصورة وحجبوا بلباس البشرية فنسوا تلك الأحوال والأقوال، ولم يسمعوا عن الأنبياء حين ذكروا بتلك الأيام كما قال تعالى: وذكرهم بأيام الله فما نفعتهم الذكرى، إذا طبعوا كافرين وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، فكذلك لو ردوا إلى عالم الصورة لنسوا ما شاهدوا من

الأحوال ولعادوا إلى ما كانوا عليه من الإنكار دون الإقرار.

ثم أخبر عن خسران أهل الخسارات بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:30]، إلى قوله: ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:32]، الإشارة فيها أن القيامة يوم ينكشف فيه الأسرار وتنهتك فيه الأستار، فكم من محلل بثوب تقوية حكم له مقارنوه بأنه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب طولاه، مفارق لهواه، كشف الأمر عما توهموه فافتضح عندهم بغير ما ظنوه، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم غدًا؛ أي: وقفوا على ربوبيته عند ظهورها بالقهر ولو وقفوا على الربوبية في الدنيا لوقفوا عند ظهورها باللطف، فمن خفي عليه الربوبية؛ فلغلبة القهر، ومن ظهر له به الربوبية اليوم؛ فغلبة اللطف بلسان القهر ﴿قَالَ﴾ [الأنعام:30]، لأهله ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:30]، قهر الربوبية ﴿قَالُوا﴾ [الأنعام:30]، بلسان ذوق القهر ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام:30]، الذي أذقنا ألم قهر الربوبية ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأنعام:30]؛ أي فذوقوا ألم عذاب البعد عند ظهور القهر فإنكم كنتم معذبين به في الدنيا، ولكن ما كنتم تذوقون ألم عذابه كالذي يأكل مال اليتيم إنما يأكل في بطنه نارًا، ولكن لا يذوق ألمها يوم القيامة قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:30]؛ يعني: بسبب الحجاب الذي كنتم بسببه تكفرون في الدنيا تذوقون ألم عذاب البعد في الآخرة ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ [الأنعام:31]؛ يعني: أفسدوا استعداد الروحانية الذي كانوا به ملاقي ربهم يوم الميثاق فمن فسادهم كذبوا في الدنيا بلقاء الله وهو الوصول إلى الله في الدنيا والرجوع إليه في الآخرة، فخسروا بسبب التكذيب سعادة الدارين لا من الجاه والمال والمقام والحال بل من الوصول كما قيل شعر:

لعمري لئن أزرفت دمعي فإنه لفرقة من أفنيت في ذكره سرى

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام:31]، وهي إشارة إلى الساعة التي تجذب العبد من أوصاف البشرية بجذبات المحبة بها فجأة وهي قيمة أخرى؛ لأن فيها تبدل أرض البشرية غير الأرض بنور ربها فينظر المحب الصادق بالنور الساطع إلى أيام ضاعت منه في طلب غير الحق ويتأسف على تضييعها، وتضييع ما فات عنه من صيد الوصال وفيض غيره فيتحسر ويقول كما قيل شعر:

أيُّها القانِصُ ما أحـ ـسَنتَ صَيدَ الظَّبَياتِ

فاتَـــكَ الســـيرُ وَمـــا زُر ودتَ غَـــيرَ الحَـــسَراتِ(1)

﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام:31]، ضيعنا العمر في عنوان الشباب ﴿فِيهَا﴾ [الأنعام:31]؛ أي: في تحصيل المرام قصرنا، وقد حصلنا من الحجب أسباب البعد ما يشق علينا السلوك مع حملها ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ [الأنعام:31]، أثقال التعلقات الزاهدة ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:31]؛ أي: ظهور وجودهم؛ فإن الوجود على السالك ثقل مانع عن السلوك فكيف أزيد عليه ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:31]، على الوجود وحمله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:32]؛ يعني: الحياة التي تكون للتمتعات الدنيوية النفسانية ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾ [الأنعام:32]، الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:32]، أهل العصيان زواله سريعًا ويبقى ضرره منيعًا؛ لأنه يذوب في الحجب ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [الأنعام: 32]، وهي السير من البشرية إلى الروحانية بترك الشهوات والإعراض عن غير الحق، والإقبال إلى الله ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:32]، عما سوى الله بالله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:32]، أن الله خلقكم لهذا الشأن لا لغيره كما قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾ [الأنعام: 33 - 37].

ثم أخبر عن جحود أهل الوجود بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام:33]، الآيتين والإشارة فيهما أن من ضيق نطاق البشرية أثر في بشرية حبيب الله ﷺ مقالة الجهال والضلال حتى بمقالتهم، وتأسف على ضلالتهم فواساه الله تسلية له وقال: قد نعلم أنه ليحزنك الذين يقولون بجهالتهم وينسبونك إلى الكذب عن

(1) البيتان للشريف الرضي، وهما من بحر الرمل.

ضلالتهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام:33]، على الحقيقة؛ لأنهم يعرفونك بالصدق ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33]، ولكن الكذب والتكذيب في الجحود والعناد من شأن الظالمين؛ لأن الظالم من يضع الشيء في غير موضعه فيضعون التكذيب والجحد في موضع التصديق والإقرار، فلا تحزن على مقالهم فإنا نعلم أن من أصابك لم يصبك إلا لأجلنا، وإن لك غير ضائعٍ هذا عندنا وحالك فينا كما قيل شعر:

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنع قصةٍ وكانوا لنا سِلْمًا فصاروا لنا حربا

وإنك لست منفردًا في مقامات المحنة من بين أهل المحبة ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام:34]، فإن الصبر على المكاره من شأن المرسلين ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:34]، ظاهرًا وباطنًا فإنا الظاهر فعمر رسلنا بهلاك القوم أو بإجابة الدعوة، وإن في الباطن فتنصرهم بالتخلق بأخلاقنا فأما الصبر خلق من أخلاقنا وينافهم بالصبر مرتبة أولوا العزم كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35]، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ [الأنعام:34]، وهي القدرات التي قدرها ودبرها في الأزل إلى الأبد بكلمة ﴿كُنْ﴾ [البقرة:117]، فقدر للمقبولين الرسالة والنبوة والولاية والمحبة والصبر عليها ونعمة الطاعة والعبودية والشكر لها ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:34]؛ أي فيما صبروا على المحق والشكر والنعم وقدر للمردود بين الغفلة والجهالة والضلالة وكفران النعمة والجزع فيما أصابهم من المكاره.

ثم أخبر عن إعراض أهل الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ [الأنعام:35]، تربية وتأديب للنبي ﷺ من الله تعالى كما قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»(1)؛ لئلا يبالغ في الشفقة على غير أهلها؛ لأنه ﷺ كما خوطب بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:154]، بالغ في اللين والشفقة وحرص على إيمان القوم

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 67)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (11/ 534).

وكبر عليه إعراضهم حتى قيل وأغلظ عليهم وقيل ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف:6]، وقيل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103]، وقيل: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْـهُدَى﴾ [الأنعام:35]؛ يعني: في عالم الأرواح عند رشاش النور على الأرواح لجمعهم في قابليته النور مع القابلين الذين أصابهم النور، وقد اهتدوا به ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْـجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:35]، الذين لا يعلمون الحكمة فيما جعلنا بعضهم قابلي نور الهداية والإيمان، وبعضهم غير قابلين إظهارًا للطف والقهر، وفي هذا إثبات أن النبي ﷺ كان عالمًا بهذه الحكمة، وفيه إشارة أخرى إلى أن هذا الخطاب أزلي خاطب النبي ﷺ في الأزل ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ في الدنيا فما كان منهم، ولو لم يخاطبه به لكان من الجاهلين، فإن كل أمر خاطب له النبي ﷺ هو أمر التكوين، وكذلك النهي هو نهي الامتناع عن الكينونة.

ثم وصف له المستعدين بقول الهداية فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾(1) [الأنعام:36]؛ يعني: الذين يسمعون بالله، وهم الذين أحياهم الله تعالى بنور منه كقوله تعالى وتبارك: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: 122]؛ يعني: يسمع بذلك النور ويبصر به كما قال تعالى: «فبي يسمع وبي يبصر»(2) ﴿وَالْـمَوْتَى﴾ [الأنعام:36]، أراد بالموتى من كان ميتًا ولم يحييه الله فلا يسمع قوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام:36]؛ يعني: الله قادر على أن يبعثهم ويحييهم ويسمعوا لا أنت يا محمد كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى﴾ [النمل:80]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ﴾ [فاطر:22]، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:36]؛ يعني: من يبعثهم يحييهم

(1) إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا اللهُ قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترقّون من حضرة عالمَ الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فتهُبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لِمَا سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يُرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود [البحر المديد (2/ 141)].

(2) رواه البخاري في «صحيحه» (21/ 392) بنحوه.

الله من قبور نفوسهم ﴿يُرْجَعُونَ﴾ إليه بجذبات العناية ونور الهداية ﴿وَقَالُوا﴾ [الأنعام: 37]، أهل الأهواء لأهل الولاء ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام:37]، طالما يطالبونهم بإراءة الآيات، وهو من مكائد النفس وغلبة الهوى والتعلل بالأشياء الفاسدة وكم من آية قد رأوها وقد أعرضوا عنها ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ [الأنعام: 37]، في كل ساعة ولحظة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [الأنعام:37]، بدون الآية ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:37]، إنها من آيات الله لأن آيات الله لا ترى إلا بنور الله تعالى، فمن لم يكن له نور الله لينظر به فلم ير الآيات إلا السحر والكذب.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: 38 - 42].

ثم أخبر عن الأمم من بعضها مثل النعم بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1] [الأنعام:38]، إلى قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

---

(1) قال العارف البقلي: أي جناحيه: جناح التوكل والرضا، وجناح الخوف والرجاء، وجناح الفناء والبقاء، وجناح الإيمان والتقى، وجناح النعمة والبلاء، وجناح الهمة والصفات، وجناح العبودية والربوبية، وجناح المعرفة والمحبة، يطيرون بها هربًا وطربًا وشوقًا وطلبًا، وإشارة الظاهر في المثلية أن جبلة الأمم من العناصر الأربع خلقت، ومن طبيعة الحيوانية والروحانية أنشئت، وتساوت في الأكل والشرب والحركة والاجتماع، وصفات النفسانية ونعوت الذاتية من الحرص والغضب والشره والبطر، وحقائقها في التساوي رجوعها إلى معدن الفطرة، الذي أنشأها الله منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55].

ومن أئمة التفسير الظاهر قول ابن عطاء قال: أمثالكم في التوحيد والمعرفة.

وقيل: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ في التصوير ﴿أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38] في التسخير، وأقوام جميع الحيوان والملائكة والجن والإنس والجمادات من العرش إلى الثرى بالقدرة القادرية الأزلية، ولهم مشارب وسواقٍ من بحر خطاب الله، وكلماته الأزلية المبيّنة طرق توحيد الملائكة، ومعرفة الناس وفطرة الحيوانات والطيور والحشرات والسباع الممزوجة طباعها بالعلم بصانعها وخالقها، إلى ظهور صفاته وذاته لهم بيانًا غير مشكل عليهم، ولا ناقص عن تمام مرادهم.

[الأنعام:39]، الإشارة فيهما أن في قوله تعالى: وما من دابة في الأرض يشير إلى ما يدب في أرض البشرية، ويتحرك كالسمع والبصر واللسان والأعضاء كلها والنفس وصفاتها وطائر يطير بجناحيه الشريعة والطريقة إلا أمم أمثالكم في السؤال عن أفعالهم وأحوالهم يدل على قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: 36]، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾ [الأنعام:38]؛ أي: تركنا في القرآن ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، يحتاج به الإنسان ظاهره وباطنه ذاته وصفاته في السير إلى الله والوصول إليه من المأمورات والمنهيات والندب والاستحباب وجميع يقربه إليه، ويباعدون عنه إلا بيناه ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:38]، أما المقبلون المقبولون فهاهنا بالسر وجذبات العناية يرجعون إلى ربهم، وأما المدبرون المردودون فبالحشر يحشرون إلى ربهم السلاسل والأغلال يسبحون في النار على وجههم نار القطيعة والرد بالبعد؛ لأن من شأنهم التكذيب بها نزلنا من أسباب الوصول كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام:39]، بدلائلنا التي هي توصلهم إلينا ﴿صُمٌّ﴾ [الأنعام:39]؛ إذ أن قلوبهم لا يسمعون بها دعوة الحق ﴿وَبُكْمٌ﴾ [الأنعام:39]، ألسنة قلوبهم لا يستجيبون دعوة الحق؛ لأنهم لا يسمعونها وإنما يستجيب الذين يسمعون ومن خاصية الأصم أن يكون أبكم وذلك لأنهم ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:39]، هي ظلمات صفات البشرية والأخلاق الذميمة التي عند غلباتها على القلب يميت القلب من صفاته الروحاني والأخلاق الحميدة والمعنى في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[1] من موت القلب، كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

= قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38] أي: كل ما يحتاج الخلق في العبودية وعرفان الربوبية بيّناه في كتابنا، ليس مقام ولا حال ولا وجد ولا إدراك ولا معرفة ولا رؤية إلا وبيّن طريقه في كلامه تعالى صفته الخاصة المبينة، عرفان جميع الصفات، وطرق الصفات إلى الذات، أخبر تعالى به عن أسرار الأولين والآخرين من العرش إلى الثرى. قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38] أي: ما أخرنا في الكتاب ذكر أحد من الخلق، ولكن لا يبصر ذكره في الكتاب إلا المؤيدون بأنوار المعرفة.

(1) وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك =

نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]، كمن مثله في الظلمات البشرية، وما أحييناه بنور المعرفة ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ﴾ [الأنعام:39]، إضلاله ﴿يُضْلِلْهُ﴾ [الأنعام:39]، عن طلب الحق بموت القلب ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:39]، في طلب الحق ويحيي قلبه بنور المعرفة.

ثم أخبر أنه المولى في كشف البلوى بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ [الأنعام:40]، إلى قوله: ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:41]، الإشارة فيهما أن الله تعالى خص الإنسان بكرامة من بين سائر المخلوقات، وهي أنه تعالى بسط أرض البشرية على وجه بحر الروحانية ويتصرف ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحديد:29]، فتح بابًا من جناب القدس إلى روحه، ومن روحه إلى البشرية فمن بقي له البابان مفتوحين يرسل الله تعالى نور رحمته إليه فيهما كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:2]، فالعبد يكون قلبه نورًا بذلك النور، ويكون في جميع أحواله في السراء والضراء إلى الله تعالى، ومن يشهد له باب جناب القدس يحرم من نور الرحمة، ويبقى في ظلمة البشرية فيكون رجوعه في السراء إلى المخلوقات وينسى الخالق، وأما في الضراء عند الاضطرار، فلا بد يكون رجوعه إلى الحق تعالى، وينسى غيره لأن في روحانيته مركوزا رجوعه إلى ربه كقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:8]، فقال تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المنسدة أبوابهم إلى جناب القدس ولا يرجعون إليه في السراء ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾ يعني: في الضراء ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:40]؛ يعني: لكشف الضر عند الاضطرار ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

-

من وقر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماعهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله ألسنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين أهمنا بخالص الإيمان بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطي آذان أسراره، وأبصار بصائره بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقيه في ظلمات نفسه الأمّارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا. قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وصموا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهواجس الهياكل.

[الأنعام:40]، في الجواب ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:41]؛ لأن في روحانيتكم مركوزا مفرقة خصوصيته أمن يجيب المضطر إذا دعاه فيكشف ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام:41]، في الأزل ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:41] فيخلصكم من حبس الاثنينية التي هي منشأ الشرك ويوصلكم إلى الوحدانية أن قدر في الأزل حتى تنسوا وتتركوا الإشراك.

ثم أخبر عن البأساء والضراء بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:42]، إلى رب العالمين والإشارة فيها أن أرسلنا لهم نعمة القيامة والكفاف من الرزق والرفاهية في العيش تشغلوا لها عنا وغفلوا عن الرجوع إلينا، فأمهلنا إليهم رسلنا بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة والدلائل الواضحة؛ فدعوا بها إلينا فلم يهتدوا بها ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:42]، منها يمتحنون إلينا ويرجعون عما كانوا عليه[1].

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: 43 – 47].

﴿فَلَوْلَا﴾ فهل لا ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:43]، وعلموا أن حقائق ألطافنا مودعة في دقائق صور قهرنا، وتحققوا أن درر محبتنا مستودعة في صداق شدائد

---

(1) هذا وصف قوم لم يذوقوا طعم وصل المشاهدة، حيث أرجعهم الحق إليه بسوط قهره، ولو كانوا على محل المعرفة والمحبة والشوق إلى المشاهدة لم ينصرفوا عنه طرفة عين. وأيضًا: إذا أراد سبحانه كلاءة قوم من محبته إياهم ألزم عليهم حراس بلياته، وضرب عليهم سرادق حفظه؛ لئلا يشتغلوا بغيره لحظة. وأيضًا: أي لما اشتغلوا بحظوظ ما وجدوا من قُربنا أوقعناهم في أودية الفترة حتى لم يجدوا المواجيد وحقائق الواردات، ومسناهم بيأساء الفراق وضراء الأشواق؛ لكي يصلوا إليَّ من نفوسهم وحظوظهم، ويروني بنعت تجريد التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث. قال ابن عطاء: أخذنا عليهم الطرق عليها ليرجعوا إلينا. [العرائس].

بأسنا ومحبتنا، واستقبلوا بصدق الالتجاء وحسن التضرع في الدعاء لكشف ضراء النعمة وبلاء الغفلة ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام:43]، باتباع الهوى واستجلاء الدنيا واستيفاء لذاتها والتمتع بشهواتها، فوجد الشيطان فرصة التزيين والأعداء ومجال الحث والإغراء ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:43]، من متابعة الهوى والخواص على الدنيا وتكذيب الرسل والإعراض عن الحق ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام:44]، من معارضة البأساء والضراء، فإنها تذكر أيام الرجاء وتعرف قدر الصحبة والنعماء، وهذا يؤدي إلى رؤية النعمة ويوجب الشكر عليها، والشكر يدل على رؤية النعم في المنعم فكلما كانت القساوة موجبة لنسيان النعماء ومانعة لقبول دعوة الأنبياء ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:44]، من البلاء في صورة النعماء لأرباب الظاهرة بالنعمة من المال والجاه والقبول والصحة وأمثالها، ولأرباب الباطن النعمة الباطنة من فتوحات الغيب وإراءة الآيات وظهور الكرامات ورؤية الأنوار وكشف الأسرار والأشراف على الخواطر وصفاء الأوقات ومشاهدة الروحانية وأشباهها مما يربي بها أطفال الطريقة فإن كثيرًا من متوسطي هذه الطائفة تعتريهم الآفات في أثناء السلوك عند سآمة النفس من المجاهدات وملالتها من كثيرة الرياضات، فيوسوسهم الشيطان وتسول لهم أنفسهم أنهم قد بلغوا في السلوك رتبة قد استغنوا بها عن صحبة الشيخ وتسليم تصرفاته، فيخرجون من عنده ويشرعون في الطلب على هواء نفوسهم فيقعون في ورطة الخذلان وسخرة الشيطان، فيريهم الأشياء الخارقة للعادة وهم يحسبون أنها من نتائج العبادة ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام:44]، وغرهم بالله الغرور ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام:44]، بفقد الأحوال على سوء الحال، فلا يبقى لهم إلا القيل والقال والدعوى المحال ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:44] متحيرون في تيه الغرور ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام:45] على أنفسهم بالإعراض والاعتراض ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:45]، على إظهار اللطف وإظهار القهر لأصحابه؛ ليعرفه العارفون بصفات اللطف والقهر وإن الكل من عند الله.

ثم أخبر عن آثار لطفه وقهره بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ [الأنعام:46]، إلى قوله: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:65]، الإشارة فيها أن الله

تعالى أعطى عموم الخلق السمع والأبصار والأفئدة التي بها يفقهون كلام الحق وبها يسمعون وبها يبصرون بالحق، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ التي أعطاكموها ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:46]؛ يعني: هو الذي يأخذكم وهو الذي يرد إليكم مرة أخرى إن شاء وكيف شاء ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ﴾ [الأنعام:46]، يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:46] وهو السمع والأبصار الحقيقي عن الكفار ويأخذها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:46]، يعرضون عن الحق بعد ذلك.

ثم عمَّ الخطاب وقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام:47] يا محمد ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: 47]، يا أهل السعادة ويا أهل الشقاوة ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام:47]، من الآفات والحوادث والأمراض، وغير ذلك ابتلاء وامتحانًا ﴿بَغْتَةً﴾ [الأنعام:47]، يعني: من غير سبب ظاهر مثل أخذ السمع والأبصار والختم على القلوب ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام:47]؛ يعني: بسبب ظاهر مثل الفسوق والعصيان والكفران ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ [الأنعام:47]؛ يعني: ربما ابتليتهم به ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47]، الذين ظلموا أنفسهم بصرف استعداد عبودية الحق في متابعة الهوى، وهي غير موضعه وبثبت عليها، فإن من ابتلي بنوع من البلاء تاب ورجع منه فهو غير هالك على الحقيقة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: 48 - 52].

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام:48]؛ يعني: إليهم من الهداية شيء، وإنما هم يبشرون لمن آمن وأصلح بالنجاة والدرجات، ومنذرون للمكذبين بالهلاك والدركات ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام:48]، استعداد الذي أفسده بصرفه في

غير محله فيصلحه بالتوبة والإنابة ويصرفه في العبودية على وقف الأمر ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام:48]، من فساد الاستعداد فعل هذا بعد أن أصلحوا ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:48]، على آفات منهم من الحسنات في أيام استعمالهم السيئات؛ لأن الله تعالى قال ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:70]، بعد التوبة والرجوع ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام:49]، وثبتوا عليه ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الأنعام:49]، عذاب الرد والبعد والهلاك ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:49]؛ أي: بسبب خروجهم يومًا رش الله تعالى على الأرواح من نوره فيه عن وصف المرشش فأخطأهم ذلك النور وهم أهل الشقاوة والهلاك.

ثم أخبر عن حال النبي ﷺ باللطف الخفي بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ [الأنعام:50]، الآيتين.

والإشارة فيهما أن الله تعالى مربيه ﷺ أن يكلم الكفار على قدر عقولهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ على أنها عندي؛ ولكن ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ وهي علم حقائق الأشياء وماهيتها، وقد كان عنده في إراءة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، أو إجابة قوله ﷺ: «أرنا الأشياء كما هي»، وفي قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[1]، وما أمره الله تعالى أن: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام:50]، فإنه ﷺ كان يخبر عما مضى وعما سيكون بأعلام الحق تعالى، وقد قال ﷺ ليلة المعراج: «قطرت في حلقي قطرة علمت بها ما كان وما سيكون»[2] ﴿وَلَا أَقُولُ

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (7/ 431)، والبيهقي في «الشعب» (3/ 423).

(2) أنظر للإمام محمد بن جعفر الكتاني كتاب «جلاء القلوب من الأصداء الغينية ببيان إحاطته ﷺ بالعلوم الكونية»، المسمى بكتاب: «العلم المحمدي» [ط. العلمية بيروت بتحقيقنا]، فقد أثبت إحاطة وجمعية العلم المحمدي بما لا مزيد عليه، وللعلامة إمام أهل السنة الشيخ أحمد رضا خان الهندي عدة مصنفات في علمه ﷺ بالغيب، انظر مثلا «رفع الريب عما نال المصطفى من علم الغيب» [ط. دارة الكرز مصر]، وحسبك قول ربه سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:24]، أي ليس بخيلاً بالغيب التي علمها له ربه، بل يعلمكم بعضها مما يخصكم ويقربكم من ربكم، وقول جل شأنه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26-27]؛ فتدبر فسيدنا ومولانا هو سيد من ارتضاه الحق سبحانه وتعالى؛ فجميع ما يتعلق بالخلق له ﷺ الإحاطة به؛ بل منه ينبع، وأما الغيوب المتعلقة بالله
-

لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام:50]، وإن كنت قد عبرت عن مقام الملك حين قلت لجبريل ﷺ: تقدم، فقال: لو دنوت أنملة لاحترقت ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام:50]؛ يعني: لا أخبركم عن مقاماتي وأحوالي فيها «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[1] إلا عما يوحي إلي أن أبصارهم، وقل معهم، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام:50]؛ يعني: قل وكيف أخبركم عما أعمى الله بصائركم عنه، وأنابه بصير فلا يستوي مع الأعمى كلام البصير ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ [الأنعام:51]؛ يعني: أخبر بهذه الحقائق والمعاني ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:51]، بجذبات العناية ويتحقق لهم أن ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ [الأنعام:51]، في الوصول إلى الله ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ [الأنعام:51]؛ يعني: من الأولياء ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:51]؛ يعني: من الأنبياء لأن الوصول لا يمكن إلا بجذبات الحق تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:51]، عما سوى الله بالله في طلب الوصول. ثم أخبر عن أصول أهل الوصول بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[2] [الأنعام:52]، الآيتين الإشارة فيهما أن من عواطف إحسانه ولطائف امتنانه وحقوق خواص عباده أن يكون في بعض الأوقات لسانهم فيتكلمون به كما قال: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا... إلى آخره»[3] وفي بعض الأوقات يكون لسانهم فيتكلم عنهم، فإذا تكلموا به لكلم مع عباده ليدعوهم إليه، وإذا تكلم عنهم مع عباده ليهديهم إليه فما كان حال الفقراء مع النبي ﷺ العجز عن الاستدراك ومعارضته فيما كانوا بصدده من إخلاء الرسول ﷺ مجلسه عنهم سكتوا عن الاعتراض وتوجهوا بقلوبهم إلى الحق تعالى متضرعين بين يديه معرضين براءتهم لديه فتولى الحق سبحانه

تعالى فله ﷺ الإطلاع على بعضها - كما في الحديث الصحيح أنه أعلمنا بالله ربه- فإن الله من وراء الكل محيط وتعالى جده.

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 173).

(2) أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة، ثم قال: أزهد الناس أصفاهم مطعمًا، وأعبد الناس أشدهم اجتهادًا في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه [تفسير التستري (1/ 135)].

(3) رواه البخاري في «صحيحه» (21/ 392) بنحوه.

ظهارها في ضمائرهم، واطلاع النبي ﷺ على ودائع سرائرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أخبره عن دوام ذكرهم، وأنهم حسباء الله بالغداة والعشي كما قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»، فلا تطردهم عن مجالستك فإنهم يطلبوني في متابعتك وقد خصهم الله تعالى بإرادته عما سواهم كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:152] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52] فكل يريدون منه وهم لا يريدون عنه دونه كما قيل شعر:

وكـل لـه سـؤال وديـن ومـذهب   ووصـلكم سـؤلي وديـنـي رضـاكم

ويقال: تكلم الناس في الإرادة فأكثروا، وتحقيقها: احتياج يحصل في القلب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله تعالى، فصاحب الإرادة لا يهدوا ليلاً ولا نهارًا ولا يجد من دون وصوله إليه سبحانه مسكونًا ولا قراراً.

ثم قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:52]؛ يعني: ما لك منعك في الحساب من المواصلات والتوحيد في الخلوات فإنهم ليسوا في شيء من ذلك ليكون عليك نقلاً منهم ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم﴾ [الأنعام:52]، منها ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:52]، ولا ما لنا فيكون في الحساب في التفرد للوصول والوصال لكن إليه حاجة أو غيره لينقل عليهم منها شيء ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ [الأنعام:52]، فتكثر قلوبهم الطرد ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:52]، بوضع الكسر في موضع الجبر، فإنك بعثت قلوبهم، كقوله تعالى: واخفض جناحيك للمؤمنين.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: 54 – 58].

ثم قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:53]؛ يعني: الفاضل

بالمفضول بالفاضل فليشكر الفاضل وليصبر المفضول، فإن لم يشكر الفاضل فقد تعرض لزوال الفضل والناصر المفضول فقد سعى في نيل الفضل والمفضول الصابر يساوي الفاضل الشاكر، كما كان سليمان عليه السلام في الشكر مع أيوب عليه السلام في الصبر، فإن سليمان عليه السلام مع كثرة صورة أعماله في العبودية كان أيوب عليه السلام عليه مع عجزه عن صورة أعمال العبودية مساويًا في مقام نعم العبدية لسليمان عليه السلام فقال تعالى: لكل واحد منهما ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:30]، ففتنته في المفضول رؤية فضله على المفضول وتحقيره ومنع حقه عنه في فضله، وفتنة المفضول في الفاضل حسده على فضله وسخط عليه في منع حقه من فضله عنه، فإنه انقطع عن الحق بالخلق إذا رأى المنع والعطاء من الخلق وهو المعطي والمانع لا غيره، ومنها إقراري الفاضل مستحقًا للفضل، كما قال تعالى: ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:53]؛ يعني: خصهم بالفضل، فقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:53]؛ أي: المستحقين لنعمة فضله الذين يشكرون على نعمائه، فكل نعمة من النعم الظاهرة والباطنة سبغ الله تعالى على عبده، فإن وفقه للشكر نعمة عليه وإلا يكون نعمة عليه، والله أعلم.

ثم أخبر عن فضله مع أهل الفضل بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:54]، الآيتين، والإشارة فيهما أن الله تعالى من كمال فضله على الفقراء أحلهم محل الأكابر والملوك في الدنيا والآخرة بتقديم السلام عليهم، فأما في الدنيا فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: كن مبتدأ بالسلام على أن السلام على الجائي والآتي إلا الأكابر والملوك تعظيم بتقديم السلام عليهم في كل حال، وأما في الآخرة فيسلم عليهم الملائكة عند دخول الجنة كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:7]، والله تبارك وتعالى يبتدئ ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:58]، وفي قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يشير إلى السلام الذي سلم الله تعالى على حبيبه ﷺ ليلة المعراج؛ إذ قال له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال في قبول السلام: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فكأنه قال له حين سألوه طرد الفقراء ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام:52]، فإنهم من عبادنا الصالحين فإذا جاءك بلغ إليهم سلامنا كما قبلت منا، فالسلام كان من الله تعالى إليهم، وإن كان

بالنبي ﷺ سلم عليهم ومعنى السلام من الله تعالى هو سلامهم من ظلمة الخلقية بإصابة رشاشة نور القدر حين رش عليهم من نوره؛ إذ خلق الخلق في ظلمة، وإنما رش عليهم من نوره عند خلق الأرواح لأنه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:54]، في الأزل وإنما كتب لهم الرحمة على نفسه وهي ذاته تبارك وتعالى؛ لأنهم كانوا من الذين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فكانوا يريدون وجهه؛ أي ذاته فخصتهم في إتيان خصهم من الرحمة بالوصول إلى الذات.

كما خصَّ الخضر ﷺ بإيتاء الرحمة من عنده بقوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:65]، وأني حظ للعموم من الرحمة بإيصالهم إلى الجنة كما قال تعالى في حديث رباني للجنة: «أنتِ رحمتي أرحم بك من عبادي من شاء»[1] فيرحم بجنته من يشاء من عباده ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام:54]، يشير بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ إلى أن عامل السوء صنفان: صنف منكم أيها المهتدون المؤمنون، وصنف من غيركم وهم الكفار الضالون، والجهالة جهالتان: جهالة الضلالة وهي نتيجة إخطاء النور المرشش على الأرواح كما قال عليه ﷺ: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل»[2].

وجهالة الجهولية وهي التي جبل الإنسان عليها، كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب:72]، فمن عمل من الكفار سوء بجهالة الضلالة فلا توبة له، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء:18]، إلا ومن عمل منكم، أي من المؤمنين المهتدين سوء من المعاصي بجهالة الجهولية المذكورة فيه ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ [الأنعام: 54]؛ لأنه أهل التوبة، كما قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: 73]؛ أي: رجع إلى الله بقدم السير ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الأنعام:54]، من بعد إفساد استعداده الفطري بالسوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام:54]، الاستعداد بالأعمال الصالحات لقبول الفيض ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:54]، يفيض عليه بمعرفته فيض الرحمة التي على

(1) رواه البخاري في «صحيحه» (16/ 154)، ومسلم في «صحيحه» (18/ 201).

(2) تقدم تخريجه.

نفسه، فافهم جيدًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:55]؛ أي: كما بينا لك في هذه الآية أحوال المهتدين يبين لك أحوال الكافرين الضالين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:55]؛ أي: طريقهم إلى الجنة أو النار ليهلك من هلك عن بينته.

ثم أخبر عن طريق الكفار إلى النار بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الأنعام:56]، إلى قوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:58]، الإشارة فيها أن ﴿قُلْ﴾ إنكم تعبدون من دون الله آلهة مثل الدنيا والنفس والشيطان، وتتبعون الهوى وهو يهدي بكم إلى الهاوية، و﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ في الأزل إذ عصمت بإصابة النور المرشش أن أعبد الذين تعبدون من دون الله وتطلبونه، وقد أمرت في الأزل بقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس:61]، وبقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:99]، وبقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب:2]، فـ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:2]، ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ [الأنعام:56]، فأكون ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ [الأنعام:56]، بإخطاء النور المرشش «فإنه من أخطأه فقد ضل»[1] ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:56]، الذين أحياهم النور فقد اهتدوا ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [الأنعام:57]، أي على نور من ربي يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وقد قال لي ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1]؛ أي: بإصابة ذلك النور المرشش من ربي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:57]؛ أي: بذلك النور؛ يعني: أخطأكم فكذبتم به وبالذي رشه ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام:57]، من عبادة ما تعبدون من دون الله واتباع أهوائكم؛ لأن ذلك من خاصية ظلمة الخلقية، وذلك ليس عندي إذ جعلني الله نورًا ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام:57]، من الأزل إلى الأبد ﴿إِلَّا لِلهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ [الأنعام:57]؛ يعني: لمن يقضي له إصابة النور في الأزل، ولمن يقضي أخطاءه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام:57]، حين فصل بين الأرواح عند رش النور بإصابة البعض دون البعض ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام:58]، من عبودية

(1) تقدم تخريجه.

الغير واتباع الهوى ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:58]؛ يعني: أمر القتال والخصومات واستراحت من غاية ما أوذي نبي مثل ما أوذيت، ولكن ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:58]، الذين يضعون عبادة الله في غير موضعها، وهم الذين أخطأهم بذلك النور المرشش.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: 59 - 63].

ثم أخبر عن مفاتيح الغيبة وأنها عنده بلا ريب بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام:59]، الإشارة فيها أن الله تعالى جعل لكل شيء شهادة تناسب ذلك الشيء وغيبًا مناسب له، وجعل لمغيب كل شيء مفتاحًا يفتح به باب غيب ذلك على شهادته فيفصل ذلك الشيء كما أراد الله في الأزل وقدره، وعنده مفتاح الغيب: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:59]؛ لأنه لا خالق إلا هو وليس لنبي ولا لولي مدخل في هذه المفاتيح ولا في استعمالها؛ لأنه مختص بالخالق فحسب ما ضرب لك مثلاً يدركه به هذه الحقيقة، وذلك مثل نقاش الصور، فإن لكل صورة فيما ينقشها شهادة وهي هيئتها، وغيب هو علم التصوير، ومفتاح يفتح به باب علم التصوير على هيئة الصورة لتنفعل الصورة ثابتة في ذهن النقاش، وهو العلم بيد النقاش لا مدخل لتصرف غيره فيه، فإن الله تعالى هو النقاش المصور والصور هي صورة المكونات المختلفة الغيبية والشهادية، وشهادة كل صورة منها خلقها وكونها وغيبها علم خلقها وتكوينها، وقلم تصويرها الذي هو مفتاح ويفتح به باب علم تكوينها على صورتها وكونها هو الملكوت فبقلم ملكوت كل شيء يكون كل شيء، وقلم الملكوت بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، فكما أن الشهاديات مختلفة فالملكوتيات

مختلفات، ولكل شيء من الجماد والنبات والحيوان والإنسان والملك غيب مناسب لصورته، ولهذا جمع المفاتح ووحد الغيب، وقال ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ هو علم التكوين وهو واحد في جميع الأشياء وفي الملكوت كثرة كما في الصور، فافهم جيدًا.

﴿وَ﴾ بعلم التكوين ﴿يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:59]؛ لأن به كون البر وهو عالم الشهادة، والبحر وهو عالم الغيب والملكوت يدل على هذا المعنى، قوله عالم الغيب والشهادة وبهذا العلم ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ لأنه مكونها ومثبتها وسقطها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:59]، أرض القلب وظلمات صفات البشرية إلا وهو يركبها ويعلم كمالها ونقصانها ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام:59]، الرطب المؤمن واليابس الكافر.

وأيضًا: الرطب العالم واليابس الجاهل.

وأيضًا: الرطب العارف واليابس الزاهد.

وأيضًا: الرطب أهل المحبة واليابس أهل السلوة.

وأيضًا: الرطب صاحب الشهود واليابس صاحب الوجود.

وأيضًا: الرطب الباقي بالله واليابس الباقي بنفسه ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]، وهو أم الكتاب.

ثم أخبر عن فعله وفضله بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60]، الآيتين الإشارة فيهما أن من فضل الله والرضا مع عباده أن يتولى مصالحهم بنفسه ليلاً ونهارًا، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]، وهذا تعريف نفسه بنفسه؛ يعني: فإن لم تعرفوني فأنا الذي يتوفاكم بالليل لاستراحة نفوسكم وتقوية قوتكم وسلامة حواسكم من الكلالة والطبيعة من الملالة، ويريكم في المنام ما تكسبون بالنهار، وهذا من الجنس الذي لا يعلمها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ [لقمان:34]، فيريكموه الله من فضله معكم، ولتعلموا أنه يعلم بالليل ما تكسبون غدًا بالنهار، وهل بعد الغد سنين كثيرة ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:60]، عن نوم الغفلة، فإن أكثر انتباه الخلق ورجوعهم إلى الحق وحرصهم على طلب الدين وترك الدنيا إنما يكون بالرؤيا الصالحة؛ ولهذا قال ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين

جزء من النبوة»[1].

وقال: «ما بقي من النبوة إلا المبشرات يراها المؤمن أو ترى له»[2] فعلى هذا المعنى الهاء في قوله تعالى: فيه كناية عن المنام بالليل ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام:60]؛ يعني: بعد الانتباه والحرص على الطلب يقضي أجل أيام الفراق المسمى بينكم وبينه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام:60]، بجذبة إلى ربكم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [الأنعام:60]، عند الوصال ونيل الوصال بنور الجمال ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:60]؛ يعني: يتحقق لكم أن استعمال الشريعة متابعة النبي ﷺ كان السير إلى الله تعالى وصورة جذبات الحق، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن قهره بالعدل لمن لم يكن قابلاً للفضل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:61]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:62]، بالإشارة فيها أن القهر من وصف الجلال هو مشرب الأولياء، فيعبر عنه بالقاهرية، وما كان وصف الجبروت فهو مشرب الأعداء فيعبر عنه بالقهارية كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، وقال تعالى من وصف الجلال ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[3] [الأنعام: 18]؛ أي: يقهر نفوس العابدين بخوف عقوبته، ويقهر قلوب العارفين بسطوة شهود جماله، ويقهر أرواح المحبين بكشف جلاله، فالعابد بلا نفس لاستيلاء سلطان أفعاله والعارف بلا قلب لاستيلاء سلطان جماله والمحب بلا روح لاستيلاء كشف جلاله عليه والواصل مستهلك في عين حقيقته، فمتى أراد الحق تعالى تكميل عبد من عباده يرسل عليه حفظه من صفات قهره، كما قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:61]، حتى لو أراد نفسه الخروج عن قيد مجاهدتا قهرته سطوات العتاب، فردته إلى بذل الجهد

(1) رواه الترمذي في «سننه» (4/ 536)، والبزار في «مسنده» (4/ 126).

(2) ذكره ابن الحاج في «المدخل» (5/ 28).

(3) قال الإمام ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18]، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد [البحر المديد (2/ 156)].

ومتى أراد قلبه فرجة من مطالبته القربة قهرته صدمات الهيبة فردته إلى توديع البهجة، ولو أراد روحه استرواحًا من الحرمات قهرته بواردات التجلي فردته إلى بذل المبهجة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [الأنعام:61] الموت يعني: الفناء عن أوصاف الوجود ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام:61]، صفات قهرنا ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:61]، في إفناء الأوصاف فشتان بين عبد مقهورًا بأفعاله وبين عبد مقهور بجماله وجلاله ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام:62]، يعني: أهل الفناء يردون إلى بقاء الله وهم الباقون بالله ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام:62]، أي قائمون ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام:62]، فيما يتولى مصالح دينهم ودنياهم بلا هم ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:62]، فيما يحاسب أمور عباده محاسبة لا تكون في حسابهم وحسابهم.

ثم أخبر عن إنجاء الأولياء بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:63]، إلى قوله وسوف تعلمون الإشارة فيها أن البر والأجسام والبحر والأرواح فالأرواح، وإن كانت نورانية إلى الأجسام ولكن بالنسبة إلى الحق تعالى، ونور الإلهية ظلمانية، كما قال: «إن الله هو الحق خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره»[1] فمعناه إذ خلقتكم في ظلمة الخلقية، فمن ينجيكم من ظلمات بر البشرية وظلمات بحر الروحانية ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ [الأنعام:63]، أي بالجسم ﴿وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام:63]، أي بالروح ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ [الأنعام:63]، الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:63]، على نعمة النجاة فلما لم يكن أحد نجيهم من الظلمات غير الله.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: 64 - 67].

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ [الأنعام:64]؛ أي: من ظلمات الخلقية برش النور عليكم فإنه من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام:

(1) تقدم تخريجه.

64]، أي: هو الذي نجيكم من كل آفة وبلاء وفتنة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:64]؛ يعني: حين نجلى لكم نور من أنوار صفاته فبعضكم يشرك به ويقول أنا الحق وبعضكم يقول سبحان ما أعظم شاني ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:65]، حين تقولون آثار الحق وسبحاني أعظم شاني ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:65]، بأن يرخي حجابًا بينه وبينكم يعذبكم به عزة وغيرة ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:65]، أي حجابًا من أوصاف بشريتكم باستيلاء الهوى عليكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:65]، يجعل الخلق فيكم فرقًا، فرقة يقولون هم الصديقون وفرقة يقولون هم الزنادقة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:65]، بالقتل وبالصلب وقطع الأطراف كما فُعل بابن منصور ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:65]، أي: آيات المعارف وإعلام الهدى إلى الله تعالى والسالكين طريقه ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:65]، شرائط السير وآداب السلوك، ولا يفقهون ما في مقام دون الفناء عن كلمته، الوجود والبقاء بشهود المعبود ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ [الأنعام:66]، بهذا المقام ﴿قَوْمُكَ﴾ [الأنعام:66]، المنكرون منكم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:66]، لأسلك طريق هذا المقام بوكالتكم؛ لأنه ليس لإنسان إلا ما سعى وإن سعيه سوف يرى، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:67]؛ يعني: لكل سائر وواقف مستقر من درجات القرب ودركات البعد، فإذا انتهى إلى مستقره تبين له حقيقة ما قررناه هو العرض الأكبر.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: 68 - 70].

ثم أخبر عن الإعراض عن الخواص بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام:68]، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:70].

الإشارة فيها أنه لا يصلح للطالب الصادق المجالسة مع الخواص لأنه قيل أن الطبع يسرق فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾[الأنعام:68]، إشارة إلى بعض أهل الطاعات يخوضون في أحوال الرجال، ولا حظ لهم منها قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام:68]؛ يعني: من الطامات التي هي ريح في شبح ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ [الأنعام:68]؛ يعني: القعود منهم فقعدت معهم بالنسيان، أو من غير قصد منك وعرفت أحوالهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ [الأنعام: 68]؛ أي: بعد التذكر ومعرفة أحوالهم ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:68]، البطالين الذين يظلمون أنفسهم بإفساد الاستعداد، ويراؤون الناس أنهم من الطالبين الصادقين بالزي والخرق وأنهم من البطالين بالأفعال والأحوال ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 69] من الطامات والدعاوي وفي الطلب ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:69]، من خسارة البطالين من شيء ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:69]، ولكن يحسن الاعتراض عنهم ويتركون الإصغاء إلى مجالاتهم وخيالاتهم من الطامات وحسن الانقباض بذكرهم لعلهم ينتهون ويحترزون عن الدعاوي ويطلبون المعاني ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام:70]؛ أي: دع صحة الذين يلعبون بالدين وهمهم لبس الخرقة والزي بزي الطالبين إنما هو للدنيا وقبول الخلق والنسب باللهو ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ﴾ [الأنعام:70]؛ أي وعظهم بالصدق والطلب وترك الخرقة فإنها تورث الزندقة ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام:70]، من قبل أن تفسد نفس استعدادها للطلب بالكلية بما تكسب من الرياء والنفاق ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ﴾ [الأنعام:70] يتولى أمر إصلاح استعدادها ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:70]، يشفع ليصلح الله استعدادها الفاسدة ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام:70]؛ يعني: وإن تفتدي بالدنيا وما فيها لا يقبل منها ولا يفيد استعدادها بعد فسادها بالكلية ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح:23]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: 70]، بطلوا الاستعداد الفطري بمرائيهم لهم ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الأنعام:70]، من مشرب الحسرة والندامة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنعام:70]، من نار القطيعة وألم البعد ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:70]، بمقامات الرجال من الوصول والوصال.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَـٰطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام: 71 - 74].

ثم أخبر أن لا نافع ولا ضار إلا هو بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام:71]، إلى قوله: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:72]، الإشارة فيها أن الإنسان يعبد الله لجر منفعة أو لدفع مضرة، فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام:71]؛ أي: نطلب غير الله الذي هو النافع الضار، وإنما النفع الحقيقي هو الفوز بالوصول إليه والضر الحقيقي هو الانقطاع عنه ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ [الأنعام:71]، إلى مقام الاثنينية التي كنا فيها ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ [الأنعام:71]، إلى الوحدة ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الأنعام:71]، أضلته شياطين الأنس والجن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:71] أي: في أرض البشرية باتباع الهوى ﴿حَيْرَانَ﴾ [الأنعام:71] بإغوائهم وإضلالهم، وهذا مثل الطالبين الصادقين والطالبين الخائضين، فإنهم يدعون الطالبين في بطالتهم وضلالتهم ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ [الأنعام:71]؛ أي: المطالب ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْـهُدَى ائْتِنَا﴾ [الأنعام:71]؛ أي: يهدونه إلى الله ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ [الأنعام:71]، أي: الهداية إلى الله ﴿هُوَ الْـهُدَى﴾ [الأنعام:71]، الحقيقي لا الهداية إلى غيره وما سواه ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71]؛ أي: أمرنا بالتسليم وهو ترك الوجود كالكثرة في ميدان القدر مستسلمًا لصولجان القضاء المجازي لأحكام رب العالمين ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ [الأنعام:72]، أي: وأمرنا أن نحفظ أسرارنا عن غير الحق بإقامة الصلاة ونتقي به عن غيره لأنه ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:72]، أيها الطالبون لا إلى غيره من الجنة والنار كما قال: «ألا من طلبني وجدني»[1].

(1) تقدم تخريجه.

ثم أخبر عن خصوصية هويته بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:73]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى خلق المخلوقات؛ لظهور صفات جماله وجلاله، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق يعني: لإظهار صفات الحق ويجعل المخلوقات مرآة مناسبًا تحاكي جميع صفاته تعالى وتقدس، ولكن لا تشاهد صفاته بالكمال إلا في مرآة النسيان لا المخلوقات بالكمال إلا الإنسان، وهو أكمل المخلوقات استعدادًا وأحسنهم تقويمًا في المراقبة وأنه يشاهد مرآة المخلوقات مما اختصت به من الصفات ما لا يشاهد غيره ويشاهد في مرآة نفسه من الصفات ما هو المخصوص به ولا يشاهد منه غيره كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]؛ أي: مرآة أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق والآيات هي الصفات ولما كانت المشاهدة بإراءة الحق لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ والإرادة إنما تحصل بتكوينه إياها فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:73]؛ يعني: وإذا أراد أن يرى عبدًا من عباده تلك الصفات يقول كن وإنا فيكون بهذا التيسير إلى أن ليس في استعداد الإنسان أن يصير رائيًا بمجرد سعيه لصفات الحق في مرآة المخلوقات إلا أن يخلق الله تعالى فيه استعدادًا مناسبًا للرؤية عند رؤيته تلك الصفات، ثم قال تعالى: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام:73]؛ يعني: في حق الإنسان أن يقول له كن رائيًا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام:73]، تلك الإرادة وتلك الرؤية يؤتى ملكه من يشاء كما أني الإنسان ملك الرؤية ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام:73]، وهي نفخة الإرادة في صور القلب، وذلك تجلي الحق تعالى لمرآة قلب الإنسان ليصعق موسى النفس ويتدكدك جبل أنانيته فيشاهد السر ويبصر الخفي وباصره نور الحق في مرآة القلب شهود ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام:73]، وذلك لأنه كان عالم الغيب قبل التجلي فلما تجلى له الحق تعالى صار عالمًا كان غائبًا عنه، وهو عالم الغيب والشهادة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ [الأنعام:73]، فيما اختص الإنسان بإرادة الآيات ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:73]، بخصه من بين الناس بالتجلي له نفهم ونغنم إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر عن ظلال الجهال بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: 74]، إلى قوله ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78].

الإشارة فيها أن الله تعالى أظهر قدرته في إخراج الحي من الميت بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ

إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام:74]، من دون الله إذا الأصل منهمك في الجحود بموت قلبه والنيل مضمحل في الشهود لحياة قلبه والأصنام، ما يعبد من دون الله ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:74]، بما أراني الله تعالى ملكوت الأشياء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [الأنعام: 75 - 79].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]؛ أي: وكما أريناه ظلمة الكفر والضلالة المستورة في ملكوت آزر وقومه نريه ملكوت السماوات والأرض، أي: باطنها، واعلم أن لكل شيء من العالم ظاهرًا يعبر عنه تارة لجسمانية لما له من الأبعاد الثلاثة من الطول والعرض والعمق والمتحيزية وقبول القسمة والتحري، وتارة بالدنيا لدنوه إلى الحس وتارة بالصورة لقبول الشكل ولإدراكه بالحس، وتارة بالشهادة لشهوده بالحس وتارة بالملك لتملكه والتصرف فيه بالحق وباطنًا، يعبر عنه تارة بالروحانية لانتفائه عن الأبعاد الثلاثة وعن التحيز والتجزؤ في الحس، وتارة بالآخرة لتأخره عن الحس، وتارة بالمعنى لتعريه عن التشكل وبعده عن الحس، وتارة بالغيب لغيبوبته عن الحس، وتارة بالملكوت لملاك عالم الملك والصورة فإن قيام الملك للملكوت وقيام الملكوت لقدرة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، أي من طريق الملكوت والملكوت من الأوليات التي خلقها الله من لا شيء بأمر ﴿كُن﴾ [غافر:68]، وكان الله ولم يكن معه شيء يدل عليه قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:185]، فنبّه إن الملكوت لم يخلق من شيء، وما سواها خلق من شيء وقد سمي الله ما خلق بالأمر أو ما خلق من الشيء خلقًا فقال: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:54] فالله تعالى أرى إبراهيم عليه السلام ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها الدالة على التوحيد ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:75]، بالوحدانية عند كشفها كما كان موقنًا عند كشف الضلال المودع المستورة

في ملكوت آزر وقومه ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام:76]؛ أي: فلما كمل ظلمة ليل البشرية على نور روحانيته أمطر سحاب العناية مطر الهداية على أرض قلبه؛ فأنبت بذر الخلة المودعة في ملكوت قلبه التسليم على آفة فساد الاستعداد القابل لنور الرش فظهر حضرة القلب ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام:76]، أي: نور الرش في صورة الكوكب من أفق سماء روحانيته طالعًا كشديد القوة الخيالية عند بقائها بعد كسوة الصورة الكوكبية المناسبة وانفتاح روزنة القلب إلى الملكوت بقدر كوكبه، فشاهد السر نور الرشد بإراءة الحق فوافق نظر الظاهر نظر السر في مشاهدة الكوكب من أفق السماء، فكوشف بتجلي نور الملكوت في مرآة الكوكب؛ إذ هو نور السماوات والأرض، وقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76] أراد به سره المكوكب لا الكوكب، وإن تشعر به نفسه كما قيل: «هو في فؤادي، ولم يعلم به بدني والجسم في غربة والروح في وطن»، فإن كذب النفس فيما قال الكوكب ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76] ما كذب الفؤاد وما رأى من المكوكب ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: 76]؛ أي: فلما احتجب كوكب نور الرشد بغلبات صفات الخلقية عند رجوعه إلى أوصافه ووافقه كوكب السماء بالغروب ﴿قَالَ﴾ [الأنعام:76]، سره ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، وإنما أحب الذي لا يأفل ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ [الأنعام:77]؛ أي: فلما اتسع انفتاح روزنة القلب إلى الملكوت بقدر القمر تجلى له نور الربوبية في مرآة القمر ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام:77]، عند رجوعه إلى أوصافه وازدياد الكشوف ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ [الأنعام:77]، برفع حجب الأوصاف ويقيني على وجود الخلقية ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:77]، عن الحق كأبي وقومه ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام:78]؛ أي: فلما انحرفت حجب الأوصاف وخرجت شمس الهداية من غيم البشرية وأشرقت أرض القلب بنور ربها ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:78]، وإنما قال هذا، وما قال هذه لأنه أراد به نور الربوبية الذي تجلى له في مرآة الشمس لا الشمس؛ لأنه لم يؤنثه كما أنث قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة يدل عليه قوله: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: 78]، ولا أكبر على الحقيقة إلا الله ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ [الأنعام:78]، شمس الهداية تفردًا وتعظيمًا ليعرض إبراهيم عليه السلام عن شركة الأنانية، ويفني فيمن لا أفول له كما قيل:

إِنَّ شَمسَ النَهارِ تَغرُبُ بِاللَيلِ وَشَمسُ القُلوبِ لَيسَ تَغيبُ(1)

شبرًا عن الأضداد والأنداد، ونزعته همة الخلة عن الجهات والأكوان وخلقته تجلي صفة الجمال عن شبكة الوهم والخيال وأزعجته سطوات الجلال من مكامن الأنانية والإشراك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78].

ثم أخبر عن إخلاصه في خلاصة بقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:79]، الآيتين الإشارة فيهما: أن مرآة قلب إبراهيم عليه السلام لما ملكت صفاتها وسلمت عن طبع الطبع، وتنزهت عن ظلمة هوى النفس وشهواتها وتخلصت عن الالتفات إلى الكواكب والأكوان يصيبها الشوق الجلي إلى الحضرة في مجازاتها المقدسة عن الجهة قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام:79]؛ أي: وجهت وجهي بالإعراض عما سوى الله إلى الله الذي هو خالق السماوات والأرض وكواكبها والأرض وما فيها لما أراني في ملكوتها آياتها المتشوقة إلى وجهه الباقي ﴿حَنِيفًا﴾ [الأنعام:79]، أي: مائلاً ميلان أهل الخلفة ببذل الوجود في خليله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79]، والمتلفتين إلى الأكوان المتدلين بالمخلوق على الخالق عاينت شواهد الحق بإرادته ثم قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام:80]؛ أي: جادلوه ليسبلوا ستر ذيوهم على شموس عرفانه.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 80 – 82].

﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ﴾ [الأنعام:80]؛ أي: في معرفته يعني أتورمون ستر الشموس بإسبال أكمامكم عليها؟ أو تريدون أن تسبلوا ذيولكم على ضياء نهار الشهود؟ ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ [الأنعام:80]، ربي إليه بالعيان وتوالي البرهان كما كان في مرامي إذ قلت

(1) البيت للعارف الحلاج رضي الله عنه، وهو من بحر الخفيف.

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 80]، بعد ما ترى على سلطان الحق ولاح برهان الصدق ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام:80]، من الخذلان بعد العرفان وهذا مستحيل؛ لأنه ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:80]؛ أي: هو أعلم بمن هو أهل الخذلان وبمن هو أهل العرفان ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:80]، فترجعون من طريق الخذلان إلى طريق العرفان.

ثم أخبر عمن هو أحق بالخوف، ومن هو أحق بالأمن بقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام:81]، الآيتان الإشارة فيهما أن من أمارات موت القلب وفساد الروحانية واستيلاء النفس عليه لخوف الحيواني حتى يخاف من الجمادات كالأنعام لا يخاف من الله وعذابه، كما كان حال الكفار يخوفون إبراهيم عليه السلام عن الأصنام ولا يخافون الله وعذابه، حتى قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام:81] من جماد ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنعام:81]، جمادًا ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: 81]، من الله يعني وكيف أخاف الجماد، وقد نزل علي من الله سلطان بإراءة ملكوت الأشياء والآيات المودعة فيها، وإن كلا ليس إلها إلا الله وهو الذي يهاب ويرجى وأنتم لا تخافون وتشركون به جمادات لا سلطان لها ويخافونها ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ [الأنعام:81]، الذي يخافون الله يرجونه أم الذين لا يخافون الله ولا يرجونه ويخافون ويرجون غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:81]، الحق من الباطل فلما لم يعلموا وكانوا موتى لا يسمعون الحق ولا يجيبون بالحق أجابهم وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:82]، أي كانوا مؤمنين إذ رآهم الله تعالى من شواهد الحق عند تجلي صفات ربوبيته في مرآة الكواكب، ولم يلبسوا إيمانهم بشرك الالتفات إلى غيره من الأكوان والكواكب، وقد صح توجههم لخالقها بحيث قالوا لجبريل عليه السلام: «أما إليك فلا» ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام:82]، عن الانقطاع بعد الوصول ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:82]، إلى الوصال.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ

دَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 83 - 84].

ثم أخبر عن محجة تلك الحجة بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام:83]، إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88] الإشارة فيهما أن محجة السلوك إلى الله تعالى إنما هي تتحقق بالآيات التي هي أفعاله، وهذه خرقات لهم وهي الأولى، ثم شهود صفاته بإراءته لهم وهي الرتبة الفانية، ثم التحقيق بوجوده وذاته عند التجلي لأسرارهم هذا مبدء الوصول ولا غاية له، فقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: إرادة الملكوت وشواهد الربوبية في مرآة الكواكب وصدق التوجه إلى الحق والإعراض والتبرؤ عما سواه والخلاص من ترك الأنانية، والإيمان الحقيقي والإيقان بالعيان ابتدائها إبراهيم أي أعطيناه ورأيناه بذاتها من غير واسطة حتى جعلها حجة على قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾(1) [الأنعام:83]، بجذبات الألوهية عن حجب الأنانية ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ [الأنعام:83]، فيما يرفع من يشاء بجذبات ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:83]، بمن يجذبه من حضيض البشرية وممن رفعنا به درجات إبراهيم ﷺ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام:84]، كما هدينا إبراهيم ﷺ هدينا إسحاق ويعقوب - عليهما السلام - لما وهبناها له ولعل تأخر ذكر إسماعيل عن ذكر إسحاق ويعقوب وذريتهما واختصاصهما بالموهبة دون إسماعيل لمكان محمد ﷺ لأن الله تعالى جعل وجود إسحاق ويعقوب وذريتهما وهدايتهم تبعًا لوجود إبراهيم ﷺ وموهبته له، وأن محمدًا ﷺ كان من ذرية إسماعيل والكائنات كان تبعًا لوجوده فما جعل الله تعالى إسماعيل ﷺ تبعًا لوجود إبراهيم ﷺ ولا هدايته تبعًا لهدايته لشرف محمد ﷺ فأفرده عنهم بالذكر والهداية، وسلك مع كبار الأنبياء والمرسلين وميزتهم في سلك واحد بالذكر والهداية وسلك مع كبار الأنبياء والمرسلين والتفضيل على العالمين فمن كان قبل إبراهيم ﷺ وبعده وجودًا وهداية، كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ

(1) قال ابن عجيبة: رفعُ الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين، وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأنس، والله تعالى أعلم [البحر المديد (2/ 169)].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:84]، هؤلاء كلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام يعني كما جزينا إبراهيم عليه السلام لإحسانه معنا يرانا، ولم ير أحدًا معنا وهبنا لهذه الذرية وهديناهم وكذلك نجزي كل محسن معناه على حسب إحسانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: 85 – 90].

ثم ذكر بقية ذريته وأخبر إسماعيل منهم، وذكره مع المخصوصين بذرية نوح وابتداء بذكره لئلا يحاسب من جملتهم، فقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام:85]؛ يعني: من صالحي ذرية إبراهيم عليه السلام الذين لهم صلاحية قبول فيض النبوة من الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 86]، بفضيلة قبول فيض الربوبية بلا واسطة ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ [الأنعام:87]، يعني الذين فضلناهم أيضًا في الأزل لهذه الشأن ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الأنعام:87]، إلى محمد ﷺ من الأنبياء ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ [الأنعام:87]، من المؤمنين ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ [الأنعام:87]، في الأزل لهذه الشأن ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [الأنعام:87]، إلى الأبد كل واحد منهم على قدر الاجتباء ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:87]، إلينا بنا ذلك ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]؛ يعني لولا حنطوا غيرنا وأثبتوا شيئًا من دوننا أو نسبوا شطية من الحدثان إلى غير قدرتنا أو لم يبذلوا أنانيتهم في هويتنا هؤلاء وغيرهم من المصطفين الأخيار ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]؛ لتلاشي عرفانهم وتلف ما سلف من إحسانهم وإن الحق سبحانه وتعالى غيور لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهذا غاية التوبيخ والترهيب للعوام والخواص لئلا يأمنوا مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ثم أخبر عن أسباب عميهم من الشرك والكفر من الأزل بالعناية إلى الأبد بالهداية بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:89]، من مواهب الحق لا يحصلان بالكسب والاجتهاد وإلا بإتيان الحق كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ [الأنعام:89]؛ أي: بالحكمة والنبوة التي آتينا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ [الأنعام:89]، اليهود والنصارى والمشركون ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام:89]، من المذكورين وغيرهم في الأزل إلى الأبد ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:89]، جاحدين ومنكرين أبدًا.

ثم أخبر عنهم أنهم من هم وما صفتهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [الأنعام:90]؛ أي: هداهم الله بصفاته إلى ذاته ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام:90]؛ لأنهم سلكوا مسلكًا غير مسلوك حتى انتهى سير كل واحد منهم إلى منتهى قدر له كما أخبرت: «أني رأيت آدم عليه السلام في سماء الدنيا، ويحيى وعيسى في السماء الثانية، ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة، وهارون في السماء الخامسة، وموسى في السماء السادسة، وإبراهيم في السماء السابعة»؛ فاقتد بهم حتى تسلك مسالكهم إلى أن تنتهي سدرة المنتهى مقام الملائكة المقربين، ثم تعرج بك إلى التجلي الأدنى والمقام الأرفع حتى تخرج من نفسك وتدلى إليه به إلى أن تصل مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9]، مقامًا لم يصل إليه أحد قبلك لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام:90]، يشير إلى معنيين، أحدهما: لا أسألكم أيها الأنبياء على اقتدائي بكم أجرًا منكم إن أجري إلا على الله ولكن ذكري للعالمين عظة لم يعلموا إن الطريق إلى الله لا يسلك لا بالاقتداء، والثاني: لا أسألكم أيها الأمة على دعوتكم إلى الحق وتسليككم مسلكًا لم تسلك أمة قبلكم أجرًا من دنياكم وآخرتكم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90]؛ أي: دعوتي لكم إلى الله ليست مني إلا من الله به إليه للعالمين عامة بيني لي ولكم ولغيرنا أجمعين.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)﴾ [الأنعام: 91 - 93].

ثم أخبر عن جلال قدرته وكمال عزته وعظمته بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:91] والإشارة فيها أن العلم المخلوق لا يحيط بالأوصاف القديمة ولا يدرك القديم إلا بالقدم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ إذ هم مخلوقون والمخلوق لا يقدر إلا المخلوق، فكل من عرف الله بآلة مخلوقة فهو على الحقيقة غير عارف؛ لأنه لم يعرفه حق معرفته ومن عرف الله بآلة قديمة، كما قال بعضهم: «أعرف ربي بربي»، فقد عرف الله وهو عارف، ولكن على قدر استعداده في قبول فيض الربوبية الذي به عرف الله لا على قدر ولا على نهاية ذاته وصفاته ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:91]؛ يعني لو عرفوا الله حق معرفته لعلموا أنه أنزل الكتب وبعث الرسل فمن أراد في معرفة أوصافه فقد ازداد في معرفته، ولما لم يحط أحد بكمال أوصافه ما قدروا الله حق قدره على الحقيقة.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91]، حجة عليهم يعني من الذي يجئ بكتاب كما جاء به موسى عليه السلام وحاله أن ينور القلوب القاسية بنور الله تعالى ويهديهم بذلك النور إلى الله تعالى ودينه غير الله، فإن الكتاب الذي يجيء به غير الله لا يكون له هذا الحال لا ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام: 91]، أي إنما أنزل الكتاب الذي حاله أن ينور القلوب ويهديها إلى الله لتعلموا به وسيرى الله نوره إلى قلوبكم فجعلتموه ﴿قَرَاطِيسَ﴾ بالكتابة وما تجعلونه في قلوبكم بالتخلق بالأخلاق الكتاب فلا جرم تبدونها إلى صورة قراءتها وروايتها ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:91]، وهو حقائقها الكثيرة التي تتعلق بنور الكتاب وهداه وهو غير متناه ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام:91]، يشير بهذا إلى كمالية مرتبة محمد ﷺ وكمالية دينه على الأنبياء عليهم السلام والأديان كلها وذلك أن محمد ﷺ قد بعث لتعليم الكتاب والحكمة وتعليم ما لم يعلم غيره من الكتاب والحكمة كقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:151]، والذي

علمهم النبي ﷺ من الكتاب قوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]، ومن الحكمة ما هو سره الذي يكون تعليمه بسر المتابعة سر بسر وإضمار بإضمارنا المعنى ﴿قُلِ اللهُ﴾ بشرك عند خلوة عن التفات ما سواه من خلقه ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي الخلق في خوضهم يلعبون أي ليلعبوا بمن خاض فيهم وبلعبهم من خاضوا فيهم ومعهم حتى يقولوا يوم الحسرة وكنا نخوض مع الخائضين فهو الذي علمهم النبي ﷺ من حقيقة علم الكتاب والحكمة مما لم يعلموهم ولا آباؤهم والله أعلم.

ثم أخبر عن هذا الكتاب أنه مبارك على أولي الألباب بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:92]، الآيتين الإشارة فيهما أن هذا الكتاب أنزلناه مبارك على العوام بأن يدعوهم إلى ربهم وعلى الخواص بأن يهديهم إلى ربهم وعلى خواص الخواص بأن يوصلهم إلى ربهم ويخلقهم بإضافة وفي كتاب المحبوب شفاء لما في القلوب كما قيل وكتبك حولي لإنفاق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:92]، يعني حقائقه جميع حقائق ما في الكتب الذي أنزلت قبله مستوعبًا للتخلق به ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ [الأنعام:92]، وهي الذرة المودعة في القلب التي هي المخاطب في الميثاق وأوحيت جميع أرض القلب من تحتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:92]، من الجوارح والأعضاء والسمع والبصر والفؤاد والصفات والأخلاق بها يتنوروا بأنواره وينتفعوا بأسراره ويتخلقوا بأخلاقه ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام:92]، يعني ما هو توجهه إلى الآخرة الباقية في أمور الدنيا والآخرة لا للدنيا الفانية وشهوات النفس، وهو لها فقرًا من القرآن وتنور بأنواره وانتفع من أسراره ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:92]، يعني على الترقي من صفاتهم وأخلاقهم إلى الاتصاف بصفات الحق والتخلق بأخلاقه يداومون فإن الصلاة معراج المؤمنين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:93]، يعني الذين يراءون في التأوه والزعقات وإظهار المواجيد والحالات لهم من الله خطرات ونظرات وليس لهم منها نصيب إلا الزفرات والحسرات والمتشبع بما لم يملك كلابس ثوبي زور، وفي معناه انشدوا:

إذا انسكبت دموع في خدودٍ تبيَّنَ من بكى ممن تباكى[1]

(1) البيت للعارف أبي بكر الشبلي رحمه الله، وهو من بحر الوافر.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام:93]، يعني: والذي نزل نفسه منزلة المحدثين وأهل الإشارة، ولم يلق إلى أسرارهم خصائص الكتاب، ولم تلهم نفوسهم بها، ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام:93]، يشير إلى المتشدقين والمتفيهقين في الكلام الذين يدعون أنهم يتكلمون بمثل ما أنزل الله من الحقائق والأسرار على قلوب عباده الواصلين الكاملين.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:93]، إشارة إلى أن غاية الظالم هي الافتراء على الله، والذي يظلم نفسه بالافتراء بأن ينزلها منزلة غيرها، ويضع ادعاء الوحي في غير موضعها، يظهر مضرة ظلمته وافترائه عند سكرات الموت وافترائهم عند انقطاع تعلق الروح عن البدن، وإخراج النفس من القالب كرهًا لتعلقها بشهوات الدنيا ولذاتها وحرمانها من لذات الحقائق الغيبية والشهوات الأخروية؛ إذ الملائكة يبسطون أيديهم بالقهر إليهم لنزع أنفسهم بالهوان والشدة وهي متعلقة بحسب الافتراء والكذب واستحلاء رفعة المنزلة عند الخلق وطلب الرئاسة بأصناف المخلوقات فتكون شدة النزع والهوان بقدر تعلقها بها، كما قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:93]؛ يعنى: آياته المودعة في أنفسكم تعرضون عنها وتراؤون بها ليس لكم، ولعل تعلق النفس ينقطع عن البدن بيوم أو يومين أو ثلاثة أيام وتعلقها عن أوصاف المخلوقات لا ينقطع بالسنين، ولعله إلى الحشر والكفار إلى الأبد وهم في عذاب النزع بالشدة أبدًا وهو العذاب الأليم والعذاب الشديد، ومن نتائج هذه الحالة عذاب القبر فافهم جيدًا.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: 94].

ثم أخبر عن مجيئهم وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ [الأنعام:94]، الإشارة فيها أن المجيء إلى الله تعالى يكون بالتجريد، ثم بالتفريد ثم بالتوحيد، فالتجريد: هو التجرد عن الدنيا وما يتعلق بها، والتفريد: هو التفرد عن الدنيا والآخرة رجوعًا إلى الله

تعالى خاليًا عن التعلق بهما كما كان في بدء الخلقة روحًا مجردًا عن تعلقات الكونين كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:94]؛ يعني: أول خلقة الروح قبل تعلقه بالقالب، فإنه خلقه ثانيًا، كما قال تعالى: ﴿خلقًا آخر﴾ [المؤمنون: 14]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:11]، فللعبد في السير إلى الله تعالى كسب وسعي بالتجريد والتفريد عن الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:94]، يعني: عن تعلق الكونين، ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:94]، يعني: الأعمال والأحوال التي ظننتم أنها توصلكم إلى الله، ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:94]، وبينها عند انتهاء سيركم.

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:94]، إنه يوصلكم إلى الله تعالى، فلما وصل العبد إلى سرادقات العزة انتهى سيره كما انتهى سير جبريل عليه السلام ليلة المعراج عند سدرة المنتهى- وهي منتهى سير السائرين من الملك والأنس ـ والتوحيد هو التوحد، لفيض الوحدانية عن التجلي بالصفات الوحدانية؛ ليوصل العبد بجذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، مقام الوحدة، ولو لم يدركه العناية الأزلية بجذبات الربوبية لانقطع عن السير في الله بالله، وبقي في السدرة وهو يقول: ما شاء الله له مقام معلوم.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾ [الأنعام: 95 – 100].

ثم أخبر عن تعريف ذاته بصفاته ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام:95]، إلى

قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:97]، الإشارة فيها: إن الله هو فالق حبة الذرة التي أخذ منها الميثاق المودعة في حبة القلب عن نبات المحبة وخالق النوى، ذكر: «لا إله إلا الله» في أرض القلب عن شجرة الإيمان كقوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:24]، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:95]، يخرج نبات المحبة التي هي من صفات الحي القيوم من الذرة الميتة الإنسانية.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام:95]، مخرج الأفعال الطبيعية النفسانية التي هي من صفات الكفار الموتى من المؤمن الحي في الدارين، وأيضًا مخرج حي الإيمان من نوى الحروف الميتة في كلمة لا إله إلا الله، ومخرج ميت النفاق من الكلمة الحية وهي لا إله إلا الله، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ [الأنعام:95]، أي: هو الذي له القدرة والكمال، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:95]، فكيف تصرفون عن الحق من غير خذلانه، ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، أي: خالق مصباح أنوار الروح عن ظلمة ليل البشرية ومظهرها، ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام:96]، سترًا من ضياء شمس الروح لتسكن فيه النفس الحيوانية والأوصاف البشرية.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام:96]، يعني: تجلي شمس الروحانية في طلوع قمر القلب بالحسبان؛ لئلا يفسد القلب والقالب، أيضًا تجلي شمس الربوبية وطلوع قمر الروحانية لليل البشرية بالحساب؛ لئلا يفسد أمر الدين والدنيا على العبد بالتفريط والإفراط، فإن في إفراط طلوع شمس المعارف والشهود آفة «أنا الحق» و«سبحاني»، وفي تفريطه آفة «أنا ربكم»، ودعوى الإلوهية واتخاذ الهوى إلهًا.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:96] أي: قدره عزيز لا يهتدي إليه إلا به عليم بما هو مستحق الاهتداء إليه وبالهداية لديه، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ [الأنعام:97]، يعني: نجوم القلوب في سماوات القلوب، ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ [الأنعام:97]، بر البشرية، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:97]، بحر الروحانية إلى عالم الربوبية، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:97]، بيننا وأظهرنا شواهد الربوبية، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:97]، قدرها، وهم أهل المحبة الذين قال تعالى فيهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

ثم أخبر عن تعريف ربوبيته بهويته بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام:98]، إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام:100]، الإشارة فيها: إن الله تعالى خلق آدم ﷺ ابتداء وجعل أولاده منه، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام:98]، فكذلك خلق روح محمد ﷺ قبل الأرواح كما قال ﷺ: «أول ما خلق الله روحي، ثم خلق الأرواح من روحه»[1] فكان آدم ﷺ أبو البشر، ومحمد ﷺ أبو الأرواح، إليه يشير قوله تعالى: ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام:98]، يعني: من الأرواح ما يتعلق بالأجساد واستقر وما هو بعد مستودع في عالم الأرواح، وأيضًا من الأرواح ما هو مستقر فيه نور الإيمان وهو من أنوار الصفات، ومستودع فيه جذبات الحق وهي أنوار الذات، ومنها ما هو مستقر ببقاء الحق باقٍ، وما هو مستودع في بقاء البقاء عن الفناء فانٍ، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:98]، دلالات الوصول والوصال.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:98]، يعني: لقوم لهم نقد القلوب وإشارات الغيوب، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام:99]، أي: من سماء العناية ماء العناية، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:99]، من أنواع المعارف، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام:99]، أي: من المعاني والأسرار ما هو غض طري، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:99]، من الحقائق يركب بعضها بعضًا، ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ [الأنعام:99]، يشير إلى أصحاب الولايات من طلعها، ﴿مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام:99]، أي: من ثمرات ولايتهم ما هو متدانٍ للطالبين والمريدين؛ يعني: منهم من يكون قريبًا فينتفع بثمرات ولايته،ومنهم من يختار العزلة والانقطاع عن التمكين به، ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام:99] يشير به إلى روضات العلوم المستخرجة من أرض الأعيان بماء الهداية لأرباب الزهد والتقوى، وإن لم يبلغوا مراتب أهل الولاية وجنات من أعناب الاجتهاد وزيتون الأصول ورمان الفروع، ﴿مُشْتَبِهًا﴾ أي: متفقًا في الأصول والفروع، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾؛ أي: مختلفًا فيها بين العلماء والأئمة.

---

(1) تقدم تخريجه.

﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام:99]، أي: ثمر الولاية ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:99]، كيف ينتفع العوام بها، ﴿وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام:99]، أي: وإلى يانعة كيف يتفرد في العالم عنه كماله، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99]، بأحوالهم ويتبعونهم بأقوالهم، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام:100]، يشير به: إلى أنه تعالى كما أخرج بماء اللطف والهداية من أرض القلوب لأربابها أنواع الكمالات التي ذكرنا، فأخرج بماء القهر والخذلان من أرض النفوس لأصحابها أنواع الضلالات حتى أشركوا.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:100]؛ أي: بالجهل والضلال في تفرده بالجمال والجلال.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: 101 - 104].

ثم أخبر عن تفرد ذاته وصفاته بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:101]، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:102]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:103]، والإشارة فيها: أنه تعالى موصوف بالتنزيه ذاته وصفاته بحيث ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:103]؛ أي: لا تلحقه المحدثات لا الأبصار الظاهرة ولا الأبصار الباطنة، تقدَّست بالصمدية عن كل لحوق ودرك ينسب إلى مخلوق ومحدث.

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:103]، بالتجلي لها، فيفني المحدثات فيكون هو بصره الذي يبصر به، فالقوة عند التجلي الأبصار الظاهرة والباطنة في الرؤية بنور الربوبية، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:103]، أي: هو اللطيف من أن يدركه المحدثات أو يلحقه المخلوقات، الخبير بمن يستحق أن يتجلى له الحق تعالى ويدرك أبصاره باطلاعه

عليها فيستعد بها للرؤية، ومن لطفه أنه أوجد الموجودات وكون المكونات فضلاً منه وكرمًا من غير استحقاقها للوجود(1).

(1) قال صاحب «دقائق الإشارات»: ومنها اللطيف، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:103] ومعناه: الذي يريد لعباده الخير واليسر، ويفيض لهم أسباب الصلاح، وهذا للمؤمن من عند من لا يرى أن ما يعطيه الله تعالى للكفار نعمة، أو أراد للمؤمن خاصة في أسباب الدين، أو أراد المؤمن والكافر عامة في أسباب الدنيا عند من يراها في الجملة.

قال أبو سليمان: اللطيف: هو البر بعباده، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى:19]، وقيل: هوالذي يوصل إليك إربك في رفق، ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية، انتهى.

وقال سيدي محمد القونوي ـ قدس الله سره: اللطيف سريانه في أفعاله الموجودات، أي باعتبار أنه الفاعل لها، واختفاء لطائف حكمته في مظاهر الكائنات، هو الذي ييسر كل عسير، ويجبر كل كسير.

اعلم أن حقائق هذا الاسم وأسراره عمّت مراتب الوجود، واللطيف مأخوذ من اللطف، وهو الخفاء، وأقرب أمثلته، خفيات ألطافه، مد الظل وقبضه، فإن البصر لا يدرك غير امتداده وانقباضه، حالاً بعد حال، ولا قدرة له على شهود حركته المحسوسة على الدوام، فضلاً عن شهود حقيقة خروجه عن الأصل الحقيقي ورجوعه إليه، فإن الظل إذا أخذ في الامتداد، يخرج من ذات الشخص، وكذلك إذا انقبض لا ينقبض إلا ما منه خرج، هذا شهادة العين. وقال الحق عز شأنه: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: 46]؛ إشارة إلى أن ما يخرج منه هو الحق سبحانه، ظهر من حيث تجليه بصورة فيه، فظل يبرزه تارة ويقبضه أخرى، وكما أضاف القبض إلى نفسه، كذلك أضاف الامتداد إليه، بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان:45] الآية، وهذا من ألطف الإشارات، فإن العين تدركه، وتشهد حركة الامتداد وانقباضه من الذات، انكشف أنها هي حقيقة من لطائف تصرفات القوي اللطيف، وكذلك قوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:80]؛ إشارة إلى سريان هذا اللفظ الإلهي، الذي هو كسريان نور الشمس في أجزاء الجو؛ إذ امتزاجها بحيث لا تقع الإشارة إلى الهوى وإلى النور، وكذلك سبب اختفاء الذات المتعالية سعة ظهوره واحتجابه عن الإدراكات بسبحات نوره، انتهى.

وقال الجيلي ـ قدس الله سره ـ في «الكمالات الإلهية»: اسمه اللطيف تعالى، هو الذي امتنع إدراكه بالأبصار، وتنزه عن المكان، فلا يتحيز في الجهات والأقطار، وتعالى عن الحد، فلا تعرفه العقول بالفهوم والأفطار، وهو مع ذلك أقرب إلى الأشياء من ذواتها، وأظهر عليها من صفاتها غاية الإظهار، وهذا الاسم اسم صفة إلهية بهذا الاعتبار، ولهذا الاسم اعتبار آخر، وهو أن اللطيف هو الذي يسرع بكشف الغمة عند حلول النقمة، ويصبح بإزاء النعمة من حيث لا تتوقها الغمة، وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: «إن لله في طرفه عين نظر لطف إلى خلقه»، فهذا الاعتبار اسمه اللطيف من أسماء

-

ثم أخبر عن إيضاح السبيل وإيضاح الشكر بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام:104]، إلى قوله: ﴿وَكِيلٍ﴾ [الأنعام:107]، الإشارة فيها: إن الله تعالى أعطى لكل عبد بصيرة؛ لقلبه يبصر بها الحقائق المودعة في الغيوب، والكمالات المعدة لأرباب القلوب، كما أعطى بصرًا لقالبه يبصر به الأعيان في الشهادة، وما أعد لهم فيها من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح، فقد قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الأنعام:104]، يعني: من نظر ببصر البصيرة إلى المراتب العلوية الأخروية الباقية والبصر كمالات القرب، وما أعد الله: مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيشتغل تحصيله ويقبل على الله بسلوك سبيله، ويعرض عن الدنيا الدنية، ويترك زينتها وشهواتها الفانية، فكذلك تحصيل سعادة وكرامة لنفسه،﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97].

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:104]، يعني: من عمي عن النظر بالبصيرة عن هذه الكمالات لمَّا أبصر ببصر القلب إلى الدنيا وزينتها واستلذ بشهواتها، واستحلى مراتعها الحيوانية، فعميت بصيرته، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46]، فذلك تحصيل شقاوة وخسارة على نفسه، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:104]، أحفظكم عن هذه الشقاوة، وأبلغكم من غير اختياركم وصدق طلبكم إلى تلك السعادة المعدة للسعداء.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ

-

صفات الأفعال، وصفته اللطف، وهو عبارة عن سريان الرحمة بأنواع الإغاثة والنعمة من غير امتناع، وبالاعتبار الأول: أن اللطف عبارة عن غموض أعلم به من حيث يحصل امتناع معرفته على الحقيقة؛ للطافتها عن مدارك الفهوم، وتنزهها عن مبلغ غايات العلوم أ.هـ.

أَقُولُ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ [الأنعام: 105 - 109].

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:105]، أي: يجعلها فتنة للجهال ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾؛ بجهلهم بكلام الله والتصرفات الإلهية، ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾؛ يعني: نصرف الآيات، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:105]، أي: للمتحالين بالعلم والمعرفة من الجهال والضلال، إنه كلام الله وتصرفاته ليس بمقدور مخلوق اتبع بإفناء الأنانية، ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:106]، فيما أوحى إليك من تجلي صفات ربك بالوحدانية؛ ليتحقق لك أنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:106]، عند تجلي ذاته بالوحدانية بإفناء أنانيتك في هُويته، وهذا أمر التكوين؛ ليخرجه عن مقام المشركين وهم أهل الأنانية والآنية والاثنينية سرًا وجهرًا، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:107]، لتحفظهم عن التثنية وما أنت عليهم؛ يعني: على من أوقعناهم في مقام الاثنينية حكمة بالغة منا، ﴿بوكيل﴾ لتبلغهم إلى مقام الوحدة، وإنما يبلغ الوحدة من خلقناه لها، وتدعو العوام إلى: التوحيد، والخواص إلى: الوحدانية، وخواص الخواص إلى: الوحدة، ويكون لكل قوم هو لما خُلق له.

ثم أخبر عن جهالة الإنسان وغاية ضلالته بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:108]، إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111]؛ الإشارة فيها: إن من غاية جهالة الإنسان وظلوميته أن يصير أمره إلى أن يسبوا الله الذي خلقه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:108]؛ يعني: ولا تخاطبوا أهل الضلالة على موجب نوازع النفس والطبيعة الجهولية الظلومية، فيحملهم ذلك على ترك الإجلال وإظهار الضلال، بل خاطبوهم بلسان الحجة وإلزام الدليل ونفي الشبهة، ولا يضايقوهم على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في عينهم فيكونوا سببًا وعلة لزيادة كفرهم، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:108]، كما زينا لكم مسالمتهم ومخاطبتهم بالعنف، فكذلك زينا لكل أمة من المقبولين أعمال أهل القبول، ومن المردودين أعمال أهل الردة، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام:108]، بأقدام تلك الأعمال كلا الفريقين يذهبون إلى ربهم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:108]، أما أهل القبول: فيسلكون على أقدام الأعمال الصالحة طريق اللطف فينبئهم بالفضل والإحسان

أنهم كانوا يحسنون، وأما أهل الردة: فيقطعون على أقدام المخالفات بوادي القهر والمهلكات فينبئهم بالعدل والخسران أنهم كانوا يسيئون، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام:109]، وهم غافلون عن حرمانهم وخذلانهم، ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام:109]، قد حسبوا أن البرهان يوجب الإيمان ولم يعلموا أنهم مقهورون تحت حكم السلطان، فلا يخلطوا بالبرهان عن قيد الخذلان وأيدي الحرمان، وما يعني وضوح الأدلة لمن لا تساعده سوابق الرحمة.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأنعام:109]؛ يعني: اطلبوها في مقام العبدية، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ [الأنعام:109] يا أهل الحسبان ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:109] بالخذلان.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)﴾ [الأنعام: 110 - 111].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام:110]؛ يعني: كيف يؤمنون ونحن نقلب أفئدتهم عن الآخرة إلى الدنيا وأبصارهم من شواهد المولى إلى مشاهدة النفس والهوى، ونجعلهم ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:110]؛ أي: كأنهم لا يؤمنون يوم الميثاق بالوحدانية، إذ قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ [الأنعام:110] على حكم سَوابق الأزل، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [الأنعام:110]، الخذلان، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110] إلى الأبد، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْـمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام:111] ليفقهوا، ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْـمَوْتَى﴾ [الأنعام:111] أي: يحيي قلوبهم الميّتة وتكلمهم.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام:111]؛ يعني: معاينة الآيات المودعة في المكونات وإن تظاهرت وتوالت شموس الشواهد وإن سألت ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام:111] إذ قصمتهم العزة وكبتهم [شقاوة] القَسْمَة، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام:111]، فإن المشيئة تغير السجية، والعناية الأزلية كفاية الأبدية، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111]، إن الهدى ليس بالمنى وإنما بمشيئة المولى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأنعام: 112 - 114].

ثم أخبر عن أهل الولاء إنهم قد أبطلوا بالأعداء بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:112]، إلى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114]، الإشارة فيها: إن البلايا للسائرين إلى الله هي المطايا، وإن أشد البلاء شماتة الأعداء، فلما كانت رتبة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أعلى كانت عداوة الأعداء لهم أدنى جعلنا بهم أولى، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:112]؛ فشياطين الإنس نفسه الإثارة بالسوء وهي أعدى الأعداء؛ ولهذا قدَّم ذكره على الجن هاهنا بخلاف المواضع الأخرى؛ ليعلم عداوة النفس، وأصحاب النفوس أشد وأصعب من عداوة شياطين الجن، فإن كيد الشيطان مع الإنسان كان ضعيفًا؛ فلصعوبة الابتلاء جمع الله تعالى بين الكيد في عداوة الأنبياء وللأولياء حتى قال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112]،وبوزرهم به؛ لتزيد مقاساة شدائد أذيتهم في دفعة مراتب قربهم وكماليتهم في العبودية، وفنائهم في الأوصاف الربوبية، وبقائهم بالأخلاق الإلهية.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:112]، حتى عداوة شياطين الإنس والجن إنما هي بمشيئته لا بمشيئتهم، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:112] من زخرف القول، فإن للأنبياء فيه ما ذكرنا، وفيه للمؤمنين والكافرين ما ابتلاه، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام:113]؛ يعني: وليبتلي بزخرف قوله: المؤمنين والكافرين، واكتفى بذكر أحد الفريقين عن الآخر، فيصغى إلى زخارفهم الكافرون الذين لا إيمان لهم بأن سوى هذه الدار دارًا أخرى فيغترون بزخارفهم، وهم يشترون الحياة الدنيا بالآخرة، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:113].

وأمَّا المؤمنون فلا يصغون إلى زخارف قولهم ولا يغترّوا بقولهم، ولا يهنون لما أصابهم من عداوتهم في سبيل الله تعالى، فيقوى بهم إيمانهم، ويزداد قربهم، ويتبدل أوصافهم الذميمة بالأخلاق الحميدة، ويحسن تفردهم للحق وتجردهم عن الخلق، ويقولون: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:114]؛ أي: أنا بالذي أطلب غير الله وغير محبته حاكمًا من الدنيا والآخرة يحكم على أن أكون بحكمه، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:114] مبينًا للطالبين الصادقين طريق الحق من الباطل، مبلغًا بنور هداه العبد المحب إلى محبوبه ومولاه، ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام:114]، أي: هداهم بنور الكتاب إلى حضرة الجلال، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:114]؛ يعني: كوشفوا بحقائق القرآن أنه جذبة الحق منزل إلى المحبين؛ ليجذبهم إلى محبوبهم، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114] الذين يشكون في أن القرآن جذبة الحق أم الأخلاق يتمسكون به وهذا نهي التكوين، فكمن قال في الأزل: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ فما كان منهم فافهم جيدًا.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: 115 – 116].

ثم أخبر المولى تأكيدًا لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:115]، إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام:119]؛ الإشارة فيها: إنه تعالى متكلم بكلام واحد من الأزل إلى الأبد،﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾؛ يعني: بأمره ونهيه وحكمه وقضائه وقدره وإيجاده، وهي كلمة كن لمَّا أراد أن يكون موجودًا فكان كما أراد، وأن يكون معدومًا فكان كما أراد؛ أي: طوعًا ورغبة في الكينونة كما أراد، كقوله تعالى: ﴿اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11]، ﴿وعدلاً﴾؛ أي: عدل فيما قدر ودبر وقضي وحكم بالوجود والعدم والسعادة والشقاوة والرد والقبول والخير والشر والحسن والقبيح والإيمان والكفر، فإنه أحسن كل شيء خلق، فكما أحسن خلق الحسن كذلك أحسن خلق القبيح؛ لأن القبيح في مقامه حسن كالحسن في مقامه، فإن قيل: هو قادر على أن يخلق أحسن مما خلق حسنًا أو يخلق أقبح مما خلق قبيحًا، وإن

يخلق خيرًا مما خلقه خيرًا وشرًا مما خلقه شرًا، قلنا: نعم، وهو كذلك إلى الأبد، وذلك إن أحسن كل شيء خلقه الله تعالى هو الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، وكذلك خير شيء خلقه الله هو الإنسان عند كماله ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:7]، ثم أقبح ما خلقه الله تعالى وسيره أيضًا هو الإنسان عند فساد الاستعداد الفطري وكمال نقصانه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:5]، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:6].

فاعلم أن لأهل الكمال ترقيًا في كمال الحسن إلى الأبد، ولأهل النقصان ترقيًا في كمال القبح إلى الأبد، فالله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يخلق أحسن مما خلق حسنًا، ويخلق أقبح مما خلق قبيحًا إظهار القدرة الكاملة الغير المتناهية، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: 115]؛ أي: فيما قدّر وقضى وحكم بإرادته القديمة وحكمته البالغة من أصناف المخلوقات وأنواع المخترعات، فليس شيء منها يدعو إلى التبديل من نقصان في خلقه؛ لأنه خلق تامًا كاملاً في رتبته، والزيادة على الكمال نقصان، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [الأنعام: 115]؛ لحاجة كل ذي حاجة يسمع استدعائهم لوجود الكمال قبل وجودهم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:115] بإيجاد وجود الكمال المستدعي كما يجب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116] إشارة إلى: إن في أمته من أن تطعه يردك إلى سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:54]، وذلك؛ لأن أكثر من في الأرض هم متّبعوا أهوائهم، فمن يطيع أهل الأهواء اتبعهم، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:26]، فمن يتبع أهل الأهواء كأنه اتبع الهوى فيضله عن سبيل الله.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام:116]؛ يعني: أهل الأهواء بنوا أمر دينهم على الظنون الكاذبة، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:116]، يكذبون في دعوى طلب الدين الحق، فإن سبيل الحق لا يسلك بالظن وإنما يسلك بالصدق والهدى.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام: 117 – 120].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:117]؛ لأنه قسّم الضلالة والهدى يضل من يشاء وهو أعلم بمستحقي الضلالة من مستحقي الهداية.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:118]؛ يعني: من أمارات الإيمان كلوا الطعام بحكم الشرع لا على وفق الطبع وتذيبوه بذكر الله، كما قال ﷺ: «أذيبوا طعامكم بذكر الله»(1) فإن الأكل على الغفلة والنسيان والاستعانة على العصيان يورث موت الجنان والحرمان على الجنان، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:119] أيها الطلاب؛ يعني: الدنيا وما فيها، والآخرة وما هو من نعيمها، فإن الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:119] من ضروريات البشرية في الدارين بأمر المولى ولا بالطبع والهوى، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:119]؛ يعني: من أهل الأهواء، ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ [الأنعام:119]، عن سبيل وطلب الحق، ﴿بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:119]؛ يعني: بمتابعة أهوائهم في طلب الدنيا والركون إلى العقبى، ولا يعلمون أنهم مفتونون وعن باب الحق مطرودون، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119]، الذين جاوزوا طلب المولى وركنوا إلى الدنيا والعقبى.

ثم أخبر عن جزاء أهل الأهواء بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: 120]، الآيتين والإشارة فيهما: أن الله تعالى كما خلق الإنسان ظاهرًا: هو بدن جسماني وباطنًا: هو قلب روحاني، فكذلك جعل الإثم ظاهرًا: وهو كل قول وفعل موافق للطبع مخالف للشرع، وباطنًا: وهو كل خلق حيواني ومسمى شيطاني جبلت النفس عليه.

فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام:120]؛ أي: اتركوا أعمال الطبيعة باستعمال الأعمال الشرعية، واتركوا الأخلاق الذميمة النفسانية بالتخلق

---

(1) تقدم تخريجه.

بالأخلاق الملكية الروحانية، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ [الأنعام:120] ظاهره وباطنه بالأفعال والأخلاق، ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:120] عاجلاً وآجلاً.

أمَّا عاجلاً: فلكل فعل وقول طبيعي ظلمة تصدأ مرآة القلب فيخرف مزاج الأخلاق القلبية الروحانية، ويتقوى مزاج الأخلاق النفسانية الظلمانية، وبه يقلب الهوى ويميل إلى الدنيا وشهواتها، فبإظهار كل خلق منها على وفق الهوى يزيد ريناً وقسوة في القلب فيحتجب به عن الله تعالى، كما قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14].

وأمَّا آجلاً: فبهذه الموانع والحجب ينقطع العبد عن الله تعالى ويبقى محجوبًا معذبًا في النار خالدًا مخلدًا،كما قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام: 121 – 124].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:121]؛ أي: ولا تأكلوا طعامًا إلا بأمر الله وعلى ذكر الله وفي طلب الله؛ ليندفع بنور الذكر ظلمة الطعام وشهوته، ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام:121]؛ يعني: ظلمة الطعام وشهوته؛ مؤدية إلى الفسق الذي هو الخروج من النور الروحاني إلى الظلمة النفسانية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:121]؛ إشارة إلى: إن للشياطين مجالاً في الوسوسة، إذ كانت النفوس أولياءهم في المجادلة مع القلوب؛ ليدعوها إلى متابعة الهوى وترك طلب المولى، [وتشوف] النفس [وهم] أولياء الشياطين في هذا المعنى، ولا يكون للشيطان مجال

في وسوسة القلوب ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ [الأنعام:121]؛ يعني: في ترك طلب المولى ومتابعة الهوى ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121]؛ لأنكم تعبدون الهوى مع المولى، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43].

ثم أخبر عن طالب المولى متابعي الهوى بقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:122]، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام:124].

والإشارة فيها: إن الله تعالى هو الحي القيوم الذي ما كان ميتًا ولا يموت أبدًا وما سواه فهو ميت؛ لأنه كان ميتًا في العدم وسيموت، فقوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا﴾؛ أي: من الحياة الحقيقية فأحييناه بالحياة الحقيقية، وهي معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]، أي: نور الوجود الحقيقي الذي صار به قيامه في جميع أحواله، كما قال تعالى: «فبي يبصر وبي يسمع»[1].

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام:122]؛ يعني: كالذي هو باقٍ في ظلمات الوجود المجازي كالموتى في قبور القالب لا يمكنه الخروج منها، وأيضًا: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]:

أي: بنورنا، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ يعني: محبوس في ظلمات وجوده ليس بخارج منها ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122] من أنواع الضلالات يميت قلوبهم ويحييهم في ظلمات وجودهم المجازي ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام:123]؛ يعني: كما جعلنا في قلب من أحييناه بنا نورًا كذلك جعلنا في كل قرية كل قالب أكابر من النفوس والهوى والشيطان مجرميها؛ أي: مفسدي حسن استعداداتها لقبول السعادة ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام:123] بمخالفات الشرع وموافقات الطبع، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:123]؛ لأن فساد استعدادهم عائدًا إلى أنفسهم بحصول الشقاوة وفوات السعادة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:123] ولا شعور لهم على ما يفعلون بأنفسهم وإن مرجعهم إلى النار.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ [الأنعام:124]؛ أي: النفس والهوى والشياطين

---

(1) تقدم تخريجه.

من دأبهم ألا يؤمنوا برؤية الآيات؛ إذ جبلوا على الإباء والتمرد والإنكار، ولسان حالهم يقول: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ [الأنعام:124]؛ أي: القلب والسر والروح؛ فإنهم مهبط أسرار الحق وإلهاماته، ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124] يخص بها القلب والروح والسر ونفسًا تطمئن بذكر الله فيستحق رسالة ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللهِ﴾ [الأنعام:124]؛ يعني: أصحاب النفس الأمارة بالسوء لهم ذلة البعد من عند الله، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الأنعام:124] فهو عذاب الفرقة والانقطاع، ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام:124]؛ أي: بما افسدوا استعداد الوصلة وهو جزاء مكرهم وكيدهم.

ثم أخبر عن أهل الهداية والضلالة بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:124]، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:127]، الإشارة فيها: إن انشراح الصدر لمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام إنما يكون من وقع النور في القلب؛ وذلك لأن الله تعالى إذا أراد أن يهدي عبدًا إلى حضرة جلاله ينظر إلى قلبه بنظر العناية؛ فينوره بنور جماله لينظر ببصيرة القلب من رؤية السر؛ فيهديه نور جماله إلى حضرة جلاله؛ فينشرح الصدر بضوء النور الواقع في القلب، وهذا الضوء هو المسمى بنور الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: 22]، والنور الواقع في القلب: هو المسمى بنور الإيمان مهما يكون من وراء الحجب الرقاق؛ أي: الحجب الروحانية، كلما كان الحجاب أرق يكون الإيمان والقلب أنور وأرق وأصفى إلى أن يصير الإيمان إيقانًا وكمال رقة بالحجاب، وتنور القلب إلى أن يصير الإيقان عيانًا ضدد رفع الحجاب، وتجلي الحق تبارك وتعالى بصفة جماله إلى أن يصير العيان عينًا تجلي صفة جلاله.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125] يعني: ظلمات طبيعته وميلان هوى نفسه وطبعه، فيبقى في ضيق صفات بشريته، وحرج تعلقاته بالدنيا، وما فيها وتتبع شهواته ولذاته ظلمات بعضها فوق بعض حتى لا يبقى فيه الرجوع إلى الخالق من التمادي في الباطل، فلا يسوغه الشرب من المشارب الروحانية الربانية لاستهلاكه في الصفات الحيوانية النفسانية، وإن حكم عليه بإتباع الحق ليشق عليه.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: 125 - 129].

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:125]؛ لأنه سفلي الطبع لا يصعد إلا بالتصعيد والقسر، ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ﴾ [الأنعام:125] الضلالة والبعد والطرد، ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:125] لا يصدق الأنبياء والأولياء فيما أتاهم من فضله ولا يتبعونهم.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:126]؛ أي: هذا الذي بيناه من الهداية والضلالة للسعداء والأشقياء طريق مستقيم لربك باللطف والقهر، فبجذبات اللطف كما ذكرنا يهدي السعيد إلى حضرة الربوبية بإقامة العبودية، وبخذلان القهر يضل الشقي عن الحضرة بإتباع الهوى والقطيعة، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأنعام:126] بين السعيد والشقي، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:126] يتعظون ويتبعون سبيل الأنبياء والأولياء، ويتركون سبيل الشيطان والهوى، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:127] أي: وراء السلامة عن القطيعة في مقام العندية بالوصول إلى الوحدة بعد الخروج من ظلمات الإثنينية.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:127]؛ يعني: هو الذي يتولاهم بالإخراج عن ظلمات اثنينتهم والإيصال إلى نور ربوبيته، كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، فافهم جيدًا.

ثم أخبر عن الجن والإنس وما بينهما من الوحشة والأنس بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام:128]، وقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام:22]، يشير إلى أنه تعالى حشر وجمع الجن وهي صفة الشيطانية والإنس، وهي النفس الإنسانية وصفاتها في موفق القالب البشري بحكمة بالغة وقدرة كاملة ويحيطها بقوله: يا معشر الجن وإلى الصفات الشيطانية قد استكثرتم من الإنس؛ أي: قبلتم على الصفات الإنسانية، وأضللتموهم عن طلب الحق وهو الصراط المستقيم إلى الله الذي خلق الإنسان للعبور عليه والوصول إلى الحق، ومن شأنه إقعاد الإنسان عن هذا الصراط، كما قال:﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:16]، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام:128]؛ أي: النفس الإنسانية التي من حسنها ودناءة نفسها التي هي أمارة بالسوء وهي من أولياء الشياطين، ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا﴾ [الأنعام:128]، واستمتاع النفس الإنسانية بالشيطان هو أن يستعين بصفات مكره وخديعته وكيده وحيلته وتكبره وتمرده على تحصيل شهواتها الدنيوية ومستلذاتها واستيفاء حظوظها منها وتكبرًا للحق تعالى وموافقة هواها، وأمَّا استمتاع الشيطان بالإنس هو أن يستعين به على إضلال الحق وإغوائهم عند عجزه عن إغوائهم، كما استعان بحواء على آدم عليه السلام في أكل الشجرة، ﴿أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:128]؛ يعني: مدة استمتاع بعضنا ببعض وكميته الذي قدرت لنا، أشاروا بهذا: إلى أن ما جرى منهم إنما كان مقتضى ارتضائه وقدره، فأجابهم الله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام:128]؛ يعني: كما قدَّرنا لكم الاستمتاع قدَّرنا أن النار تكون مثواكم وأنتم فيها خالدون، إلَّا من شاء الله أن يتوب ويرجع إلى الله؛ فلا تكون النار مثواه؛ فلا استثناء راجع إلى أهل التوبة في الدنيا لا إلى أهل الخلود في النار.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ [الأنعام:128]، فيما يجعل بعض أهل الاستمتاع أهل النار وبعضهم أهل الجنة، ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:128]، إنهم لا يهمهم خلقوا للنار أم الجنة، ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام:129]، يعني: جعلنا مرده الجن والإنس، بعضهم أولياء بعض، كذلك يجعل الضالّين بعضهم أولياء بعض؛ ليمين بعضهم ببعض على الظلم والفساد، كما يعين الشيطاني النفس على المعاصي، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:129]؛ يعني: سبب أن الظالمين كانوا يفسدون استعدادهم الفطري الروحاني القابل للفيض الربّاني؛ بوضع المعاملات النفسانية الحيوانية موضعها، التي هي مانعة عن

قبول الفيض.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: 130 - 134].

ثم أخبر عن إقرارهم بالكفر بعد إنكارهم، بقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأنعام:130]، إلى قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:132]، الإشارة فيها: إن المخاطب في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الإنسانية التي هي مجبولة على الصفات الشيطانية والملكية والحيوانية، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام:130]، يشير بالرسل: إلى الهامات الربانية، وبالآيات: إلى بيان الفجور والتقوى للنفس بالإلهام، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:8].

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام:130]، يعني: قد أتتكم من الله الإلهامات بما يصلح لكم، وبما يفسد استعدادكم الفطري، ويخوفكم من سوء العاقبة والحرمان عن لقاء الحق، والابتلاء بشقاوة الأبد، وأنتم ما اتعظتم بها وأبيتم قبولها، ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام:130]؛ يعني: النفس بصفاتها، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:130]؛ أي: لذاتها وشهواتها وزينتها وزخارفها، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:130]؛ يعني: أقروا عند الحرمان عن السعادة العظمى أنهم بذواتهم كانوا عند صدأ مرآة قلوبهم وسائري صفاتها عن قبول فيض النور وشواهد الحق.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ [الأنعام:131]؛ يعني: قرى أشخاص الإنسان، ﴿بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:131]، والظلم: هو صرف الاستعداد الفطري لقبول الفيض

في استيفاء لذات الطبع وشهوات النفس، ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:131]، عن إنذار رسل الإلهامات الربَّانية، وذلك أن الاستعداد الروحاني لا يفسد استيفاء حظوظ الحيواني في الطفولية، إلا بعد أن يصير العبد مستعدًا لقبول فيض العقل وفيض الإلهام عند البلوغ، فيخالف الإلهامات ويتبع الهوى، فيفسد بذلك حسن الاستعداد لقبول الفيض الإلهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْـهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:26]، وهذا كما أنه تعالى لا يعذب قومًا بلغهم الدعوة حتى يبعث فيهم رسولاً، فيخالفونه فيعذبهم بها.

وقد عبَّر لسان الشرع عن هذا المعنى، بأنه لا يجري عليه قلم تكاليف الشريعة إلا بعد البلوغ بالأوامر والنواهي؛ لأنه أوانِ ترقي الروح باستعمال المأمورات، ونقصانه باستعمال المنهيات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:132]؛ يعني: في استعمال المأمور والمنتهي في الترقي والنقصان، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [الأنعام: 132]، عند ترك المأمور وإتيان المنتهى، وعند إثبات المأمور وترك المنهي عند ترقية الروح وتنقيصه، وهو معنى قوله: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:132].

ثم أخبر عن غناه وافتقارنا إلى رضاه بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:133]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:135]، الإشارة فيها: إن الله تعالى خلق نوع الإنسان إظهارًا لسعة رحمته وكمال قدرته لا للاحتياج إليه، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ يعني: عن كل مخلوق عامة، وعن الإنسان الذي يشرك به خاصة، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يعني: مع غناه عن الخلق فرض رحمة قد اقتضت إيجاد الخلق؛ ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [الأنعام: 133]، أي: له مشيئة واختيار فيما شاء وقدره على أن يستأصل نوع الإنسان، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ [الأنعام:133]، أيها الإنسان، ﴿مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام:133]، من نوع آخر.

﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام:133]؛ يعني: كما كان قادرًا على إنشائكم من الذُّرِّيَّات، كذا قادر على إنشاء قوم آخرين من غير الذُّرِّيَّات، كما أنشأ آدم وحواء من غير ذُرِّيَّة ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام:134]؛ يعني: أوعد لكم من الإتيان به أولاً وآخرًا، فهو قادر على الإتيان به، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:134]، بما تعين له عن الإتيان به.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾ [الأنعام: 135 - 137].

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام:135]، أي: على ما جبلتم عليه، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام:135]؛ أي: على ما جبلت عليه نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:84]، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:135]، إذ ظهر لكم ما هو المودع في الاستعداد الفطري لكل واحد منا، من السعادة والشقاوة تعلمون، ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام:135]،؛ أي: دار النجاة والفلاح، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:135]، الذين يفسدون الاستعداد الفطري بصرفه في غير محله.

ثم أخبر عن إضلال الجهّال بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:136]، إلى قوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:139]، الإشارة فيها: إن الله تعالى يشكو عن كافري نعمة الدين، خلقهم وأنعم عليهم بإيجاد الأنعام والحرث وقال: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾؛ أي: من جملة ما خلق لهم من الحرث والأنعام نصيبًا، ﴿فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام:136]، وإن لم يجعلوه خالصًا لله مع أنه تعالى أعطاهم جملته، ثم اتخذوا لله شريكًا، وجعلوا مما أنعم الله به عليهم وأعطاهم نصيبًا لشركائهم، ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:136]، ثم من جهلهم رجحوا جانب الشركاء على الله، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى الله﴾ [الأنعام:136]، بوجه من الوجوه، ﴿وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام:136] من وجوه، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:136] فيما أنعم الله به عليهم بأن يجعلوه لشركائهم، ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام:137]، من الشيطان والنفس

والهوى والدنيا، ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ [الأنعام:137]، ويهلكوهم، ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام:137]، الذي ارتضى لهم الله؛ ليعلموا: إن الذين اتخذوهم شركاء لله وجعلوا لها آلهة فإنهم عدوّ لي، كما قال خليل الله عليه السلام عند التبرؤ عن الشرك: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77].

وليعلموا: حقيقة، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:55]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:137]؛ لهداهم إلى اقتباس النور عند رشاشه على الأرواح بالأصالة، كما قال ﷺ: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى»[1] ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:137]، فإن لنا في ذلك حكمة بالغة.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: 138 - 140].

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: 138]؛ يعني: قالوا هذه المقالة من هوى نفسهم، وميل طبيعتهم لامتثال الشرع، فإن نور الشرع مزيل لظلمة الطبع، والعمل بالطبع وإن كان فيه نوع من المجاهدات للنفس ومخالفاتها، فإن له ظلمة تزيد في ظلمة النفس والهوى، و﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:40]، ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:138]، هذا كله من تسويلات النفس ووساوس الشيطان؛ ليضل بها عن سبيل الله.

ثم قال تعالى في جوابهم: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:138]، ومجازاتهم بأن يطبع قلوبهم بطباع الافتراء، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:

(1) ذكره حقي (1/ 21).

155]، أي: بطباع كفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً، وقالوا أيضًا: من هوى نفوسهم، ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾، ثم قال تعالى: في جوابهم: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:139]، سيجزيهم بتغير وصفهم من الصدق إلى الكذب؛ أي: ينقلهم من الأوصاف الحميدة إلى الأوصاف الذميمة، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ [الأنعام:139]، فيما حكم به وقضى عليهم، عليم باستحقاقهم لما قدر عليهم، وأيضًا ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:139]، بتغير أوصافهم.

ثم أخبر عن خسرانهم فيما عملوا، وحرمانهم إذ ضلوا بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ [الأنعام:140] والإشارة فيها: إن خسارة أهل الأهواء وخسارة أهل الطبيعة تصير إلى حد قتلهم أولادهم، وذلك من قساوة قلوبهم وتبديل أوصافهم؛ لافترائهم على الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يعني: خسروا وأفسدوا استعدادهم الفطري، حتى نزعت الرحمة عن قلوبهم؛ لقسوتهم وتبديل أوصافهم حتى فعلوا ذلك، ﴿سَفَهًا﴾ [الأنعام:140]، وجهلاً.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:140]، يعني: عند عدم فقد قلوبهم وانقطاع الهامات الربَّانية عنها لقسوتها وانسداد مسالكها إلى عالم الغيب وعند ذلك، ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام:140]، في الصورة والحقيقة، أمَّا الصورة: فرزقناهم، وأمَّا الحقيقة: فحرمناهم من كمالات مراتب أهل القرب من المشاهدات والمكاشفات الربَّانية، ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام:140]، يعني: بسبب افترائهم على الله تعالى، فإنهم﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ [الأنعام:140]، بالافتراء عن طريق الحق؛ لفساد استعدادهم في الاهتداء إلى الله، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:140]، إذ افسدوا استعداد الاهتداء؛ فانسد عليهم طريق الثقة بالله، فحملتهم خشية الفقر على قتل الأولاد؛ ولذلك قال أهل التحقيق: من إمارات اليقين وحقائق كثرة العيال على بساط التوكل.

﴿ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ

أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ [الأنعام: 141 - 143].

ثم أخبر بربوبيته عن هويته، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام:141]، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 144]، الإشارة فيها: إن الله تعالى عرَّف ذاته بصفاته، وقال:﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾؛ بساتين في الظاهر كما مرَّ ذكره في المعاني، وبساتين في القلوب، مغروسات وغير مغروسات، كما هي قراءة علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه و ـ فالمغروسات: لمغرسة الله تعالى في أرض القلوب من شجرة الإسلام والإيمان والإحسان، وما يتعلق بصفات الحق تعالى، كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:42]، وغير المغروسات: هي أشجار من صفات الروحانية، التي جبلت القلوب عليها مثل: السخاء والحياء والوفاء والمروة والفتوة والشفقة والعفة والحلم والعلم والعقل والشجاعة والقناعة وأمثالها، فإن بساتين القلوب بها موفقة، وشموس الأسرار منها مشرقة، وأنهار المعارف فيها زاخرة، وأزهار الشواهد عنها زاهرة.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: 141]، يشير إلى: نخل الإيمان، وزرع للأعمال الصالحة، وزيتون الأخلاق الحميدة، ورمان الإخلاص، فإنه مختلف ثمارها متشابه أعمالها غير متشابه أحوالها، ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:141]؛ يعني: انتفعوا من ثمار الإيمان والأعمال والأخلاق والإخلاص بالشواهد، والأحوال بالدَّعاوي، والنيل قبل الإثمار، ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام:141]، حقه دعوة الخلق بالحكمة والموعظة إلى الحق وتربيتهم بالتسليك إليه، ويشير بيوم الحصاد: إلى أوآن بلوغ سلوك السالك مبلغ الرجال البالغين،

عند إدراكه ثمرة الكمال للواصلين، دون السالك الذي يعد متردد بين المنازل والمراحل، فإن اشتغل بالدعوة ينقطع عن الوصول والوصال، والبلوغ إلى الكمال، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام:141]، والإسراف عند القوم: الشروع في الكلام قبل وقته والحرص على الدعوة، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:141]، الموصوفين بهذه الصفات المكورين المنكورين ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام:142]، يشير بها: إلى أن الصفات الحيوانية التي هي مركزة في الإنسان، منها: ما هو مستعد لحمل الأمانة وتكاليف الشرع، ومنها: ما هو مستعد للأكل والشرب لعلاج القالب في قوام البشرية وقوام الإنسانية.

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأنعام:142]، فالرزق لا يتخصص بالمأكولات فحسب، بل هو شائع في جميع ما يحصل به الانتفاع، فالظاهر رزق: وهو النعم، والباطن رزق: وهو الكرم، فرزق القلب: هو التحقيق من حيث البرهان، ورزق السر: هو شهود العرفان بلحظة العيان، فانتفعوا من هذه الأرزاق، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنعام: 142]، في ترك الانتفاع ببعض هذه الأرزاق، ومبالغة الانتفاع ببعضها، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:142]، يخرجكم بالتفريط والإفراط عند حد الاعتدال.

ثم أشار إلى: تلك الصفات المذكورة، وأربعة منها بمثابة الحيوانية، وشرحها بقوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الأنعام:143]، أي: من ثمانية صفات؛ أربعة منها بمثابة الأثاث، يتولد من كل ذكر أو أنثى، منها صفات أخرى ليست واحدة منها موصوفة في محلها، أو محرمة، بل جميعها حميدة مندوب إليها في محلها، إذا كانت محروزة عن طرف الإفراط والتفريط.

ومنها ما أشار إليه، بقوله تعالى: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:143]، يعني: بهما الذكر والأنثى، ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:143]، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾، والضأن والمعز جنس واحد في الفرشية، كما أن الإبل والبقر جنس واحد في الحمولة، فيشير: بالضأن والمعز إلى الصفات البهيمية، وهي أربعة: اثنان منها بمثابة الذكور؛ وهما: صفة شهوة البطن، وشهوة الفرج، واثنين منهما بمثابة الأنثى؛ وهي: صفة حسن الخلق عند الاستمتاع بها، والتسليم عند تحمل الأذى وإصابة الخير منها، ما أشار إليها، بقوله تعالى:

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:143]، أراد الذكر والأنثى، ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143]، أراد الذكر والأنثى، والإبل والبقر من جنس واحد، أراد في الحمولة، فيشير: بالإبل والبقر إلى الصفات الحيوانية، وهي أربعة: اثنان منها بمثابة الذكر؛ وهما: صفتا الظلومية والجهولية، واثنان منها بمثابة الأنثى؛ وهما: الحمولية والاستسلام، فهذه الصفات صار الإنسان حامل أعباء الأمانة التي أبت المكونات عن حملها أشفقن منها، وهي أيضًا حملة عرش القلب، كما أن الملائكة الذين يحملون فوقهم عرش ربك ثمانية، فافهم جيدًا.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ﴾ [الأنعام:143]؛ يعني: من بعد هذه الصفات ﴿حَرَّمَ﴾ [الأنعام:143]، أي: أمر الله فيها، ومحوها وترك استعمالها، كما هو مذهب الفلاسفة في نفي الصفات الحيوانية والبهيمية، ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فيما مر ذكرها ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام:143]، يعني: المتولدة من هذه الصفات الثمانية، عند استعمالها على قانون الشريعة ودعائم دقائق الطريقة في تزكيتها وتثبيتها على صراط مستقيم الاعتدال، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ [الأنعام:143]، معقول، أو منقول، أو منظور، أو مشاهد مكشوف، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:143]، أيها المتفلسفة الضالُّون عن متابعة الأنبياء والأولياء والمرسلين.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:144]، أي: من الذين يدعون الحكمة، ويقولون: قد أغنانا الله تعالى عن متابعة الأنبياء، والأنبياء حكم، ونحن أيضًا حكمًا، ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ [الأنعام:144]، بهذه الشبهة وغيرها من الشبهات، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:144]، أي: حكمة أتاهم الله من فضله، كما أتاها أنبياءه وأولياءه، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:144]، إلى طريق السداد وسبيل الرشاد، وهم في الضلالة دائمون، وعلى ظلم الإضلال قائمون.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ

بِظُلْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾ [الأنعام: 145 - 147].

ثم أخبر عن المحرمات من المطعومات بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام:145]، إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:146]، الإشارة: إنَّ الشارع على الحقيقة هو الله تعالى، وليس للنبي ﷺ أمر في التحليل والتحريم، فقال تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام:145]، يعني: أنا لا أجد إلى تحريم شيء فإني لا أقدر أن أحرمه والذي يدل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ [التحريم:1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام: 145]، أي: أجد هذه الأشياء محرمًا فيها أتى فأحرمها، ويشير به إلى: ميتة الدنيا: فإنها جيفة مستحيلة، كما قال بعضهم: وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب من اجتذابها، فإن تجنبتها كنت سالمًا لأهلها، وإن تجتذبها نازعتك كلابها.

والدم المسفوح: هو الشهوات اللذات التي يهراق عليها دم الدين ولحم الخنزير: هو كل رجس من أعمال الشيطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:90].

وحقيقة الرجس: الاضطراب عن طريق الحق والبعد منه، كما جاء في الخبر لمَّا ولد رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى؛ أي: اضطرب وتحرك حركة سمع لها صوت، فالرجس: ما يبعدك عن الحق، أو فسقًا أهل لغير الله به؛ أي: خروجًا عن طلب الحق في طلب غير الحق، فالشروع في هذه الأشياء محرم؛ لأنها تحرمك عن الله وقربانه.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ [الأنعام:145]؛ يعني: إلى شيء من هذه الأشياء لضرورة الحاجة الإنسانية فيشرع فيه، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [الأنعام:145]؛ يعني: غير طالب له وراغب عن الله سبحانه وتعالى، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ [الأنعام:145]؛ أي: غير متجاوز عن حد طلب الحق، ومتعدٍ عن حد ترك الشاغل عن الله تعالى عاد من الدنيا وغيرها، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ [الأنعام:145]، يغفر الضروريات بمغفرته إذا استغفرته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145]، بك عند الرجوع إليه، يرحمك ويعفو عنك ما اضطرك إليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام:146]، الإشارة: إلى أن يقوم الله تعالى على العباد، وأما إن كان رحمة وعطفة منه عليهم لما علم علم أن فيه ضررًا نفسانيًا أو روحانيًا دفعه بالتحريم عنهم، فالنفساني: كضرر السُّم وأمثاله، والروحاني: كضرر لحوم السباع والمؤذيات وأمثالها، فإنه يتعدي أخلاقها تغير الأخلاق الروحانية، كما قال ﷺ: «الرضاع بغير الطباع»[1]؛ وأما إن كان بلاء ونعمة عليهم ليكون أمرًا عليهم جزاء لبغيهم على ما أمرهم الله بها أو نهاهم عنه، ولهذا نبه الله تعالى هذه الأمة بقوله: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:286] رحمة منه عليهم، دفعا لبلاء الأضرار في الدنيا والآخرة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:21]، العذاب الأدنى؛ يعني: في الدنيا، والعذاب الأكبر؛ يعني: في الآخرة.

ثم أخبر عن سعته ورحمته وسطوه نعمته بقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:147]، إلى قوله تعالى ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:150].

الإشارة فيها: إن ما أنعمنا عليك به وأمرناك أن تتحدث به، فإن كذبوا من قصور عقلهم ودناءة همتهم، فقل ربكم ذو رحمة واسعة تسعى كل شيء من سعتها وهي أوسع، فيما توهمون وتفهمون، أو تظنون وتعلمون، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:147] يعني: في سعته رحمته بأنه شديد وقهره كامل كما أن للطفه ورحمته مظهرًا وهم: المطيعون، كذلك لباسه وقهره مظهرًا وهم: المجرمون المكذبون المعرضون عن طلب الحق في متابعة الأنبياء - عليهم السلام -.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ

(1) ذكره حقي في تفسيره (4/ 71).

يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: 148 - 150].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: 148]، أي: الذين طلبوا مع الله غيره، وعبدوا معه سواه من الدنيا والآخرة، ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]، أي: من مقامات الوصول، وهذه كلمة حق أريد به باطل الكلام في نفس الأمر حق وصدق، إلا أنه ما صدر عن يقين صادق ولا كشف حقيقة، وإنما صدر عن إظهار حجة دفعًا لأذية والبلاء من دون الناس، فكذبهم الله تعالى فيما قالوا: بزعمهم أنهم يقولون: ذلك من علم الله وحقيقة، بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: 148].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]، يعني: فيما تزعمون وتدعون أنه من علم يقولون، وإنما تقولون للحجة، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149]، فيما قدر ودبر وحكم به، وقضي من الأزل إلى الأبد، ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ [الأنعام: 149]، هداهم؛ يعني: في الأزل، ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149]، كما هدى بعضكم دون بعض إظهارًا للقدرة والاختيار، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام: 150]، والشهداء: هي الظنون الكاذبة على أن الله حرم عليكم نيل الدرجات والوصول إلى المقامات.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: 150]، أي: فلا تشهد بالظن في شيء من الأمور إلا بالوحي والكشف واليقين، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: 150]، وتشهد بالظن كما يشهد أهل الأهواء، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 150] فيشركون به، ويعبدون الدنيا ويتبعون الهوى ويظنون بالله ظن السوء.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 151 - 153].

ثم أخبر عن المحرمات على البنين والبنات بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:151] إلى قوله ﴿تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153].

الإشارة فيها إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ دآل على أن المحرم والمحل هو الله تعالى، وليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لك، فإن النبي ﷺ هو المبلغ والمبين ما أحل الله وما حرمه.

ثم اعلم أن هذه الآيات لتشتمل على عشر خصال جامعة للخير كله:

أولها: ألَّا تشركوا به شيئًا قدم الشرك؛ فإنه رأس المحرمات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:48]، فإنه لا يقبل معه شيئًا من الطاعات، وهو ينقسم إلى جلي وخفي؛ فالجلي: عبادة الأصنام ومتابعة الهوى في الأنام، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43]، والخفي: ملاحظة الأنام بعين استحكام الإعظام ورؤية الأغيار مع الله الواحد القهار.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:151]، وإنها ذكر بعد تحريم الشرك تحريم العقوق والأمر بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجوده ومظهره، كما أن الله تعالى موجد وجوده ومبدعه ومبدئه فحرم عقوقهما بعد تحريم الشرك به، وأوجب الإحسان إليهما بعد القيام بعبادته، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:23]، إقامة لحقوقهما بعد الإقامة لحقوق الله تعالى، فالتقاعد عن أداء حقوقهما عقوق فهو أكبر الكبائر.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:151]، ثم حرم قتل الأولاد بعد تحريم العقوق؛ لما فيه من هدم بنيان الله تعالى، وملعون من هدم بنيانه، وفيه إبطال ثمرة، وشجرة وجوده، وقطع نسله، وفيه خشية

إملاق؛ وهي ترك التوكل على الله وعدم الثقة بالله إن يرزقهم وذلك يؤدي إلى تكذيب الله تعالى؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، ثم الفواحش جميعها، وقد يدخل في ذلك جميع أقسام الآثام ما ظهر منها: وهو ما يبعده من الجنة ويدينه، وباطن منها: وهو ما يبعده عن الحق ويحجبه عنه، وإن لم يحجبه عن الجنة ولم يبعده منها، وأيضًا ما ظهر منها بالفعل، وما بطن بالنية.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151]، ثم حرَّم القتل إلا بالحق؛ أي: وإلا في طلب الحق، فإن المقتول في سبيل الله هو حي عند ربه، وفي قتل ترك تعظيم أمر الحق وترك الشفقة على الخلق وهما ملاك الدين ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:151]، يعني: هذه الخمسة المحرمة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:151]، لكي تعرفوا موجبات الانقطاع عن الله تعالى فتحرزوا عنها.

وسادسها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:152]، والأشدة: الصلاح، والفقه؛ يعني: يتفقه في الصلاح للدين لا في إفساد الدنيا، ثم حرَّم المال بعد تحريم قتل النفس؛ لأن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقدم مال اليتيم؛ لأنه عاجز عن حفظ ماله، فإن الله تولاه، ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْـمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام:152]، وفيه معنيان: أمره وحي الخلق بالاجتناب عن ماله وبالشفقة والنظر في حقه.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْـمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وفيه معنيان:

أحدهما: تحريم الطمع في مال المسلم بنقصان الكيل والوزن عند الوفاء وأناه بزيادتها عند الاستيفاء.

والثاني: أوفوا الكيل وميزان الشرع بحقوق الربوبية، واستوفوا بكيل الاجتهاد وميزان الاقتصاد وحظوظ العبودية من الألوهية، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ [الأنعام:152] في إبقاء الحقوق واستيفاء الحظوظ، ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:152] إلا بحسب استعدادها.

وثامنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:152] ثم حرَّم الظلم والجور والميل في الفعل المقال، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:152] أي: ولو كان المسلم على

الكافر والكافر على المسلم وحقيقته العدل في الكلام أن ما يذكر الله تعالى ولا يذكر معه غيره، وأن يتكلم لله وفي الله وبالله.

وتاسعها: قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام:152] ثم حرَّم نقض العهد مع الله وأمر بالوفاء بعهده عليه، وهو ألَّا يعبد إلا مولاه ولا يحب إلا إياه ولا يرى سواه، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:152] يعني: هذه المحرمة الأخرى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:152]؛ لكي تذكروا أيام الوصال في حضرة الجلال ومشاهدة ذلك الجمال:

أيامًا قضت بذي القضاء ... سقاهن رجاف العشي بطول

إذا العيش غض والشباب بهائه ... وفي حدثان الدهر عنك غفول

ونحن بربع إن تطأه ثوابت ... ولا استجيب للهم فيه ذبول

وعاشرها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:153] ثم حرَّم إتباع كل سبيل الله، وأمر باتباع طريق محمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ أي: ذكرنا من الخصال العشر، ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ يعني: إلى الله تعالى وهو صراط محمد ﷺ، واختص هذه الأمة باتباع صراط إلى الله تعالى.

ثم قال ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:153] أي: بمتابعته وصيتكم في السير إلى الله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:153] بالله وتحترزون عن غير الله.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الأنعام:[154 – 158].

ثم أخبر عن ثلاثة غير هذه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:154] يشير إلى حال نبينا ﷺ من وجهين:

أحدهما: إنه تعالى لمَّا ذكر الخصال العشر وخصَّ بها النبي ﷺ وهذه الأمة وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ [الأنعام:154]، ثم أخبر منك يا محمد أن آتينا موسى الكتاب قبلك تمامًا على الذي أحسن؛ يعني: إتمامًا لدينك على من أسلم من أمتك إسلامه، فإن الكتب المنزلة كلها وشرائع الأنبياء - عليهم السلام - كانت تتمه للدين الحنفي الذي هو الإسلام، وهو الدين المرضي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19]، وبهذا السر أمر النبي ﷺ بإتباع الأنبياء والاقتداء بهم، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام:90] للجمع بين هداه وهداهم إتمامًا للدين وتكميلاً له فلم تم هداه بالقرآن، وتم اقتداه بهداهم قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3].

والوجه الثاني: إن الذي أحسن هو النبي ﷺ ومعنى الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فأراد بالذي أحسن النبي ﷺ؛ لأنه كان مخصوصًا من بين الأنبياء - عليهم السلام - بالرؤية؛ ولهذا السر قد سمّاه الله تعالى محسنًا بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:125]، فالمعنى: آتينا موسى الكتاب تمامًا على محمدًا؛ أي: لتكميله في النبوة والرسالة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:120]، ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 154] أي: وبيانًا وشرحًا لدينه.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ على أمته، ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:154] ؛ أي: لكي يؤمنوا هذه الأمة برؤية ربهم فهم مخصوصون بهذه الكرامة كما خص نبيهم بها فيتشمروا عن ساق الجد في طلبها ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنعام:155]، أي: أنزلناه أيضًا لإتمام نبوتك ودينك، ﴿مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:155] أي: فاعتصموا به، ﴿وَاتَّقُوا﴾ [الأنعام:155] عن غير الله بالله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:155] فتحوجون عن الوجود المجازي وتصلون إلى الوجود الحقيقي بنور القرآن، ﴿أَنْ تَقُولُوا

إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام:156]، أي: فاحترزوا ﴿أَن تَقُولُوا﴾ إذا لم تنتفعوا بالقرآن: ﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾ [الأنعام:156] أي: لئلا تقولوا، ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام:157] أي: في السير إلى الله.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ [الأنعام:157]، يعني: في هذا القرآن، ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 157] ما بين لكم طريق السير إلى الله والوصول، ﴿وَهُدًى﴾ [الأنعام:157] وما يهديكم إلى الله أتم وأكمل مما جاءهم في الكتابين؛ لأنه ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59]، وإحدى بركة القرآن كل ما في الكتب المنزلة من أسباب الهداية إلى الله تعالى مندرج في القرآن منفرد بكثير منها، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام:157] أي: قد جاءكم محمد ﷺ وهو رحمة مهداة ليوصلكم إلى الله، فإن لكم فيه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:21]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [الأنعام:157] يعني: بالقرآن وبمحمد ﷺ، ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام:157] والفرقة والقطيعة، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157] يعرضون عنها عن هدايتنا.

ثم أخبر عن انتظار أهل الإنكار بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْـمَلَائِكَةُ﴾ [الأنعام:158] الإشارة فيها: أن القوم بعد بعثه النبي ﷺ الذي هو صورة الهداية من الله، وبعد نزول الكتاب المبارك الذي هو المعتصم للوصول إلى الله تعالى في متابعة النبي ﷺ، هل ينظرا ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنعام:158]، أي: ينتظرون، ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنعام:158] عيانًا وتسوقهم إلى الله قهرًا وقهرًا، إذ هم لم يعتصموا بالقرآن، ولم يتبعوا النبي، ولم يهتد بهدايته، ولم يتسلكوا بتسليكه.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:158]، يعني: إذ لم يأتوا إليه في متابعتك يأتي ربهم إليهم ويقطع مسافة البعد والحجب لهم، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:158] فيكشف الغطاء يوم، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:158] اللقاء، وبعد كشف الغطاء، ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158] وذلك؛ لأن الله تعالى جعل نفس الإنسان وقلبه أرضًا صالحة لقبول بذر الإيمان

وإنباته وتربيته، كما قال ﷺ: «لا إله إلا الله ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقلة»[1] فالبذر: هو قول المرء أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله عند تصديق القلب بشهادة اللسان، وإنما كان زمان هذه الزراعة زمان الدنيا لا زمان الآخرة، ولهذا قال ﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة»[2] يوم يأتي بعض آياته ربك لا ينفع نفسًا في زمان الآخرة بذر إيمانها لم تكن آمنت أي: بذرت من قبل في زمان الدنيا، أو كسبت في إيمانها خيرًا من الأعمال الصالحة التي ترفع الكلمات الطيبة وهي: لا إله إلا الله، وتجعلها شجرة طيبة مثمرة تؤتي أكلها حين بإذن ربها من ثمار المعرفة والمحبة والكشف والمشاهدة والوصول والوصال ونيل الكمال، ﴿قُلِ انتَظِرُوا﴾ [الأنعام:158] أيها المنتظرون للمستحيلات، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:158] للميعاد في المعاد بما وعدناهم من العذاب والعقاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 159 - 163].

ثم أخبر عن مضار في الدين المتين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: 159] والإشارة فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾، أي: دينهم الذي ارتضى لهم الله تبارك وتعالى هو الدين الحقيقي الذي فيه كمالية الإنسان، وتمامية نعمة الحق تعالى وهو الفوز العظيم بنور الله التام، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف:8] فارقوا بقلوبهم، وإن كانوا متمسكين ببعض سعادة بظواهرهم رياء وسمعة أو خوفًا وطمعًا، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام:159]، أي: صاروا هؤلاء الفارقون المارقون فرقًا مختلفة، فرقة منهم أهل الأهواء والبدع من المذاهب المختلفة: كالمعتزلة والنجارية والمعطلة نافية الصفات والمشبهة والجسمية والمرجئة والجبرية والقدرية والروافض والخوارج

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 82).

(2) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (1/ 118)، والعجلوني في كشف الخفاء (1/ 412).

وأمثالهم ممن يزعم أنه من أهل الإسلام، وفرقة منهم أهل الدعاوي من غير المعاني كبعض المتزهدين بالرياء، والمتصوفين بغير الصفاء، والعارفين الجاهلين المكذبين العادين عن المعرفة منهم: القلندرية والجوالقية(1) وأكثر من يدَّعي الفقر وما شمَّ رائحته، وكبعض الغافلين البطالين والعلماء بالسوء الذين يأكلون الدنيا بالدين وهم [بأبدانهم] في طلب العلم وحرفة الجاه والقبول وجمع المال والمفاخرة والمباهاة والشهرة وأخذ المناصب للمكاسب، فإنهم يدَّعون من خواص أهل الإسلام ويظهرون شعائر الصالحين ويضمرون دثار الصالحين.

ومنهم فرقة خلعوا من ربقة الإسلام بالكلية وخرقوا من الدين خروق السَّهم من الرمية، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم: كالمتفلسفة والدهرية والطبائعية والحشوية والزنادقة والإباحية والمباركية والإسماعيلية والأباضية والحرورية وطوائف، فإن فيهم كثرة وليس أحد منهم على دين الإسلام، ولكن يخرطون في مسلكهم، وكانوا يتملكوا بملكهم، فهؤلاء أقوام اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم وأديانهم مجتمعين جهرًا بجهر متفرقين شبرًا بشبر.

قال الله تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:159]، ولا يجمعك وإياهم معنى شقك شق الحقائق وشقهم شق البواطل، ولا اجتماع للضدين، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ [الأنعام:159]، أي: في بدء الأمر في الخلقة في قسم الاستعداد على ما شاء كما شاء، وفي الحال بالتوفيق والخذلان وفي المآل بالمكافآت والمجازات، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ [الأنعام:159]، عند المكافآت يوم المجازات، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:159]، في الدنيا، إذا كانوا يشترون الحياة الدنيا بالآخرة، ولا ينبئهم عما فعله في البداية من التدبير والتقدير.

ثم أخبر عن مجازات الحسنات والسيئات بقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:160]، والإشارة فيها: إن الله تبارك وتعالى من كمال إحسانه مع العبد

---

(1) قال الشيخ حقي: هم الذين يحلقون لحاهم ويلبسون الجوالق والكساء الغليظ، وقد نهى النبي عليه السلام عن لباس الشهرة سواء كان من جنس الرقيق أو الغليظ لأنه اشتهار بذلك وامتياز به عن المسلمين وقد قال عليه السلام «كن كواحد من الناس» ولا ينفع الجوالق والكساء اذا كان المرء صاحب الرياء. [تفسير حقي (4/ 87)].

أحسن إليه بعشر حسنات قبل أن يعمل العبد حسنة واحدة، فقال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:160]، يعني: قبل أن يجيء بحسنة أحسنت إليه بعشر حسنات؛ حتى يقدر أن يجيء بالحسنة، وهي: حسنة الإيجاد من العدم، وحسنة الاستعداد بأن خلقه في أحسن تقويم مستعدًا للإحسان، وحسنه التربية، وحسنة الرزق ببعثة الرسل، وحسنة إنزال الكتب، وحسنة تبيين الحسنات والسيئات، وحسنة التوفيق، وحسنة الإخلاص في الإحسان، وحسنة قبول الحسنات.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:160]، والسر فيه: إن السيئة بذر يذرع في أرض النفس والنفس خبيثة؛ لأنها أمَّارة بالسوء، والحسنة بذر يذرع في أرض القلب والقلب طيِّب؛ لأنه يذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، وقد قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:58]، وأمَّا ما جاء في القرآن والحديث من تفاوت الجزاء للحسنات فاعلم أنه كما للأعداد أربع مراتب: آحاد وعشرات ومئات وألوف، والواحد في مرتبة الآحاد واحد، وفي مرتبة العشرات عشرة، وفي مرتبة المئات مائة، وفي مرتبة الألوف ألف، فكذلك للإنسان أربع مراتب: النفس، والقلب، والروح، والسر، فالعمل الواحد في مرتبة النفس يكون واحد بعينه، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:40]، إذ هي بمرتبة الآحاد، وفي مرتبة القلب يكون بعشر أمثالها؛ لأنه بمرتبة العشرات، وفي مرتبة الروح يكون بمائة؛ لأنه بمرتبة المئات، وفي مرتبة السر يكون بألف إلى أضعاف كثيرة بقدر صفاء السر وخلوص النية إلى ما لا يتناهى؛ لأنه منزلة الألوف، والله اعلم.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:160]، المعنى: إن الله تعالى قد أحسن إليهم قبل أن يحسنوا بعشر حسنات شاملات للحسنات الكثيرة، فلا يظلمهم بعد أن أحسنوا، بل يضاعف حسناتهم يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:40].

ثم أخبر عن الصراط المستقيم وأنه هو الدين القيم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:161]، الإشارة فيها: إن الإنسان لمَّا فارق غيب الغيب، وإن شاءته القدرة في عالم الأرواح فقد الحق عند وجدان الوجود، فلما أراد إلى أسفل

سافلين القالب ضل عن سواء السبيل إلى أن أدركته العناية وساقته الهداية بجذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28]، فيهديه ربه من تيه الضلالة والغواية إلى صراط مستقيم الدين القويم، كما قال تعالى لنبيه وحبيبه ﷺ: قل: يعني؛ أخبر الخلق أحوالك؛ ليعرفوك فيتبعوك عليه، أي؛ هداني بعد أن وجدني ضالاً عنه في تيه البشرية إلى صراط مستقيم إليه، دل عليه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:7]، واعني بالصراط المستقيم: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام:161]، مبنيًا على قرآن عجب يهدي إلى الرشد عند التمسك بحبله يوصل العبد إلى ربه.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام:161]، أي: ذاهب إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:161]، الذين يطلبون مع الله شيئًا آخر ويطلبون منه غيره، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:162]، أي: سيرى على منهاج الصلاة؛ وهي معراج إلى الله وذبيحة نفسي لله، ﴿وَمَحْيَايَ﴾ [الأنعام:162]، أي: حياة قلبي وروحي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام:162] أي: موت نفسي، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162]، لطلب الحق تعالى والوصول إليه، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:163]، في الطلب من مطلوب سواه، ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:163]، أي: ليس هذا الطلب والقصد إلى الله من نظري وعقلي وطبعي؛ إنما هو من فضل الله ورحمته وهدايته وكمال عنايته إذ أوحى إلي وقال: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:91].

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:163]، يعني: أنا أول من استسلم عند الإيجاد لأمركن، وعند قبول فيض المحبة بقوله: [يحبهم]، والاستسلام للمحبة في قوله: [يحبونه]، دل عليه قوله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري»(1).

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ

(1) تقدم تخريجه، وانظر الكلام على معناه أول سورة النساء.

وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 164 – 165].

ثم أخبر عن بقيته ﷺ: إنه هو الله غير خلقته بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:164] الإشارة فيها: إن النبي ﷺ كان غاية منتهاه، ونهاية قصده الله رب العالمين، حتى قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:164]، أي: كيف أطلب غير الله وهو حبيبي، والمحب لا يطلب إلا الحبيب، وكل شيء طلب دونه فهو رب ذلك الشيء ومالكه، فإذا كان هو لي يكون ما له لي، وإن قبلت غيره لم أجده، وكل خير وجدته [غيره] يكون عليَّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:164]، يعني: إن النفس إنما تكسب بأمر هواها،﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53]، ولهذا كان من دعائه ﷺ:[لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك].

واعلم أن النفس مأمورة بالسَّير إلى الله بقدم العبودية والأعمال الصالحات بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27ـ 28]، وإن اطمئنانها بالطبع إلى الدنيا وزخارفها مخالف لأمر الله تعالى وهو وزرها وسيرها إلى الدَّركات السفلى، فلا يمكن لغيرها أن يحمل قدرها، وإنَّ القلب إذا كان سليمًا من كدورات صفات النفس باقيًا على ما جبل عليه من حب الله تعالى وطلبه مزينًا بنور الإيمان وحبه لا يؤخذ بمعاملة النفس وزرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:164]، والنفس مأخوذة بوزرها معًا معاقبة بما هي أهله ولا يتألم القلب بعذابها، وإن كان القلب منقلب الحال وأزاغه الحق تعالى بإصبع القهر إلى محاذاة النفس فينطبع مرآة القلب بصفات النفس وأخلاقها، فيتبع النفس وهواها فيزول بطبع الشهوات ولذاتها، ويكسب الإثم والوزر بترك ما هو مأمور به من؛ الطهارة والصفاء والسلامة والذكر والفكر والتوحيد لله تعالى والإيمان به والتوكل عليه والصدق والإخلاص في القلب والعبودية، وغير ذلك من أعمال القلب فيكون مأخوذًا بوزره لا بوزر غيره، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14].

ثم عرَّف الله تعالى نفسه الخلق بتعريفهم أنفسهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:165]، أي: جعل واحد من بني آدم ابن وقته وخليفة ربه في

الأرض، وسر خلافته؛ أن صوره على صورة صفات نفسه حيًا قيومًا سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا متكلمًا، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام:165]، في الخلافة واستعدادها، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام:165]، من صفاته واستعداد الخلافة؛ ليظهر من تخلق بأخلاقه منكم القائم به وبأوامره في العباد والبلاد، ومن الذي رجع قهري إلى صفات البهائم والأنعام وأبطل الاستعداد للخلافة فيكون من زمرة أولئك، ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:44].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأنعام:165]، يعني: مربيك يا محمد الذي بلغك أقصى مراتب الخلافة سريع العقاب لمبطلي استعداد الخلافة ومضيعي صفات الحق بتبديلها بصفات الحيوانات، بأن، ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:7]، وجعلهم، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:18]، إلى مكان من الغيب الذين خرجوا منه، وهم محبوسون في سجن أسفل سافلين وفي حبس، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:7].

﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ [الأنعام: 165]، لمن تاب عن متابعة النفس والهوى ومخالفة الحق والهدى وآمن وعمل صالحًا للخلافة، ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:165]، بمن رحمه ووفقه لمرضاته ويرفع درجاته.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

فهرس المحتويات

AL-TAʾWĪLĀT AL-NAJMIYYAH

by

Najmuddīn al-Kubrā

Followed by

ʿAYN AL-ḤAYĀT

by

ʿAlāʾuddawlah al-Simnāni

Edited by

Aḥmad Farīd al-Mizyadi

Volume II

